شرح

أسماء الله الحسنى

تأليف

الإمام العارف بالله تعالى

أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن برجان اللخمي الإشبيلي

المتوفى ٥٣٦ هـ

تقديم

الدكتور أحمد شفيق

دكتوراه في الأدب الإسباني من جامعة أوبيدو (إسبانيا)

وباحث في التصوف الإسلامي

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني



شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

الإمام العارف بالله تعالى
أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تقديم

الدكتور أحمد شفيق
دكتوراه في الأدب الإسباني من جامعة أوبيدو (إسبانيا)
وباحث في التصوف الإسلامي

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

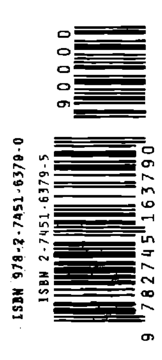
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	: **Explanation Allah's most beautiful names**	شرح أسماء الله الحسنى :	الكتاب
Classification:	Monotheism	: توحيد	التصنيف
Author	: Ibn barrajān al-ʾIšbīli	: ابن برّجان الإشبيلي	المؤلف
Editor	: Aḥmad Farīd al-Mizyadi	: أحمد فريد المزيدي	المحقق
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	: دار الكتب العلميـــة - بيروت	الناشر
Pages	: 800 (2 volumes)	: 800 (جزءان)	عدد الصفحات
Size	: 17*24	: 17*24	قياس الصفحات
Year	: 2010	: 2010	سنة الطباعة
Printed in	: Lebanon	: لبنـــان	بلد الطباعة
Edition	: 1st	: الأولى	الطبعة



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيدنا محمد ﷺ

اسمه تعالى الشهيد سبحانه وله الحمد

الشهادة: صفة يسمى حاملها بالشهد ويبالغ فيه بشهيد، كما يعبر عنه بالعلم والخبر وغير ذلك من الصفات التي تسمى المتصف بها، وهذا المعنى المشار إليه في المخلوق المتصف به لا يسمى من حيث هو باسم دون اسم ولا بوصف، وإنما يوصف بمعارفه، ويسمى بمعالمه ومواقع أفعاله، ومن حيث حصول الفائدة له وللشهادة ثلاثة شروط لا تتم إلا بتمامها، وهي: الحضور والوعي والأداء.

* **أمَّا الحضور:** فهو شهود الشاهد المشهود، وكون المشهود مدركًا للشاهد مع اجتماع صفاته؛ لإدراك المشهود هنالك.

* **وأمَّا الوعي:** فهو ما شاهده وعلمه في شهوده ذلك.

*__وأمَّا الأداء:__ فهو الإتيان بالشهادة على وجهها في موضع الحاجة إلى ذلك.

وحروف اسم الشهيد بأطباعها تدل على ما تقدم ذكره، فالشين: منها حرف فيه شدَّة وهو يدل على اجتماع، وفيه أيضًا: رخاوة للتفشي الذي فيه، وهي أيضًا تدل على الأداء، والهاء والياء: جوفيان هوائيان ذاتيان؛ لخروجهما عن الصدر:

أحدهما: يدل على ذات غائب.

والآخر: يدل على ذات حاضر، والدال: محكمة الشدة، وذلك يدل على الجمع والوعي مع ما تقدم من دلائل إخواتها، غير إن الشدّة تدل على إلزام، فأجمع في هذه الكلمة اجتماع ما غاب من الذات إلى ما حضر منها وألزم، والوعي لما اجتمع له وأداء

ما وعاه وشاهده.

والشهادة إذا حضور ذات الشاهد المشهود ووعيه لما شاهده منه وذمّه إياه، واجتماع حقيقة المشهود في حقيقة الشاهد، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء:33]، وقال ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا * وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا * وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ [المدثر:11-13] أي: مجتمعين حضورًا، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:37].

الاعتبار

اعلم أن كل ما ظهر من الحواس فإنما هي أمثلة لصفات باطنة متوسطة بين الحواس الظاهرة وبين الباطن من العبد، فتؤدي ظواهرها شهادة ما شاهدت به إليه؛ أعني: إلى ما بطن عن تلك الوسائط وهو المشار إليه وهو العبد المشاهد المؤدي إليه، فيعقلها العقل ويزمها في لوح القلب منسوبة عنده نسبة علم إلى طرفها التي جاءت عنها، فعند التذكار أو الحاجة عند أداء الشهادة من الظاهر في مظان أداء الشهادات يرتب خروجها إلى الظاهر للأداء على مدرجتها عند انقضاء الباطن لها للزوم الوعي وتلك.

فاعلم شهادة أولي العلم الذين وصلوا بشهادتهم ما أمر الله به أن يوصل ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:86] قال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18] أي: شهد الله قائمًا بالقسط في شهادته أنه: لا إله إلا هو وشهدت له بذلك ملائكته وأولوا العلم من عباده، وكرر الشهادة وهو أعلم - جل ذكره - بمراده اختصاصًا بالشهادة الأولى، وفرق بين شهادته وشهادتهم؛ إذ شهادة العباد لا تقوم لحقيقة شهادته ولا يحيطون منها إلا بما شاء، وعلى قدر حظوظهم المقسومة لهم منها ومقاماتهم في علمها وحضورهم في حين الأداء لها ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام:19] أو يكون تكراره لما تضمنه القيام من معنى الدوام، فإن القائم قد يكون بمعنى الدائم، وقد يكون بمعنى العدل وإعطاء القسط، فتكرار الشهادة على هذا

إشعار بتكثيرها وتعريض بالحض على مداومتها، أو يكون المعنيان معًا، فالله أعلم.

فبين إذا بما قدمناه أن المشاهدة هي: حضور الشاهد واجتماعه ظاهرًا وباطنًا حيث المشاهد وحضور حقيقة المشهود به في حقيقة ذات المشاهد، وفي مثل ذلك قال القائل:

عِلْمُ التَّحَقُّقِ عَلْمٌ لَيْسَ يَعْلَمُهُ ... إلاَّ أَخُو ثِقَةٍ بِالعَلْمِ مَوْصُوفُ

وَكَيْفَ يَعْلَمُ عَلْمًا لَيْسَ يَشْهَدُهُ؟! ... أَمْ كَيْفَ يُبْصِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْفُوْفُ؟!

وشهادته - جل ذكره - أصل الشهادات ومنبعثها، شهد سبحانه لنفسه بما هو له أهل، وشهد لملائكته ورسله وكتبه بحقيقة ما هو عليه، وشهد لجميع الخليقة بما لها وعليها، شهادة مشاهدة وحضور يرى ويسمع ويعلم بصفات محيطة لا يغادر باطنًا ولا ظاهرًا من المشهود إلا شهادة، ثم أفاض من مصداق شهادته على الشاهدين سواه سبحانه وله الحمد، فعم جميع الخلائق بذلك عمومًا شاملاً فشهدت له بما هو أهله وعلى أنفسها بما لزمها وما هي عليه، فكل شي له شاهد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ:47] شهادة حق بألسنة صدق، فمن شاهد بحال ومقال، ومن شهد بحال حجته عن الإقرار أو مسترقيه المقال إلى يوم الأداء والسؤال، قال رسول الله ﷺ: «**لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر**»، وفي أخرى: «**ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**»[1]. فالرسل شهداء على أممهم، والحفظة شهود على ما شاهدوه ولزموه من أعمال العباد، والملائكة يشهدون لربهم، وللعباد، وعليهم، والجن، والإنس، وجميع الحيوان، والنبات، والجماد، والهواء، وبالجملة، فكما شاهد - عزّ جلاله - كل شيء وشهد له وعليه، كذلك شهد له كل شيء وشهد لشهادته بما شاهده ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:166].

شَهِدَ العَالِمُونَ أَنَّكَ رَبٌّ ... كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ أَدَلُّ شَهِيدِ

وَرَاءَ العَالِمُونَ بَالعَلْمِ هَذَا ... ثُمَّ قَالَ الأَتْبَاعُ بَالتَّقْلِيْدِ

وأما أداء الشهادة: فالشهيد الحق - جلّ ذكره - يؤدي شهادته لنفسه عند نفسه - سبحانه جل وعلا - وفي اليوم المشهود وعلى قدر المشهود لهم وعليهم في قربهم منه

(1) تقدم تخريجه.

حظوتهم لديه، فعنهم من يكون ذلك منه عرضًا، ومنهم: من يكون ذلك منه إنباءً وتوبيخًا وتقريرًا، وعلى قدر منازلهم عنده وأثرتهم لديه وجميع الشاهدين سواء يؤدون شهادتهم عنده ثم عند خلفائهم من عباده الذين من أجلهم أقام شواهده ونصب دلائله وهم أولوا الألباب والعقول، ثم الناس في تلقي الشهادات عن الشهداء على مراتب شتى، فالكافرون منهم صم عن سماع لأداء الشهادات؛ لعدم الحياة الدينية عندهم التي بصفاتها يتلقون شهادة الشاهدين ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:21] وعموم المؤمنين غافلون أكثرهم عنها معرضون لا يكاد يجيز أحدهم من الشهادات إلا شهادة الألسن عنها معتقدهم وعليها يعتمدون، وهو طريق مبلغ إن شاء الله تعالى برحمته.

شهادة الأحوال في حق هؤلاء غيب، وفي حق العارفين شهادة الأحوال إعلام، وهي في حق العاملين شهادة، أولئك هم الراسخون في العلم بالله ﷻ وخلفاؤه في أرضه، والعالمون بالله تعالى أيضًا متفاوتون في رتبهم، وشهداء الأحوال والأقوال كذلك في حظهم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76].

وأما الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم تكشف لهم علوم هي أرفع جدًّا من هذه، وأفصح أولئك الذين يكلمهم الجوامد والصوامت مشافهةً، وشهادة الشواهد في حقهم صراخًا يناجيهم الحق سرًّا وجهرًا والملائكة تتنزل عليهم بالأمر أيقاظًا ونيامًا.

ثم اعلم أن شهادة الزور نقيض شهادة الحق، وهو معنا يميل صفة الشهادة عند الأداء عن حقيقة حال المشاهدة إلى الكذب والزور، وهو الميل عن الاعتدال والسواء منه، يقال: رجل أزور إذا كان أحد شقيه مائلاً، فالزور إذًا هو الميل عن العدل إلى الجور والظلم، والمائل شهادته عن حقيقة حال المشاهدة هو الكاذب، والشاهد بالزور لميله عن الحق إلى الباطل، وعن الصدق إلى الكذب، وعن العدل إلى الجور، وأعظم الكذب وأقبح الزور الشهادة على الله ﷻ بما ليس به سبحانه وتعالى؛ لأنه كذب شمل بباطله كل كذب، وعمَّ بزور شهادته كل جور وظلم من حيث كان كذبًا على الله - جل ذكره - فيتناول عموم كذبه كل موجود في السماوات والأرض ما كان أو هو كائن؛ لأن قولها على الله ما لم تقل، وشهد عليها ولها بما لم تشهد به، فنفاها بذلك من وليها وقيمها ونفى النعم التي منه عليها ونسب جميع ذلك إلى غير الذي هو له منه، وكذلك

نفي إقرارها بعبوديته وغطّى على تسبيحها له بحمده وكفر قنوتها له ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [الروم:26] فملأت هذه الشهادة أقطار العوالم ظلمًا وزورًا وفجرًا وكذبًا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:5]، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:19].

وأمّا من أدرك علم الجمل من علم التوحيد فقد ضرب في العلم بنصيب، وشهادة هذا الشاهد إذا أظهرها بلسانه عبارة عمّا استقر من العلم في قلبه شهادة حق وأداء صدق، فأما إذا أدرك اليقين وشهد بحقيقة ما شاهده ببصيرة عقل شهادة تثبت واستبصار، فذلك الذي قوي على التفصيل بفضل الله ويرجى له الدخول في خاصة الله - جل ذكره - وهم الشهداء والأشهاد من أهل العلم والعدالة الذين رفع الله ﷻ شهادتهم إلى أن أقرنها بشهادته العليا في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18] وهم الأشهاد يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:69].

ويقول: الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم سبحانه وله الحمد جعلهم بينه وبين عباده، ورضي قيامهم له بحجته في الدنيا والآخرة؛ لعلمهم بعدلها وقسطها علم استبصار ويقين مشهود، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86] فشهادة الحق لاسيما شهادة القلوب بحقائق الإيمان تملأ السماوات والأرض عدلاً وبرًا وقسطًا وصدقًا؛ لأنه إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:1] فقد شهد عن الله أكبر الشاهدينﷻ، وعن الخلائق كلها بالحق، وشهد على الخلائق كلها أنها مربوبة مملوكة، وأن الله وحده هو ربها وقيمها وولي نعمتها لا منعم عليها ولا قادر ولا مالك على الحقيقة لها سواه، فصدق عليها كلها وصدقها بقولها وصدقها في شهادتها وصدقته هي بأجمعها.

فالعالم كله أعلاه وأسفله وباطنه وظاهره يهتز لشهادة المؤمن وتشهد له بالحق

والصدق، ويشهد على الكافر بالجور والظلم والكذب والله أكبر الشاهدين، قال الله جل قوله في معنى ما تقدم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: 88-91].

وبحسب سبل القبول تهتز الموجودات سرورًا وتصدق الشواهد قبولاً وتعديلاً، وفي القرآن والحديث من الشواهد على ذلك كثير، وإذا ثبت ما قدمنا بما به بينا فالمؤمنون كلهم شهداء لشهادتهم بالحق الذي ثبت في قلوبهم وعبرت عنه ألسنتهم، يتفاضلون في منازل الشهادة على مقادير رتبهم في محال اليقين، ويتحققون فيها على قدر تحققهم بحقائقها حتى تصعد بهم رتبهم إلى حيث أهلها الشهيد الحق: ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:27] أن جعلها تلوًا لشهادته العليا، فإذا كان المؤمنين شهداء فهم إذا أحياء في دار البرزخ لحياتهم بالإيمان، ويتفاضلون أيضًا في صفة الحياة على قدر تفاضلهم في صفات الإيمان واليقين، وقد قيل: إن هذه المشاهدة، أعني: شهادة العلم واليقين والمعرفة هي الشهادة على الحقيقة، وإن كل شهادة في فرع لها وهي لها أصل، فالله أعلم.

وإن النظر ليعضد هذا القول، والشواهد يشهد له إنما الإنسان مجبول على الغفلة وكذلك المؤمن، فمتى ذكّر ذكر، وإن أحدث نية عمل يبذل فيها نفسه وما له كالشهيد في سبيل الله، ووافق ذلك تمام ما نواه تمت له الشهادة بفضل ربه، والعالم بالله - جل ذكره - العارف به الموقن من أكثر المؤمنين ذكرًا، وأحضرهم عقلاً في مسالك معالم ربه ﷻ، وأقلهم نسيانًا له لما عود من كريم مشاهدته وبما أراه من آثاره في كل مصنع له وعلى كل حال بكثرة الدعاء والمذكرين له على اختلافها في جميع المناظر المطالع وخطرات الخواطر من خزائن غيب علام الغيوب إلى لوح قلبه الموجود في عالم الشهادة المستمد من عالم الغيب، فهو إذًا مشاهد لأرفع الشهادة ذاكر بأكرم الذكر، فإن احترمه سبب قاطع للحياة في غالب الأحوال فهو ذلك، وإن عري من ذلك فماتت ميتته كان على الشهادة العليا، وفيه يقول - عزّ من قائل - : «**ما ترددت في شيء ترددي**

في موت مؤمن لا يحب الموت»[1]، وكذلك النبي لا يموت حتى يخير في أن يموت أو يبقى فيرضى بالموت فيموت.

وإنما نصب الدلائل - جلّ ذكره - وصنع المصانع، ورفع ما رفع، ووضع ما وضع، وأوجد الموجودات، واستشهد بالشواهد لهؤلاء فقد شهدوا بها شهادة قيمة، والموت ظاهره قطع لشهادتهم تلك وتعطيل لأعمالهم له بطاعته، فهذا من معنى التردد المذكور، والله أعلم.

لكنهﷻ كتب: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ**﴾ [الرحمن:185] إبانة لصفة البقاء واختصاصًا بصفة ملك لا يموت، فهو يرضيهم ﷻ بأن يجري لهم أعمالهم وآثارهم التي قدمها ويشهدهم الملكوت وهو خير لهم ولهؤلاء والله أعلم هم المعنيون، يقول رسول الله ﷺ: «**أرواح المؤمنين**»[2]، وفي أخرى: «**أرواح الشهداء في قناديل معلقة بساق العرش**»[3] وسمي المقتول في سبيل الله شهيدًا؛ لقيامه بالشهادة في نفسه لله ﷻ حين الوفاء بالبيعة التي بايعه بها في قوله الحق: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ**﴾ [التوبة:111].

فهذا المقتول في سبيل الله قد باع نفسه من ربه ﷻ بيعًا تامًا بتلاً على أن يقاتل فيقتل ويُقتل وله الجنة ناجزًا بناجز، قال رسول الله ﷺ: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[4].

يخبرك أن الجزاء الواقع على القتل في سبيل ليس نسيئة، فقام هذا المقتول في سبيله بشهادته هذه حتى وفائها ﷻ مشاهدة الثمن في مقابلة المثمون مؤمنًا بذلك

(1) رواه ابن أبي الدنيا (9/1، رقم 1)، وأبو نعيم في الحلية (318/8)، وابن عساكر (95/7).

(2) رواه النسائي (8/4، رقم 1833)، والحاكم (504/1، رقم 1302)، والطبراني (64/19 رقم 122).

(3) رواه الطبراني (66/19، رقم 125).

(4) رواه أحمد (396/4، رقم 19556)، ومسلم (1511/3، رقم 1902)، والترمذي (186/4، رقم 1659) وقال: صحيح غريب. وابن حبان (477/10، رقم 4617). والروياني (340/1، رقم 518)، وأبو يعلى (308/13، رقم 7324)، والحاكم (80/2، رقم 2388).

محتسبًا بنفسه وماله على الله ﷻ وعلم الله ذلك منه فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد فسماه شهيدًا، ولذلك قال ﷺ: «**والله أعلم بمن يكلم في سبيله**»[1] وقال في شهداء أحد: «**أنا شهيد على هؤلاء**»[2] لبذلهم أنفسهم دونه وقتلهم بين يديه تصديقًا لما جاء به وعوض الحياة في البرزخ لما بذله من حياته ولشهادته لربه - عز جلاله - ولنبيه ﷺ بالصدق والوفاء فيحيى بذلك في دار الدنيا حياة دينية، ثم شفعها له بحياة طيبة في مدة بقائه في دار البرزخ لما باع منه حياته الدنياوية وتناول فيها المطعوم والمشروب بدلاً من طعامه وشرابه الذي تركه من أجله فأبدله هناك جسمًا وغذاء وماء وأهلاً أطهر وأكرم من الذي بدله له وتركه من أجله، ومن أوفى بعهده من الله وعنده حسن المآب، ثم في الدار الآخرة أحسن مآبًا وأكرم جزاء.

والشهادة تتفاضل بتفاضل درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، ورجل مؤمن جيد الإيمان حتى إذا لقي العدو كأنما يضرب جلده بشوك الصلح أتاه سهم غرب فقتله فذلك في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة**»[3].

فأخبرك نصًّا صريحًا بما تقدم أنه ترفع درجته على قدر علمه ويقينه وصدق عزيمته، وأنه مهما تأخر أو تزحزح عن تصميم العزم نقصه من الرتبة وعليه درجة ولم يخرجه من جملة الشهداء، ويزيد ذلك بيانًا حديث غزوة مؤتة وهي غزوة الأمراء، بعث

---

(1) رواه الترمذي (184/4، رقم 1656) وقال: حسن صحيح. والنسائي (28/6، رقم 3147). وأخرجه أيضًا: البخاري (1032/3، رقم 2649)، ومسلم (1496/3، رقم 1876)، وأبو يعلى (138/11، رقم 6263)، وأبو عوانة (454/4، رقم 7312). «يُكْلَمُ»: أي يجرح.

(2) رواه أحمد (431/5، رقم 23706)، وابن قانع (95/2، ترجمة 542).

(3) رواه الطيالسي (ص 10، رقم 45)، وأحمد (23/1، رقم 150)، والترمذي (177/4، رقم 1644) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (216/1، رقم 252)، والبيهقي في شعب الإيمان (29/4، رقم 4262). وعبد بن حميد (ص 39، رقم 27)، والبزار (366/1، رقم 246).

رسول الله ﷺ بعثًا على نصارى الشام وأمر على الجيش زيد بن حارثة، قال: فإن كان كائن فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن كان كائن فالأمير عبد الله بن رواحة، فلما التقى الجمعان قُتل زيد بن حارثة فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ﵁ أجمعين فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فكأن نفسه تأخرت بعض التأخير وتَلَدّنَتْ قليلاً، ثم قال يخاطب نفسه في أبيات له:

يَا نَفْسُ إنْ لَمْ تُقْتَلِي تَموْتِي ... إنْ تَسْلَمِي اليومَ فَلا تَفُوتِي

ثم صدق ﵁ فقاتل حتى قاتل، فأوحى الله ﷻ في ذلك اليوم إلى نبيه ﷺ يبغي إليه قتلهم، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ما هو أهله، ثم أخذ في تبليغهم ما أمرهم به، فقال ﷺ: «**أخذ الراية زيد بن حارثة فقتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل**»[1] وسكت يسيرًا فتغيرت وجوه الأنصار، ثم قال: «**شهيدًا، ورأيت منازلهم فرأيت سرير عبد الله دون سريري صاحبه فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: إنه كان منه بعض التأخر**» أو كما قال ﷺ.

فالشهداء حياتهم رفيعة تضاعف لهم بولاية الإيمان والنصر لله - جل ذكره - قال رسول الله ﷺ: «**أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة**»[2].

وخصهم الله ﷻ بذكر الحياة والرزق في قوله: ﴿**أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران:169] من أجل التضعيف الذي تقدم ذكره، وأنهم عند الله ﷻ لهم منزلة النصرة وللنصيحة فهو يجري عليهم أرزاقهم من لدنه، فعل الملك من ملوكنا بأجناده والإبطال من أهل نصرته تجري عليهم أرزاقه وجراياه من عنده وإقطاعاته والطاقة وما شاكل هذا الغرض.

فهذا وجه يمال به إلى وجه تخصيص الشهداء بذكر الحياة والرزق عنده، والله أعلم بأحكامه وعباده إذ قد جاء من رسول الله ﷺ: «**إن أرواح المؤمنين في طير بيض**

---

(1) رواه أحمد (204/1، رقم 1750)، والطبراني (105/2، رقم 1461)، قال الهيثمي (157/6): رجالهما رجال الصحيح. والحاكم (337/3، رقم 5295) وقال: صحيح الإسناد. والضياء (9/ 161، رقم 137).

(2) تقدم تخريجه.

كالزرازير يرزقون من ثمر الجنة»[1]، وقال: «**إن نسمة المؤمن طائر يطير**»[2].

وعن عبد الله بن عمر: «**تحت ظل العرش**».

والحديث الذي جاء في فتى جاء إلى رسول الله ﷺ على بكر له وعلى فمه أثر البقل كلما أراد أن يدنو من رسول الله ﷺ ليسأله زعر بكره، فإذا هو يسأله عن الصفرة في ثوب المحرم، وفيه: فلما ولي سقط من أعلا بكره فوقص فمات، فقال رسول الله ﷺ :«**لقد رأيت الملائكة تدس في فيه من ثمار الجنة**»[3].

وقد جاء غير هذا مفترقًا في الشرع فلم يبق في تخصيص ذكر الشهداء بالحياة والرزق عنده ونهيه تبارك وتعالى إيانًا أن نسميهم أموتًا إلا تضعيف الحياة وزيادتها بالجاه والخطوة، وإن أكثر رزقهم أو كله من لدنه بقوله: ﴿**عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ**﴾ [آل عمران:169] وقد تفضل الله - جل ذكره- على هذه الأمة بأن ألحق بهذه الدرجة التي هي شهادة كل مؤمن ابتلاه عند موته بسبب قاطع له من عن الحياة، قال رسول الله ﷺ: «**ما تعدون الشهادة فيكم؟**» قالوا: القتل في سبيل الله، فقال: «**إن شهداء أمتي إذًا لقليل، الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله**»[4] فذكر المطعون، والمبطون، وصاحب ذات الجنب، والغرق، والحرق، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت بجمع.

وذكر في غير هذا الحديث: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، والمقتول ظلمًا شهيد**»[5]، وقال: من قرأ الآيات من آخر سورة الحشر ثم مات من يومه شهيدًا، وهذه

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مالك (240/1، رقم 568)، وأحمد (456/3، رقم 15825)، والنسائي (108/4، رقم 2073)، وابن ماجه (1428/2، رقم 4271)، والحكيم (272/1)، وابن حبان (513/10، رقم 4657)، والطبراني (64/19، رقم 121)، وأبو نعيم في الحلية (156/9).

(3) تقدم تخريجه.

(4) رواه مالك في «الموطأ» (328/2).

(5) حديث عائشة: رواه أحمد (64/6، رقم 24398)، والبخاري (1167/3، رقم 3023)، ومسلم (1231/3، رقم 1612). وأخرجه أيضًا: البيهقي (99/6، رقم 11315).

حديث سعيد بن زيد: رواه أحمد (288/1 رقم 1633)، والدارمي (347/2 رقم 2606)، =

شهادة العلم والإيمان، وقال: من سأل الله الشهادة رزقها، وإن مات على فراشه فالمؤمنون كلهم: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169] كما تقدم لحياتهم في الدار الدنيا بالإيمان فهم الأحياء في البرزخ يأكلون ويشربون.

وإنما الإنسان في موضع الوسط من العالمين فإن علا بأخلاقه وأعماله رفع إلى أفق الملائكة، فيحيى كحياتهم يطيعون ربهم بما قدموه في دار الدنيا بالإيمان فهم الأحياء من علم علموه، أو عمل خير خلدوه من بعدهم؛ ولأنهم كانوا جسمانيين هم بها يطعمون ويشربون وأنفسهم روحانية مركبة من باطن ما عنه ركبت أجسادهم الدنياوية، ولكل حق حقيقة، ولكل حق عند الله ﷻ حقائق كثيرة، فافهم.

فربما أومأنا بنبذة يسيرة إلى هذا الغرض المشار إليه - إن شاء الله - فيما يستقبله وبالضد فيمن لم ينزل فأسفل بأخلاقه وأعماله فأسفل به إلى درك الشياطين، فيحيى بحياتهم يعصون ربهم بآثارهم التي خلفوها من أعمالهم في الشر والمعاصي والأعمال التي خلدوها من ذلك ولا يطيعونه؛ لسيئاتهم التي أحاطت بهم فحبطت بذلك أعمالهم.

فإن قلت: فكيف يكون المعتقد في هذه الحياة المذكورة حياة الشهداء؟ وقد نهينا أن نقول فيهم: إنهم أموات، وأمرنا أن نصفهم بالحياة، ونعتقد فيهم ذلك فما هذه الحياة؟ ومن أي نوع هي؟

فاعلم - وفقك الله - أن حياة الشهداء عند ربهم يرزقون حياة كاملة بالإضافة إلى حياتهم في دار الدنيا مخلصة من حيث الأجساد الدنياوية، مطهرة من أرجاسها، سالمة من تمانع الأضداد التي تحويها، متصلة بالحياة الأخراوية اتصالاً صحيحًا؛ لكنها إنما تتم بوجودها في أجسادها يوم بعثها، وتكمل الكمال الذي أهلت بدخولها في دار الحيوان في جوار الحي الذي لا يموت، وبحكم اسمه المنشئ أنشأها من لدن كونها غيبًا في سابق علمه بها قبل تقديره إياها، فتقديره لها على ما قدرها عليه طبقًا عن طبق، وطورًا بعد طور، وأمرًا وخلقًا وإنشاءً إلى أن يبلغها الغاية القصوى التي كتب لها، وبين حياة البرزخ وحياة البعث فصل تعرف به الحياة الأولى من الحياة الآخرة، والميت هو

=

والبخاري (1168/3 رقم 3026)، ومسلم (1231/3، رقم 1610)، وابن حبان (468/7، رقم 3195). حديث أبي هريرة: رواه الخطيب (1/ل27).

الجسم الذي فارقه الروح الحي، ثم بقدر إيثار العبد طاعة ربه والاستجابة له ولرسوله علوها في درجة الحياة؛ لخلوصها من موانع حقيقة الحياة، فافهم.

وأما الفصل بين حياتي البرزخ والدنيا فهو تعطيل الجسد المسكون من الروح وخرابه من بعده وانتقال الروح منه إلى دار أخرى، وفي مثل للجسد الذاهب، ثم فصل ما بين حياتي البرزخ وحياة البعث فهي الصعقة مع خمود عندها، ثم يرتفع الأمر إلى أن يكون الفصل بين الحياتين فصلاً يعلمه الله ﷻ، وإن لم يعلمه المخلوق يخص الله ﷻ بذلك من يشاء من أحياء عباده من أهل السماوات أو من أهل الأرض، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 68]، وقال رسول الله ﷺ: «**يصعق الناس يوم القيامة، ثم أكون أنا أول من تنشق عنه فأجد موسى آخذًا بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أصعق في من صعق، أم جوزي بالصعقة الأولى**»[1].

وفي هذا الحديث أبين بيان أن العلماء شهداء، فإن موسى ﵇ لم يبلغنا أنه مات مقتولاً ولا على أي نوع من أنواع الثمانية التي يكون عليها موت الشهداء، بل كان على ما قصه علينا رسول الله ﷺ والأنبياء شهداء على أممهم، والعلماء شهداء على قرونهم وأهل بلادهم وجيرتهم وأهل بيوتهم والمؤمنون على درجات، وقد قال ﷺ: أنه لقي ليلة أسري به الأنبياء والمرسلين من سمى لهم ومن لم يسم وأممهم - صلوات الله وسلامه عليه أجمعين - وجاء عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام ﵃: ما من مؤمن يقبضه الله بموت إلا هو في مكان بين السماء والأرض، وهناك يلتقي الأحياء في نومهم مع الأموات فيتساءلون ويتعارفون، وقد تقدم فيما قيل إشارة إلى هذا الغرض ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ونرجع بالكلام إلى ما كنّا عليه من ذكر الشهادة فنقول أيضًا: إن ذكر الشهادة أيضًا على السماع جائزة، والشاهد بها على وجه الشهادة مقبول معدل تعديل الحكم العدل والقاضي الفضل- جلّ ذكره - قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143]، وقال

---

(1) رواه أحمد (3/40، رقم 11383)، والبخاري (2/850، رقم 2281)، ومسلم (4/1845، رقم 2374)، وابن حبان (14/130، رقم 6237).

رسول الله ﷺ: **«يؤتى يوم القيامة بقوم نوح** – صلى الله على نبينا وعليه - **فيوقفون ويسألون: ماذا أجبتم المرسلين؟ فيقولون: ربنا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيدعى نوح** عليه السلام **فيسأل: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيقال لنوح** عليه السلام: **هل من شهود؟ فيقول: نعم أمة أحمد، فتدعى أمة أحمد فنشهد له أنه قد بلغ قومه، فيقولون: ربنا كيف يشهد هؤلاء ولم يدركونا ولم يرونا؟ فيقول لهم: كيف تشهدون على قوم لم تدركوهم ولم تروهم؟ فيقولون: ربنا إنك أرسلت إلينا رسولاً، وأنزلت إلينا كتابًا تخبرنا فيه أنك أرسلته إليهم فكذبوه فبذلك نشهد عليهم، فيقول الله– جل قوله–: صدقوا»**[1] وكذلك كان رسول الله ﷺ كلما رأى أنه قد بلغ أصحابه قال لهم: **«ألا هل بلغت»** فيقول ذلك ثلاثًا: **«اللهم فاشهد»**[2].

وبمثل هذا يقول فتانا القبر للمنافق أو المرتاب حين يتوقف عند سؤالهما إياه، فيقول: ها ها، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، أي: إنك لم تكن ممن تعلم حتى تقع له الدراية بالشهادة على وجهها، ولا تبعت من يدري، وعلم فتشهد بشهادته لتكون تاليًا بشهادتك، وإن أمرًا يوصف بتمييز ويذكر في عداد العقلاء ينكر وجود «مكة» و«بغداد» و«خراسان» و«طبرستان» ما يجري مجرى هذه البلاد في الشهرة من أجل أنه لم يرها بعينه، ولا شاهدها بجملته لمكابر عقله متجاهل منكر ميزة متغافل، وكذلك من أنكر معرفة آدم عليه السلام ونوح – عليهما السلام– وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– فامتنع من الشهادة لهم بما هم له أهل؛ لأنه زعم أنه لم يرهم ولم يسمعه منهم، إنما المراد: حضور الذات الباطنة التي لا تسمى من حيث هي باسم دون اسم، ولا توصف بصفة دون صفة، بل تعلم بمعالمها أو تعرف بمعارفها وأفعالها، فتسمى بذلك وتوصف وفاقًا بذلك معاني ما هي عليه وما صدر عنها وعلى ما توجبه اللغة ويتفاهم به، وقد يعبر عن هذا المشار إليه: باللب والعقل والقلب، وإنما ذلك للتفاهم حسب.

وأما اسم يعبر به عن حقيقة وجود هذا المشار إليه فقليل من يعلمه، وإنما يعلمه

---

(1) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (385/5).

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (16/6، رقم 7370).

على الحقيقة، وإنما يعلمه الله - جل وتعالى - لكنه على تواضع العرف هو العبد الموصوف بالعقل واللب والقلب والعلم والشهادة ونحو هذا، والبدن مطيته ومركبه وحامله، وما يغني مركب زيد مع مغيب زيد، وقد عبر عن هذا قول الله - جل قوله-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، فعدل ﷻ وعلا علاؤه وشأنه عن وصف الأبصار الظاهرة بالعمى، والبصر إلى القلوب، وهي التي أشرنا بالعبارة إليها، وقال أيضًا جل قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198] فإذا حضرت تلك الذوات الباطنة المشار إليها بشرط الحضور عقلت وأبصرت وأيقنت وعلمت على قدر الحظ المقسوم لها من الواهب الحق - جل ذكره لا شريك له - وكانت مشاهدة سواء حصل لها العلم عن بصر أو سمع أو عقل أو علم غير ذلك، وقد مدح الله - جل ذكره- الشهادة في غير ما موضع من كتابه العزيز وأمر بالشهادة أمرًا عزمًا بقوله الحق: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [الطلاق:2]، وبقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:33] ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:35].

وأعلمنا أن شهداء العلم والمعرفة شفعاء يوم القيامة بقوله الحق: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86] وقد تقدم أن الموجودات كلها تشهد لموجدها بما هو عليه من أسماء الحمد، وعلى أنفسها بما هي عليه، وتسبحه عن نقائصها وفقرها اللازم لها، وتلك شهادة له، ومباني الإيمان كلها بالغيب على المشاهدة يعتمد، ومعاقده عليها تنعطف، وبالشهادة تؤدي، وبطرق الشهادة تتلقى في سلطانها ألا ترى أن الدخول في دين الإسلام أوله الشهادة بالوحدانية لله تعالى وحده، والشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة؟! وتلك شهادة لجميع النبيين والمرسلين وبما جاءوا به - صلوات الله وسلامه على جميعهم - لأنه ﷺ إنما جاء مصدّقًا لما بين يديه من رسول الله وكتاب، وكذلك الصلوات التي هي عمدة الإسلام وموضع الصلة بين الله ﷻ وبين عبده تقدمها الشهادة بالوحدانية

والكبرياء والنبوة.

والتشهد في الصلاة فيه جوامع الشهادة، وأداء لها بين يديه الملك الكريم - تبارك وتعالى - إذ المصلي يناجي ربه ويخاطبه ويشهد عنه بما أمره به وأوجبه عليه يترضاه بذلك، فلينظر العبد كيف يشهد بين يدي ربه؟ وكيف يكون أداؤه بشهادته وقيامه عليها؟ فليستجمع لذلك، وليغزر مادة علمه استعدادًا لذلك المشهد، وأبصر به وأسمع ما شاهد لباطنك ومشهود عنده وبين يديه.

وقد شهد الله ﷻ لنفسه بما هو له أهل، ويشهد لملائكته وأنبيائه ورسله وكتبه أولهم وآخرهم، وشهد الكل لهم بما شهد به لنفسه وشهدوا لأنفسهم وعليهم بما شهد به لهم وعليهم، وأخذ بذلك مواثيقهم وعهودهم ثم طالبهم بالشهادة بعضهم لبعض وحملهم إصر ذلك وثقله، وأخذ بذلك مواثيقهم وعهودهم واضطرهم إلى الإقرار بذلك كله فأقروا، فلما أقروا قال ﷻ: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:81] فوجبت الشهادة في أصل القضية على حكم الحق نازلة من العلي الأعلا إلى المصنوع، ثم صاعدة من المصنوع إلى الشهيد الحق العلي الكبير والله أكرم شهادة وأصدق قيلا، فما لنا إذا لا نطلب طريق الشهادة، ونرغب فيها، ونتحلى بحليتها، وندخل من أبوابها، ونسلك من طرقها؛ كي نكون من الشاهدين فنعد في عدادهم، وندخل في جملتهم إذ هي أرفع الرتب وأقرب القرب وأقصد الطرق.

والشهداء هم العدول، وأهل العدالة هم المكرمون عند القاضي العدل والملك الحق، وقد تقدم فيما مضى أن أرفع الشهادات شهادة العلم واليقين مع حضور الباطن عند الأداء، فاحرص على ذلك، واستعن بالله تعالى يعينك، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى التهجد من جوف الليل يقول: «**ماتت العيون، وغارت النجوم، وأنت الله الحي القيوم، لا يوارى منك ليل داج، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا بحر لجي، ولا ظلمات بعضها فوق بعض، تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، اللهم إني أشهد لك بما شهدت به على نفسك، وشهدت به ملائكتك وأنبياؤك وأولو العلم من عبادك، ومن لم يشهد بما شهدت به فاكتب شهادتي مكان شهادته، أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال**

والإكرام، اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار»[1]، وفي أخرى: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، وأنبياؤك حق، وكتبك حق، والجنة حق، والنار حق»[2].

وقال ﷺ: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك، وحملة عرشك، وأولي العلم من عبادك، أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، وأن عيسى عبدك وابن أمتك وكلمتك ألقيتها إلى مريم وروح منك أربع مرارًا عتق الله جميعه من النار»[3].

وقال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج:62].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج:6، 7].

ومن عقائد المسلمين وشهاداتهم عليها مجموعة من القرآن العزيز وحديث رسول الله ﷺ زائدًا على ما تقدم ذكره، وربما تكرر بعضها باختلاف عبارة الازدياد فائدة.

ومن ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه الحق المبين وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وبكل شيء محيط، وعلى كل شيء شهيد، هكذا إلى آخر الأسماء، وأنه يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وأن جميع الملائكة حق، وجميع الرسل حق، وجميع ما جاء به حق من عند الله، وأن القرآن كلام الله وكلام الله ليس بخالق ولا مخلوق، وأن الهدى هدى الله، وأن الصراط المستقيم صراط الله، وأن حكم الله هو الحكم الحق والعدل القسط، وأن كل شيء خيرًا أو شرًّا حلو أو مر بقضاء وقدر كل من عند الله ﷻ، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الأرواح المفارقة للأجسام حق باقية إلى يوم النفخ في الصدور منعمة

---

(1) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (242/1)، وأبو نعيم في «الدلائل» (66/1)، وأبو سعيد النقاش في «الفتن» (43).

(2) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (53/1، رقم 155)، والديلمي (440/1، رقم 1798).

(3) رواه الحاكم (704/1، رقم 1920).

ومعذبة حق، وأن لقاء الله حق، وأن فتاني القبر حق، وأن السؤال حق، وأن الحساب حق والميزان، وأن فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير حق، وأن في الدارين من المزيد في النعيم المقيم والعذاب الأليم ما يقدر قدره ولا يبلغ وصفه حق، والشهادة بالإسراء كله حق، وأن كلما اشتمل عليه من الأخبار بالغيوب وقلب الأعيان وإخراج الأمور عن المعهود من مجاريها كله حق، كالإسراء إلى بيت المقدس وإلى السماوات السبع والسدرة المنتهى وانتهائه إلى المستوى بما في ذلك كله، وكذلك الإسراء به دار البرزخ حيث رأى الذي يشرشر شدقاه، والذي يشدخ رأسه الحديث على ما سيأتي ذكره - إن شاء الله تعالى - كلما أخبره به من الغيوب في الدنيا والآخرة حق على وجهه، وأنه ما ينطق عن الهوى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:4]، والشهادة بـ﴿أَن ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور:25]، وإلى هذه الشهادة انتهت الشهادات كلها.

وعنها انبعثت أولاً إذ فيها تحقيق الشهادة كلها بجميع الأسماء والصفات كقوله: هو العليم الحق، والحكيم الحق، والرب الحق، والإله الحق، والمولى الحق، وكقوله: وعده الحق، وقوله الحق، ورؤيته والنظر إليه والدار الآخرة الحق، وضحكه إلى أوليائه - تبارك وتعالى - حق، هكذا إلى جميع ما أعملنا به من أسمائه وصفاته لا إله إلا هو العلي الكبير، فبذلك أمرنا وعليه قدرنا في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج:62] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور:45] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:19] ونحو هذا تقف عليه بطول الاستقراء لكتابه العزيز إن الله ﷻ.

وكذلك نعتقد في كل اسم وصفة لم يبلغنا عملها جمع هذا كله قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور:25] فشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عمت الشهادة بها له في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور:25] ينكشف معنى هذه الشهادة لأهل النظر ولأهل الاعتبار في الدنيا، وينكشف للجميع في الدار الآخرة ظاهرة هو الحق المبين في هذه الدار بما خلق به السماوات والأرض، وما بين تلك من حق وهو المبيّن له يوم القيامة بما يشاهد منه يومئذ وبما يعاين ليس فيما هنالك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا أفلاك تدور، وإنما هو أمره يومئذ يقيم على العيان مقام الحق المخلوق به السماوات

والأرض اليوم، فافهم.

التعبد باسمه الشهيد فمما يجب عليك- وفقك الله - من التعبد بهذا الاسم الكريم بعد تحقق معرفته حتى تشاهد علمه الدخول في أهل العدالة بكلية أسمائك وصفاتك ومعانيك كلها من أخلاقك وكلامك وحركاتك بالمحافظة على التورع مما حرَّم الله عليك، بل عن كثير مما أباحه لك حتى تقتصر على ما لا بد لك منه لتفرغ لما نويته، وتتطهر لنظر ربك، ثم تقصد أبعد من ذلك؛ لابتغاء الشهادة في طرفها، وتطلبها في مظانِّها، وإنما طريق ذلك أن تجعل نظرك عبرة، وصمتك فكرة، واستعن على ذلك بقلة الطمع، وطول الصمت، وكثرة السهر، ومداومة الفكر، واللجوء إلى الله ﷻ، وإظهار الفقر والضراعة إلى مالك عصم الإصابة، والمحافظة على حسن الاقتداء، واصحب أهل الفكر، وحالف أهل التقى، وتعود الصدق في الخواطر كلها: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه:114] ولا تقنع من نفسك في مطلوبك بأدنى العلم، وسارع وسابق ونافس فقد أمرت بذلك، وتذكر قول رسول الله ﷺ: «**لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»[1].

وهذا كله بعد أن تحكم معرفة نفسك جدًّا، فبذلك تعرف ربك، ثم تحمل ذلك كله والتزمه في كلمة واحدة تقولها بصدق من قلبك، وحضور من علمك وعقلك، وهي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعليك بالمواظبة، وطول المداومة.

واعلم يقينًا أن الله ﷻ لا يمل حتى تمل أنت، واقرأ كتاب ربك حرفًا حرفًا، وتفهم معانيه معنًا معنًا، ثم انظر في جلال ذلك في ملك ربك ﷻ وملكوته وسنته وكلماته وأيامه وآياته على نحو ما تقدم ذكره في مواضعه، والله المستعان وحده لا شريك له سبحانه وبحمده.

---

(1) رواه الطيالسي (ص 287، رقم 2162)، وأحمد (34/3، رقم 11310)، وعبد بن حميد (ص 276، رقم 874)، ومسلم (325/1، رقم 438)، وأبو داود (181/1، رقم 680)، والنسائي في الكبرى (284/1، رقم 870)، وابن ماجه (313/1، رقم 978)، وابن خزيمة (27/3، رقم 1560).

فصل

في الشهادة بقوله ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [1] [النور25]

أجمعت الخليقة قاطبة على أن الله هو الحق إجماعًا تامًا، وأصفقت الجملة على ذلك إصفاقًا كاملاً، والكل له من أجل ذلك قانت ومسبح وحامد وساجد، فإنه لما خلق الخلق يوم خلقه عرَّفه نفسه فعرف ربوبيته معرفة لا ينبغي له أن ينكرها بعدها أبدًا، وذل له الخلق يومئذ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخشية يومئذ ما لا ينبغي له أن يخرج منه بعد ذلك أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذ إقرارًا لا ينبغي له أن ينكره ولا يستنكف عن عبادته بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة، ثم تفرقت الطرق بالمكلفين في سبل الأمر والنهي بواسطة الإرادة لعلة الابتداء لتحق كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:119].

وإنما خرق ذلك الإجماع عقل قاصر، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ولفظه الحق يعبر بها عن معنى هو جماع كل شيء، وعلى هذا تكون الشهادة بذلك، أما الشهادات وقد تقع العبارة بها أيضًا على أنه موجود، وإياه نعني بكلامنا هذا فآية وجوده ﷻ وجود الفعل، فما من موجود دق أو جل ظهر أو بطن إلا هو آية على وجوده تحقيق حق وإثبات ثبت ولزوم قطع من حيث لزوم الفعل عن الفاعل، والضرب عن الضارب لم تجد العقول قط فعلاً لا عن فاعل، ولا صنعة لا من صانع.

ثم شهدت الخليقة له بعد تمهيد هذه الشهادة شهادة كاملة بالحق الذي أودعها واستخلفه فيها، فهذا المعنى بالحق محيط بالموجود وفيه وهو الذي يكلم العقول من الموجودات، ويشير إليها ويدل على جاعله فيها بما فيها من آثاره ووجوده، فتلقن عنه الألباب وتصدقه العقول؛ لأنها منه وهو لها أول وَبَينه وبينها رحم وأشجة وقرابة قريبة،

---

(1) قال القشيري في قوله تعالى: (ويعلمون أن الله هو الحق المبين): تصير المعارف ضروريةً، فيجدون المعافاة في النظر والتذكر، ويستريح القلبُ من وَصْفَيْ تَرَدُّدِه وتَغيُّرِه، باستغنائه ببَصرِه عن تبصره. ويقال: لا يشهدون هذا إلا بالحق، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يُبدي لهم أسرارَ التوحيد وحقائقه، فيكون القائمَ فيهم والآخذَ لهم عنهم، من غير أن يردهم عليهم. [تفسير القشيري 219/5، البحر المديد - (230/4)].

وهو بمنزلة النطفة في أوليته أو كالبذرة في بدو العالم وجبلته وفطرته، فلا تزال تنشأ بإنشاء المنشئ الحق جاعله - جل ذكره- حتى تظهر في أعلام العالم ورءوسه، فيعرب عن نفسه، وعن هذا المعنى العبارة بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:22].

وكثير نظائر هذا في القرآن العزيز، وأما إنشاؤه إياه في العالم فعبَّر عنه قوله الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:77].

ونظيرتها في سورة النحل، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [السجدة:7 - 9].

ونظائر هذا كثير، وهذا كله مما تقدم ذكره وما يأتي بعد هذا وما لم يصل إليه العلم ولا تمكنت مشاهدته ولا الوقف عليه يتبين في الدار الآخرة، فكل ما كان الآن دليلاً هو في الآخرة مدلول عليه، وكل خبر أو إعلام بشيء فهو فيما هنالك مخبر عنه ومعلم به، وكل حق هنا فهو فيما هنالك حقيقة.

فالحق هنا آثار أسمائه وصفاته وأفعاله، فربما سلبت العقول وسهت وذهلت عن التحقيق، وأما ما هنالك فمبين كله موقوف عليه بالعلم والمشاهدة؛ لذلك قال - عزّ من قائل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: 25] أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما وما علا وما سفل، قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس ضحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر**»[1] أي: ترونه على الدوام أبدًا، فإن القمر بما هو قمر وبما هو بدر متصل طلوعه بغروب الشمس، وطلوع الشمس متصل بغروب القمر أقام ﷻ أمره الظاهر للعيان يومئذ مقام أمره الباطن في هذه الدار.

---

(1) رواه أحمد (4/360، رقم 19213)، والبخاري (1/203، رقم 529)، ومسلم (1/439، رقم 633)، وأبو داود (4/233، رقم 4729)، والترمذي (4/687، رقم 2551)، وابن ماجه (1/63، رقم 177)، وابن حبان (16/473، رقم 7442).

فصل
في الشهادة بقوله
﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان30]

لما أعْلَمَ هذا المعنى المسمى بالحق الموجود في سنخ العالم وجبلة العقول بأن الله هو الحق المبين، أي: إنه هو الحق، والإله الحق، والرب الحق، والمالك الحق والعلي الحق هكذا إلى جميع الأسماء والصفات على ما سيأتي ذكره مع ما تقدم منه، فإذا كان هو الحق المبين من جميع الجهات كلها والمعاني أجمعها قطعًا جزمًا فإذا كل ما يدعا من دونه من إله فهو باطل، أي: مستحيل وجوده معلوم هذا ببداية العقول وضرورتها دون تردد منها ولا طلب واسطة ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [هود:32].

واعلم أن وجود الباطل إنما كان بإيجاد من الحق المبين إياه؛ لأنه - جل ذكره - قسَّم الموجودات إذ أوجدها بين فتنته وذكر، فالحق في الموجودات من قبيل الذكر، والباطل من قبيل الفتنة، ووجوده عن وجود الحق الموجود أولاً بإيجاد من الحق المبين. واحذر هذه المزلة فهي بيننا وبين من زعم أن الله ﷻ ليس هو الموجد لكل موجود، فنسب إليه إيجاد الخير، ونفى عنه غير ذلك، وبين من نسب إليه فعل الجور والظلم على الإطلاق، تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون علوا كبيرًا.

والحق المبين ﷻ يحقق الموجود بتوليه إياه أو يبطله بتركه إياه وتخليه عنه، فإن وليه إيجادًا وجد فكان وجوده حقًّا، وإن وليه وجودًا وصفات تحقق في الوجود وكان من قبيل الذكر، وإن تخلى عنه من أي وجه كان بطل في تلك الجهة هو ليس شيء سواه.

فنقول: القرآن حق، أي: حق نزوله، وحق هو من عند الله ﷻ، وحق ما جاء به، وحق من كل وجه؛ لأنه وليه - جل وعلا - من كل وجه، ونقول: النبي ﷺ حق كذلك، فإذا قلنا: الكفر حق، فمعنى ذلك أنه حق وجوده لا غير، وكذلك إبليس - لعنه الله- حق، والسحر حق، والدجال حق، أي: حق وجود ذلك كله؛ لأنه - تبارك وتعالى - أوجد ذلك فحق وجوده، ولما تخلى ذكره عنهم بالتوفيق والولاية في صفاتهم

وأعمالهم وأسمائهم بطلت، ونقول: خروج الكفار من النار في الدار الآخرة باطل، وكذلك خروج أهل الجنة منها؛ لأنه لم يقل ذلك إيجادًا ولا صفة فبطل وكان معدومًا.

والحق الموجود في الموجودات له في صفات الحق العلي أسماء يرجع إليها؛ ولذلك صحت بها شهادة الموجودات وعدلتها الألباب، فقبلتها لقرابة قريبة ووجود لازم كريم.

وأما الباطل فليس له أصل يرجع إليه من الحق إنما أوجد مما أوجد منه تبارك وتعالى لعلة هي الفتنة والابتلاء بواسطة وجوده بحق عن مشيئته في الإيجاد؛ فلذلك لم تقبل شهادته العقول ولا عدلتها الألباب؛ لأن الحق تخلى عنه من تلك الجهة التي هي الولاية، فبطل من هنالك فهو بطل عن بطل أكبر شهادته التزيين، وأحق إذ آية التشبيه ليس لشهادته عند المعقول حقيقة، ولا يشاهده عدالة، والحق هو الشاهد على الباطل بما فيه من زور وبطْلٍ، فافهم فقد قرَّب لك الأمر جدًّا لتستبين سبيل الموقنين.

وهاتان الشهادتان أعني قوله - جل قوله -: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:62] عبرت عنها شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فأغنى ذلك عن إعادة الكلام فيها إيثارًا للاختصار مع ما تقدم ذكرها في غير هذا الاسم من الأسماء.

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج6].

و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى12]

و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة6] إلى غير ذلك من الأسماء والصفات.

أمر الله تبارك وتعالى العباد وأولي الألباب بالنظر في العالم، والاعتبار بما أودعه من لطائف الحكمة وغرائب الصنعة من حسن التدبير، وعجائب الترتيب في إيصال بعضه ببعض، وافتقار بعضه إلى بعض مع اختلاف صوره، وتباين هيئاته، وافتراق

منافعه ومضاره، فصدق شهاداته، وقرب إشاراته وفصاحة إعلامه وبيان خطابه وحسن إرشاده لمن استرشده، فيعبروا عنه بمعالم ما فيه إلى فاعله وجاعله وخالقه لا إله إلا هو العلي الكبير، ثم إلى النبوة موجودات الدار الآخرة؛ ليعلموا بما شاهدوه من ذلك كله مما ذكرناه ومما لم نذكره.

إن هذا الترتيب العجيب والتدبير المعجز لا يكون إلا من مدبر قدير عليم مريد حكيم أحسن تدبيره وأتقن ترتيبه، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:12].

فلذلك بسط - جلّ ذكره - الأرض بعد إيجاده إياها على هيئة الكرة، وفصلها سبعًا عن أحدية جملتها، ونصب قُنَنَ الجبال الشم الشوامخ ألا تميد بأهلها وزنًا عدلاً على هيئتها يوم أوليتها قبل دخولها وبسطها، وجعل دوائر الأفلاك المسخرة من الشمس والقمر والنجوم جارية بأمره على ترتيب مطرد ونظام غير منخرم، مقدارًا من الجري عدلاً ووسطًا يكون عنه الليل والنهار، والمصيف والخريف والربيع والشتاء؛ لإظهار معاني الآخرة والإعلام بموجوداتها التي أوجدت هذه عنها إذ هي المنتظمة لجماع معاني دار الدنيا، فأظهر بذلك العجائب عودًا وبدءًا، وأتم في ذلك أمره كما شاء الله قولاً وفعلاً من هبوب الرياح، وتبلج الإصباح، وظلام الليل، وطلوع الشمس وغروبها، وانتقالها في محالها من أبراجها، وبدو القمر وسريانه ونشؤه ومحاقه، وجريان النجوم بأمره في دوائر أفلاكها طالعة وغارقة في كنوسها وخنوسها وثبوتها واستقامتها في سيرها، هذا إلى لمع البرق، وعجّ الرعد، وهمو السحاب بمياهها، وإنبات الأرض أنواع أنباتها فتعمر الأرض، وتنعش الأرواح، وتخصب الأجسام، وتختلف الأيام بتوالج الأزمان، فتظهر الحقائق، وتغرب الشواهد بطلب حثيث، وحث غير مثبت.

حكمة بالغة وحجة قاهرة أوجد الألباب منحدرًا سهلاً فانحدرت، ومسلكًا نهجًا فسلكت فانجلى عنها الريب واضمحل عنها الحلاج، فأولو الألباب ينظرون إلى تلك من هذه ببصائر عقولهم وثاقب فهمهم وصحيح اعتبارهم، ثم زاد - جل ذكره - الأحكام إحكامًا بأن بيّن خضوعها وخشوعها وسجودها له تبيانًا أظهر بذلك قبول الجملة للتغاير والافتقار كما شاء من حال إلى حال، فأجراها بذلك جريًا سرمديًا على

سنن معلوم وقسط من السير معدل مذموم في مشارق ومغارب لها محدودة، وأعمال لتنفيذ منافع العباد مقسومة؛ لتدبير تفصيل الأزمنة والسنين، ومعرفة الساعات والأيام والشهور ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:61] ألا له الخلق والأمر في الدنيا والآخرة - تبارك وتعالى - رب العالمين.

وكذلك رفع - جل ذكره - سماء رفيع البناء، عالي السمك، بديع التصنيف، حسن التصريف، زاهي الترسيع، واسع البسطة، كريم الخلقة جعله مسكنًا للمقربين من عباده والمصطفين من أوليائه فصَّلهن سبع سماوات طباقًا أعلاهن سمكًا أعظمهن خلقًا، وأبسطهن كنفًا، والجملة ثقلها قدرته ويحملها أمره وأبده، أبي بخفاء على من له أدنى مسكة عقل، أو منح أيسر نبذة فهم ولب، عظيم قدرة من أوجد هذا، وإحاطة علم من خلقه، ودبره، ووحدانيته حكمة من أمسكها أبدًا سرمدًا على من هو عليه لم تنخرم منه قط جانب، ولا وهت منه ناحية دون دعائم من تحته تقله، أو علائق من فوقه تمسكه وحده دون شريك ولا ظهير ولا وزير ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:14].

أَيُّ الحَوادِثِ لَيسَ يَشهَدُ أَنَّهُ ... صُنعٌ وَيَشهَدُ بِاقتِدارِ الصانِعِ
وَالحَقُّ في المَجرى أَغَرُّ مُحَجَّلٌ ... تَلقاكَ غُرَّتُهُ بِنورٍ ساطِعِ

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(1) [الحج6]

آيات ذلك كثيرة جدًّا، وأكثر الآيات التي دلت على الوحدانية هي بنفسها دلت من طريق آخر على إحياء الله الموتى، فطلب ذلك في الوجودين العالم والشرع.

أما العالم: فقد دلّ على ذلك بذاته وبمعناه وبالذي وجد به، فالأرض دلت على ذلك والسماء والأفلاك والنجوم والأزمان والعصران الليل والنهار، وكل تنقل وتحول إلى غير ذلك، فمن ذلك نهار بعد ليل كحياتنا هذه بعد الموت الأول، ثم يخلف النهار

(1) أي: يحييهم بالمعرفة بعد موتهم في النكرة، وبحياة المشاهدة بعد موت الفرقة.

الليل كموتنا بعد هذه الحياة، ثم يخلف الليل النهار كالحياة الآخرة بعد الموتة التي بين الحياتين، وإنما تمام الحكمة أن ترجع أولها على آخرها عودًا بعد بدء كدائرة قسمتها قسمين كل قسم منها جزئين إذ حدث عن كل جزء طرف عن كل واحد منهما هو غيرهما بوجه فحدث عنه آخر النهار وأول الليل العشاء، وكذلك حدث عنه آخر الليل وأول النهار الغبش، فالنهار بانشراحه وضيائه، والاستبشار الذي فيه وهو موضع التيقظ آية الحياة بعد الموت هو أيضًا آية على التجلي العلي، وهو أيضًا آية على اللقاء الكريم، والليل بظلمته وضيقه وسكونه وهو موضع النوم آية على الموت والحادثان بينهما؛ لأنه منهما وليس بهما ولا خارج عنهما ولا بأنفسهما وضيقهما على دار البرزخ، وسيأتي ذكر البرزخ في موضعه إن شاء الله.

وكذلك أيضًا فصول السنة تدل على إحياء الله الموتى دلالة تقطع المعاذير وتحسم على علل المعاندين مصيف بعد شتاء بمنزلة النهار بعد الليل والحياة بعد الموت، ثم شتاء بعد مصيف بمنزلة الليل بعد النهار والموت بعد الحياة، ثم مصيف بعد شتاء هكذا فهو العود بعد البدء ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت:19] كاعتبارك المتقدم بالدائرة والحادث بعد كل شطرين ما هو منهما بوجه وليس بها بوجه الربيع والخريف، فافهم.

وكذلك قال - عز من قائل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:190]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6] أي: هي آية على الإعادة بعد البداية بوجه، وآية على الوحدانية بوجه، وآية عليهم من طريق آخر على أنه حكيم بوجه من الاعتبار غير ما تقدم، وكذلك إلى جميع الأسماء والصفات وموجبات الشهادة بأجمعها.

وكذلك قال وقوله الحق: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:67].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:47].

وقال: ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2] وكذلك في الشهور باعتبار نزول القمر منازله ونشوء إلى كماله، ثم محاقه إلى استدارة، ثم بدئه بعد عوده.

وذكر الله ﷻ دلالات القمر وكررها، والأرض أيضًا تدل على إحياء الله الموتى بينما تراها هامدة خاشعة ميتة في حال جدبها إذ ينزل الله الماء فتهتز اخضرارًا وتربو وتنبت من كل زوج بهيج وكريم، فيبدو لك استبشارها بالغيث عند استشفائها بغذائها بدلاً من خضوعها وابتئاسها عندما كانت منعت ذلك فتينع الثمار، وتورق الأشجار، وتطلع الأزهار على اختلاف ذلك كله وطعومه وروائحه ومنافعه ومضاره، وحركاته عند هبوب الرياح؛ لأنه ﷻ أقام تحريك الرياح للجماد والنبات مقام تحريكه الإرادات والقدر للجسام الحيوانية، فتبدو الأرض في أحسن معاريضها وتتزين بزينة زخرفها إلى غير ذلك مما قد ملأت الخطباء من أوصافه الورق، وأفنت الشعراء في وصفه ضروب القوافي، وما استطاعت مع ذلك أن تصفه ولا بلغت كنهه.

فهذه حياة بعد موت قبلها، ثم يأتي على الأرض أيضًا وقت تعود فيه إلى حال موتها وهمودها، فهذه موتة بعد حياة كموتنا بعد هذه الحياة، فإذا أغاثها ﷻ بغياثه عادت حية بعد موتها، وضاحكة بعد عبوسها، ومتحركة بعد سكونها، ولابسة أثواب حللها بعد عريها، وناشرة أرياط محاسنها، ملتفعة أردية وشيها المنمنمة ونواظرها البهية، باسطة أنواع فرشها من رفارفها العبقرية ودبابيجها المحكمة ومطارفها السندسية وروائحها الزكية كالعروس المجلاة والغانية المحلاة قد أبرزت أبناءها، وأحضرت لديها ولدانها فهي بين خدود وردية، وبهاء ريه تبدو من سجف زبرجدية ووجوه شقائقه ينشئ بهن قضبان زمردية وغصون لجينية يطرقن عن نواظر نرجسية، ويضحكن فيبتسمن ثغور أقحوانية وسوق زرع قد استوى بنمائه واعتدل ببركة غذائه، فالتحف بلحف أوراقه، واطلع رؤيته من حجب كفراته، والجو طلق بسام واضح مرتاح والأرض هشة مهتزة والشمس تلحظ جمعهم ببهجة إشراقها في أفق صفاء صحوها، وتعلمهم بعجيب لطفها عبّ سمائها، وتهب الأرواح على اختلاف جهاتها، وتدان ولثام وعناق، وتلاق وفراق، واستباق وسياق وفر وكر، وانعطاف وانحراف منظر يسلي الحزين ويضحك الكظيم، والعقول تذهل في حسن محاكاة تلك المعاطف والبصائر

تتحير بين بهجة تلك الملاعب وفشيش أصوات تلك الملابس كيف نشأت بدأتها هذه حتى ظهرت عيانًا في ذوات الأعطاف والروادف، وقامت مشاهدة في ملاعبة الفتيان والقينات في الدّساكر والمجالس؟ ثم كيف كملت في الدار الآخرة، وتمت في موجودات الجنان إلى ما لا تهتدي العقول أن تعقله، والأوهام تتوهمه، والأم ضحوك متهللة تؤدي المفترض، وتنهض بأعباء واجبات الشكر والمنن فتسبح بحمد ربها وتقنت بعظمته.

ومن آيات الإحياء بعد الموت اليقظة بعد النوم، ومن آياته تقلب الإنسان باختلاف الأحوال، فما تقدم من دوران الأزمان، واختلاف الملوان من التراب إلى النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم جسمًا ذا عظامٍ وعصب وعضل ومخ ورباطات ثم ذا روح ثم إلى إنشائه خلقًا، وهو إنشاؤه في أخلاقه وصفاته وأسمائه في تبدله من حال الطفولة إلى الشباب إلى الاستواء إلى الكهولة إلى الشيخ، ومن آياته النطفة الميتة فيكون عنها الحيوان الحي.

فهذه الآيات قد اجتلبها القرآن العزيز مفصَّلة مجملة وتصريحًا وتعريضًا وإخبارًا وأمثالاً كل ذلك ليدلنا - جل ذكره - على عظيم قدرته، ولينبهنا على حكمته في الابتداء والانتهاء، والرجوع بعد الانتهاء إلى حالة البداية، وكذلك رجوع الحكمة إلى أواخرها وانعطاف عودها، وليس البعث غير ذلك ولا سواه، قال الله ﷻ- وتعالى علاؤه وشأنه-: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح:17. 18] فعبر - جل قوله الحق-: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ عن الإحياء الأول، وبقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ عن الموت بعد هذه الحياة الأولى، وبقوله: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ ويخرجكم إخراجًا عن الإحياء الآخر بعد الموت، وقال جل قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الروم:19] وكذلك النشور وكذلك الخروج وهو كثير، قال رسول الله ﷺ وقد سُئل: ما آية إحياء الله الموتى؟ فقال: **«ألم تمر بالوادي ممحلاً، ثم تمر**

به مخصبًا، ثم تمر به ممحلاً، ثم تمر مخصبًا، كذلك يحيي الله الموتى»[1].

فكان قوله ﷺ مبينًا لما جاء به القرآن، ولما أوجد الله عليه العالم واستمرار الوجود ليشهد لهذا ألا ترى أن الحي يتغذى بغذائه فيصير الله ﷻ ذلك الغذاء لحمًا ودمًا وعصبًا وجسمًا حيًّا، ثم لا يزال يجتلب الغذاء لحاجته، فلو اجتمع الجسم على ذلك التغذي بما يوجبه التجسم لذهبَ الجسم عن مقداره وخرج عن بنيته، لكن الله بحكمته وخفي لطفه جعل الهواء من خارجه يجتلب من ذلك التجسم ما شاء الله، فيحتاج الجسم إلى التغذي فيستدعي لأجل ذلك الغذاء، فلا يزال الغذاء يمده من داخله والهواء ينشفه من خارج، وكذلك في كل ما من شأنه النشوء وسلك به طريق النمو والدوام على ما هو عليه، فافهم.

قال الله- جل قوله-: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت:19] وهذا من أبدأ بمعنى أظهر، فلا يزال على هذا يبدئ ويعيد، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ**﴾ [البروج:13] وأما البداية فهو من بدأ يبدأ، قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [العنكبوت:20] فها أنت تدل نفسك بنفسك على أنك تموت ثم تحيى بعد الموت تقلبك بأحوالك كلها وعمرك ولياليك وأيامك، ويدلك على ذلك الأرض والسماء وما بينهما، والشجر وكل شيء من التدبير والقرآن العزيز وحديث رسول الله ﷺ بآيات ذلك كله ودلائله وشواهده ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران:60].

وهاهنا أيضًا إحياء بعد موت يجب الإيمان به إذ قد ثبت بالدلائل الجمة والشواهد العامة قدرة الله ﷻ على إحياء الله الموتى، قال الله ﷻ حكاية عن أهل النار أعاذنا الله برحمته منها: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ [غافر:11] وقال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون، وأما قوم**

(1) رواه أحمد (16622)، والطيالسي (1172)، والطبراني (15801).

أصابتهم النار بذنوبهم فإنهم يموتون فيها إماتة»[1] وذكر ﷺ أنهم يخرجون منها صبائر ضبائر كعيدان السماسم قد أخذتهم النار فصاروا حممًا قال: «**فيلقون في نهر الحياة»**[2].

وقال أيضًا: «**فينبتون في أفواه الجنة، ويقال لأهل الجنة: فيضوا عليهم من الماء»**[3] قال: «**فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم ترها ما يكون منها إلى الظل يكون أصفر، وما يكون منها إلى الشمس أخضر»**[4].

فبالغ النبي ﷺ في المحاكاة؛ لينبه الأفهام على أنها نشأة أخرى، وأنهم ينبتون عن ذلك الماء الذي هو ماء الحياة كما ينبتوا من قبورهم لحياتهم الوسطى بالإضافة إلى الحياة التي قبلها بالماء الذي ينزله الله من تحت العرش كمني الرجال، وهؤلاء هم أهل الشفاعة الرابعة يقول الله - جل قوله وتعالى علاؤه وجده-: «**شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، ولكن وعزتي وجلالي، وارتفاعي في علو مكاني لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»**[5] قال: «**فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يعلم عددهم إلا الله»**[6].

فالنشأة العامة التي هي النشأة من القبور ومن مفترقات مواطن الأبعاض من الأجسام والذوات يقال لها: النشأة الأخيرة بالإضافة إلى هذه النشأة الأولى التي عمّرت بها الحياة الدنيا، وأما تلك النشأة فهي الآخرة على الحقيقة، لكنها ليست بعامة وإنما

---

(1) رواه أحمد (11/3، رقم 11092)، والدارمي (427/2، رقم 2817)، ومسلم (172/1، رقم 185)، وابن ماجه (1441/2، رقم 4309)، وابن خزيمة في التوحيد (ص 282)، وابن حبان (411/1، رقم 184).وأبو يعلى (518/2، رقم 1370).

(2) رواه أحمد (56/3، رقم 11550)، والبخاري (2400/5، رقم 6192)، وأبو يعلى (423/2، رقم 1219)، وأبو عوانة (158/1، رقم 455)، والبيهقي (191/10، رقم 20568).

(3) رواه مسلم (472).

(4) تقدم في الذي قبله.

(5) أخرجه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179).

(6) رواه البيهقي (24/8).

هي لقوم يخرجهم الله من النار، وقد نشأت في نفسها من قبل في قوم يجوزون الصراط فتسفعهم النار مرة وتخردلهم الكلاليب والحسك والخطاطيف، وفي قوم يخرجون من النار، وقد أحرقت النار قدم أحدهم، وإلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه حقويه وإلى جملته، غير أنها لم تأكل النار أثر السجود، ثم إلى هؤلاء الذين لم يعملوا عملاً ولا قدموا قدمًا فلا يحرم شيء منهم من أجل ذلك على النار، بل أتت على جملتهم.

وهو أيضًا على الحقيقة البعث الآخر الذي قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام يوم جاء يسأله ليعلم الناس السؤال عن دينهم، فقال: «**وأن تؤمن بالبعث الأخير**»[1] فإنه وإن كانت النشأة التي تقدم ذكرها من القبور قد تقدمتها هذه النشأة التي هي الحياة الدنيا فتكون النشأة الثالثة بعدها، فإن هذا البعث لم يتقدمه بعث فيكون آخرًا له، وإنما هو البعث الآخر على الحقيقة ذلك البعث في الدار الآخرة، وقد قال الله - جل قوله - في ذلك: ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الدخان:51.52] إلى قوله:

﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ**﴾ [الدخان:56] فامتن عليهم بأنهم لا يموتون فيها كما يموت أولئك كما امتن عليهم بأن وقاهم عذاب الجحيم، وقال أيضًا فيما حكاه لنا عن قول أهل الجنة من غبطتهم بحالهم، وبأنه لا يميتهم كما أمات سواهم: ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [الصافات: 58-60] وجاء مثل هذا لمن تأمله، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الحوراء تقول لزوجها وقت وروده عليها: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك**»[2].

---

(1) رواه أحمد (426/2، رقم 9497)، والبخاري (27/1، رقم 50)، ومسلم (39/1، رقم 9)، وابن ماجه (25/1، رقم 64).

(2) رواه أحمد (27/3، رقم 11232)، ومسلم (175/1، رقم 188).

فصل

في الأرواح المفارقة للأجسام بالموت باقية إلى يوم الدين وأنها منعمة أو معذبة إلى يوم الدين

الروح سر باطن موصوف بصفاته معلوم بأفعاله وأسمائه، وكلما وصف بصفات رذيلة كانت أو فضيلة، فهو جوهر قائم بنفسه حامل لأعراضه ومعنى قائم بذاته، وهو لا يكفيه العقل ولا يحيط به العلم، لا يجده الإيمان ولا يكفيه، جعل الله ﷻ في هذه العاجلة الإيمان بالروح آية عليه - جل وتعالى - وطريقًا نهجًا إلى الوصول بالمعرفة إليه، والإيمان به، وليس الإيمان صفة إحاطة ولا تكييف؛ ولذلك يؤمن الروح بما هو أعلى منه غير تكييف ولا إحاطة، والإيمان وجوده عن صفات الله ﷻ، وهو نور من نوره - جل ذكره - واختلف فيه هل هو مخلوق أم لا؟ فقال قوم: إنه غير مخلوق لكنه، ليس بحال في المؤمن، وقال آخرون: هو مخلوق حال في المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:14] وقال رسول الله ﷺ: «الإسلام ظاهر، والإيمان في القلب».

ولو كان غير مخلوق لما جاز أن يحل في مخلوق، والروح هو عبد روحاني، وأمر رباني، ونفس جسماني حبسه ربه ﷻ في الجسم ابتلاء له، وأسكنه في جواره، وأجرى عليه محنته، فواقع المكروه بواسطة الجسم، فعاقبه على ذلك بأن أهبطه إلى الأرض كرهًا لا اختيارًا منه لذلك، بل جعل ذلك له سجنًا وشقاء، ثم أورث ذلك بنيه بعده، فلأن كان عبدًا مفطورًا ابتلاه الله وعافاه، وأمره ونهاه، ونعَّمه أو عذبه، ولأن كان جسمانيًا افتقر إلى الغذاء الجسماني، وإلى أن يكون محمولاً في جسم، وإلى أن يألم بالموت في خروجه عن جسده الذي ركب فيه، ولأن كان عن أمر ربه - جل وتعالى - كان باقيًا ولم يوصف بالموت لأجل ذلك، ولأنه لم يكن عن الحقيقة غير التراب لم يرجع إلى التراب لتأكله، ولما لم يوصف ما كان عنه بالموت لم يرجع إلى الموت، وإنما الموت مفارقته لجسده وتعطيله الجسد هو موت الجسد، والجسد هو الميت والروح هو الحي، فافهم.

والعالم مخلوق مذلل مقهور، والروح ابن عالمه وسفله، ولما كان العلوله أصلاً، والسفل له فصلاً وهو بينهما نجل كان عبدًا كأبويه، فإن تبع أباه وهو العلو أصعد

بأخلاقه وذاته فسعد، وإن تبع أمه وهو السفل أسفل بأخلاقه وصفاته فأسفل بذاته فشقي.

والجسم فاعلم مخلوق من الأصول الطاهرة، والنفوس مبرأة من باطن ما خلق منه الجسم وهي روح الجسم، وأوجد الله تبارك وتعالى الروح من باطن ما برأ منه النفس، وهو للنفس بمنزلة النفس للجسم، والنفس حجابه يوصف بالحياة وبإحياء الله ﷻ له وموته خمود إلا من شاء الله يوم خمود الأرواح، وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله تعالى.

والجسم موصوف بالموت حتى يحيى بالروح، وموته مفارقة الروح إياه كما تقدم، فإذا فارق الحي الميت أعني هذا العبد الروحاني والجسم صُعِدَ به.

فإن كان مؤمنًا فتحت له أبواب السماء حتى يصعد إلى ربه ﷻ، فيؤمر بالسجود فيسجد، ثم يجعل حقيقته النفسانية تعمر السفل من قبره إلى حيث شاء الله - جل ذكره - من الحق، وحقيقته الروحانية تعمر العلو من السماء الدنيا إلى السابعة في سرور ونعيم، قال الله - جل قوله -: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ * وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:88 - 99] إلى آخر السورة، وقد قُرِئَ ﴿فرُوحٌ * وريحان﴾ أي: فحياة دائمة قائمة.

والروح بفتح الراء على قراءة الحرف الأول حال للروح في الحبور والسرور؛ ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائمًا في قبره يصلي، وإبراهيم تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا، ولقيهما في السماوات العلى، فتلك أرواحهما، وهذه نفوسهما، وأجسادهما في قبورهما.

وإن كان شقيًا لم تفتح له أبواب السماء، ورُمِيَ من علو إلى الأرض وعمر به أسفل السافلين في شقاء وعذاب إلى يوم الدين - نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سوء ما سبقت به المقادير. تقريب ذلك بأن تتحقق أن الدنيا وهو معنى يعني به غيره، وعرض يعرض وحقيقة العرض هو ما يبقى، قال الله- جل قوله-: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [الأنفال:67].

وإنما هو ماض قد ذهب وتقضي لا تجد لذته، ولا تحس ألمه، خرج عن أن يكون دينًا، بل هو إلى أن يكون من الآخرة أقرب؛ لأنه مروح عليك لمنال ما لك في ذلك أو عليك، فهو إذا آخره أو مستقبل لا تجد أنك هذا أيضًا لذته ولا ألمه أملاً

ترجوه أو تخوفًا تحذروه، والأصل قد لا يدرك، والمحذور قد لا يقع؛ لأن ذلك في حقك غير مضمون إلا أن تكون الآخرة، وإن أدركته أيضًا كان حالاً، ثم ذاهبًا وعمّا قليل ينقطع الحال ويحتبس المستقبل، فيكون الذاهب كله بروح على مستقبل ما هنالك، فحقيقة الدنيا إنما هي عرض يعرض ومعنى به غيره إذ تمامها في سواها، والمراد بها غيرها، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، آكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف**» قال: «**فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر أو الحرور فمن جهنم**»، **وفي** أخرى: «**من السعير**»[1].

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يوم خلق السماوات والأرض، ثم استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا، فهو عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»[2] **وفي** أخرى: «**سبقت غضبي**»[3] فأرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل:65] بقدرته فلولا الماء لكانت تلك - أعني النفسين - جهنم الصغرى، ولولا النفسان لكانت الأرض بما فيها الجنة الصغرى، لكنه برحمته كسر برطوبة الماء يبس الزمهرير، وأطفأ ببرده سموم السعير، وغلبت رحمته على غضبه، فخلق عن ذلك الجنات المعروشات وغير المعروشات، وما أنعم به على عباده وأنعشهم منه متاعًا به إلى أن يبلغوا المحل الذي أخرج عنه الفتح والفيح، فينزل كلاً حيث أنزل نفسه من ذلك كله قال الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:9].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

---

(1) رواه مالك (16/1، رقم 28)، والشافعي (27/1)، وابن حبان (506/16، رقم 7466) والبخاري (1190/3، رقم 3087)، ومسلم (431/1، رقم 617)، وابن ماجه (1444/2، رقم 4319)، وأحمد (503/2، رقم 10545). «الزمهرير»: شدة البرد.

(2) رواه الترمذي (549/5، رقم 3543)، وابن ماجه (1435/2، رقم 4295).

(3) تقدم تخريجه.

تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:11.10].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام:141] وكثير ورد هذا في القرآن العزيز من ذكر الجنات وإحياء الأموات، لكن إنما تصل إلى ما يأتي ذكره بصحة تدبره وفهم معانيه فصوله وأغراضه.

فتوهم - وفقك الله - بعقل حاضر، وإيمان جازم، وانظر بصحة اعتبار إلى الماء النازل حال نزوله من السماء إلى الأرض، ونظر ذلك في وهمك بالنطفة حال نزولها من مستودعها إلى مستقرها، وكون الولد عنها بطفوليته ونشوئه، ونموه وشبابه، واستوائه وكماله، وكهولته وشيخه وهرمه، هكذا إلى منتهى درجاته، وأقضى بمثل ذلك على الماء فعجَّل أجله، وقرب في نظرك وتوهمك بعبده، فكم ترى على ذلك في الماء النازل أيضًا من جنات وعيون، وأنهار وأشجار، ومن كل النبات والأزهار والثمرات؟ وكم ترى فيه من أناسي وولدان، وشيب وشبان إناث وذكران، ثم من دواب بهائم وأنعام، أنسي ووحشي وهوام، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30] أي: بما كان هذا كله عنه من جنة فيها هنالك ونار في دار الأبد من الكون فيها والرجوع إليها، وبرب قادر على إحيائهم كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الرعد:3] و﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:7].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور:45] هذا كله من الماء ثم قال - عز من قائل - : ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور:46] إشارة إلى ما ذكرناه أكثر من ذلك وتنبيهًا عليه.

فالآن - وفقك الله - فارجع النظر كرتين، وانظر إلى الماء نظرك إلى النطفة والكائن عنها أليس الكائن عن النطفة على شبه صاحب النطفة الذي هي منه سلالة، وإن الشبه كائن غالبًا عن السابق منها أي النطفتين سبقت كان الأغلب والشبه إليها، وإن كان لا يخلو الشبه من المتوسط بينهما، فلا يكون عن الآدمي إلا آدمي، وعن البهيمي

إلا بهيمي، وكذلك عن كل جنس جنسه، كذلك لما كان عن الماء النازل من السماء جنات وثمرات وحيوان على أنواع ذلك كله وأخلاقه وصفاته وأسمائه، فالكائن عنه الماء إذا هو في الحقيقة جنات وثمرات، وأنهار وأشجار، وما تقتضيه مغاني الجنات، وإن كان ظاهر ذلك رياحًا يرسلها الله ﷻ في جو السماء، فتلقح في الجو السحاب بإذن الله ﷻ وتولفه، فينزل الماء إلى الأرض كما تنزل النطفة من مستودعها إلى مستقرها فيكون عنها ما تقدم ذكره، أعني: أن النطفة بين آدمي هي منه وآدمي هو عنها، وكذلك سائر النطف كله، كذلك كون الماء عن شبه ما كان عن الماء، فالماء نطفة بين جنة وجنة غير أن تلك عالية وهذه دانية، فافهم.

ألا ترى أن الولد متى شك فيه نظر إلى الأشبه به فنسب إليه، هذا أبين من الصباح المسفر لمن تفكر وأبصر؛ لذلك قال الله - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - لما ذكر إنشاءه: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام:141]، أعقب ذلك بقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99].

ألا تسمع إلى قوله جل قوله: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ [الذاريات:10.11].

ويقرب من هذا قال جل قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:20.22] أي: ما يأتي بالمطر والأمر من عنده، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ما يكون عن جزاء أعمالهم، ثم أقسم على ذلك بقوله الحق: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23] أليس هذا أبين البيان؟!

وكما أن نطقنا موجود ظاهر لنا، كذلك ما يكون عنه الماء موجود ظاهر مكشوف في حق غيرنا، وإن كان الكائن عنه الماء غيبًا في حقنا، أعني: الجنة العليا لعلة هي الابتلاء، وأن المراد منا الإيمان بالغيب في حق الملائكة - عليهم السلام - بل ذلك

شهادة في حقهم.

ألا ترى في قول رسول الله ﷺ للجن: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»[1] فهذا أيضًا غيب في حقنا ومشاهدة للجن.

والجن - فاعلم - مكلفون قد أُبقيت عليهم من الغيوب بقايا لعلة الابتلاء، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة إلى أن تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلا هذين الثقلين الجن والإنس**»[2].

وكما ذكر ﷺ في الميت المعذب في قبره: «**إنه يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين الجن والإنس**»[3].

فهؤلاء الجن قد وصلت مشاهدتهم إلى ما غاب عن مشاهدتنا، ولو كان الميت المصلى عليه ظاهرًا لعيوننا لم نشاهد منه سوى حالته المعهودة عندنا، وهو في مدرك الملائكة - عليهم السلام - حي سوي يسمع ويرى ويجادل عن نفسه، ويحس كذلك نفسًا جهنم - أعاذنا الله الكريم برحمته منها - وكونهما آية على ما منه كونهما، فالجنة والنار موجودتان حقيقة في دار البرزخ والدار الآخرة، دل على هذا القرآن والحديث والوجود، هما مدركين لغيرنا مشاهدة ولنا بحمد الله إيمانًا، وقد يكفي في هذا قوله جل قوله: ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق:22].

فأخبرنا نصًا صريحًا أن الغفلة هي التي حجبتنا، وأن غطاءً على أبصارنا منعنا، وأن المحتضر ليهجم عليه أعظم عجب حين يرى اليقين كيف لم يره؟! كيف حجب

---

(1) رواه مسلم (332/1، رقم 450).

(2) رواه مالك (108/1، رقم 241)، وأحمد (486/2، رقم 10308)، وأبو داود (274/1، رقم 1046)، والترمذي (362/2، رقم 491)، والنسائي (369/1، رقم 631)، وابن حبان (7/7، رقم 2772)، والحاكم (413/1، رقم 1030) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (3/ 250، رقم 5798)، والضياء (423/9، رقم 395)، والشافعي في المسند (72/1)، والطيالسي (311/1، رقم 2362)، وأبو يعلى (331/10، رقم 5925).

(3) رواه أحمد (19121).

هذا عنه؟! كيف غفل عنه؟ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60].

فصل

في أن النفخ في الصور حق

قال الله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:68]، ونظيرتها في سورة النمل، وقال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور، قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»[1].

آية هذا الفصل غيب، ولكنه غيب شاهدته العقول ببصيرة الإيمان وجودًا قام لها اليقين به، فبهذا الوجه كان آية، وإلا فهو أصل وهو جمعه الذوات في الأزل في يمينه الكريمتين - جل جلال ربنا وتعالت عظمته - وكانت الذوات يومئذٍ لم تكن قد نست بعد بأنواع المعاصي والكفر، خلا ما كان في سابق علمه المحيط أن سيكون منهم الذي كان، ولأنه الطاهر القدوس لم يكن لها أن ترجع إلى يمينيه الكريمتين، وقد واقعت المحظور فعلاً وتدنست به فأوجد لهم الصور، وهو من عالم الأمر بدلاً من القبضتين يومئذٍ ليصورهن فيه، أي: ليضمهن ويجمعهن.

كذلك قال الخليل ﷺ يوم علمه كيف يحيي الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يريد الذوات، والله أعلم بما أراده، واجعل من الطوائر: ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:260]، وكنّى عن أصول الطوائر بالجبال، فأمره أن يجعل على كل أصل منها جزءه الذي انتزع في أول الخلقة عنه؛ ليعاد فيه كالمعلوم من

---

(1) حديث أبي سعيد: رواه أحمد (73/3، رقم 11714)، وعبد بن حميد (ص 279، رقم 886)، وأبو يعلى (339/2، رقم 1084)، والترمذي (620/4، رقم 2431)، وابن حبان (105/3، رقم 823)، والحاكم (603/4، رقم 8678). والحميدي (332/2، رقم 754)، وأبو نعيم (105/5).

حديث زيد بن أرقم: رواه أحمد (374/4، رقم 19364)، والطبراني (195/5، رقم 5072) وابن عدي (19/3، رقم 581).

حكمته ﷻ، فأقام الصور التي تصورهن فيه يوم الصعق مقام قبضته والصور من أمره؛ ولذلك عادت الأرواح التي هي أيضًا من أمره إليه حكمة بالغة، وأمر حتم رجوع كل شيء إلى حيث كان آية، ذلك آية فيما بيننا في هذه الدار المطبوعات والمجبولات على ما هي عليه، ولم تكن في البدء كذلك، ألا ترى أنها ليست تكون في البرزخ كذلك، بل يطلقها هنالك من ثقاف الطّبع وأسر الجبلة ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21].

وإنما فعل ذلك الابتلاء وما فيه من تعجيل الكلمة وتأجيل مقتضى السنة؛ لتشهد له الشواهد، وليصدق المتلقين عنه رسالاته، فهو لا يخرق - جل ذكره - العوائد، ولا يفك خاتم الطبع إلا ما يقوم مقام الشهادة منها له، فاعلم ذلك واحرص على منفعته ينفعك الله به إن شاء الله.

ثم يرجع بنا الكلام إلى ما إليه قصدنا، فإذا أذن الله - جل ذكره - لإسرافيل ﷺ في نفخة الصعق، صعق لتلك النفخة كل روح في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وفزع إلى الصور داخرًا صاغرًا ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18]، توحد بالبقاء وقهر العباد بالموت والفناء، ثم يموت إسرافيل ﷺ وملك الموت، فيومئذٍ تمت كلمته في رجوع الموت إلى الموت، ورجع التراب والطوائر إلى أصولها، والأجزاء إلى كلياتها، والأرواح إلى الأمر، ويبقى الملك الحق جل ذكره، الباقي الدائم الحي القيوم فينادى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16] ثلاثًا، ولا داعي يومئذٍ ولا مجيب سواه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فيجيب نفسه ﷻ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

خاصة اسم القهار القدرة على الذوات والأرواح، كما خصّه اسم القادر والمقتدر على إخراج ذوات المقادير من العدم إلى الوجود، وجمع خلقها حتى إذا شاء ﷻ أن يتمم كلمته الحق في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف تناهيها على مبادئها أنزل جل ذكره من تحت العرش ماء كمني الرجال، وأمر كل شيء أخذ من شيء حبة خردل أو أدنى أن يأتي بما فيه، فيرجع كل شيء على طريقه الذي ذهب عليه، فينبت أجسام الخليقة كما ينبت النبات، ثم يحيي إسرافيل ﷺ فيأمره بالنفخ في الصور نفخة

النشور، فينفخ وتخرج كل روح إلى جسده، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:68].

فصل في

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج7]

هذا الفصل قريب القرابة من فصل إحياء الله الموتى جدًّا، غير أن الله تبارك وتعالى ذكرها وأفرد لكل واحد منهما شهادة فلا بد من إفراد الكلام فيه، ولم يكن الله تبارك وتعالى ليذكره إلا وشهادته في مصنوعاته قائمة، فآية هذا الفصل إخراج النبات من الأرض بعد أن كانت جدبة خاوية، فأخرج منها وعنها أجسامًا لم تكن بها قبل، قال الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:9] ونظائر هذا كثير، وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، والميت هو الجسم، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: يخلص الجسم من الروح الذي تشبث به، ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ثم قال جل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:19] أي: على هذه الطريق تخرجون من القبور بأن يعيد الحي من الميت، ويحيى الميت بالحي.

كذلك قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:7] ومن يخبر بها عمن يعقل هي النفس، وهي التي يعمر بها القبور، والبعث لا يوصف به الأجسام، إنما البعث للنفوس، قال جل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ إلى قوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:42]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:60]، فذكر البعث والإرسال للنفس، وجعل ذلك آية على البعث الآخر؛ إنما تبعث الأجسام بحلول الأنفس فيها.

ومن آيات البعث أن خلقنا جل ذكره عن الأصول ويهى ميتة، فسوانا فإذا نحن أحياء نسعى ونقبل وندبر، كذلك إذا أماتنا وردَّنا إلى حيث كنا يعيدنا كأول مرة ويبعثنا؛ ولذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ

تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:20]. قد وعد بذلك الخالق القادر عليه جل ذكره الصادق في قيله، ووعد على التصديق به والإيمان أجزل المثوبة، كما وعد على التكذيب به أشد الوعيد، وأنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وأقسم عليه بقوله الحق: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]، وأمر نبيه ﷺ بالقسم على تحقيقه وتصديق الشهادة، فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فهو كائن لا بد ولا محالة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4]، نسأل الله من فضله العظيم إيمانًا صادقًا، وعملاً متقبلاً، ورضوانًا منه إنه قريب مجيب .

فصل

(وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا)[الحج7]

آيات هذا الفصل أيضًا كثيرة لا يأخذها الحصر، فتطلبها - وفقك الله - في انقضاء الآجال وتمام الآماد كلها، فما من أمد صغير ولا كبير إلا يريك بتمامه وانقضائه تمام الدنيا وانقضائها، فكما يأتي الأمد بعد الأمد، والأجل بعد الأجل، واليوم بعد اليوم، والساعة بعد الساعة، والحين بعد الحين، والنفس بعد النفس، والطرفة بعد الطرفة، كذلك يقضى يوم الدنيا ويخلفه اليوم الآخر.

وقد أخبر به الصادق الحق، فلا بد من كونه وإتيانه، وذلك هو إتيان الساعة بلا ريب ولا تقليد ولا تردد، والحمد لله رب العالمين.

فمنكر الساعة والدار الآخرة بما فيها على هذا كمنكر الموت، وكمنكر تقلبه في حركته وسكونه وتنفسه، وانقضاء الساعات والأيام بعد الأيام، وتمام الآماد بعد الآماد، ومنكر ذلك منكر لكونه على ما هو.

فصل

وأن لقاء الله حق

كلامنا في هذا الفصل في لقاء الموت، ولقاء اليوم المشهود لقاء العرض على الله

ﷻ، وهو لقاء يعم الكافر والمؤمن، وإنما يفترقان في الإكرام والإهانة، فيكون لأجل ذلك عرف اللقاء للمؤمن، والكافر العرض والتوقيف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود:18]، قال الله جل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:223] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ....﴾ [الانشقاق:6] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق:10]، وقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ....﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الأنعام:30] وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:8]، وقال: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العنكبوت:5]، وهو آية لقائه ﷻ أخذه جميع بني آدم في القبضتين.

ومن آيات ذلك أيضًا جعله معرفة في ذواتهم، وأخذه الميثاق عليهم حين أشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، فجمعه إياهم يومئذٍ في يمينيه الكريمتين تبارك وتعالى لقاء ومعرفة، والعلم به لقاء، وأخذه عليهم الميثاق، وإشهاده إياهم على أنفسهم لقاء، وإقرارهم له على أنفسهم بأنه ربهم لقاء، ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب:15] ﴿وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم:61].

ولا بد من رجوع الحكمة آخرها على أولها، وقد أخبر بذلك وبشر به وأنذر، فلا بد منه ولا محيص عنه.

ولا تردد في العلم بالرجوع إلى الله جل ذكره ولقائه، وعليه كان طريقنا فإليه مصيرنا ومنه كان بدؤنا، فلا بد من الرجوع إليه ألا ترى أنا لما كنا من تراب موجودين لم يكن لنا بد من أن نرجع إلى التواب، كذلك الرجوع إلى الله ﷻ، فافهم.

وفي ذلك قال بعضهم:

أَلا إِنَّنا كُلَّنا بائِدُ ... وَأَيُّ بَني آدَمٍ خالِدُ

وَبَدؤُهُمُ كانَ مِن رَبِّهِم ... وَكُلٌّ إِلى رَبِّهِ عائِدُ

نسأل الله من فضله وجنته أن يجعل لنا في ذلك كل إكرام وقربة وزلفى إنه رحيم كريم.

فصل

وأن الفتَّانين منكر ونكير حق

وكذلك فتانا القبر منكر ونكير وهما ملكان، قال رسول الله ﷺ: «**أسودان مهيبان من غلظهما وفظاظتهما وفظاظة منظرهما**»[1]، نعوذ بالله من فتنتهما، يقيمان الميت أول مدخله بعيد تسوية التراب عليه، حتى إنه ليسمع قرع نعال أصحابه بعد منصرفه من لقاء ربه، فيقولان له: «**من ربك ومن نبيك ....**»[2]، وفي بعض الروايات أنهما ينتهرانه أو أحدهما في السؤال، فيثبته الله تعالى ويقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ، فينتهره فيعود للشهادة ويثبته الله، فيقول: صدقت، وينادي ملك من السماء: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم:27].

قال: وأما الكافر فذكر أنه ينتهره فيجيب كالواله، فينتهره بعد حيرته وشكه فلا يزداد إلا شكًّا وحيرة، فيقال له: لا دريت ولا تليت، وفي أخرى: تقول الملائكة بعد قبض العبد: أي ربنا إنك أمرتنا بقبض عبدك وقد قبضناه، فيقول: «**ردوه فأعيدوا فيه الروح فإنه يسمع خفق نعالهم حيث يولوا مدبرين**»[3]، وفيه أنه يصعد به من الباب الذي كان يصعد بعمله، وفيه أن الملكين ينتهرانه انتهارًا شديدًا بعد قوله: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، قال: وهي آخر فتنة للمؤمن.

وأما الكافر فيضرب بمطارق من حديد؛ جزاءً لتجاسره على عظيم للفرية

---

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (177/1).

(2) رواه الطيالسي (ص 102، رقم 753)، وأحمد (287/4، رقم 18557)، وقال الهيثمي (50/3): رجاله رجال الصحيح. وأبو داود (239/4، رقم 4753)، والروياني (263/1، رقم 392)، وهناد (205/1، رقم 339)، وابن خزيمة في التوحيد (ص 119)، وأبوعوانة كما في إتحاف المهرة (459/2، رقم 2063)، وابن منده (962/2، رقم 1064)، وقال: هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة. والحاكم (93/1 98، رقم 107، 109 117)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (355/1، رقم 395)، وقال: صحيح الإسناد.

(3) رواه ابن أبي شيبة (254/3)، والطبراني (87/11، رقم 11135).

والتكذيب، وخزيًا لنفسه المتكبرة عن اتباع الرسول ﷺ واتباع العلماء من أمته، ويضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه؛ جزاءً لضيق صدره عن الانشراح للإسلام، وحرجه عند سماع الهدى على ألسنة العلماء والأنبياء، ثم تتناوب عليه أنواع الأهوال والمفزعات على الدوام؛ جزاءً لدوامه طيلة عمره على أعماله السيئة دون رجعة ولا توبة، ويقال له: هذا منزلك من الجنة أبدلك الله به منزلاً من النار، فيعرجان عليه جميعًا.

وأما المؤمن أو الموقن فيقول لهما: هو رسول الله ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق، ويفتح له منها باب إلى الجنة تأتيه منها بشاراتها ورياحينها وروحها إلى يوم الدين، ويفسح له في قبره سبعين ذراعًا ومد بصره، ويقال له: هذا منزلك من النار أبدلك الله به منزلاً من الجنة.

ولا يبعدن عليك تحقيق هذا وتصوره، فإن لكل حق حقيقة، فالحق ظاهر والحقيقة باطن، كما قال رسول الله ﷺ لحارثة رحمه الله: «**لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**»، فجعل يصف حقيقة إيمانه بقوله: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وإلى أهل الحشر مقبلين ومدبرين، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وإلى أهل النار يعذبون»[1].

وقال رسول الله ﷺ للجن وقد طلبوا له الزاد: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا وكل بعرة علف لدوابكم**»[2].

فكون العظم مسلوبًا من لحمه والبعر على ما هو عليه حق وهو ظاهره، وكونه عليه لحمة أوفر ما كان، والبعر على ما كان عليه قبل أن تعتلفه الدواب حقيقة، وإن كان غيبًا في حقنا فهو شهادة لغيرنا، وهذا يصحب جميع الموجودات من كون الصلاة نورًا والصدقة برهانًا، وأنها تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، «**فلا يزال يربيها له، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون الثمرة مثل جبل أُحد**»[3].

---

(1) رواه أحمد (23373).

(2) تقدم.

(3) رواه أحمد (331/2، 8363)، والبخاري (511/2، رقم 1344)، ومسلم (702/2، رقم 1014). وأخرجه أيضًا: مالك (995/2، رقم 1806)، والنسائي في الكبرى (413/4، رقم 7735)، وابن =

وكذلك كون الصبر ضياء، والأعمال كلها على مقتضاها لها بواطن يحققها التوجه بها إلى الله المصور الحق، فيصورها على حقائقها التي سبق لها من التصوير في علمه ومشيئته، وهي حقائق لحقوق أوجدها عليه ﷻ على أيدي فاعليها، يوم إظهاره لها في الدنيا، والميت ظاهره ميت وهو الحق منه، وحقيقته أنه حي يسمع ويعقل ويحس ويجادل عن نفسه فيما هو حق وميت، عبر عنه ﷻ بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:46]، وبقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون:112 - 113]، وبقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:55]، وبما هو حقيقة وحي عبّر عنه بقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:47]، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:45ـ 46]، وبقوله جل قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:88] الثلاثة الأصناف إلى آخر السورة، وعنها عبّر قول رسول الله ﷺ في الجنازة: «**وإنها تقول وهي على رقاب الناس إن كانت صالحة: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك تقول: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين**»[1]، وبقوله الحق: «**إن الميت ليسمع قرع نعال أصحابه إذا تفرقوا عنه**»[2]، وغير ذلك مما جاء عن الأموات أنهم في حكم الحياة تجتزئ، من ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154]، ونظيرتها في سورة آل عمران: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169].

=

حبان (113/8، رقم 3319)، والبيهقي (176/4، رقم 7535).

(1) رواه أحمد (292/2، رقم 7901)، والنسائي (40/4، رقم 1908).

(2) رواه أحمد (9740).

فكما أن الكفار أموات غير أحياء هاهنا، كذلك الشهداء أحياء غير أموات هنالك والمؤمنون كذلك، قال الله ﷻ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:70] أي: لكونهم أمواتًا، وهذا هو الذي يعطيه الوجود لمن تذكر واسترشد الرشيد الحق المرشد - جل وتعالى - قال الله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28].

وفيما تقدم من الاعتبار أن العالم ينشأ بإنشاء المنشئ الحق فقد كنا في الأزل عدمًا لا حياة فيه إلا إحاطة علم الله العلي وزمه إيانا بالتقدير السابق، ثم أوجدنا للتقدير وأخذ المواثيق، فلما كان من ذلك ما شاء أماتنا فجعلنا في خزائن السماوات والأرض، فكانت هذه الموتة الأولى عبر عنها بقوله جل قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾، ثم أحيانا هذه الحياة وابتعثنا من موتتنا تلك، فكانت الموتة الأولى أصغر في حكم الموت من العدم الأول، وكانت هذه الحياة أكبر من الحياة الأولى حياة الإقرار، ثم هذه الحياة حياة بين موتتين: موتتنا الأولى وموتتنا المستقبلية، وهي أصغر من الموتة الأولى لما تقدم من حكم الشيء، وهذه موتة بين حياتين.

ومعاني هذه الحياة تردد وتروح عليها وفيها، وهي لوح وتقدير للحياة العظمى، فهذا كله موجب لذكاء هذه الحياة وعظمها في حال هذه الموتة المستقبلة أو كشف الغطاء، وإن هذه الحياة المستقبلة الآخرة راجعة على كوننا الأول في علمه وقدرته ومشيئته، لا موت فيها كما لا موت في كانه جل وتعالى، ولما لم يكن إحياء لأنفسنا يومئذٍ أوجب علينا الموت الذي تقدم ذكره، كما أنه لما كنا يومئذٍ في كانه الحي الدائم كان الرجوع إليه إن شاء الله لا موت فيه حكمة بالغة، فهذه حقيقة هذه الموتى وحالها، فاعلم ذلك.

فصل

وأن كل ما أخبر رسول الله ﷺ من الغيوب

بعد الموت حق

ثم ترق الفتنة في القبر كما رقت فتنة المحيى، ويرق الجزاء عليها كما رقت السيئات في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «**رأيت امرأة تعذب في النار في هرة ربطتها، حتى**

ماتت لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

وقال: «**بينا رجل يمشي على الطريق إذ مر بغصن شجرة، فقال: لأقطعن هذا الذي يؤذي الناس في طريقهم، فقطعه، قال: فلقد رأيته يتقلب في ظله في الجنة**»[2].

وقال في أخرى: «**إن رجلاً كان يعذب؛ لأنه كان لا يستتر من بوله**»، وفي أخرى: «**من البول**» وفي أخرى: «**لأنه كان يمشي بالنميمة**»[3]، وفي أخرى: «إن رجلاً كان يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فرآه ﷺ يشرشر شدقاه بكلوب من حديد يفعل به ذلك من جانب، فإذا فرغ منه جاء إلى الجانب الآخر من شدقيه، فلا يتم منه إلا وقد التئم الأول فرجع إليه، فلا يتم منه إلا وقد التئم الآخر هكذا يصنع به إلى يوم القيامة».

ورأى آخر ملقى على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو حجر، فيضربه فيشدخ رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر فينطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا إلا وقد التئم رأسه ويعود كما هو، فعاد إليه فضربه هكذا، فقيل له: هذا رجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل به بالنهار يفعل ذلك به إلى يوم القيامة.

ورأى قوماً في نقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله وتتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا منها، فإذا خمدت رجعوا فيها رجالاً ونساء عراة، فقيل له: هؤلاء الزناة.

ورأى نهراً من دم فيه رجل قائم وسط النهر، وعلى شط النهر رجل قائم بين يديه حجارة، فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بالحجر في فيه

---

(1) حديث ابن عمر: رواه البخاري (1205/3 رقم 3140). وعبد بن حميد (ص 252، رقم 789).
حديث أبي هريرة: رواه أحمد (269/2، رقم 7635)، والبخاري (1205/3، عقب رقم 3140)، ومسلم (2110/4، رقم 2619)، وابن ماجه (1421/2، رقم 4256). وابن حبان (438/12، رقم 5621). «خشاش» أي: هوام الأرض وحشراتها.

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (873/2).

(3) حديث ابن عباس: رواه ابن أبي شيبة (115/1، رقم 1304)، وأحمد (225/1، رقم 1980)، والبخاري (88/1، رقم 215)، ومسلم (240/1، رقم 292)، وأبو داود (6/1، رقم 20)، والترمذي (102/1، رقم 70)، والنسائي (106/4، رقم 2069)، وابن ماجه (125/1، رقم 347). حديث أبي أمامة: الطبراني (216/8، رقم 7869) وأحمد (266/5، رقم 22346).

فرده حيث كان، فجعل كلما جاء أن يخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقيل له: إنه آكل الحرام.

ورأى الشجرة الخضراء العظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان، ورأى رجلاً قريبًا من تلك الشجرة بين يديه نار يوقدها، فقيل له في الشيخ: إنه إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - وفي الصبيان أنه كل مولود يولد على الفطرة، فقال له رجل: يا رسول الله، وأولاد المشركين، قال: «**وأولاد المشركين**»، وقال في الرجل الذي يوقد النار: «**إنه مالك خازن النار**».

ورأى أنه صعد به في تلك الشجرة، فأدخل دارًا لم ير قط أحسن منها فيها شيوخ وصبيان، ثم أخرج منها وصعد به الشجرة، فأدخل دارًا هي أحسن وأفضل منها فيها شيوخ وشباب، فقيل في الدار الأولى: إنها دار عامة المؤمنين، وأن الدار الثانية: هي دار الشهداء[1].

قال: «**وفتح لنا مدينة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت رائي، وشطر كأقبح ما أنت رائي، فقيل لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر معترض كأن ماؤه المحض في بياض، فذهبوا فوقعوا فيه فرجعوا إلينا وقد ذهب السوء عنهم، وصاروا في أحسن صورة، فقيل: هذه جنة عدن، والقوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فتجاوز الله عنهم**»[2].

وأما سابلة آل فرعون فرأى: «**رجالاً بطونهم كالبيوت فإذا عرض آل فرعون على النار غدوًا وعشيًا، فيوقفون آل فرعون فيثردونهم ثردًا بأرجلهم**» قال: «**فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء أكلة الربا**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275][3].

والشواهد على عذاب القبر ونعيمه قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى

(1) رواه الطبري في تهذيب الآثار (272/6)، والبيهقي في الدلائل (272/2).

(2) رواه أحمد (8/5)، والطبراني (237/7، رقم 6984).

(3) رواه ابن ماجه (763/2، رقم 2273).

غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:93]، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:46،45]، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:46]، فهذا عذاب الآخرة، وهو أشد العذاب كما قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:47].

وقوله: أيضًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:50].

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [النحل:63] أي: في دار البرزخ، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63] في اليوم الآخر، وهذه الآي كلها في المفترين على الله ﷻ والمكذبين رسله.

وقد جاء في الموحدين أيضًا ما يوجب العلم أن ذلك حق واقع لا محالة قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ* وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ...﴾ [الواقعة:88-90] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:275]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ...﴾ إلى قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾ [الحجرات:12]، ونصب ميتًا على الحال من الأكل، أي: أن المغتاب يأكل لحم أخيه في دار البرزخ وهو عذابه هنالك وجزاؤه.

وقد تقدم أن آية فتنة القبر هي فتنة المحيى، ومن يأتي عذاب القبر ونعيمه الرؤيا والأحلام المبشرات والمحزنات والمفزعات، وكما جعل الله ﷻ النوم بين اليقظتين آية على الموت الفاصل بين الحياتين، كذلك جعل الأحوال فيه آيات ودلائل على أحوال الميت هناك، فاعلم صغير بصغير وكبير بكبير إلا ما شاء ربك من كان في يقظته على

شيء، فأغلب أحواله أن يكون على مثل ذلك في نومه، كذلك من عاش على شيء فأغلب أحواله أن يموت عليه، ومن مات على شيء فعليه يجازى في دار البرزخ وعليه يبعث، والرؤيا قال رسول الله ﷺ: « **الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان**»[1].

وهو شيء يحزن به الشيطان العبد المؤمن لكنها داخلة في المنذرات، وربما يقع منها التعوذ والتناسي لها، ورؤيا تكون عن حديث النفس وعذاب القبر ونعيمه يدور على هذه الثلاثة الأصناف، وشرح هذا على حكم التقصي يطول ولا يبلغ منه إلى أقل معلوماته، لكن اعتبر ذلك بعبارات الرؤيا منازل أهلها في أعمالهم وطرائقهم وأخلاقهم وغلبة الهوى عليهم أو غلبتهم له.

والكلام في هذا الفصل على الإجمال، واختصار الإكثار أنها على هذا الوجه من الاعتبار ثلاثة أدور: دار الدنيا ودار الآخرة، ومنزلة دار الدنيا من دار الآخرة بالمنزلة التي مثلها رسول الله ﷺ: «**كإصبع أدخلته في اليم**»[2]، ودار البرزخ دار وسط بينهما في القدر والرؤية، فالجنة ومعانيها وحقيقتها أظهر في دار البرزخ منها في دار الدنيا، بمقدار ليس باليسير بل هو كثير جدًّا بالإضافة إلى الدنيا، وكذلك النار وتوابعها ومعانيها ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران:60].

غير أنها روحانية الأجسام وجسمانية الأرواح، والأخرى جسمانية كلها إلا ما شاء ربك، وكل ما في الدنيا من المعاني الغيبية فهي هناك موجودة مشهودة مجسمة، حتى أن الموت مجسم فيها حين تذبح، والأعمال كذلك، والصوامت تنطق، والجوامد

---

(1) رواه ابن أبي شيبة (70/6، رقم 29544)، والبخاري (2169/5، رقم 5415)، ومسلم (1772/4، رقم 2261)، وأبو داود (305/4، رقم 5021)، والترمذي (535/4، رقم 2277) وابن حبان (423/13، رقم 6059)، والنسائي في الكبرى (391/4، رقم 7655).

(2) رواه ابن المبارك (170/1، رقم 496)، وهناد (295/1، رقم 517)، وأحمد (229/4، رقم 18043)، ومسلم (2193/4، رقم 2858)، وابن ماجه (1376/2، رقم 4108). وأخرجه أيضًا: الحميدي (378/2، رقم 855)، وابن أبي شيبة (75/7، رقم 34306)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (124/2، رقم 835)، وابن حبان (29/14، رقم 6159)، والطبراني (301/20، رقم 713) والقضاعي (292/2، رقم 1387)، والبيهقي في شعب الإيمان (324/7، رقم 10459).

تشهد وتتكلم، وكل شيء يكمل ويتم، وذلك لسوء الخليفة كلها يومئذٍ نشأ العالم نشأة على غير قياس منا وكمل، ألا ترى أن الأجسام يومئذٍ تحمل هول المطلع وفزع المقام الأكبر، وتحمل من التوبيخ - أعاذنا الله الرحيم برحمته منه ومن عذاب النار - ما لا يقدر الآن قدره، وكذلك المؤمنون يحتملون ذلك الفرح العظيم الذي لو توهموه في الدنيا لذابوا وماتوا وزهقت نفوسهم، ويحتمل أبصارهم رؤية تلك الأنوار بل يكتنفها من الأيد على رؤية ذي الجلال والإكرام الملك الجبار ما يحتمل به ذلك، حتى أن عرش ربك ليحمله يومئذٍ ثمانية، وإنما هي الغفلة التي غطت على القلوب، والغشاوة التي جُعِلت على الأبصار لعلة الابتلاء بالإيمان بالغيب، ولو كشف الغطاء ورفعت الحجب والغشاوات عن القلوب والأبصار لأبصرنا، وشاهدنا أكثر مما تبلغه أوصاف الألسنة.

وإن المحتضر حين يُكشف عنه الغطاء فيعاين الحقيقة؛ ليعظم عجبه جدًّا مما لَمْ ير في الدنيا ما هو معاينه في ذلك الحين لولا الحين المعاجل، قال سبحانه وله الحمد: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:50]، لو لم يكن من التوصية ما كانت توصيته إلا بالإيمان بما أظهر له في حينه، ذلك كما قال الأول :﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:27.26]، قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بمعاينة ما هنالك ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ...﴾ [ق:19] إلى قوله جل قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:22] فهذه كلها أحضرها ذكرك، واعتبرها بعقلك، وإياك ومفارقة الاقتداء طرفة عين.

وذكر الله ﷻ الدار الآخرة ودار الدنيا، وكرر ذكرهما، وأبدى فيهما، وأعاد يذم هذه ويمدح تلك، وما ذكر البرزخ إلا تعريضًا وعلى سبيل الإدراج لذكرها بينهما، وبأخرى لم ينص على ذكرها؛ إذ النص في الخطاب في مقابلة التجسيم في الخليقة، والتعريض في مقابلة الروحانية.

وكانت دار البرزخ روحانية الأجسام، فجاء الخطاب بها والعبارة عنها على نحو ذلك حكمة بالغة وسنة قائمة، وللابتلاء المقدور وهي التي وجد الأوائل بالعقول فاعتقدوها دون تجسيم الآخرة ولم يستضيئوا في رؤيتها بنور نبوة، فغلوا فيها وشعروا

بالرجعة ولم يروا الآخرة، فاعتقدوا التناسخ لأجل ذلك في الأرواح، وجعلوا الترتيب في الجزاء بعد الموت ترتيب الموجودات في الإكرام والإهانة؛ جزاءً لإتيانه بما اعتقدوه بمجرد عقولهم القاصرة من حسن وقبيح.

وتكشط السماوات، وتقويض البناء، وتغيير الهيئة، وتبديل السماوات والأرض بغيرهما يغيب مع لقاء الله تعالى، هو الذي إليه المصير وعلة خطئهم هي أنهم لم يشعروا لمعنى النشوء في العالم، ولا علموا مقتضى اسم المنشئ؛ فلم يروا الكمال ولا علموه قبل كماله في طريق نشوئه، سواء ما رأوه واعتقدوه في معقولهم، كذلك وجد الآخرة كثير من أتباع الرسالة، وفات عقولهم القاصرة روحانية البرزخ، فقالوا بتكذيب عذاب القبر وسؤال الملكين، وردوا أكثر ما جاء من الأخبار بالغيوب، كأنهم لا يعلمون، والسلامة إن شاء الله من عذاب القبر وفتنه إن شاء الله تعالى ﷻ، ومن نجا من القبر فقد نجا مما بعده أن يلتزم أتباع سبيل المؤمنين، وافتقاد سنن المتقين في عقودهم وأعمالهم، وألاَّ تمسي إلا تأيبًا ولا تصبح إلا تأيبًا؛ فإنما عذاب القبر من ذنوب وعادات لم تقطع ولم يتب منها، نسأل الله الذي لا إله إلا هو تمام عصمته، وسبوغ نعمته، وألاَّ يكلنا إلى أنفسنا برحمته .

فصل

وأن سيدنا محمدًا ﷺ رسول الله حق

قدمنا الكلام على هذا الفصل؛ لتقدم الوجوب علينا في الشهادة لمحمد رسول الله ﷺ بالنبوة والرسالة على غيره، ولأن الشهادة له بالنبوة والإذعان له بالطاعة شهادة لجميع الأنبياء، سواه - صلوات الله عليهم- بما هم له أهل؛ لا جائيًا بالتصديق لهم دليل اختصاص كل رسول بالرسالة، وخروجه بها عن جنس البشرية، هو ظهور المعجزات على يديه، وخرق العادات له ومن أجله؛ وذلك أن الله ﷻ ألزم المخلوقات أطباعها، ورتبها وأجراها على سننها وقوانينها، فهي مستصحبة حال جريانها على سبل جريانها تلك، فكون المطبوعات على ما هي عليه بمنزلة البشرى منا على ما هو عليه سواء؛ فإن سلك به ربه عز وجل سبيل الاختصاص له، وأخرجه من تلك الجهة عن حد البشرية، فقد جعل الله ﷻ له في مقابلة خرق سبيل البشرية فيه بالاختصاص إظهار المعجزات، وفض خاتم الطبع الذي ختم به على المطبوعات في مقابلة الاختصاص؛ حكمًا عدلاً وقضاءً فصلاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:26]، فإذا خرق تبارك وتعالى

لأحد من عباده على وجه يتبين أنه لأجله خرقها، قام ذلك مقام شهادة الشهيد الحق على صدقه ما جاء به.

وإذا تأمل المتأمل المنصف الناصح لنفسه إلى ما أظهر الله تبارك وتعالى على يدي رسوله ﷺ، وجد الذي جاء به من الإعجاز في غاية الخصوصية ونهاية الفرقان والبيان، ثم إن نظر بصحة عقل ونور إيمان وتوفيق من ربه ﷻ، واستسلام إليه، وتبرأ من الحول والقوة إليه ظهر له يقينًا أن الذي جاء به لم يكن له أن يأتي به إلا من عند الله ﷻ؛ لما يشاهده في شرعته من اتساق الحكمة، واستقامة الصراط، وهداية السبيل، والوصل الموصل، فإذا تحقق هذا جدًّا صعد بإيمانه علوًا بإيمان جزم لا يفارقه، وطلب التعلم من ربه وحده ناسيًا لنفسه؛ تاركًا لصفاتها، فيجد قواعد ما جاء به ماشية على العدل، قائمة بالفصل، منتزعة من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والأمر الحق ولا يتيسر هذا إلا لمن نظر في العالم، فتبين له مسالك الحق المخلوق به السماوات والأرض.

فإن نظر مع ذلك الفطن الماهر الموفق في القرآن العزيز بمثل ما تقدم، فهيهات هناك احتملت الخيرات وتفتحت الإصابات، فسطعت عند ذلك أنوار بصائر وضياء مشاهدات لا يعرفها الغافلون، فيومئذٍ يعرف حقيقة المعرفة أن النبوة انفصلت عن الصفات العلى، وأن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم وإمام المتقين من الأولين والآخرين، وأن هذا هو الهدى، وأن ما جاء به هو الحق المبين، وأن صراطه المستقيم، وأن القرآن كما تلاه، وأن الحديث كما حدثه، وأن السنن الحق كما سنه، وكلما أمعنت في النظر وألححت بالتدبر بدا لك الأمر وازددت بصيرة، فلاحت لك الحكمة في طرقات سنته، وأن جميع ما جاء به من كتاب وسنة هو عن ربه ﷻ.

فصل

وأن جميع النبيين حق

وما جاء به حق من عند الله ﷻ آيات النبوة وجود العالم كثيرة وطرقها بينة نيرة، والحمد لله رب العالمين، لكنا أردنا أن نبين المعنى الخاص منها الممنوع من سواء الخاص غير الممتنع، وهو المعنى المثبوت؛ في العالم منها فنقول والله الموفق للرشاد: النبوة الكبرى ممنوعة من سوى النبي الحق، فآيات النبوة ليست بنبوة، كما الدلالة على الإلهية والآيات المبينة ليست بالإلهية؛ فالفرق بين النبوة المجحودة الممنوعة، وبين ما

هو آية عليها الذي هو المثبت منها في العالم أن الكبرى الممنوعة هي نزول الملك بأمر الله على قلب العبد النبي المراد بذلك النبي ﷺ إنباء له بذلك، وتبليغًا عن ربه ﷻ، كالإلهية في منزلتها صفتها الحق ممنوعة مقطوعة من سوى الإله الحق؛ لكونها جامعة الأسماء الحسنى كلها والصفات العلا بإجماعها على الكمال الأقصى والتمام الأرفع، وما كان من صفاتها المثبتة في العالم، الذي هو آيات ودلالات عليها من معاني الحمد؛ فإنما ذلك من صفات الحق المجبول عليها العالم، وهو أثره ﷻ فيه الدال عليه منه، وهو المعنى بقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [العنكبوت:44]، فيه الدال عليه منه؛ وهو الذي يشهد به الموجودات على أنفسهم، بما هي عليه من نقص الخليقة، وافتقار الصنع، والتناهي في الحدود والأقطار والآماد والصفات والمعاني والأسماء، كما به يشهد الإله الحق بما هو عليه وتسبحه وتحمده وتقنت له.

وحقيقة ذلك المعنى المشار إليه في الخليقة هو أنه عبد متذلل مجعول، وما عدا ما ذكرناه فهو الحق، ومحقق هذا الحق الموصوف ممنوع وصفه، مقطوع إضافته من غير الإله الحق، لا ينبغي إلا له، لا إله إلا هو العليم الحكيم.

تقريب ذلك أن الإنسان وغيره يوصف بصفات ما، كالقدرة والمشيئة والعلم مثلاً، لكن لم يبلغ قط قدره لسواه أن يخرج جوهرًا أو جزءًا، ليس موجودًا في العالم من عدم إلى وجود، فكيف بإيجاد السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وكذلك لم تبلغ مشيئته قط أن يكيف حاملها الموصوف بها ما شاء متى شاءه على ما شاء وكيف شاء؛ حتى لا يتعذر عليه شيء ولا يفوته، وكذلك لم يبلغ علم قط من سواه كائن من كان أن يحيط بعلم ما كان، وما لم يكن، وكيف يكون إذا كان، ومتى يكون، وما لا يكون أبدًا كيف كان يكون لو كان على الحقيقة؟ بعلم يتناول جميع المعلومات تناولاً واحدًا من جميع وجوهه.

وهذا في جميع الأسماء والصفات، فهنا تحققت الإلهية للإله الحق - جل ذكره - صفة النبوة في سبيلها، خص منها رفيعها للمخصوصين بها، وجعل ما عدا ذلك في العالم مبثوثًا؛ ليدل منه عليها، وليقرب العقول من فهمها، ولو لم يكن من جنس النبوة في جبلة العقول، ولا معنى من معانيها لما عرفتها ولا أمنت بها، ومن خاصتها أن المخصوص بها ﷺ ما يأتي بها ليس في طاقة البشر الإتيان به، مما تفرد الله ﷻ بفعله من الأنبياء بالغيوب وخرق العادات والإتيان بالمعجزات؛ ليكون ذلك دليلاً على

صدقهم، وموجبًا لاتباعهم فيما يأتون به من سنن وأقوال وأحكام وتبليغ عن ربهم ﷺ.

وما كان من صفات النبوة في العالم مبثوثًا، فهو من صفات الحق كما تقدم ذكره، ينشأ بنشء العالم وينمو بنموه، حتى يبدو في الحيوان، ثم يظهر في الإنسان، ثم يستعلن في المؤمن، ثم في الموقن، ثم يقوى في الصديق، وكثير تكون هذا في النوع في أهل هذا المقام الرفيع، أعني: الصّديقية أن يضرب بالحق على قلوبهم وأفئدتهم، ويظهر شاهد الحق على ألسنتهم وأعمالهم، وكثير ما يكرمهم ﷻ بضروب الكفايات، وإجابة الدعوات، وقضاء الحاجات، وقد يخرق الله بهم العادات؛ لأنهم في مكان الوصول بين الأنبياء وغيرهم، لكن يُشرط ترك الدعوى، والتزم الإذعان منهم في اتباع الأنبياء، والتعزيز والتوقير لهم مع حسن الاقتداء، ولم لا؟ وإنما بلغوا حيث وصلوا بالإذعان للأنبياء، وحسن الاقتداء بهم.

وكثير ما يكون أيضًا في هذا الصنف محادثة السر والنفث في الروع والصدق في الرؤيا، فالكرامات لهؤلاء في مقابلة الدلالات لهم، والتأنيس لذواتهم على تصديق محادثة أسرارهم، وتحقيق ما يلقى إليهم من الحقائق في مقامهم بمنزلة خرق العادات في التحدي للأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - والذي تمت عليه النعمة بالنبوة الكبرى هو النبي الحق، ثم على الرسول الآتي عن ربه عز وجل ما لم يكن لبشر الإتيان به من قبل نفسه أبد الآبدين، فمن الآيات على النبوة الرؤيا الصالحة، قال رسول الله ﷺ «**الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[1] .

وهذه الأجزاء كلها موجودة في العالم، فاعلم ذلك.

فمنها: ما وجودها في وجود الموجودات، ومنها: ما وجدها بوجود الإيمان، وكل ذلك في الموجودات، وإنما يحيي العبد في بصفة الإيمان، فيبصر ويرى الحق المفطور عليه العالم، ويكون في كل شيء يراه أو يسمعه، دليل من الحق يدل على الحق المبين، ومن الآيات على النبوة الإلهام كله، كإلهام النحل والنمل والطير والدواب، والحيوان كله وجميع أصناف العالم، كل صنف منها أمم أمثالها، فعموم منها

---

(1) حديث أبي سعيد: رواه البخاري (6/2564، رقم 6588). حديث أبي رزين: رواه أحمد (4/10، رقم 16227). حديث ابن عمر: رواه مسلم (4/1775، رقم 2265). حديث أبي هريرة: رواه النسائي في الكبرى (6/225، رقم 10740)، ومسلم (4/1774، رقم 2263).

وخصوص، فالعامي منها يؤم الخاص حتى ترجع فيما هذا سبيله إلى آحاد وأفراد، ومنها: أئمة يأتم بها سائرها هذا في كل صنف، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:7. 8]، فطريق التقوى هناك يؤدي إلى النبوة، صدق إلى صدق، وحق إلى حق، وطريق الفجور يؤدي إلى الفتنة فتنة إلى فتنة، وقال أيضًا عز من قائل: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:3]، فكل إلهام آية على النبوة، وكذلك كل علم واقع عقيب تفكر، وكل ذكر وقع عقيب نسيان، وكل علم سبيله الاختراع، وقال الله جل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:38]، وقال: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:91]، وهذا خطاب جاء في معرض إثبات النبوة ردًّا على من قال: ما أنزل الله على بشر من شيء .

ومن آيات النبوة جعله ﷻ السبل في الأرض لتسلك عليها وتهتدي بها، ولو سلكنا في الأرض على مقاصدنا على غير طريق مسلوكه، لم نهتد إلى مقصد، ولم نبلغ إلى مراد، والعرب تقول للطريق: نبيًا، قال الشاعر:

لَأَصبَحَ رَتمًا دُقاقَ الحَصى   كَمَتنِ النَبِيِّ مِنَ الكاثِبِ

فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض وهم الأئمة، والعرب تسمي الطريق: إمامًا، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:79]، فسمى الطريق إمامًا، وقال في الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:73].

وقال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17. 18]، فهذه دلالة على البعث الآخر، ثم قال جل قوله دالاً على إثبات النبوة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 19. 20].

ومن آياتها النجوم والعلامات التي جعلها ﷻ؛ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، كذلك قال جل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7]، وقال:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:16].

ومن آياتها جميع طرق الحق الهادية على أي مطلوب كان؛ لأنها بدلالتها مخبرة عن هدايتها، ومنبئة عمّا جعلت له، ومرشدة إلى القصد الرشيد، ومبلغة ما استودعته، والعلم كله آية على النبوة وهو أصلها، قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

فهذا أصل النبوة من عند الله جل ذكره لعبده، وقوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة:33]، هذا أصل التبليغ من الأنبياء لأمتهم، فهذه آية النبوة مبثوثة في العالم لا يجهلها إلا متجاهل.

وبالجملة فالعلم ينقسم إلى معنيين: كلمة وسنة، فالكلمة: للتوحيد وما جرى إليه، والسنة: النبوة وما جرى إليها؛ لأن السنة تدل بجريان الأمر منها على سن، سنة ذو الكلمات التامة، لا يوجد لتلك السنن تبديل ولا تحويل، وتدل بذلك أيضًا على وجوب جريان الأمر، الذي ضده النهي على سنن سنة الرسول الآتي من عند الله ﷻ، ثم بعد هذا تتداخل الدلائل، وتنشأ الشواهد على التوحيد من السنة، وعلى السنة من الكلمة، وعلى هذا السبيل من الاعتبار، فالعلم كله مخلوق من دلائل النبوة، كما امتلأ من دلائل التوحيد، لكن لها رءوس ترجع إليها، كما قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[1]، وكما قال رسول الله ﷺ: «**الهدي الصالح والسمت الحسن جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة**»[2].

فصل

وأن جميع الملائكة حق

الشهادة للملائكة - عليهم السلام - بما شهد الله ﷻ لهم به واجب، من أنهم هم القائمون بأمر الله عن إذنه، عباد له طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه عبد بن حميد (ص 183، رقم 512)، والخطيب (66/3)، والضياء من طريق الطبراني وابن أبي عاصم (404/9، رقم 378). والطبراني في الأوسط (303/1، رقم 1017).

يؤمرون، وهم المصطفون من عباده المكرمون عنده، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ولا يسبقونه بالقول، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:28].

والملائكة - عليهم السلام - من عالم الغيب عنا، آتيهم في عالم الشهادة وجودنا، الأخلاق الحسنة من أنفسنا، والصفات المحمودة فينا، كالعلم والحلم والعقل والصبر والجلد والرضا والمحبة، والحزب الصالح كله من أخلاق الباطن، وكالحواس الخمس: السمع والبصر والذوق والشم والحس المشترك واللمس والقوة الفكرية والذكر والفهم والفطنة؛ فوجود هذه المعاني المذكورة ونحوها آيات مبينات عن وجود الملائكة - عليهم السلام - ومن آياتها القوى الموجودة للنبات وأكثر الحيوان، كالقوة الماسكة والقوة الغازية والجاذبة والدافعة والمقسمة - التي تقسم الغذاء بإذن الله ﷻ - فهذه القوى تصحبها ريح قريبة القرابة من الروح الحيواني، وقد عبّر بعض العلماء عن هذه القوى بأنها رياح، فقال: ريح دافعة وريح جاذبة ومقسمة.

وكذلك غير ما ذكرنا هم والملائكة - عليهم السلام - في طبقات العالم يصحبها الروح من أمر ربها ﷻ؛ لتدبير ما يلقى إليها في مصافاتها ومنها سماوية وأرضية، قال الله ﷻ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:4]، ومثله كثير، ويتبع الشهادة بالملائكة الشهادة بالجن والشياطين، وأنهم موجودون، وآتيهم كل خلق مذموم مضاد لكل خلق جميل، واسم حسن وصفة محمودة لنا إلا من أسلم وأصلح، كصفاتنا المذمومة وأخلاقنا إذا صلحت بإذن ربها، وإنما نشأت الصفات في العالم بإنشاء المنشئ الحق الكل من قوى نباتية، إلى قوى جسمانية، إلى خلقية، إلى الحواس، إلى صفات وأسماء.

ثم تنشأ الصفات والأسماء كما تقدم في فصل النبوة، ثم إلى ذوات ملكية أو إلى أضدادها، كنشء النطفة في درجاتها إلى أن تبلغ ما قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:4] أي: مجادل في الله وفي آيات الله، ويدعي النبوة والربوبية من دون الله، ويملأ الأرض جورًا وظلمًا، ويملأ ما بين السماوات والأرض كذبًا وفجرًا، ويحتبس المطر من أجله، وتقحط الأرض بسببه، ويشيع في البلاد والعباد والشجر والدواب شؤمه وضره، ويكون أيضًا منها المؤمن؛ فالولي والنبي والرسول ينزل عليه الملك الكريم بالوحي من عند رب العالمين، ويكلمه الله ﷻ وحيًا إلى سره ربما كلمه

تكليمًا، وعظمه تعظيمًا، أو يجند الجنود، ويقود الجيوش، ويمصر الأمصار، ويحكم بحكم الله ﷻ في البلاد ويعدل في العباد، وينزل الله المطر من السماء ببركته، ويرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته بدعائه؛ فيحيي به الأرض بعد موتها بيمن سريرته، يسأله فيعطيه، ويدعوه فيستجيب له، وإنما كان نطفة ميتة، ومن قبل كان غيبًا مغيبًا في أعماق العالم جمد عليه جامده، وانشرح بها منشرحه، وأعرب عنه معربه، وأفصح به مفصحه من طبق إلى طبق ومن عالم إلى عالم ومن صلب إلى رحم، فمستقر ومستودع نقله في الأحوال، وقلبه في الأكوان إلى أن بلغه حد الاستواء، الذي في الأزل قدره على وفق ما له أوجده في الآن.

وإن الله ﷻ لما خلق عبده آدم وصفيه - صلوات الله وسلامه عليه - علمه الأسماء كلها، وباهى به ملائكته الكرام المقربين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فانظر ما اختصه به وشرفه من أجله على من سواه، فاتخذه خليفة في أرضه، وقدمه إمامًا للساجدين، فأسجد له ملائكته الكرام المصطفين، أعطاه الله أحسن شيء وأشرفه وأسنا عليه، وأكرمه بمعرفته والعلم به، ألا فاعتبر بصحة فهم ونور عقل أي علم هو الذي يستحق به علمه هذا الشريف عنده، حتى يباهي به ملائكته عليهم السلام؟! أتظن أنه علم متاع الدنيا، وأسماء ما يذهب جفاء ولا بقى؟! بل لا يثبت منه اسم على مسمى تتداوله الألقاب والاسميات، وقد قال عنه- عز جلاله- رسوله ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين: «**يؤم القوم أعلمهم بكتاب الله**»[1]؛ يعني هنا: كتابه المنزل، لا بل شرَّف عبده وباهى به ملائكته - صلوات الله وسلامه على جميعهم - بمعرفته العليا، والعلم بأسمائه الحسنى كلها.

وعلى الحقيقة فما اللوح المحفوظ إلا ما اقتضته أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه، فافهم.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة (301/1، رقم 3451)، وأحمد (118/4، رقم 17104)، وعبد الرزاق (389/2، رقم 3809)، ومسلم (465/1، رقم 673)، وأبو داود (159/1، رقم 582)، والترمذي (458/1، رقم 235) وقال: حسن صحيح. والنسائي (77/2، رقم 780)، وابن ماجه (313/1، رقم 980)، والبيهقي (90/3، رقم 4911). وأخرجه أيضًا: الحميدي (217/1، رقم 457)، وابن الجارود (ص 85، رقم 308)، وأبو عوانة (376/1، رقم 1363) وابن حبان (5/ 500، رقم 2127) بنحوه.

فأوجدها في عبده آدم ذكرًا وعلمًا، وجعل ذلك في نبيه عزيز ورثًا خبأها فيهم خباء، وأشهدهم على ذلك شهادة جزمًا، ثم أنشأها بعد في إيجادهم نشاء أحيا ذلك فيهم بالإيمان، وشرحه على ألسنتهم بالبيان، وفصله فيهم وفيما أوجدهم منه بما أعطاهم من الهدى والفرقان، فتجد المؤمن للبذرة التي في قلبه من المعرفة يصدقها بالإيمان ويقيدها بالذكر، ويرددها بالفكر يستن في ذلك الاعتبار؛ فيستفتح الأبواب، ويرتقي في الأسباب، فلا يزال بذلك كذلك، حتى تشمل فكرته أقطار الأرض وتملأ الخافقين، وتخترق السبع الطباق، وتبلغ الكرسي الكريم، وتنتهي إلى العرش العظيم، فيشاهد الملكوت وتشرح بين حجب الجبروت، وتصل الوصل الأعلى والاختصاص الأكبر، وتنتهي إلى المنتهى، ويصعد قلبه إلى المحل الأعلى، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:21].

واعلم أن كل ما ذكرناه من خلق وأمر وفكر ونشء وتنقيل لا تغيب عنه الملائكة، وكل ذلك تقسمه وتدبره وتلهمه بإذن ربها ومعونته لها وتأييده إياها، و﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:53].

ولما تقدم ذكره كان ابن آدم على الحقيقة في تطلبه العلم ليس يتعلم، بل يتذكر ويلتهم لما هو مجهول في جبلته، مفطور عليه في أصل بنيته لأمر متقدم لازم، وحكم من الله العلي الكبير واجب، فأبعد ما يرد عليه من العلوم ما يأتي به الرسول ﷺ عن الله جل ذكره، وتعرف مراد الله ومواقع رضاه ما هو من ذلك، فإذا أخبر المؤمن الرسول بذلك سلم، وقيل: فلولا أنه أيضًا في أصل خلقته ما عرفه ولا ميزه، فآمن به؛ ولهذا يتبين أن ابن آدم ليس يتعلم الآن، بل إنما هو يتذكر .

فصل

وأن الصراط المستقيم هو صراط الله تبارك وتعالى حق

إذ قد تمهد أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأنه الحق، وأن ما يدعى من دونه من إله فهو باطل، والحق لا يأتي إلا من عند الله الحق حسب، فالحق إذًا صراطه وهو الصراط المستقيم؛ إذ كل صراط خالف الحق فليس بصراط مستقيم، قال الله جل

وعز: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:153]، وقال: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:32]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، فهو الحق وصراطه الحق، وهو القائم القيوم وصراطه القويم المستقيم[1].

فصل

وأن الهدى هدى الله

إذ قد تمهد أنه الحق، وأنه محقق الحق، فالهدى الحق هدى الله الحق المبين؛ إذ الحق لا يهدي إلا إلى الحق، وآية هدايته على الحق جعله السبل في الأرض لأهلها ليسلكوا عليها، والنجوم في السماء ليهتدوا بها إلى مقاصدهم، والسبل كثيرة ولكن أهداها إلى الحق أوصلها إلى المقصد على خط مستقيم، كذلك النجوم هداية وليس يهتدي بها إلا العالم بها.

فصل

وأن حكم الله هو الحكم الحق

والعدل القسط

وإذ قد تبين بما تقدم ذكره أنه ﷻ الحق فحكمة الحق لا محالة، وكما اسمه العدل فحكمه القسط؛ ولأن له الملك كله فقضاؤه وقدره العدل؛ إذ هو لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه بحكمه ولا مملوكًا لغيره، فتجور عليه بقضائه وقدره، ولا سواء ملك يقاومه بتعقب حكمه ولا فوقه أمر يأمره وينهاه، فيتصور الظلم في خلافه، سبحانه

---

(1) قال سيدي محمد وفا: وحقيقة الصراط: هو السبيل الموصل إلى المقصود، برزخ بين المتروك والمطلوب، وهو وطن الابتلاء والاختبار؛ فمن ثبت عند الزلازل، وصبر عند المعارضات، واحتسب عند الفتن والمحن التي تعرض للسالكين، وتسلط على الطالبين، كان مع الراسخين الصادقين، ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4]. انظر: الصور النورانية في العلوم السريانية (ص87) بتحقيقنا.

وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6]، وأن كل شيء كان أو هو كائن خير أو شر حلو أو مر خالقه وحده لا شريك له، كل بقضاء منه وقدره كل في كتاب مبين.

قد تمهد فيما تقدم - والحمد لله رب العالمين - أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأنه الحق وأن ما سواه من إله فباطل، فإذًا لا فاعل على حقيقة سواه، وإذا تقرر ذلك فكل موجود سواه خلقه وصنعه؛ إذ كل شيء سواه خلق له وصنع، وإذا كان ذلك كذلك فكل فاعل في العالم كله علوه وسفله، فمسخر في فعله وميسر له بتيسير منه له وتسخيره إياه؛ وإذ قد ثبت أن العالم من أسمائه ﷻ والعلم من صفاته، وأن الأوهام لا تبلغ كنه كمال أسمائه وتمام صفاته، فكل ما أوجد ﷻ قد سبق علمه به في أزل الأزل، وإذا كان ذلك كذلك علمه بعلم محيط من كل جهة وعلى كل معنى، وهذا معنى تقديره في الأزل؛ إذ التقدير ليس هو سوى العلم بالشيء قبل وقوعه على وفق ما يكون عنه في آن كونه، ثم إيجاده على وفق ما تقدم العلم به هو التفصيل.

والتفصيل هو تمييز جمل التقدير، والتدبير هو إيقاع ما ميزه من تفصيل الجمل مواقعه، فإذا كل شيء بقضاء وقدر ولا خالق سواه، فهو المحيط بكل شيء قدرة وتفصيلاً، أوقع تدبيره على ما سبق من تقديره بسابق علمه في أزل أزله، وإذا كان هو الواحد الحق في ذاته ﷻ، وتقدمت أسماؤه وفعله، واحد من حيث هو، فعل له خير كله عدل، كله قسط، كله حسن، كله فضل، كله كالماء ينزله من السماء واحدًا، فيختلف ما يكون عنه باختلاف الأرض في نفسها من طيبها وخبثها، كذلك أمره النازل عنه واحد، وفعله وقضاؤه خير كله، وإنما اختلف في حق المقدار لهم، وعليهم باختلاف دواعيهم وأعمالهم وآجالهم وطرقهم وأحوالهم كلها إلى خير وشر وإلى حلو ومر، ثم بالأمر والنهى في عمل العاملين إلى ظلم وجور، وعدل وقسط وطاعة وعصيان، وحسن وقبيح بالتقدير بالعلم على حكم المشيئة العالية، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:23]، والإيجاد بالتدبير على ما سبق من التقدير في اختلاف الوجود بهم وفيهم ولهم وعليهم، فافهم بلغ الله بنا وبك، وأتم نعمته علينا وعليك بمنه.

فصل

وأن السؤال حق

قال الله جل قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:6]، يقول - جل قوله - للرسل: هل بلغتم؟ وماذا أجبتم؟ ويقول للمرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ ويسأل المنعم عليه عن نعمة التي أنعم بها عليهم كلها: كيف شكره عليها، ويسأل العالم عن علمه وعمره، وماذا عمل فيما علمه؟ والمأمور والمنهي كيف ائتماره وانتهاؤه؟ ولذلك قال: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:92. 93]، قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيوقف بين يدي الله** ﷻ، **فيقول له: عبدي ألم أغنك؟ ألم أزوجك؟ ألم أخولك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وودعتك ترأس وتربع؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول له: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا يا رب؛ فيؤمر به إلى النار**»[1].

والشواهد على السؤال كثيرة، وهو فيما بعد الموت آياته عهوده ومواثيقه التي أخذها على عباده، قيل: ووصاه وأمره إياهم ونهيه في هذه الدار، وإرسال الرسل، وإنزاله الكتب؛ إذ من المعهود المتعارف المعلوم في الحكمة أن ينظر المعاهد المستوثق الموصى، والآمر الناهي، والمرسل رسوله في عواقب عهوده ومواثيقه، وما المعهود به فيما أمره به ونهى عنه، ولو لم يكن ذلك كذلك من فاعله لكان منسوبًا إلى التضييع غير راجع آخر حكمته على أولها؛ ولذلك قال جل قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولاً﴾ [الأحزاب:15].

فصل

وأن الحساب حق

الحساب موجود في ضمن السؤال، والفرق أن السؤال يقال فيه: هل فعلت كذا؟ وكيف فعلته؟ ولم فعلته؟ ومن أردت بفعلك إياه؟ والحساب يقال فيه: هذا عن هذا

(1) رواه ابن حبان (2726)، والبيهقي في الشعب (266).

السؤال عن التحقيق حساب، ما لم يكن السؤال عرضًا كحديث النجوى، أو تقريرًا يراد به توبيخ الغير كقوله عز من قائل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:116]، ومن حوسب عذب لا محالة؛ إذ لا يقوم أحد لحساب الله ﷻ وله الحجة البالغة، ولا يؤدي شكر إحسانه، وإنما هي رحمته ومشيئته، الحساب منه عاجل ومنه آجل، فالحساب العاجل للحسنة نورها في القلب، وثوابها والسيئة ظلمتها في القلب، وعقوبتها والحساب الآجل ما أُخر جزاؤه إلى دار الآخرة، والعاجل منه آية على الآجل.

فصل

وأن الملائكة الكتبة – عليهم السلام – حق

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:10-12]، وقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:17ـ 18].

وقال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار..**»[1]، آية ذلك في الدنيا الشهود في القضايا، وأدواؤها عند الحكام، ذلك أن الله - جل ذكره - ينزل يومئذٍ من عرشه إلى كرسي القضاء من غير تنقل، فلا يقضي في حكومة إلا بشهود أو إقرار، ومن شهوده على عباده الحفظة الكرام، قال الله ﷻ: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:29].

وقال: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:21]، فيقول الشهيد: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق:23].

ومن العقاب يومئذٍ من لم يؤمن بالكرام الكاتبين، فينكر ما يجد في الكتب

---

(1) رواه مالك (170/1، رقم 411)، والبخاري (203/1، رقم 530)، ومسلم (439/1، رقم 632)، والنسائي (240/1، رقم 485)، وابن حبان (29/5، رقم 1737)، وابن خزيمة (165/1، رقم 321).

ويجحد ما عمله وذلك في القرآن وحديث الرسول ثابت موجود أنهم يجحدون الرسل، وينكرون التبليغ، ويحلفون على الكذب، ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وما جاءنا من رسول ولا نذير، فيكلف القاضي العدل من ادعى دعوى أن يأتي ببينته، فيأتون بالشهداء، فيشهد الملائكة بالتبليغ للرسل وتشهد لهم الأمم، وتشهد الأمم بعضها لبعض، وتشهد لهم الرسل ﷺ وعليهم؛ فيجادلون ويجحدون الأنبياء والأمم، فيختم الله ﷻ عند ذلك على أفواههم، وتشهد جوارحهم حتى أن ابن آدم ليقول لجوارحه: بعدًا لكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل، ومن آياته الكرام الحفظة ترقيب الملك، وجعل العيون والرقباء على من يشاء من رعيته.

واعلم أيها العبد أنك لست بمسئول عن علم الله فيك، إنما أنت مسئول عن عملك فمثاب عليه أو معاقب أو معفو عنه، ووجود الحفظة وتحصيلهم على العباد موجود من اسمه الرقيب تبارك وتعالى.

فصل

وأن الكتب كتب الأعمال واقعة بالأيمان والشمائل حق

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:19]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:25]، وقال: ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:10]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:13].

الطائر - والله أعلم- هو ما طار لله من الحظ يوم القبضتين من عمل حسن أو قبيح، أو رزق أو أجل، أو شقاوة أو سعادة؛ فينشر له كتابًا يسمع أيام عمره، فيملى على كاتبيه ما طار له من حظ يومئذٍ شيئًا بشيء على تفاصيل الأيام والليالي والساعات والأنفاس، لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة، فإذا فرغ من إملائه حضر أجله، فمات وطوي إلى يوم بعثه، فيلقاه منشورًا يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14]، هذا أصل تلك الكتب؛ إنما هو نشرتان وطية تنشر في حياتك، فتملى على كاتبيك، ثم يطوى عند موتك، ثم ينشر بعد الموت، وقد ذكر الصادق الحق

وأخبر به، فلا بد منه لا محالة الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 60].

فصل

وأن الصراط حق

قال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]، وقال رسول الله ﷺ: «**هو جسر على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف، وهو دحض مزلة على جنبتيه خطاطيف وكلاليب من نار، يخطف الناس بأعمالهم وحسك مثل حسك السعدان**»، وذكر تفاوت في الجواز، فقال: «**منهم: طائفة كالطرف وطائفة كالبرق، وطائفة كالطير وكأجاويد الخيل والركاب، وطائفة كشدِّ الرجال، ومنهم: الساعي والماشي، ومنهم: من يحبو عليه حبوًا**»[1].

آية الصراط في الدنيا الحال الموجود بين الزمنين: الماضي والمستقبل، فمتى رام المتحقق في تحقيق الزمان الماضي والمستقبل، وتخليص الحال بينهما؛ عسر ذلك عليه جدًّا لا يكاد يدركه إلا وهمًا، وهو معنى الدنيا وحقيقتها وما بين ذلك وما خلفه، ليس من الدنيا وما ليس من الدنيا فهو من الآخرة، فمثال جواز العبد على الصراط في الآخرة قطعة أيام حياته في الدنيا من أول عمره إلى آخره فمثال جواز العبد على الصراط، ألا تراه أنه إنما جاء من عند ربه، وهو في سيره ذلك إلى ربه يرجع وهو مصيره، وعلى جنبي حد الصراط لازمًا به في عمره أعداؤه من الجن والإنس، ومصائب تطرأ عليه وأكداد وأحزان وغموم وهموم، وغير ذلك مما لا يكاد يخلو غالبًا من فقد المحبوبات وفوت المطلوبات، وقد عبر عن ذلك الفصحاء والبلغاء بغير ما عبارة، فهذا مثال في الوجود لما هنالك من خطاطيف وكلاليب وحسك، ومثال في الوجود الشرعي كون المكلف سالكًا بين الوعد والوعيد، وبين الشرك والإخلاص، وبين الطاعة والمعصية، والرضا والسخط، والأمر والنهي، فإنك إذا أردت أيضًا أن تحقق الزوجين من صاحبه؛ خلصت في صراط بينهما أحد من السيف وأرق من

---

(1) رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179) بنحوه.

الشعرة، قال رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا**»[1].

وقال أيضًا ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات تخفى على كثير من الناس**». وهذا يئول عند تحصيل التحقيق فيه أيضًا إلى ما تقدم ذكره من الخفاء؛ ولذلك قال: «**ومن رتع حول الحمى يوشك أن يواقعه**»[2].

وإنما حذر من ذلك؛ لدقته ورقته عند البداية في استقصاء معرفة حد كل واحد منهما من صاحبه، وهذا هو معنى الصراط في الدنيا، والذين يتركون ما أشبه عليهم في هذا الصراط العاجل؛ هم الذين يتوسع لهم الصراط في الأجل.

وبالجملة في اعتبار الوجودين، قال الله: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات:49]، فمعرفة كل واحد من الزوجين يئول إلى ما تقدم ذكره أيضًا، وذلك آية على الصراط في الأجل، وفي الآخرة أيضًا صراط آخر؛ وهي قنطرة بين الجنة والنار، قال رسول الله ﷺ: «**إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا**».

الصراط الأكبر منصوب لجملة العباد، حاشى الثلاثة الأصناف من أهل الكفر الذين اقتطعتهم عنق النار في عرصة المحشر، أولئك يدخلون النار دون سؤال ولا صراط، وهم المعنون بقوله جل قوله: ﴿**وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ**﴾ [القصص:78].

وإلى هذا ثلاثة طوائف في مقابلة أولئك يدخلون الجنة بغير حساب، ثم الموازين لمن بقي من أهل المحشر، ثم تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيكون ذلك، فيقعون في النار حتى لا يبقى إلا المؤمنون، ثم بعد ذلك الصراط مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط، ولا تخلص من هذا الصراط

---

(1) رواه الحكيم (142/4).

(2) رواه أحمد (270/4، رقم 18398)، والبخاري (28/1، رقم 52)، ومسلم (1219/3، رقم 1599)، وأبو داود (243/3، رقم 3329، رقم 3330)، والترمذي (511/3، رقم 1205) وقال: حسن صحيح. والنسائي (241/7، رقم 4453)، وابن ماجه (1318/2، رقم 3984)، وأخرجه أيضًا: الدارمي (319/2، رقم 2531)، والبيهقي (264/5، رقم 10180).

ولا تخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله ﷻ عنهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم، حُبسوا على صراط خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد- إن شاء الله تعالى- إنما هي الحسنات والسيئات، قال رسول الله ﷺ: «**فإذا خلصوا وهذبوا أدخلوا الجنة**»[1].

وهذا الصراط منصوب لأهل العدل الثالث، والصراط الأكبر منصوب لأهل العدل الثاني، وأما أهل العدل الأول: فهم الذين اقتطعتهم عنق النار في المحشر، والذين دخلوها قبل جواز الصراط، ومثاله في الوجود توبة الاستواء عند الأربعين، وأن نزول قوة المعراج على المرء؛ وهي التوبة الثانية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الحق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15] المعنى: فمن خلص من الفتنة الأولى قوي الرجاء في التخلص من الصراط الأول وهلاك من هلك قبل ذلك، ومن خلص من فتنة الاستواء خلص من الصراط الثاني ودخل الجنة بسلام، إن شاء الله ﷻ.

ومثال ما على جنبتي الصراط على اعتبار الوجود الشرعي ما تحتوش المؤمن زائدًا على ما تقدم ذكره في الاعتبار بالوجود الدنيوي نفس أمارة بالسوء بين جنبتيه، وشهوة وهوى وخلق لا يرضاه، وأهل وولد يجذبونه إلى هلكته، ويثبطونه ويبطئون به، وخطايا لا يعرى عنها تأخذ من دينه ما أخذت، وتترك ما تركت، وكل ما وجب عليه المجاهدة والمثابرة والمرابطة من أجله فهو مثال لخطاطيف النار وكلاليبها وحسك ما هنالك.

فالثبات على التوبة النصوح هو مثال الثبات على الصراط، وتيسير أعمال الطاعات فيها مثال الإسراع عليه، وخفة الظهر من الأوزار أعظم العون وروح الإيمان والعلم يعليه، ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ

---

(1) رواه أحمد (63/3، رقم 11621)، وعبد بن حميد (ص 291، رقم 935)، والبخاري (861/2، رقم 2308)، وابن حبان (460/16، رقم 7434)، والحاكم (385/2، رقم 3349) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (404/2، رقم 1186).

ومن غريب الحديث: «قنطرة»: الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة. «يتقاصون»: على وزن يتفاعلون من القصاص، والمراد به: تتبع ما بينهم من المظالم، وإسقاط بعضها ببعض. «وهذبوا»: خلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض.

دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:11].

فاعلم- رحمك الله - أنك في الدنيا ماشٍ على الصراط، وقد اكتنفتك أهواله ومحنه، فسابق أو مسبوق وناجٍ أو مخردل أو مكدوش[1] في نار العظائم والكبائر، فأيقن بذلك وانظر لنفسك، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

مَن لَيسَ يَسعى في الخَلاصِ لِنَفسِهِ كانَت سِعايَتُهُ عَلَيها لا لَها

إِنَّ الذُنوبَ بِتَوبَةٍ تُمحى كَما يَمحو سُجودُ السَهوِ غَفلَةَ مَن سَها

فصل

وأن الشفاعة حق

قال رسول الله ﷺ: «**خُيرت بين أن تكونوا نصف أهل الجنة أو الشفاعة، فاخترت الشفاعة**»[2]، ويقول الله ﷻ: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيخرج منها من قال: لا إله إلا الله، وهم عتقاء الله من النار في رقابهم الخواتم بغير عمل عملوه ولا قدم قدموه**»[3].

آيات الشفاعة في عاجل الدنيا كثيرة جدًّا - والحمد لله رب العالمين- منها: الأعداد، ثانيها: شافع لواحدها إلى وترهما، لولاه لم يكن لواحدها دخول إلى وصول

(1) ويقال: مكدوس، كما في الحديث: «ومِنْهُم مَكْدُوشٌ في النّارِ» أَي مَدْفُوعٌ فيهَا. [تاج العروس (1/ 4337).

(2) حديث عوف بن مالك الأشجعي: رواه هناد (138/1، رقم 181)، والترمذي (627/4، رقم 2441)، والطبراني (72/18، رقم 133)، وابن حبان (442/1، رقم211).

حديث أبي موسى: رواه أحمد (404/4، رقم 19634). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الصغير (62/2 رقم 784)، قال الهيثمي (369/10): رواه أحمد والطبراني، وأحد أسانيد الطبراني رجاله ثقات.

حديث معاذ: رواه أحمد (232/5، رقم 22078). وأخرجه أيضًا: الطبراني (163/20، رقم 343)

(3) رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179).

إلى الوتر بينهما، فسمي بذلك شفعًا، وهذا من آيات النبوة ودلالاتها من حيث المكلف لم يكن له وصول إلى ربه إلا بالرسول الموصل له إليه، ومن أجل تلك الوسيلة التي وسلها بين المكلف وبين ربه؛ أعطى الشفاعة فيه؛ إرضاءً من الله ﷻ لرسوله لما تصح له في عبيده، ثم كذلك رابع العدد وثالثه وخامسه أبدى شفع ووتر، فكل ما خلق الله - جل ذكره - شفع ووتر كان المفروض الأول، منها محتاج إلى بلوغ درجة لا يبلغها إلا بمتمم، فيأتي ثانيه فيشفع له إلى مالك الزيادة، فيبلغه مراده بتشفيعه إياه في مشفوعه وإشفاعه إياه في حاجته، وكل متوسط في أمر ما فشافع، قال رسول الله ﷺ وقد سئل حاجة: «**اشفعوا فلتؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء**»[1].

وبالجملة فالعالم كله مفتقر بعضه إلى بعض علوه وسفله، أوله وآخره، معين بعضه بعضًا، وما في الملك والملكوت ذرة فما فوقها إلا وعليها ملك يسبح الله وبحمده ويشفع؛ لما جعل إنفاذه بإذن ربه ﷻ، قد امتلأ العالم كله من شافع ومستشفع ومشفع، تدبير محكم وأمر جميع جزم، ﴿**وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ [الأنعام:39].

فهذه الشفاعة في العاجل شائعة ذائعة، لا يقوم القائم ولا يتنفس ولا يتحرك ولا يسكن إلا فيها، وقد أخبر الله جل ذكره ورسوله ﷺ أنها في الآجلة كائنة، فهي كائنة لا بد ولا محالة كأخذ باليد ورأى بالعين، ﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:4].

فصل

وأن الميزان حق

قال الله جل قوله: ﴿**وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ**﴾ [الأعراف:8]، وقال: ﴿**وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ**

---

(1) رواه أحمد (400/4، رقم 19599)، والبخاري (520/2، رقم 1365). ومسلم (2026/4، رقم 2627)، وأبو داود (334/4، رقم 5131)، والترمذي (42/5، رقم 2672) وقال: حسن صحيح. والنسائي (77/5، رقم 2556).

خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47].

آية الوزن الآجل ومثاله في هذه العاجلة كثير جدًّا، قد بينه الله ﷻ تبيانًا يقطع شبهة المعاندين، وينبه ألباب المعتبرين منها العدد، واحدة وزان واحدة، وعشرته وزان عشرته، وكل عدد منه وزان لمثله، كذلك أوزان المعاني كل معنى وزان لمثله، فدونك سبل الاستقراء معنىً معنىً، وذلك موجود في المعلومات كلها على اتساع مقتضى العلم؛ فما من حادثة إلا لها ميزان قال الله جل قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:49].

وأظهر تبارك وتعالى في هذه الدار العاجلة من الموازيين مثالات ظاهرة عبارة عما هناك، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:25]، فجعل الله ﷻ بينهم حكمًا عدلاً وقاضيًا فصلاً، وفوض كل إليه، ولم تجد في صدره حرجًا من الحكمة له أو عليه، وكذلك في الآخرة يظهر للعيون والأبصار ميزانًا، كما وصفه عنه الصادق المصدوق ﷺ كفتان كل كفة منها طباق السماوات والأرض، وآية صدقه ظاهرة في جملة العالم، وهي أن العقول ما وجدت في السماوات ولا في الأرض ذرة فما دونها ولا فوقها إلا موزونة بميزانها، تعالى الله سبحانه عن الإهمال والمجازفة؛ إنما يجازف القاصر للعلم والحكمة والقدرة، وأما هو ﷻ فكل مزموم بزمامه موزون بقسطه، فاعلم ذلك يقينًا، فإنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:4.3].

ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه، قال رسول الله ﷺ: «**فتوضع الحسنات في أحدهما والسيئات في أخرى**»[1].

وقد جاء أن كفة الحسنات من نور، والأخرى من ظلام، فإن كان قال رسول الله ﷺ فهو الحق، ويجب المصير إليه؛ فالنظر بعضده والوجود يحققه، وهو القادر - جل وعز - على أن يجعل في أنفس الموزون لهم وعليهم من تعديل ذلك الميزان، والرجوع إليه أضعاف ما جعل في القلوب في العاجلة من الرضا بهذا الميزان والتعديل

(1) رواه البيهقي في الاعتقاد (179)، وذكره الغزالي في الإحياء (177/1).

له، وكذلك الكيل الموضوع هاهنا في العاجلة هو من الوزن، فأعلمه ما عسر معرفته بالوزن وضع عليه الكيل، وقنعت به العقول، ورضيت به وعدلته كالموازين سواء.

وكما في الدنيا موزونات تتفاضل فلا تسمح النفوس بأن تأخذ منها وزنًا بوزن مفضولة، كالذهب مثلاً مع الفضة والنحاس، وغير ذلك من الجواهر المعدنية، وكذلك اللؤلؤ والياقوت في التفاضل أيضًا، كذلك الحسنات مع السيئات، منها كبائر ومنها صغائر، لا تبلغ آحادها الإيجاب، لكنها مع اجتماعها تبلغ؛ فاعتبر ذلك بصرف الذهب بالفضة: والذهب والفضة مع النحاس والحديد وغير ذلك من الجواهر، ثم اقض بمثل ذلك في نقاص الحسنات بالحسنات، والسيئات بالسيئات، والحسنات أيضًا بالسيئات هكذا العرف فيها.

ثم اعتبر الحسنات والسيئات أيضًا بالضر والنفع في قبيل الإيمان وظلم العباد وفساد الألفة، وعلى الضد مع ذلك فقد يسد الحديد مسدًا لا يسده الذهب ولا اللؤلؤ والياقوت النفيس، فهكذا فاعتبر الوزن والموازنة الحسنات بعضها ببعض، والسيئات بها موافقة حكمة ربك ﷻ، ويحتاج صاحب هذا النظر إلى تبحر في العلم والفقه، وعقل صحيح غالب على هواه.

وبالجملة فالموازنات فيها هنالك إنما هي إلى الله ﷻ يزن لمن يشاء، ويجعل في العقول تعديل ذلك الحكم والرضا به، كما فعل في الدنيا في موازينها ومكايلها، وذلك بأن يخلق للحسنات والسيئات ظاهرًا عدلاً ترضى به العقول، فتزكيه وتحتكم إليه وتقنع به وبما يكون منه لها، وعليها حكم حق ووزن قسط؛ ولذلك لما خلق الله تبارك وتعالى الميزان قالت الملائكة: ربنا، ما هذا؟ قال: هو الميزان، قالت: ربنا، لمن تزن به؟ قال: لمن شئت، قالت الملائكة: سبحانك ربنا وبحمدك، ما عبدناك حق عبادتك.

وإذا كانت الدنيا ليس إلا ظاهر وباطن والموازين منها ظاهر ومنها باطن؛ فالظاهر منها يوزن بميزان ظاهر يعدله ميزان باطن، هو الميز من صفات العقل، والباطن تزنه العقول باطنًا، وتعبر عنه الألسن بعبارات متوازنة المخارج والمعاني، فليس إذًا في الدنيا غير الوزن وتوابعه ومعانيه، وفي مثل هذا قال القائل:

مَلِكٌ تَقُومُ الحَادِثَاتُ لِعَدْلِهِ ... فَلِكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانُ

تَتَصرّفُ الأَشْيَاءُ فِي مَلَكُوتِه ... وَلِكُلِّ شَيْءٍ مُدّةٌ وَأَوانُ

ليت شعري كذب المكذب بما هو لا يخلو عنه ظاهرًا ولا باطنًا، وإنما صفات

العالم صفات حق أوجدها الحق ﷻ بالحق؛ لتحقق بذلك الحق ويبطل الباطل، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:22]، وقال وقوله الحق: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:39].

فأخبرك نصًا أنه خلق ما خلق وللحق قد أحاط بالعالم كله ظاهرًا وباطنًا جملة وتفصيلاً، وجعل هذه الصفات الحق آيات مبينات عن صفات حق أجله، جعل هذه الأعلام العاجلة تنتهي إلى تلك الآجلة، ثم أكد صنعه الحق تحقيقًا بأن أخبر عنها بقوله الحق؛ ليبتلي العقول بذلك ويختبرها هل تصدقه في قيله الحق، أو تكذبه؟ فينزل كلا بحكمه الحق حيث أنزل نفسه، كيف لا وإنما هو عالم واحد أوجده موجود واحد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فشاكل بذلك بين أوصافه وشأنه به، من أجل ذلك بين أطرافه بأن أجرى حكمته ذلك بين خلاله، وأثناء جريان الروح والنفس في أجسامه، وإعراضه شهادة غيب بغيب وظاهر بباطن، أقام البواطن للعقول أعلامًا، ثم أنزل إليها بذلك الكتب، وخاطبها بها على ألسنة رسله إعلامًا، بعدما أظهر مما أبطنه وأشهد مما غيبه تبيانًا، فالكافر من كفر بهذا الحق وجادل بباطنه في آياته، وكذب بتلك العلامات، وكابر عقله إلى جحد البينات، لم يصدق الصادق الحق ﷻ في قيله الحق، وعَنِدَ عن الاتباع، وشرد عن الاقتداء، وبدل نعمة الله كفرًا فأحل نفسه دار البوار - اللهم غفرًا - بل الكافر محمول إلى ما أعد له، والعامل مسوق إلى ما وعد به ميسر لما يسر له، والله ﷻ القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، والله يصير الأمر.

وكذلك كل ما أنبتته الأرض أو حملته في بطنها، من مختلف أو متفق في روائحه أو طعومه ولمسه، ونفعه وضره، وخيره وشره، بأوزان مقسطة وحظوظ معدلة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:19]، فدونك ما سطره الطبائعيون في أوزانهم، واستقروه في موجودهم، ثم أثبتوه في أوضاعهم؛ حيث قالوا: كذا حار في الدرجة الأولى، يائس في الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا في البرودة والرطوبة قسموها على أربع درجات، جعلوا معيارها جسم الإنسان، وأعلاها وأدناه الأصول الأربعة، واستمروا على ذلك موجودهم في استقراء الموجودات، واستمرت الأجسام؛ تصديقًا لذلك تلك الأوزان والموزونات، فيها وعندها وفي

امتزاجها وانفرادها، قبلتها على تلك الصفات الباطنة أيضًا بأوزانها؛ إذ كل شيء عند المقسط الحق بمقدار.

كذلك في الجزاء، كذلك في الأعمال له، كذلك في الحق، كذلك في الأمر، كذلك في التدبير، كذلك في إنزاله الماء والنشء، وتقسيم الغذاء على جميع العالم ظاهرًا وباطنًا، كل شيء له قسطه ووزنه، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، كذلك في سماع الكلام ترضي الكلمة، وتسخط الأخرى فيتزن موجوداتهما، وتحل الكلمة وتعقد الأخرى، فيتزن المعنى بين ذلك، هكذا كل شيء عنده بمقدار، هذا الوزن في العاجلة فكيف به في الآجلة على عظم تلك الدار وكبر خطرها، وقد قاله الصادق الحق ﷻ وتوعد عليه، ووعد إنه إذًا لكائن في الآجلة، وهي أكبر درجات أكبر تفصيلاً، إن هذا لهو الحق المبين: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:11].

فصل

وأن الحوض حق[1]

قال رسول الله ﷺ: «**حوضي ما بين أيلة وعدن، وكما بين مكة وبصري، وكما بين مكة وهجر، وكما بين الكوفة والحجر الأسود، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**»[2].

هكذا جاءت الروايات بهذه الصفات، وأرى - والله أعلم- أنه أشد بياضًا من اللبن أو المحض، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، وألذ في الذوق والطعم من اللبن الممزوج بالعسل، وهكذا وجوده هنالك لا ريب فيه، والله ورسوله أعلم.

موضع ذكر الحوض في القرآن سورة الكوثر، وهو نهر في الجنة أعطيه ﷺ خير كثير، والحوض الموجود في عرصة القيامة يمده ميزابان من الكوثر الذي هو في الجنة، وله في القرآن غير هذه جاءت عن طريق التعريض والإشارة إليه للابتلاء، والله أعلم.

---

(1) قال ولي الله الدهلوي: «والحوض هدايته ﷺ تجسدت هناك ماء لمشابهة قوية بين العلم والماء، وأرى أن لكل نبي حوضًا غير أن حوض النبي ﷺ أم الحياض».

(2) رواه مسلم (217/1، رقم 247) بنحوه، وأخرجه أحمد (424/4، رقم 19817)، والحاكم (1/ 148، رقم 255) والبزار (297/9، رقم 3849).

قال رسول الله ﷺ: «**يغب فيه ميزابان من الجنة**»[1]، وفي أخرى: «**من الكوثر، آنيته عدد نجوم السماء، لا يظمأ من شرب منه**»[2]، ويذاد عنه من بدل وغير الحديث، وفي أخرى: «**ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح**»[3]، وفي أخرى قال ابن عباس ﷺ: سُئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين - جل ذكره - هل فيه ماء؟ قال: «**إي والذي نفسي بيده، إنّ فيه لماء، وإن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله سبعين ألف ملك بأيديهم عِصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء**»[4].

وآيته في الدنيا هو ما جاء به من عند الله - جل ذكره - من الهدى والبينات، وذلك مجموع في القرآن والسنة، غير ذلك عن قول رسول الله ﷺ: «**يغب فيه ميزابان من الجنة، أحدهما: ذهب، والآخر: وَرِق**»[5] فميزاب الذهب في التأويل: القرآن، وميزاب الفضة: السنة، النازلان من عند الله ﷻ، ونزولهما في الحوض نزول القرآن والسنة، واستقراؤهما في الحكمة، والإيمان الذي ملأ منه صدره ﷺ يوم شرح له، فمن تبعه واستن بسنته وعمل بكتاب ربه ﷻ وختم له بذلك، فقد هُدي إلى صراط المستقيم، وفاز ولن يضل بعدها أبدًا.

وكذلك تأويل آيته التي هي عدد نجوم السماء العلماء، فقد علمت - رحمك الله- من هذا أن الحوض في العاجلة حاضر معك، غير ممنوع منك ولا محجوب عنك فدونك، فاشرب عللاً بعد نهل، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وامتن علينا بفضله بالإيمان واتباع النبي محمد ﷺ، وأنعم على جماعة المؤمنين أمة محمد ﷺ بالعصمة من الزلل في القول والعمل، وبوجه آخر من العبرة الفضة الماء واللبن

---

(1) رواه أحمد (149/5، رقم 21365) ومسلم (1798/4، رقم 2300)، والترمذي (630/4، رقم 2445).

(2) رواه أحمد (149/5، رقم 21365) ومسلم (1798/4، رقم 2300)، والترمذي (630/4، رقم 2445).

(3) رواه الطبراني (211/19، رقم 477)، والحاكم (605/4، رقم 8683).

(4) أورده ابن كثير (126/2): وعزاه لابن مردويه، وقال: هذا حديث غريب.

(5) تقدم تخريجه.

والذهب والعسل والخمر.

والمقصود بما هو الحوض الماء، لكنه هكذا حقيقته؛ إذ الجنة بما هي حوت الأنهار الأربعة أنهار الماء وأنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل، وقد أنبأ صلوات الله وسلامه عليه أنه يغب فيه ميزابان من الجنة، فلا بد أن يشبه النازل من الجنة، ألا ترى أن الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - ينزل الماء من السماء؛ لأن فيها الجنة حكمًا لا عينًا؟ فصَّله لأجل ذلك فيما أوجده عنه شائعًا في الوجود الماء والعسل واللبن والخمر.

ومن الأنبياء - صلوات الله على جميعهم - من يكون حوضه اللبن، لكن يجمع له في ذلك وجود الأربعة منهم صالح ﷺ آية ذلك ناقته، ومنهم من يكون حوضه اللبن والماء، لكن يجمع له في ذلك، أعني: الماء واللبن والعسل والخمر، وهو موسى - صلوات الله وسلامه عليه - آية ذلك الحجر الذي انفجر له على اثنتي عشرة عينًا، وما كان ينزل الله عليه وعلى قومه منًّا من الجنة ما كان عينًا، فهو ينفصل إلى جميع وجودها أو جله، فافهم.

ولما كان من آيات رسول الله ﷺ أن جعل الله - جل ذكره - الماء ينبع من بين أصابعه، جعل حوضه ماء في ظاهره وجمع له الأربعة، ألا تسمع إلى عبارته عنه بقوله الصادق: «**ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل**».

وفي أخرى: «**أشد بياضًا من المحض**».

وإلى أخرى: «**أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وألذ في الذوق والطعم من اللبن الممزوج بالعسل**»[1].

ولما كان أيضًا من أعظم آياته القرآن، وما آتاه الله من الوحي الكريم قسمه على معنى الذهب والفضة؛ تنبيهًا على ما هو القرآن وسنته، فمن كرع فيها كرع فيما هنالك - إن شاء الله تعالى - بعدها أبدًا، فمن تبعه واستن جسنته، وعمل بكتاب ربه ﷻ، وختم

(1) رواه الطيالسي (ص 133، رقم 995)، وأحمد (275/5، رقم 22421)، والترمذي (629/4، رقم 2444). وابن ماجه (1438/2، رقم 4303)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (334/1، رقم 459)، والطبراني (99/2 رقم 1437)، والحاكم (204/4 رقم 7374)، وأبو نعيم في المعرفة (503/1 رقم 1414).

له بذلك، فقد هُدي إلى الصراط المستقيم وفاز، ولن يضل بعدها أبدًا، وكذلك آنيته التي هي عدد نجوم السماء العلماء، فقد علمت - رحمك الله - من هذا أن الحوض في العاجلة حاضر معك، غير ممنوع منكول محجوب عنك، فدونه فاشرب عللاً بعد نهل، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وامتن علينا بالإيمان في اتباع النبي ﷺ، وأنعم على جماعة المؤمنين أمة محمد ﷺ بالعصمة من الزلل في القول والعمل.

فصل

وأن الجنة والنار حق

إن سمت بك همتك - وفقك الله- إلى استقراء آيات الجنة والنار في هذه العاجلة، فتطلب ذلك في الوجود من العالم والشرع، أما الوحي فلا يخفى عليك، إن شاء الله ذكر الجنة والنار فيه أغنى اشتهار ذلك، وكثرته عن إعادة الكلام فيه من هذه الجهة، إلا لما لا بد منه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:10].

فسمى المأكول من ذلك نارًا، يعبر بذلك عن تحقيق الجزاء عليه وإحاطته به، كأنه قد كان ووقع، وقوله هو الحق فإن لكل حق حقيقة.

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:49] أي: أن أعمالهم في حال كفرهم وما أوجده من آيات جهنم وحقيقة غيبها، وقد أحاط بهم، قال رسول الله ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[1]،

(1) حديث أم سلمة: رواه الشافعي في الأم (10/1)، والبخاري (2133/5، رقم 5311)، ومسلم (3/ 1634، رقم 2065)، وأخرجه أيضًا: الدارمي (163/2، رقم 2129) وأبو يعلى (369/12، رقم 6939) وأبو عوانة (216/5 رقم 8455)، وابن حبان (161/12، رقم 5342)، والطبراني في الكبير (359/23، رقم 844)، وفي الشاميين (82/1، رقم 108)، والبيهقي (27/1، رقم 98).
حديث ابن عباس: رواه الطبراني (373/11، رقم 12046)، وأبو يعلى (101/5، رقم 2711) والطبراني في الأوسط (338/3، رقم 3333)، والطبراني في الصغير (200/1، رقم 319)
حديث أم سلمة وحفصة معًا: رواه الطبراني (215/23، رقم 392).

وقال أيضًا: «**عائد المريض في خُرَافَةِ الجنة**»[1]، وقال: «**وإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها**»[2] يريد مجالس الذكر والعلم وكثير جاء مثل هذا.

وإنما العالم فجملة الكلام فيه من هذه الجهة أن الدنيا نبذة من الآخرة، وعرض عارض عنها خالقها - جل ذكره - من ممزوجها وسرائها وضرائها، كالمتقدم من الصفات الحق في معاني الشهادات المشار إليها بالبيان قبل، فامتزجت لذلك معانيها وتشابهت فنونها وتشاكلت أوصافها بشكل مشكل من صفاتها وأسمائها، قال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، آكل بعضي بعضًا، فأْذن لي أن أتنفس؛ فأذن لها في كل عام بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير**»[3]، فالحر والبرد أصلاً عن ذينك النفسين كما قال رسول الله ﷺ، ولما كان ذلك عن جهنم أعاذنا الله منها، لم يكن لشيء عليه صبر الانفراد، لولا رحمة الله ﷻ بإنزال الماء من السماء، فكسر به من حر السعير، والآن من بينهما وحدة الزمهرير، وتلك في العاجلة آية على المعنى بقول رسول الله ﷺ في الأجل: «**لا تزال جهنم يجعل فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيه قدمه**»[4].

---

(1) رواه أحمد (81/1، رقم 612)، وهناد في الزهد (224/1، رقم 372)، وأبو يعلى (227/1، رقم 262)، والبيهقي (380/3، رقم 6376). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (354/4، رقم 7494) وابن ماجه (463/1، رقم 1442)، والبزار (224/2، رقم 620)، والحاكم (501/1، رقم 1293)، والضياء (260/2، رقم 637) وقال: إسناده صحيح. «خِرافة الجنة» أي: في اجْتِناء ثَمَرِها. وقيل المراد هنا طريق الجنة.

(2) رواه أحمد (150/3 رقم 12545)، والترمذي (532/5 رقم 3510) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (155/6، رقم 3432)، والبيهقي في شعب الإيمان (398/1، رقم 29). والطبراني في الدعاء (528/1، رقم 1890)، وأبو نعيم في الحلية (268/6) «رياض الجنة»: رياض جمع روضة، وهي الأرض المخضرة بأنواع النبات المختلفة. «فارتعوا»: فكلوا واشربوا ما شاء في خصب وسعة.

(3) تقدم تخريجه.

(4) رواه أحمد (134/3، رقم 12403)، وعبد بن حميد (ص 356، رقم 1182)، والبخاري (6/ 2689، رقم 6949)، ومسلم (2188/4، رقم 2848)، والنسائي في الكبرى (411/4، رقم

=

فانقسمت هذه العاجلة على معنى الجنة والنار، وانقسمت الجنة في العاجلة أيضًا إلى قسمين، كما انقسمت إلى ذلك جهنم، فأنبتت على ذلك أصول العاجلة، وأعربت عن ذلك فصولها، وتنوعت عليه بها أزمانها، فتوزعت من أجل ذلك تلك المعاني أيامها وشهورها، وقام الأمر بالتدبير المحكم على ساق مصيف وشتاء وربيع وخريف، فسبحان الذي كرمه بالقرآن والنبأ العظيم، ومنحه جوامع الكلم، وهداه إلى الصراط المستقيم، فما تقلب متقلب، ولا سكن ساكن، ولا تنفس متنفس إلا بين الجنة والنار، وفي معنى من معانيها لكن بالمزج لا بالانفراد، وبالقلة لا بالكثرة؛ فنعمتها آية على نعيم ما هنالك، وشقاؤها آية على شقاء ما هنالك، قليل بقليل، وكثير بكثير.

وكذلك انقسمت الأعمال فيها على مقتضى الوعد والوعيد، فانقسمت لذلك الأعمال إلى سيئة وحسنة؛ لانقسامها إلى طاعة وعصيان لانقسام الآخرة إلى الجنة وإلى نار، فالدنيا نتيجة الآخرة وقطعة منها، وعرض عرض عنها، منها بدأت وإليها تعود، وأما الآخرة فإن الله ﷻ خلص فيها الخير كله فجعله بحذافيره في الجنة، وخلص الشر كله فجعله بحذافيره في النار.

فاسم جهنم - أعاذنا الله الكريم برحمته منها - كلمة معبرة عن جميع معانيها، وهو اسمها الأكبر وغيره من أسمائها معبر عن صفات فيها موجودة، ولفظة جهنم مأخوذة من الجهامة، ظهر ذلك في قوله ﷻ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 18]، وقول مالك عليه السلام لهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:77].

قيل: بعدما طال نداؤهم إياه ثمانين عامًا، قال الأعمش رحمه الله: أُنبئت أن بين دعائهم وبين إجابته إياهم ألف عام، وفي قول الخزنة لهم: ﴿فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر:50].

وفي المعنى المعبر عنه بقوله ﷻ: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:24].

وكل كلام يكلم به أهل النار - أعاذنا الله من ذلك - وكل فعل يفعل بهم

=

7725)، وأبو عوانة (160/1، رقم 463)، وابن حبان (501/1، رقم 268).

أو حادثة تحدث لهم فيها، فهو معبر عن معنى الجهامة وما يضاد الاستجابة، وبالجملة فجهنم - أعاذنا الله منها - خلقت من صفة غضب الجبار ﷻ، فالإجابة والرحمة منهما بعيد جدًّا، فهذا هو معنى الجهامة، والنون في كلمة جهنم قد انشرح معناها في النار حيث كانت، والهاء والميم واللتان فيما عبرنا عن الزمهرير، وقد انشرح ذلك واتسع في صفات البرد في الدارين.

ولجهنم - أعاذنا الله برحمته منها- أيام وليال وشهور وسنون، والمقصود منها والمراد بكل حادث فيها تجديد العقاب وتأكيد النكال قال الله جل قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت:54]، و﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47] يعني: من أيام جهنم اليوم هو السنة، تحقق ذلك قوله في صفة حال أهلها: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:23-25].

ولم يقل أحد في الحقب إنه أقل من ثمانين سنة، وإنما قيل له: حقب؛ لأن الفلك احتقب ذلك الفصل بما فيه، والحقيقة في كلام العرب ما يجعل مؤخر الرجل، والحقب: من أسماء أيام الآخرة، فإذا كان اليوم الذي هو السنة ألف سنة، مما يعد في هذه العاجلة؛ فنصفه: خمسمائة سنة، والفصل منه: مائتا وخمسون سنة، شهر ذلك الحول: ألف شهر وهو ثلاث وثمانون سنة وثلث، وهو الحقب الذي تقدم ذكره، احتقبه فلك ذلك اليوم بما فيه فقوله جل قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:24] هي ستة أحقاب أو نحوها، التي هي شهور تلك الدار، وهو زمن مصيفها لا يشربون فيها إلا حميمًا، شبه به في الدنيا النحاس المذاب منه بعض أنهارها، وبه يمطرون في تلك الدار، وهي العين الآنية أيضًا، أي: الحامية طول مصيفهم، بل هي بحار رحمته.

وذكر العين هنا اسم للجنس، ثم تدور عليهم دائرة الزمهرير - أعاذنا الله الكريم برحمته منها - دون واسطة، وهو أشد العذاب، قال الله جل قوله: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن:43] فهذه مدة الزمهرير، كنّى عنه باسم جهنم، يدل

على ذلك قوله الحق: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ [الرحمن:44] يعني: حال الزمهرير وبين حميم آن، فهذه حال السعير؛ فيضاعف عليهم العذاب بالزمهرير، طعامهم فيه الزمهرير، ولباسهم منه لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل لا يكنهم منه كن.

كذلك في الفصلين. وتهب في الفصلين الريح العقيم من جميع نواحي تلك الدار، قيل لها: العقيم؛ لأنها تعقمت من الرحمة، وهي من جنس ريح عاد التي أهلكهم منها المقدار الذي خرج من مثل منخر الثور، وقيل من مثل حلقة الخاتم، فبهذه الريح تسعر النار فيها، والزمهرير أيضًا يخرجها ربها ﷻ يومئذٍ بجملتها إلى جهنم، فيحطم بعضها بعضًا، وتدخل في بعض تمزق لحومها وتقطع جلودها، هكذا حتى إذا فرغت أحقاب الزمهرير، وانتهى فصله دارت عليهم دائرة السعير، فذلك شتاؤهم وهذا صيفهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، قال الله ﷻ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97]، ويمطرون ولكن الحميم، قال الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:20،19]، ويصعقون، وقال الله ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن:35]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ.....﴾ [المرسلات:32].

ولهم طعام ولكن من الضريع والزقوم، وكل طعام خبيث ضائر يتحول بتحول دوائره السعير والزمهرير إلى ما هو في وقته، وشرابهم في زمان الزمهرير الغسلين والصديد، وما لا يكاد الشقي يسيغه؛ وإنما يقدر على أن يسيغه ليذوق به نوعًا من العذاب، أشد من معالجته في تجرعه إياه، ويأتيه الموت من كل مكان من جسده ومن داخله ومن كل مكان في جهنم، أي: إنه يذوق الموت وأنواع العذاب من كل ما دنا منه من جهنم أو بَعُد وما هو بميت، فهذه حالة من الزمهرير، ثم قال: ومن رواية عذاب غليظ، يريد عذاب السعير.

شبهة

ولما كان نزول القرآن وحلول النذارة بموضع من الأرض الغالب على ذلك القطر هو الحر؛ كان الغالب الإنذار هنالك التهدد بالنار والسعير وتوابع ذلك؛ لأنهم أعقل لذلك الخطاب وأفهم؛ لكثرة تعذيبهم بالحر، ومقاساتهم حر سمومها، وإنما

يدافعون ذلك بالبرد والتبرد والاسترواح وإراقة المياه، حتى ظهر ذلك في أدعيتهم وأمانيهم، فقالوا: أقر الله عينك وبرد ضريحك، وأثلج ببرد اليقين صدرك، وسقى معهدك ماء الغوادي، وسحاب المزن، ونحو هذا.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل مكررًا: قذفوا بهذا العبد السوء في الظلمات السفلى، حيث يطول العويل وقلقلة الأضراس، وهذه عبارة عن المبرود؛ وإنما ذلك لأجل أن أهل القطر الذين بعث إليهم فيه عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - الغالب عليه البرد لتعذبهم في الدنيا بالبرد في قطرهم ذلك، وكانوا يدافعونه بالحر، ويستجيرون به من إذابته بضد حال أهل القطر المنزل فيه القرآن، وكان التبليغ على هذا التقسيم لحكمة بالغة في ذلك، ولتكون ذلك أهيب في نفوسهم، وأوجع لسوط الخوف في قلوبهم، وأجلب لفرقهم وجزعهم، وأشد تحريكًا لبواطنهم إلى الهرب والوعيد الوارد عليهم، وهنا يتبين فضل رحمته فضل رحمته؛ لإبلاغه في النداوة جل ذكره، فإن جهنم خلقها جل وعز من سوط رحمته؛ ليسوق عباده الهرب منها إلى جنته، وربما كان في علم الله - جل وعز - أن يسكن الكفار الساكنين في قطر الحر من الأرض القطر الغالب عليه الحر من جهنم، ويسكن كفار أهل قطر البرد القطر الغالب عليه البرد منها؛ لتصدق كتبه ورسله، وليصل لهم عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، وليؤتوا به متشابهًا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110].

واسم الجنة كلمة دلت بذاتها على حقيقة ما هي عليه، وهو المعنى المستجن فيها المخامر لها، الشامل لأدناها وأقصاها من اسم المزيد، أقام ﷺ هذا المعنى المشار إليه فيها مقام الأمر من الخلق والملكوت، من الملك والغيب من الشهادة زائدًا على عظم قدر ذلك الأمر والملكوت والغيب هنالك، فاسم الجنة معبر عن حقيقة ذلك - والله أعلم - وقد تكون ذلك لكونها مستجنة الآن، قال الله ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:21]، وقال جل قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133]، وقوله عز من قائل: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم:61] أي: هي غيب عنا اليوم وبعد الموت يظهرها الله، ثم في اليوم الآخر أظهر فهي الآن مستجنة، فإذا كان يوم الآخرة

سعت حقيقتها التي هي عليون في السماوات والأرض، وكان ذلك كله جنانًا.

وكذلك تسعى حقيقة جهنم التي هي أسفل السافلين يوم الآخرة في الأرضين، فكانت كلها دركات نيران، نسأل الله معافاته ومغفرته، قال الله جل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:48]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:91.90] آية ذلك في الدنيا، أي: الجنة، الماء ينزله رب العزة - جل ذكره - من السماء بعد إرساله الرياح اللواقح في الجو، فيلقحه وينشئ لذلك السحاب، فينزله إلى الأرض فيخرج به فيها من كل الثمرات، قال الله جل قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:11]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: 141]، ونحو هذا كثير من ذكره جنات الأرض عن الماء، وأنه خلق من الماء كل شيء حي، فهذا الماء الذي خلق الله ﷻ عنه جنات الأرض كائن عن جنات هناك، غير أن هذه دانية وتلك عالية، وهذه دنيا وتلك آخرة، مثال ذلك النطفة يكون عنها الإنسان فإنها لا تكون إلا عن إنسان، وكذلك كل جنس نطفته عنه ويخرج منه من جنس ما كانت النطفة عنه، قال الله ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23.22].

فأقسم تبارك وتعالى على تحقيق ذلك ومثله بظاهر وهو النطق منا، وإنما استجن ذلك عن أعين الثقلين، وهو حق ظاهر عند الملائكة - عليهم السلام - ولذلك قال عز من قائل يخاطب المحتضر عند المعاينة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:22].

وعن معاينته هذا الغيب عبّر رسول الله ﷺ بقوله: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] ولذلك كانت الجنات هنالك أربع جنات، قال الله جل من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(1) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (89/8)، وقال: لم أجده مرفوعا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب.

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46].

ثم أنشأ يصفها ﷻ، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ...﴾ [الرحمن:62] إلى آخر السورة، وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتها وما فيها، وجنتان من فضة آنيتها وما فيها**»[1]، آية ذلك في العاجلة الفصول الأربعة الكائنة في العام عن نفسي جهنم، وإثارة رحمته بالماء المنزل من السماء كل فصل هنا عن جنة قائمة هناك، ألا تسمع إلى قوله جل قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ...﴾ [الكهف:32]، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ:16].

فعبر عن فوائد المصيف والشتاء في الدنيا بجنتين؛ ولذلك قال ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46].

وقوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ:37]، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليلاً، وقال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم**»[2]. فانظر بما يرجع منها، كذلك يا أخي ما في الدنيا شيء إلا وشراؤه في العلا، وكل ما هاهنا فهو آية على ما هنالك، والجنة أرضها ذهب وترابها المسك زينتها الزعفران، وفيها كل نبت كريم وفيها شجرة طوبى غرسها الجلي لجل جلاله بيده، وكذلك غرس جنة عدن بيده، ونظر تبارك وتعالى إلى تلك الأرض نظر كرامة واستعداد بها للمكرمين من عباده؛ ليعجبهم بها، وخلصها من كل شيء يخالف ما له أوجدها، ثم قال لها: «**كوني وفق مشيئتي وطيبي حتى تبلغي مرضاتي**»[3].

فكيف ترى على هذا يكون بناؤها وشجرها وثمرها وأنهارها وحيوانها وبهجتها ونعيمها؟ وكيف يكون وجد أهلها الطيب مثواهم، وسرور أنفسهم وغبطتهم بما هم

---

(١) رواه أحمد (416/4، رقم 19746)، والدارمي (429/2، رقم 2822)، والطيالسي (ص 72، رقم 529)، وابن أبي شيبة (46/7، رقم 34109)، وعبد بن حميد (ص 192، رقم 545)، وأبو عوانة (137/1، رقم 412).

(2) تقدم تخريجه.

(3) لم أقف عليه.

عليه، وقد أهلهم لذلك وأرادهم به، وهو يطلب مرضاتهم ويستقصى حوائجهم، مع عظم قدرته على أكثر مما يؤملونه عنده، وسعة خزائنه بقولهم: لا إله إلا الله هو بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، ملاطها المسك، والملاط: الطين الذي يكون بين اللبنتين، رضراضها وحصباؤها: الدر والياقوت، فيها العيون والأنهار تجري في غير أخدود ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد:15].

ولهم عيون شراب يمزجون منها ما شاءوا على منازلهم وأقدارهم، وهي عيون الكافور، وعيون السلسبيل، وعيون الزنجبيل، وعيون التسنيم، طينة الأنهار مسك أزفر. وفيها الأزواج المطهرة والحور العين، يعطى الرجل في الجماع قوة مائة رجل، وفيها الخدم والأتباع والحشم والولدان والقهارمة، وفيها السماع تهب فيها رياح الرحمة مبشرات برضوان الله ﷻ على شجر الجنة ونباتها، فيهتز بتلك الأرواح ما أتت عليه هناك، وتلك الدار كل شيء فيها معرب مفصح فيفصح بأصوات معربة عن التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد، مكان تصويتها بالصفير والنشيش والصرصرة، أعني: ما مرت عليه الرياح في هذه الدار، وبلغنا - والله أعلم - أنه ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان، قال: فيجعلهم الله في رياض من الجنة من مسك، ثم يقول الله عز جلاله للملائكة: «**اسمعوا عبادي تمجيدي وثنائي وأخبروهم:** ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170]»[1].

ولقد جاء أن داود ﷺ ينصب له منبر حيث شاء الله من الجنة وفي بعض مواسمه الكريمة، فيأخذ في التسبيح والتقديس، والتحميد والتمجيد، والثناء على الله تبارك وتعالى بما هو أهله وبما شاء ربك من المزيد لهم من المعرفة والعلم بالذكر، ويقرأ الزبور بصوته المبارك، ويزداد له في الحسن وطيب النعمة وكريم البهجة على قدر تباين الدنيا والآخرة، وتهب عند ذلك رياح الرحمة؛ فتهتز أشجار الجنة لهبوبها، ويستجيب الجو من ذلك الأفق المبين إفصاحًا بذكر منه، ذكر لم تسمع الخلائق قط له،

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (151/3).

بمثل بنغمات أصوات وعجيب لهجات، وعلى قدر الدار والسامعين والمستمع أكبر بهم، وقد شاء ﷻ تزيين ذلك والتعجيب به، وإكرام ذلك الملأ الكريم، فما ظنك يومئذٍ بحسن مثواهم، وصدق مقعدهم، وكريم مجلسهم، وطيب أنفسهم بسرورهم وحبورهم.

يَا حُسْنهم بِمجَالِس مِنْ لُؤلؤٍ ... يَتَطلعُونَ مِنَ العَلي للكَوثَرِ

وإنهم ليمطرون ولكن ما يشاءون، بلغنا - والله أعلم - أن السحابة تأتي على من شاء الله منهم، فتقول لهم: ما تشاءون يا أولياء الله؟ فيتمنى كل واحد منهم أمنية، فينزل عليه ما شاء الله.

وآية ذلك الغيث ينزله الله - تبارك وتعالى - من السماء فينبت به ما شاءه من كل زوج، وفيما ينزله بالماء تكون أمنيات أهل الدنيا كلها من طعام وشراب وحيوان وأزواج وخدم وحلي وملابس وغير ذلك، غير أن هذا جارٍ على تأجيل السنة، وذلك جارٍ على الكلمة إنما هو كن فيكون، الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60].

وقد جاء هذا معرفًا في القرآن قوله الحق جل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:17]، و﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:30]، و﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:11]، كذلك في تلك الدار، فاعلم ذلك.

غير أنها على ما تقدم أقرب مأخذًا وأيسر يسرًا وأكرم وجودًا بغير مقدار يحدد ولا نهاية عندنا تعلم، فاستفتح - وفقك الله - أبواب الاعتبار فيه يتيسر لك بلوغ المراد من اليقين بما أنبأك به العليم الخبير، وبلغكه الرسول البشير والنذير.

واعلم - يرحمنا الله وإياك - أن الجنة غدايٌّ وعشايٌ وجمعٌ، وشهورٌ وسنينٌ، وأحقابٌ ودهورٌ، وإنما أخذ أسماء ما هاهنا ومعانيه من أسماء ما هنالك تختلف عليه الغدايا والعشايا بالأرزاق والتحف والموائد والتحيات والسلام والإكرام، وتختلف عليهم الأيام بعد الأيام من غير ليل ولا نهار بتجديد الأنوار والحبور وتضاعيف السرور، كما كانت في الدنيا أيامهم تختلف عليهم بالاعتبار وتجديد الإيمان والأنوار، ألا تراه - جل ذكره - أوجد اختلاف الليل والنهار، والاعتبار وزيادة الإيمان والترقي

في درجات اليقين، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6]، وإنما تستبين لهم الآيات، هنالك الرؤية العلية ومشاهدة ما هي هذه الموجودات آية لها: موجودات الجنة والنار، ولذلك أكثر الآيات في قوله الآيات،ـفافهم بلغ الله بنا وبك.

ثم يرجع الكلام بنا إلى نسقه، فنقول: إن الأيام لما تختلف على المؤمنين المعتبرين بتجديد الإيمان وتأكيد المعرفة، كذلك تطوف عليهم بتجديد الأنوار وتدنيهم من الزيادة الكريمة ورفيع المعرفة والمشاهدة، وتطوف عليهم بالتجمع مع الإخوان والحساب، ثم بالزيادة العليا التي كل شيء من نعيم الجنة لها تبع، والقرب من القريب والودود والدنو منه، كما كانوا في الدنيا يسارعون إلى الجمعة والجماعات ويسابقون إلى الدنو من الإمام، ويقعدون في ذلك المقعد الصدق في جنات ونهر وانفساح واتساع ورُوح ورَوح، والنظر إلى ذي العزة والكبرياء، والجلال والملك، والقدرة والسناء، لا إله إلا هو الملك الحق الحليم الكريم، وسماع كلامه الحق بأحسن ما صاروا إليه، ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد:29].

وتطوف عليهم الشهور بالعطايا والمواهب الكساء والإقطاعات السنية ونحو هذا، وتطوف عليهم الفصول بتجديد المباني من غير بلى، والتحول إلى القصور والجنات من غير قلى للمتحول عنها، ولا إخلاء لها عن أهاليها، بل إلى ما في تلك المقاصير من أهل وولدان وأتباع وقهارمة، وغير ذلك مما لا نحسن نحن الآن وصفه، فإن لكل فصل خاصة جنة تحقق لهم حقيقتها من غير قطع لسواها ولا منع، وإنما هو ملك يتجمع إلى ملك ويتحقق بمزيد لا نقص ولا فقد.

آية ذلك: اختلاف الأحوال بالأهوية والفوائد في الفصول، ويطوف عليهم السنون باجتماع الخيرات، وإكمال الزيادات، وتضعيف العطايا والمواهب، وتجديد النزل والمراتب، وتحقيق الأسماء والصكوك والكتب والخطط، وترفيع الجاه والتقريب، فإنهم كلما أسكنوا الجنة، ازداد علمهم واتسعت آمالهم وعظمت فيما هنالك هممهم، وذلك موجود هنالك عن اسم المزيد، فازدادت أمانيهم وارتفعت طلباتهم وشواهدهم، ولهم فيها ما يشاءون، والله واسع عليم ذو الطول لا إله إلا هو العلي الوفي البر الكريم.

ولله تبارك وتعالى جنة هي باطنه لهذه الجنة الموصوفة، آية على تلك كما كانت

الدنيا آية على الجنة منها، يتحفهم كما كان يتحفهم من الدنيا بغرائب العلوم من خزائن الغيوب، ويفتح عليهم بأنوار الفهوم من ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182]، وكما كان المؤمن في الدنيا يرزقه ربه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:3]، ويقيه بكفاياته من حيث لا يعلم، ويلهمه بالهامات من لدنه لم يكن له أن يعلمها، ولا أن يهتدي إليها لولاه سبيلاً ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

فصل

وأن في الدارين الجنة والنار من المزيد في النعيم المقيم والعذاب الأليم ما لا يقدر قدره ولا يبلغ وصفه حق

اعلم - وفقك الله - وعلمك من علمه الصادق الحق جل ذكره الجواد الكريم، من شأنه ألاً يستقصي في وعده جميع موعوده وكذلك في وعيده؛ لأنه العزيز الكريم الناهي في العزة والكريم، بل لا بد أن يفصل - لفعله على وعده - فصلاً ما مبالغة في صدق وعده، وإظهارًا لجزيل كرمه وعظيم قدرته؛ لتوفر مقتضى فعاله على ما ورد من مقالة وما استقصى كريم قط، هذا هو المعهود في أهل المكارم والمعلوم من ذوي الفضائل، ولم يكن لعباده أن يبلغوا بفهومهم وعقولهم معرفة كنه ما أعد لهم هنالك من كرامته، فوصف لهم ما قارب أفهامهم مما جعل لهم في الدنيا مثلاً عليه مع الإشارة منه إلى كمال ما هنالك.

وبالجملة فإنه ﷻ جعل ما أعده في الدار الآخرة زائدًا عن العقول المضافة إلى أهل الدنيا، مربيًا على تحصيلهم وتمييزهم، فأعلا ذلك على الغايات ورفعه فوق النهايات؛ فلذلك فات العقول تصويرًا، وأعجز العلوم تحصيلاً؛ ولذلك قال جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، وقال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذُخراً. بله**»[1].

---

(1) حديث أبي هريرة: رواه أحمد (313/2، رقم 8128)، والبخاري (1185/3، رقم 3072)، ومسلم (2174/4، رقم 2824)، والترمذي (346/5، رقم 3197) وقال: حسن صحيح.

ما أطلعتكم عليه معناه دع ما أطلعتكم عليه أو سواء ما أطلعتكم عليه، لكنه تحصل من معنى لفظة «**بله**»: ما شاكل لفظه؛ وهو البله الذي يصيب العقول عند تصور ما أطلعنا عليه، وأما ما لم يجده في الدنيا ولم يخرجه بعد من عدم إلى وجود لصغر الدنيا إلى جنب الدار الآخرة، وقلتها عند ما هنالك فلم يعدهم به، ولا توجه إلى وصفه إلا على سبيل الإجمال والإبْهام والتعريض به كما تقدم، وذلك منه ﷻ إكرام يكرمهم به خارج عن معنى اسم المزيد لأعمال جاءوا بها زائدة على فرائضهم، فاحتمل ذلك الخطاب جميع ما يكون فيها من زيادة وفضل وإتمام وإكمال في متشابه ما يأتون به مما يعرفون له مثالات في هذه الدار.

ثم تناول بعد هذا - كلما خرج على اسم المزيد - مطلقًا في أسماء وصفات لم يعلمنا بها في هذه الدار، ولا جعل علينا لنا علمًا نهتدي به إلى معرفتها إلا الإيمان بها حسب، وهذا هو المعنى المستجن في الجنة المعبر عنها باسم الجنة، ألا تسمع إلى حديث رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة «**فأقع ساجدًا، فأحمده بمحامد يلهمنيها، لا أجدني اليوم أعرفها**»[1]، قال: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ**﴾ [البقرة: 255].

وقد جاء أن الله - تبارك وتعالى - خلق جنة من لؤلؤة واحدة وأطبقها بلؤلؤة، وختم عليها بختمه وخبأها عنده، فمن تلك يتحفهم زائدًا إلى الملك الذي أعده لهم في الجنة، وهذا - والله أعلم - جزاء الإيمان، وأذكار وأسرار في أسرار سرائرهم لا يطلع عليها سواه ﷻ لا إله إلا هو الحليم الكريم، وهو في قوله جل قوله: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة:17].

فصل

وأن فريق في الجنة وفريق في السعير حق

انقسام الدنيا إلى ذكر وفتنة، والشرع إلى وعد ووعيد، والعقود كلها إلى إيمان

(1) رواه أحمد (435/2، رقم 9621)، والبخاري (1745/4، رقم 4435)، ومسلم (184/1، رقم 194)، والترمذي (622/4، رقم 2434). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (378/6، رقم 11286)، وابن أبي شيبة (307/6 رقم 31674).

وكفر، والأعمال إلى طاعة وعصيان، بيَّن أن الآخرة منقسمة إلى معنى الدنيا والشرع وغيرها، وأن ليست هناك دار ثالثة؛ إنما يدخل أهل طاعته الجنة وأهل عصيانه النار، ثم يمحص أهل النار تمحيصًا بعد تمحيص بإخراج بعد إخراج، حتى إذا لم يبق فيها من أهل طاعته ولو بشهادة الإيمان أحد، أوصد عليهم أبوابها وقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:18] على هذا استمر الشرع بجميع ما ورد فيه.

أما أصل تمحيص الله ﷻ أهل النار بإخراج بعد إخراج؛ فبالشفاعة وقد تقدم اعتبارها، ولما قاله رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين، ثم قال: يا أصحاب اليمين، فقالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم قال: يا أصحاب الشمال، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: فخلط بعضهم ببعض، قال: فقال قائل منهم: ربنا لِم خلطت بيننا؟ قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾** [المؤمنون:63]، إلى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:172]، **ثم ردهم في صلب آدم**»(1).

وقال في حديث آخر: «**خلق الله وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، وأهل الجنة أهلها وأهل النار أهلها**» قال قوم: يا رسول الله، ما الأعمال؟ قال: «**يعمل كل قوم بمنزلتهم**»(2).

---

(1) رواه الحكيم (79/1)، وأبو الشيخ في العظمة (598/2، رقم 39) والطيالسي (ص 154، رقم 1130) والطبراني في الأوسط (325/7، رقم 7632).

(2) رواه الحكيم (79/1)، وأخرجه العقيلي (139/1، ترجمة 169 بشر بن نمير) وقال ولا يتابع عليه، والطبراني (242/8، رقم 7943)، وأبو الشيخ في العظمة (598/2، رقم 39) وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 154، رقم 1130) والطبراني في الأوسط (325/7، رقم 7632)، قال الهيثمي (189/7): رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار وفيه سالم بن سالم وهو ضعيف وفي إسناد الكبير جعفر بن الزبير وهو ضعيف.

وفي أخرى قيل: ففيم العمل إذًا؟ قال:«**إن كلا لا ينال إلا بالعمل**»[1]، وفي أخرى: «**كل ميسر لما خلق له**»[2].

فوجه الاستدلال من هذين الحديثين أنه تبارك وتعالى أعلم في الأزل بأهل النار من هم وبأهل الجنة من هم، فقسمهم على ذلك قسمين إلى سعادة وإلى شقاوة فهذان فريقان، ثم خلط بينهم الأعمال ﴿**هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ**﴾ [المؤمنون:63]، فتجد المؤمن قد يعمل عمل الكافر، وتجد الكافر قد يعمل بعمل المؤمن، لكن ليس يخرج الكافر عمله الحسن من النار ولا يخرج المؤمن عمله السيئ من الجنة، فتمحص النار من أهل الجنة المذكورين يوم القبضتين بالشفاعة بإخراج بعد إخراج، حتى يرجع الأمر إلى قوله الحق: «**هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[3]، أجارنا الله الرحيم برحمته من النار، ومن جميع عذابه قليله وكثيره ﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [الطور:28].

فصل

وأن الحشر حق

هما حشران سوى الحشر الأول، حشر قبل قيام الساعة، الذي أنذر به رسول الله ﷺ في قوله: «**يحشر الناس على ثلاثة طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث**

---

(1) رواه الطيالسي (ص 4، رقم 11)، وأحمد (2/77، رقم 5481)، والضياء (1/305، رقم 196).

(2) حديث عمران بن حصين: رواه أحمد (4/427، رقم 19847)، والبخاري (6/2745، رقم 7112)، ومسلم (4/2041، رقم 2649)، وأبو داود (4/228، رقم 4709). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (6/517، رقم 11680). حديث أبي بكر الصديق: رواه أحمد (1/5، رقم 19)، والطبراني (1/64، رقم 47). حديث عمر: رواه الترمذي (5/289، رقم 3111). وأخرجه أيضًا: البزار (1/271، رقم 168).

(3) رواه الحاكم في المستدرك (84)، وابن حبان (129).

أمسوا، فمن تخلف منهم أكلته»[1].

ثم الحشر الأول بعد نفخة النشور حشر عام، قال الله جل قوله: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأنعام:22]، وقال: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [المؤمنون:79]، فهذا هو الحشر الأول يوم القيامة، كما ذرأهم من عنده ردهم إليه حكمة بالغة وأمر عزم.

وأما الحشر الثاني فحشر الكافرين إلى جهنم، وحشر المؤمنين إلى الصراط الأول ثم إلى الصراط الثاني، قال الله جل قوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾ [الأنفال:36]، ﴿**وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ [الزمر:71]، وقال رسول الله ﷺ: «**ينادي منادٍ يوم القيامة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت؛ فيتساقطون في النار**»[2]، ومصداقه من القرآن العزيز قوله: ﴿**هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ**﴾ [يونس:30].

ثم ينصب الصراط على متن جهنم فيجوزون، قال رسول الله ﷺ: «**إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار**»[3]، وهو الصراط الثاني، والحشر وصف من أوصاف البعث والنشور، وقد تقدم الكلام فيه.

---

(1) رواه البخاري (2390/5، رقم 6157)، ومسلم (2195/4، رقم 2861)، والنسائي (115/4، رقم 2085)، وأخرجه أيضًا: ابن حبان (331/16، رقم 7336). «تقيل معهم حيث قالوا»: أي تكون معهم وقت القيلولة.

(2) رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179).

(3) تقدم تخريجه.

فصل

وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة حق

قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22.23]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] قيل: الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وإنما سمي النظر: زيادة وهو أعلم؛ لأنه خاص من اسم المزيد، ومعنى المزيد: أنه لو يعرف قدره ولا يبلغ كنهه ولا يحد بحد، أعني: العطاء الذي هو خارج على معنى اسم المزيد، وقد جاء أن الله ﷻ تطلع إلى أهل الجنة، فيقول لهم: «**يا أهل الجنة هل رضيتم؟**» فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ فيقول: «**هل تريدون شيئًا أزيدكم؟**» فيقولون: ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تجرنا من النار؟ ألم تبيض وجوهنا؟ قال: فيكشف الحجاب لهم عن وجهه الكريم(1).

فالمزيد في الجنة كلما أربى على وصفها مما لا تبلغه الآن أوهام ولا تدركه العقول، قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:26] أي: أن هذه الدار الحسنى، أي: في دار البرزخ، ثم الزيادة بعد ذلك الجنة العليا يوم الآخرة، ثم الزيادة في جنة الخلد الزيادة والنظر إلى الله ﷻ.

ثم عز جلاله لا يزال يمن بمزيد يزيدهم في الجنة أبدًا، تعجبهم وعلومهم تعلو وآمالهم تتسع، وهو أبدًا ﷻ يريهم ما يربى على آمالهم ويزيد على معهودهم، وهو- عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - لا يبدو لهم بمراءٍ واحدٍ مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين؛ بل لكل تجل مزيد رؤية ولكل كلمة معنى، آية ذلك طلوع الشمس اليوم في غير مطلعها بالأمس، وبالغد في غير مطلعها اليوم، وخطابه في القرآن لمن تدبره حق تدبره، فإنه لا يكون كلمتين في معنى واحد، فافهم فهمنا الله وإياك.

ألا ترى أن الجنة قد وصف الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ منها ما عسى أن يبلغه

---

(1) رواه أحمد (88/3، رقم 11853)، والبخاري (2398/5، رقم 6183)، ومسلم (2176/4، رقم 2829)، والترمذي (689/4، رقم 2555)، وقال: حسن صحيح. وابن حبان (470/16، رقم 7440).

أفهام العباد، ثم قال جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:17]، وقال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]، فاشتبه هذا العطاء الذي لا تبلغه العلوم ولا تنتهي إليه الأوهام، النظر إلى وجه الله الكريم وجوب الإيمان بالله، وبما له من الأسماء والصفات، وبالنظر إليه ولا تبلغ العقول قدر ذلك ولا كنهه، ولا تتوهم الأوهام ولا تتخيله الأفكار، فسماه زيادة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانًا**»[2]، وقال: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ضحوًا وليس دونها سحاب**»[3].

وقال أبو رزين لقيط بن عامر رحمه الله: يا رسول الله، أكلنا يرى الله يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «**أوليس كلكم يرى القمر مخليًا به؟**» قال: نعم، قال: «**فذلك آيته في خلقه وهو أعظم**»[4].

فجعل ﷺ رؤيتنا الشمس والقمر في هذه الدار آية على رؤيته ﷻ، وذلك أن الشمس أصل لنور الأبصار فبنورها يرى البصر كل ما يقع عليه، فإذا وقع بصر الناظر على مرئية؛ خرج من باطن القوة الباصرة روح يكتنفها شعاع يضيء بواسطة نور الشمس إلى البصر، فيقع على المرئي، فيشاهد باطن الرائي ذلك المرئي.

وأيضًا فإن لكل موجود وجودًا يكتنفه، وتتفاضل الموجودات في ظهور ذلك عندها وعنها: كالسراج والشمس والقمر والنجوم، وقد ضرب الله تعالى ما يكتنفه السراج من ضيائه مثلاً لنوره العلي، وضرب رسول الله ﷺ رؤيتنا الشمس والقمر مثلاً لرؤيته ﷻ.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه أبو نعيم في الحلية (127/6).

(4) رواه أحمد (11/4، رقم 16231)، وأبو داود (234/4، رقم 4731)، وابن ماجه (64/1، رقم 180)، والحاكم (605/4، رقم 8682) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (206/19، رقم 465). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 147، رقم 1094)، وعبد الله بن أحمد في السنة (1/ 246، رقم 451).

وأما غير النيرات من الموجودات؛ فيدل على ما يكتنفها من الوجود انطباع ذلك منها في المرائي الصقيلة المقابلة لها والمياه وغير ذلك، وإنما كان انطباع هذه الموجودات في صقله المرآة من أجل وجود لها يكتنفها، وذلك من عالم الغيب من أجل ذلك الوجود المكتنف للموجودات تصل إلى موجود النفس - أعني: العين - السحر وإياها تلبس الجن في مصابها، وعلىّ سبله يصحب الملك والقرين والحفظة الكرام، وفيه يلقي الملقى فيتلقاه الملقي، والمفاضلة تقع بعد ذلك في رفعة المنزلة من الله بالقرب منه وضعتها بالبعد منه، وكما تقع المفاضلة في تحقق الرؤية من جهة القرب والبعد في المسافة ودقة الوجود المكتنف المرئي لدقة المرئي، أو جلاله وسلامة القوة الباصرة من الآفات القاطعة بها من داخل ومن خارج إلى غير ذلك، وإنما يكون وجود اليمن في الموجود وضده بعد حقيقة الموجود في الوجود المكتنف له.

وهذا باب يشرع إلى أحوال البرزخ، ووجود الحياة فيه والموت، وجملة ذلك أنه إنما تحيى الجملة بالإيمان والعلم وبطاعة الله والعمل بها، وتموت بالكفر والجهل والعمل بمعاصي الله، فإن لهذين السبيلين خاصة في حياة البرزخ والحياة الأخرى، والموت فيهما لا يظهر بجملته إلا بعد الموت إلى ما وراء ذلك.

آية ذلك ما يجده الموفق في هذه العاجلة من روح طاعة الله ﷻ وحياة الإيمان والعلم، ولنقتصر على ما ذكرناه من هذا الغرض فإنه مع رفعته وعظيم فائدته، سهل مسلكه قريب مأخذه، ندر طالبه عديم مصاحبه، فإذا نظر الناظر إلى الشمس فإنما يراها بواسطة نورها، فهو إذا لقي الشمس شعاع ذلك الروح الشعاعي الخارج من البصر بهره وغلبه، والله تبارك وتعالى أعظم عظمة وأعلى علاء، فإذا أنجز عباده وعده الكريم؛ فإنما يرونه بنوره ويلطفه من لطفه ﷻ، ومن بهي سناء نوره النزيه الرفيع العلى وبصر العبد من حيث هو لا ينفذ إليه ﷻ ولا يدركه سبحانه وتعالى عن ذلك، ألا ترى أن الشمس لا يكاد البصر يدركها، بل تبهر البصر وتغشى نوره، فالله أعلى وأجل وأرفع لكنهم يرونه كما شاء هو ﷻ وكيف شاء، والكيف هناك في حق الرائي سبحانه، هذا معنى قوله جل قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:13] أي: يوصل إليها من نور جمال جلاله لطفًا يوصلها من الرؤية له والنظر إليه ما شاء هو تبارك وتعالى؛ فهو المدرك للأبصار ومدركها على مقاربة في العبارة وتجوز في اللفظ، وإلا فليست بمدركة له ألبتة.

آية الرؤية له في الآجلة العلم به في الآجلة العاجلة أن علوم العباد لقصورها لم يكن لها أن تصعد إلى أن تقارب أن تعلمه، كما لم يكن لها أن تحيط به معرفة ولا علمًا، كما آية التوصل إلى رؤيته به هناك، وإن ذلك يكون دون ازدحام ولا تضايق رؤية الشمس والقمر هاهنا دون تضام ولا مضايقة، بل يراها كل من منزله وموضعه، والله أعظم وتعاظمه من هذه الجهة نزاهته وعظمته عن أن يدرك الأبصار.

فالعلم رؤية باطنة وهي فعل البصيرة وجائز أن تنشأ بالإيمان وطاعة الله ﷻ والمعرفة له حتى تكمل وتتم مشاهدة ورؤية كغيرها من صفات الحق الموجودة في العالم، وقد وعد بذلك من الصدق من صفاته والحق من أسمائه، فهو كائن لا بد ولا محالة، هو الحق وقوله الحق؛ لأن الموجب لرؤيته وعد بذلك ووعده الحق والموصل إليه هو لا إله إلا هو بالإيمان به والمعرفة، قال الله ﷻ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمۡ﴾ [يونس:9]، فهداهم بالإيمان إلى صراطه المستقيم، ثم أكمل تلك الهداية لهم بالنشء على سنن سنته حتى هداهم بالإيمان إلى صراط مستقيم، ثم أكمل تلك الهداية في الآخرة بإيمانهم لرؤيته، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ في ذلك كله ﴿وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد:3].

ألا ترى إلى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول في وصف الموقف يوم القيامة: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيكون ذلك حتى تبقى هذه الأمة وفيها منافقوها فيأتيهم الله ﷻ في صورة غير التي يعرفونه عليها، فيقول لهم: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، حتى إن أخذهم ليكاد أن ينقلب، فيقول لهم: هل بينكم وبينه علامة أو آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيقول: ما هي؟ فيقولون: إنه لا عدل له**»، وفي أخرى: «**فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك**»[1].

وهذا الخطاب منه لهم، والترائي على ما ليس به إنما هو في حق المنافقين؛ تصديقًا لقوله الحق: ﴿يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَـٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:15] في العاجلة وجاز لهم على استهزائهم في الآجلة، ووافق بين الجزائيين عاجلاً وآجلاً،

---

(1) رواه أحمد (407/4، رقم 19671). وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص 191، رقم 540).

وكذلك قال عز من قائل: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:142].

فانظر- وفقنا الله وإياك- إلى كل مجيء وظهور وتجلي منه على ما ليس به فهو في حق المنافقين والمكذبين، وما كان من ذلك على ما هو به فهو في حق المؤمنين والموقنين، لكنه لا بد أن يبقى عليهم في ذلك الموقف معنى من اسمه المبتلى والممتحن؛ لكون المنافقين والمكذبين معهم، ثم ينجي المؤمنين بعصمته، ويهديهم بإيمانهم وهو الرءوف الرحيم.

فهذا أصل لهذا المعنى كيف توجه ثم أحكمه، فمن علمه في الدنيا وعرفه كما أذن له، وكما ينبغي له، وكما وصف به نفسه وتسمى رآه في الآخرة، كذلك ثوابًا لعلمه ومعرفته، وبالضد لمن تجاهل وتعاصى وكذب وافترى؛ فنسب إليه ما لا ينبغي له واعتقده على ما ليس به، وعلى الرأي تختل الأحوال هناك، وهو العزيز الذي لا يحول ولا يزول لا تختلف به الأحوال ولا تصرف له الأمثال، استرسل بنا عنان اللسان فامتد لذلك طلق اللسان، حتى عدل بنا عن نسق الخطاب؛ رجاءً منا بفوز ثواب البيان عن حقيقة هذا النبأ العظيم والبلاغ الكريم، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

ثم نعود إلى ما عدلنا عنه قال: «فيقولون: فارقنا الناس أفقر ما كنا إليهم، ونحن ننتظر ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، قال: «**فكشف لهم عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله ﷻ من تلقاء نفسه إلا سجد، ومن كان يسجد رياءً وسمعةً كلما أراد أن يسجد خر على قفاه**» تصديقًا لقوله الحق: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ....﴾ [القلم:42]، إلى قوله: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:43]، قال: «**ثم يرفع المؤمنون لهم رءوسهم وقد تجلى لهم يضحك، فيذهب ويتبعه المؤمنون ويضرب الصراط على متن جهنم.....**»[1].

آية ظهوره على من ليس به هناك سبق الجهل العلم في الدنيا، وقد تقدم ذكر مخادعة المنافقين واستهزائه بهم، جزاءً لمخادعتهم له ولرسوله وللمؤمنين

---

(1) رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179).

واستهزائهم، وأنهم لا يرونه على ما هو به، كما لم يؤمنوا به على ما هو به، ومثال ذلك أيضًا في المؤمنين الخطرة والوسوسة، وصدق العقد في حينها إلى ما ليس به، قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون يقولون: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك منكم فليقل: آمنت بالله، ولينته**»، وفي أخرى «**فليقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾** [الإخلاص:1-4]»[1].

فالعلامة التي بينهم وبينه - والله أعلم - معنيان: أحدهما: توحيد مجرد وتنزيه مطلق يشمل معناه: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾** [الشورى:11]، والمعنى الثاني: لطيفة من لدنه إلى بواطنهم تطمئن بها إليه قلوبهم بواسطة إيمانهم به.

آية ذلك في الدنيا اللطيفة التي لم يقدروا معها أن يجهلوه، وهو ما فطر هو عليه من المعرفة، وكلما قلنا: فعلية من القرآن العزيز، وشواهد ظاهره وباطنه الحق من ربك **﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾** [آل عمران:60].

والمعرفة به والعلم من صفات الحق الموجود في جبلة العالم المفطور عليه، وكما ينشأ كل شيء فكذلك تنشأ ذوات بني آدم، ألا ترى إلى ضعفها اليوم في العاجلة وهي في الآخرة تحمل أهوال يوم القيامة وزلزالها وعذاب النار وسرور الجنة ونعيمها، وكما لا يلزم أن يعلم في ناحية ولا مقابلاً ولا بمحاذاة ولا محدودًا ولا محاطة به ولا متحيزًا ولا في مكان، وكذلك رؤيته ﷻ بل يرونه كما شاء، وإنما معنى العلم والمعرفة: مشاهدة معلوم ومعرفة معروف، هو موجود له وجود **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾** [الشورى:11]، ومسمى له أسماء وموصوف له صفات مع مشاهدة إعظام وإكبار وإجلال لا يحاط بعلم ذلك الجلال، ولا يبلغ كنههٍ ولا يقدر قدره، يشاهد العالم به علم تقصيره عن ذلك وعجزه وحضره، ولولا لطف رحمته ورأفته، وبره وامتنانه، وعطفه وكريم قربه، وجميل رضاه وإحسانه في نزوله من عظيم عظمته وشموخ كبريائه، وعزة علائه إلى قلوب عباده ما استطاع أحد أن يعلم شيئًا من علمه، كما أنه

---

(1) رواه أحمد (102/3، رقم 12014)، ومسلم (121/1، رقم 136)، وأبو عوانة (82/1).

وقد شاء نزولاً إلى قلوبهم لم يستطع أحد مع ذلك أن يجهله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:54].

فإن قلت: إنا قد نهينا أن نقول في الرؤية بالكيف، وأن نسأل عنه تعالى بالكيف، وقد ثبت علاؤه وتنزهه عن التحيز والناحية والتلقاء والمحاذاة والحدود ونحو هذا، وحصل الإيمان به - والحمد لله على ذلك - هل من سبيل إلى سكون النفس بما هذا سبيله من العلم؟ فقد قال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:38]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89].

فاعلم - وفقك الله- أن مطلبك هذا في تأويل قوله الحق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:13]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم:19].

ولتعلم أن كل مرئي أو معلوم لا يحدث فيه معنى من حيث وقوع الرؤية والعلم به، بل في الرأي والعلم؛ لأنهما يكتسبان وصفًا وصفة لم يكن عليه قبل، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، لا يكسبه علم شيء ولا رؤيته وصفًا ولا صفة لم يكن عليه قبل؛ لأنه لم يزل عالمًا رائيًا كل شيء قبل أن يكونه، فلما أوجده أوجده على ما علمه، وأجرى حكمه على ما قدره.

وقد تقدم أن لكل موجود وجود يكتنفه ويحتويه، وذلك الوجود المشار إليه ممتد ما لم يحل دونه حجاب يحجبه أو يحجب عنه، وعلى الحقيقة فما ينتهي وجود الموجودات دون اللوح المحفوظ، فإن كتب فيه الموجودات لم تمح عنه، واللوح في نفسه يتلألأ، فحقائق الموجودات كلها على أحوالها كيف تصرفت تنطبع فيه انطباع الصور في المرائي عنه صدرت وإليه ترجع، وبه يعترض تصحيحها والرائي من المخلوقين حين رؤيته المرئي يخرج من حدقته روح شعاعي بواسطة صفاء الهواء يستمر ممتدًا على وجود الرائي المكتنف له إلى المرئي، وشكل هذا الشعاع حال خروجه متسع كلما امتد استدق، حتى تكون جملته من أوله إلى أبعد امتداده على شكل مخروط؛ فما كان قريبًا من الرائي وافق المتسع من ذلك الشعاع، فرآه على

مقداره الموجود عليه بما كان منها في أقصى البعد، ونهاية امتداده وافق طرفه المستدق منه جرأة على ذلك صغيرًا، وما بين البداية من ذلك والنهاية على التدريج، فإن كان هذا المرئي ليس مقابلاً لبصر هذا المبصر لم يدخل في طريق ذلك الروح الشعاعي، وإن كان قريبًا منه أبصره يعرض وراءه عن جنب، وإن أدار حدقته إلى ذلك المرئي دخل في طريق الروح أبصره كالمعهود، فالبصر لا يبصر على هذا إلا ما كان بحذائه وفيما يقابله وأمكن دخوله في شعاعه، وكأنما ذلك الشعاع للمبصر عصا يتحسس بها الموجودات غير أنه أعطى طواعية تقليب الحدقة، فيبصر بها على ذلك ما شاءه، وإن كان لا يشعر بحكمة الله ﷻ فيه.

ورؤية الله ﷻ خاصة ليست كذلك، بل وجود ليس كمثله شيء وجود، وشعاع بصر العبد لا نفوذ له في تلك الحضرة العزيزة، ذلك قوله جل قوله: ﴿**لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ**﴾ [الأنعام:103]، إنما هو وجود ذي الوجود الأعلى يتلافى وجود العبد، فيعلو بذلك وجودًا وصفاتًا وأسماءً بصرًا وعقلاً وإيمانًا وعلمًا، وما لا تبلغه العبارة ولا يصل إليه الآن علم، فيراه على ذلك به ﷻ ذلك قوله عزّ قوله: ﴿**وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ**﴾ [الأنعام:103].

وقد قال رسول الله ﷺ وذكر الشفاعة: «**فأخر له ساجدًا، فيلهمني محامد لا أجدني الآن أعلمها ولا أخبر بها**»[1].

ولما لم ينبع لشعاع بصر أو روح بصر ومبصر؛ لضمان أن يكون له هناك نفوذ، بل استحال تصرفه في تلك الحضرة، وثبت عجزه عن القيام لسبحات ذي الجلال والإكرام عدمت الناحية فيما هنالك، والمقابلة، والمحاذاة، والتلقاء، والأمم، والإحاطة، والمحدود، والمسافة، والتحيز، وغير ذلك مما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى، وتستحيل له به؛ إذا الرؤية له عز جلاله بوجوده الذي أعلى وجود العبد كله فرآه به، وفي ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومما هنالك انبعث ذلك إلى سائر الجنة وهو المزيد، وإنما التحيز والنواحي في وجود المخلوق لا في وجود الخالق جل وعلا.

(1) رواه البخاري (7510)، والنسائي في الكبرى (331/6).

وعلى الإجمال في القول والله - عزّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - لجلال وعظمة شأنه وكبريائه وعظيم سلطانه وجبروته، لا يستطاع رؤيته ولا يقوم له شيء، ولا يثبت للنظر إليه ولا إلى سماع كلامه لولا نزوله إلى ما يزيدهم به من فضله، واعتماده إياهم من أيده، وتثبيته إياهم بما يقابل به ما أهلهم له، كذلك فعل بهم في أول إيمانهم، ثم في زيادته إياهم إيمانًا إلى إيمانهم؟ ألا ترى الكافر لا يستطيع ثبوتًا على المقام في مقام التوحيد، ولا صبرًا على الإيمان بالله ورسوله، بل يصرفه الإضلال، ويسلمه الخذلان، وتغشى بصيرة قلبه ذلك النور، وتصك سمعه حقيقة صوت التوحيد، فيحيق به الصمم والعمى والبكم، فهم أموات غير أحياء، فاقض بحاضر على غائب، وبعاجل على آجل، والفاعل واحد والفعل من جنس واحد، والمعقول به واحد.

كذلك في كل ما عرفوه وسمعوه من أسمائه وصفاته، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويبقى عليهم من ذلك ما يشوقهم به إلى معرفته والعلم به، ما يريهم في جمع آخر من مزيده سبحانه وبحمده، حتى إذا رأوه في يوم مزيد آخر، وكذلك هكذا أبدًا مع خلودهم في أبد الآبدين لا إلى غاية ولا منتهى، فسبحان من لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، وكلما رأوه تبارك وتعالى، وداموا في جواره أزاد علمهم، واتسعت آمالهم، وتكاملت أمانيهم، وعلا قدر سعة علمهم تكون رؤيتهم إياه في مقاماتهم، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

فصل

وأنه ﷻ يكلم أولياءه في الجنة والمحشر حق

قال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164]، وقال جل وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:253]، وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58]، وقال عز من قائل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:51]، وهو كثير، وقال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا**

وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول له: ....»[1].

الكلام صفة من صفات الكمال، وكل صفة لا يخرج البارئ ﷻ اتصافه بها عن صفة الكمال التي هو لها أهل، فهي لله - جل وعز - وهو أحق بها، وقد اتصف ﷻ بالكلام وتمدح به، لا بل يستحيل عليه ضده، فإذًا كل كلام في العالم ظاهر أو باطن آية لكلامه العزيز دليل عليه، من حيث إن النطق والبيان والكلام من صفات الحق، التي جعل الله عليها العالم فهو ينشأ فيه نشأة؛ حتى يتحقق ويكمل كغيره من الصفات التي للحق.

وقد قال عز من قائل: ﴿**ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: 1-4]، فتمدح ﷻ بتعليم البيان كما تمدح بتعليم القرآن، والقرآن من كلامه فكذلك البيان من صفاته، وقد قال عز من قائل: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى:51].

وهذا وحي الإلهام ومحادثة السر، وكما قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمتي مكلمين أو محدثين، وإن عمر لمنهم**»[2]، وهذا قد يكون من الملك، وقد يكون من تكليم الله ﷻ لعباده كالكلام في السر؛ لأنه قد يكون الوحي بواسطة الملك، وقد يكون تكليمًا منه وقذفًا في قلبه.

وقد قال عز من قائل: ﴿**أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى:51]، وهو كتكليمه موسى ﵇، وبخاصة فأبين آية على وجوده إعجاز كلام القرآن الحكيم وكلام الأنبياء؛ إذ كلامهم عن الوحي، فهو آية له مشيرًا إليه بقدر ما قرب منه، وأبين الكلام هو القائم في نفس المتكلم الواقع في نفس المخاطب بواسطة السمع، أو ما يقوم مقامه

---

(1) رواه أحمد (256/4، رقم 18272)، والبخاري (2709/6، رقم 7005)، ومسلم (703/2، رقم 1016)، والترمذي (611/4، رقم 2415) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (1/ 66، رقم 185)، والطبراني (95/17، رقم 225)، والبيهقي في السنن الكبرى (176/4، رقم 7533)، وفي شعب الإيمان (245/1، رقم 259)، وابن منده (775/2، رقم 787) وقال: إسناده صحيح. والرافعي (104/4).

(2) تقدم تخريجه.

والحروف أقسام؛ فمنها حروف ذوات أشكال وألوان وأوزان وأسماع، وعن مركبها تألف كلام البشر، ثم منها حروف باطنة هي حروف كلام البشر، وهو المشار إليه بقول القائل:

إِنّ الكَلامَ لَفِي الفُؤادِ وَإِنّما جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤادِ دَلِيْلا

ولما كانت حروفًا لكلام باطن بَطَنت لذلك صفاتها، التي هي الأوزان والأشكال والأسماع، فلها مما اتصفت به الحروف الظاهرة حظها لكن باطنًا، وفي هذا الموضع يلقي العدو إلى النفس، وفي ذلك الموضع من الإلقاء تكون اللمَّتان، وهو إلقاء ملك الطبع وإلقاء شيطان الطبع، قال الله ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:268]، وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة:30]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه:96]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف:53].

ومنها: حروف باطنة لحروف السر هي حروف كلام الروح، وهو موضع الروع - والله أعلم - قال رسول الله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها**»[1].

وهو كلام أعلى من كلام العبد، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-195]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:97].

ثم هذه الحروف التي هي لروح القدس هي واسطة بين كلام رب العالمين وبين ما شاء الله تنزيله إليه، قال الله جل علاؤه وشأنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل:12] أي: بنزول الملك على قلب الرسول ﷺ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:97] بالغيب الصادر من قلب الرسول إلى لسانه للتبليغ، وإنما هو تنزيل الله ﷻ كلامه إلى روح القدس، ثم إلى الروح الأمين إلى قلب

---

(1) رواه ابن ماجه (725/2، رقم: 2144)، والبزار (314/7، رقم 2914).

النبي، ثم كذلك يبقى في كلام القرآن الظاهر وكلام النبي، المنزل عليه الوحي تنزيل بعد تنزيل، ينزله الله ﷻ على قلوب العلماء وأفهامهم، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:45]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:77].

فهكذا ينزله عز جلاله بعد تنزيل الإبلاغ والإفهام، والحروف الظاهرة يسمعها البر والفاجر، ولكن الإيمان بما حملت وفهم ما ضمنت، هو العزيز وجوده؛ فهم يسمعون تقطيع الحروف بواسطة الأصوات ولا يفقهون، وهو كله كلام الله ﷻ لكن بوصف ما أو بصفة ووصف، قال الله ﷻ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] أي: يسمع القرآن، وقال في غير هؤلاء: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:171].

ثم فوق هذا كله هو له ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من حيث هو ليس كمثله كلام، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ:48] منزه عن الكيف والكم والشكل واللون والوزن، والمقادير منزهة في أنفسها عن التقدم والتأخر؛ إذ لا قبل هناك ولا بعد.

فانظر - وفقك الله - إلى كل ما جاء عنه ﷻ من الحروف، التي عبر عن نفسه أو عن صفة من صفاته وترتيب أفعاله، فأجر ذلك كله على نحو ما تقدم ذكره من التنزيل والتقريب، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:134]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:152]، وكقوله جل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:54]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:11]، وكقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:5-7]، وكذكره ﷻ الاستواء والمجيء والكيف، كقوله: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:260]، وكقوله

رسول الله ﷺ للسوداء: «**أين الله؟**»، فقالت: في السماء، فأقرها على ذلك[1]، إلى غير هذا مما يعبر عن وجوده وأفعاله.

واعلم أن العلماء من السلف ﷺ تلقوا هذه العبارات، وما نحا نحوها على وجهين، افترقوا إليهما فريقين، والوجهان يرجعان إلى وجه واحد - والحمد لله - وهو أن هذه عبارات لا تجوز عليه حقائقها المعهودة عندنا، فكلما جاء من هذا النوع أولته إحدى الطائفتين، ومنعت أن يعبر عنه بها ﷻ سوى ما جاء من ذلك مذكورًا فيما تلوناه أو رويناه، وأمروا الأتباع أن يمروا هذه العبارات على نحو ما جاءت به دون زيادة فيها أو نقصان منها أو وقوف يتعرف إليها، وزجروا عن ذلك جدًّا خشية الإبهام، وهو وجه صحيح درج عليه كثير من السلف رحمة الله على جميعهم.

والوجه الآخر: هو لأهل العليا في المعرفة، فإنهم قالوا بصحتها وإثباتها مواضعها، قالوا: وإنما جاء بها ﷺ ليوصل عباده بها إلى الفهم عنه، قالوا: وما في العالم من وجود حمد ولا حقيقة حق إلا وله في العلى أعلى وجودًا وأكرم حقيقة، هذا المشاهد آية له ودليل عليه، فهذه الحروف المحدثة والأدوات المخلوقة تعبر عن أمثالها وتُنبئ عن أشكالها، ولها في القدم أصول عنها أخذت ومعانٍ عنها عبرت، وهي وإن كانت محدثة الكون فلها وجه إلى القدم من حيث عبرت عنه، أنالها من بركته ما عبرت عنه، ونور ما به أخبرت، فإزالة الإيهام ونفيها المعهود منها والتشبيه، وإبقاء المفهوم عنها من التنزيه لذلك الإجلال، فقوله ﷺ: «**كان الله**[2]»، هي هنا غير متصرفة، فلا يقال في هذه خاصة: كان يكون كونًا، بل هي عبارة عن توالي الوجود المطلق، دون تقييد في كانه النزيه ألبتة في أزل الآزلين في أول، فهذه من بركة ما أنالها من حقيقته النور، الذي نشر عليها من قربه.

وقد قال بعض العلماء: كان هو الله، وإنما قال ذلك معبرًا عن استمرار الوجود، وكذلك غيرها في بابها، وأما ما في قوله: ﴿**وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الشعراء:23]، وقوله: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا**﴾ [الشمس:7]، وبابها حيث جاء، فإنها وإن كانت من فرعون على وجه البحث عنه بما هو ما نهينا عنه، فإنها من عند الله ﷻ على وجه

(1) رواه مسلم (1227).

(2) تقدم تخريجه.

التعاظم والافتخار والجلال؛ ولذلك رده موسى ﷺ إلى العلم الأول بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:65]، فحاد ﷺ عن بحث فرعون لفساده إلى الطريق المرشد والسبيل القويم، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:24] أي: إنكم إذا علمتموه من هذا التعرف الذي وصفه لكم، ووصلتم إليه على هذا الطريق الذي عليه دلكم؛ شاهدتموه بنعوت جلاله جل عظمته، وكنتم من الموقنين صح لكم البحث عنه.

وهكذا في معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:5] يريد التعظيم لشأنه، والافتخار بجليل اقتداره ومن ذلك قول المرأة من العرب: زوجي مالك، وما مالك، مالك خير من ذلك، وقول الأخرى: زوجي أبو زرع، وما أبو زرع...[1]، وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:11]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:4].

فاقطع - وفقك الله- قطعًا باتًا أن القبل والبعد لا يصل إليه حكمهما، فالقبل لا يقطعه عن البعد، وأن البعد لا يفته القبل؛ إنما هي عبارات عن ترتيب إلهي وحكم رحماني، يشير إليه الإيمان جملة ولا يتصور تفصيلاً، إلا ما شاء الله والقبل والبعد وترتيب ثَم، ووجود المهابة في مفهومها موجود في الأفعال، كإيجاده العرش والكرسي قبل إيجاد السماوات والأرض إلى غير ذلك، فعلى هذا قد يتوجه الترتيب بحرف، ثم وعلى هذا السبيل فاحمل معاني ما جاء من ذكر الاستواء والمجيء والكيف والحيث، أمط عن هذه العبارات فيما هنالك ما يستحيل، وأثبت بها ما يجوز فهو الحق وقوله الحق، وما أعجزه قط مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فكيف تعجزه عبارة تعبر عن شأنه وجليل صفاته.

فإن كنت - وفقك الله - ممن يمشي على هذا الصراط سويًا فدونك، وإلا فارجع

---

(1) رواه البخاري (1988/5، رقم 4893)، والترمذي في الشمائل (209/1، رقم 254). وأخرجه أيضًا: مسلم (1896/4، رقم 2448)، والنسائي في الكبرى (354/5، رقم 9138)، وأبو يعلى (154/8، رقم 4701)، وابن حبان (25/16، رقم 7104)، والطبراني (169/23، رقم 268).

إلى ما تقدم ذكره من الوقوف وإقرارها على ما وردت، فتلك أيضًا سبيل سائله وأمر قويم إن شاء الله، وكما أنه ﷻ يخفض القسط ويرفعه، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولأنه الملك الحق فلا يلحقه اسم الظلم، وهو المنزه بحقيقة الحق عن نقائص الجور؛ من حيث إنه لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه ولا عبد لغيره ويجوز عليه، فكذلك يتكلم بكلامه ولا يطرق ما هنالك القبل والبعد، ولا التعاقب ولا التضاد، كل ذلك لا يجوز عليه ولا يلحقه، بل هو مستحيل وجوده في حضرته المنزهة إلا ما شاء كيف شاء، وكما لا يلحقه اسم الظلم في تقديره المقدرات أولاً، وإخراجها آخرًا على ما سبق في علمه المحيط، سبحانه الممتنع من سواه لعزته لا سواه الممتنع عنه، فافهم وألقن.

وهو الغني الحق فلا يحمل كلامه هواء، ولا يخرج عن مخارج، ولا يعتمد على اعتمادات؛ إذ كل هذا غير جائز كونه فيما هنالك المحدثات لا تطرق ساحته، والمكونات لا تعدوا على صفاته، هو القادر ﷻ على إيصال كلامه العزيز إلى ما شاء ذلك به، من عباده أو شاء من ذلك كما شاء وكيف شاء، والكيف في حق المخاطب لا في حقه سبحانه، وله الحمد هو نزيه الحضرة، الرفيع الدرجات، وإنما جعل الهواء والصوت لكلام عباده للتوصيل واللسان والمخارج، واللهوات للتقطيع؛ لفقرهم وعجزهم وعوضًا من غناه هو؛ لأنه يقدر أن يوصل إلى مخاطبه، وأن يفهم مخاطبه من كلامه ما شاء يفهمه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:17]، فتفهم ما تقدم لك في هذا الباب عن معنى التنزيل، مع ما مضى في غيره من معنى الاستواء ترشد إن شاء الله تعالى وإياك، ومفارقة الاقتداء بالكتاب والسنة، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

فصل

أن له صفة هي الضحك

وإن له - جل ذكره - الضحك، يضحك إلى أوليائه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

الضحك صفة من صفات الحق، كغيرها من الصفات التي تقدم ذكرها ينشأ بنشء العالم، وكل صفة حق موجودة في العام على سنن الحكمة فهو أولى بها وأهل لها، لكن على وصف الكمال الأقصى والتمام الأرفع، والسبحات المنزهة عمّا لا يليق

به، ويستحيل عليه من لواحقها؛ لأنه جل وعلا المتفرد بالكمال، ومن سواه فله من ذلك الكمال مجازه وعلى نحو ما قسم له منه، قال رسول الله ﷺ: «**ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره أو خيره منهم**» فقال أبو رزين بن لقيط بن عامر: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟ قال: «**نعم**»، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا»[1]، ضحك الحق المنسوب إلى الحكمة يكون لموافقة الحق.

كما قال كميل: كنت رديف عليّ بن أبي طالب ﷺ بالكوفة، فمررنا بالجبانة فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: ربِ اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحدٌ غيرك، قال: ثم التفت إلي وهو يضحك، فقلت: يا أمير المؤمنين، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فمررنا بالبقيع فرفع رأسه إلى السماء، وقال: «**رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**»، ثم التفت إلي يضحك، فقلت: يا رسول الله، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: «**ضحكت لضحك ربي؛ لقول - أو من قول- عبده: فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**»[2].

فهذا ضحك لموافقة الحق لما أقره العبد له بالوحدانية، وعلى نفسه بالعبودية، واعترف بذنبه وشهد له الحق أنه لا يغفر الذنوب أحد غيره، ولا يؤخذ بها سواه، ولا معقب لحكمه، ولا مكره له، ضحك له رضا فذلك منه ﷻ.

ومن ضحك العجب، وهو ضحكه ﷻ من قنوط عباده، وقرب عباده وقرب خيره، ومعنى ذلك - والله أعلم - أنه يعلم من نفسه - جل ثناؤه- إرادته غياتهم، ورحمته إياهم وعطفه عليهم، وكشف ما بهم من ضير، وأنه غير مضيعهم ولا تاركهم، ويعلم قرب ذلك منه لهم، ويرى غفلتهم عنه، وإعراضهم بالسؤال، وعدولهم عنه بالتضرع إليه إلى الجزع والقنوط، مع ما تسمى به من أسماء الرحمة والغيات والكفاية ونحو هذا، فيكون بين هذا كله، وبين كله وبين هذا العجب العجب العجيب؛ فضحك رب العالمين لعظم شأنه، وقرب خيره، ويأسهم وقنوطهم، مع عظيم اقتداره على

---

(1) رواه أحمد (11/4، رقم 16232)، وابن ماجه (64/1، رقم 181)، والطبراني (207/19، رقم 469)، والدارقطني في الصفات (ص 27، رقم 30). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 147، رقم 1092)، وابن أبي عاصم في السنة (244/1، رقم 554) «غِيَرِه» أي تغير الأحوال.

(2) رواه ابن أبي شيبة (51/6، رقم 29401).

صرفهم إليه باللجوء والتضرع، وإظهار الفاقة والشكوى إليه الدعاء، وهم لا يهتدون لذلك لا يستطيعون الخروج عما هم فيه، فاجتمع في هذه الجملة العبارة عن عظيم اقتداره وجليل شأنه وحقيقة ضعفهم، فهذا ضحك حق، وإذا ضحك ﷺ لهذا أدال النوب وأتى بالفوح، وكشف الضر من حيث لا يحتسب.

ومن ضحك الحق: ضحك المحبة، قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى ثلاثة: رجل قام من الليل يصلي، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي هذا ترك نومه ودفئه وقام إلي طمعًا فيما عندي فرقًا مما عندي، ورجل قاتل في سبيل الله هو وأصحابه فانهزم أصحابه وقاتل هو حتى يفتح الله عليه أو يقتل، ورجل أسرى هو وأصحابه ثم عرسوا من آخر الليل فرقد أصحابه وقام هو من بينهم يصلي، فهؤلاء قد أحسنوا والله يحب المحسنين**»[1].

وفيه من ضحك العجب كيف آثروه على أنفسهم، وتحملوا فيه المكاره، وكيف علا إيمانهم بالغيب، وقوى عزمهم على ترك العاجل لموعود لم يروه وهو في الأجل، وهو يجب على ذلك كله.

ومن ضحك الحق: ضحك الحنان والرحمة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يجوز الصراط حبوًا، حتى إذا جاوزه نظرا إلى جهنم، وقال:** تبارك الله الذي نجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعط أحد من العالمين، فذكر كيف ترفع له الشجرة بعد الشجرة، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه أن يوصله مقام بعد مقام، وعند سؤال كل مقامًا يعطي ربه من العهود والمواثيق ألاَّ يسأله غير الذي يعطيه، ويقول ﷺ له كلما نكث عهده بسؤاله غير الذي أعطيه: «**ويحك يا ابن آدم، ما أغرك، ألم تعاهدني ألا تسألني غير الذي أعطيتك؟**» فيقول: يا رب، ومن مثلك، قال: وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، حتى إذا كان عند آخر شجرة ورأى الجنة انفهقت له وسمع أصوات أهلها، قال: ربِ، أدخلني الجنة، فيقول له: «**يا ابن آدم، ما أغدرك، ألم تعاهدني ألاَّ تسألني غير الذي أعطيتك؟**» وهو يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو

---

(1) رواه الترمذي (4/697، رقم 2567).

ويدعو حتى يضحك الله إليه، فإذا ضحك إليه قال: **«ادخل الجنة»**، ويقول له: «**تمن**»، فيتمنى ويتمنى حتى تنقطع به الأماني، وربه يقول له: «**ومن كذا ومن كذا**»، فإذا انتهت به الأماني قال له: **«ذلك وعشرة أمثاله، وعشرة أضعاف الدنيا كلها، ولك ما اشتهت نفسك وقرت به عينك»**، فيقول له: أتسخر بي وأنت رب العزة؟ فيضحك الله منه، ويقول: «**إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء قادر**»[1].

فهذا ضحك حنان ورحمة؛ لضعف هذا العبد وفقره، وضحك وجود وكرم، وضحك إرادة، وضحك عزة، وكله ضحك حق.

ومن ضحك الحق: اقتدار ولطف وحسن تدبير، قال رسول الله: «**يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر يجتمعان في الجنة: رجل مسلم يقتله كافر، ثم يتوب الله على الكافر، فيقتل في سبيل الله، فيدخلان الجنة جميعًا**»[2]، وفي مثل هذين قول الله جل قوله: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾** [الحجر:47]، فضحك ربنا ﷻ لعظيم اقتداره على سوقهما في سلاسل قهره، ولطيف تدبيره عن مرادهما إلى مراده، وهو أيضًا ضحك محبة لإحسانها في علمهما وهو يحب المحسنين.

ومن ضحكه للمحسنين والمحبوبين من عباده ما يذكر من قصة برخ، كما ذكر أنه أغضب موسى ﷺ في أمر ما فكاد أن يسطو به، فقال الله ﷻ: «**دعه يا موسى؛ فإنه يضحكني في اليوم ثلاث مرات**»[3]، وقد قيل في الضحك؛ بمعنى: الكرم والجود:

غَمـرُ الـرداءِ إذا تَبَـسَّمَ ضـاحِكًا غَلِقَـت لِـضَحكَتِهِ رِقـابُ المـالِ

وقد جاء أن الله ﷻ ليضحك للشاب ليست له صبوة، وفي أخرى: ليعجب وأصل العجب الإغراب، فإضافة صورة الشباب الذي قيل فيه: إنه قطعة من الجنون، وعليه صفات الهوى الذي قيل فيه: إنه إله معبود، مع ضعف العقل غالبًا في ذلك السن عن مصادمة جنود الهوى إلى تغليب العقل، ونصر حزب الله ﷻ، وإعلاء خصال الإيمان، وخرق العادة بذلك هو العجب، وهو أيضًا يعجب لعظيم شأنه وعلو علائه،

---

(1) رواه أحمد (70/3، رقم 11685، 74/3، رقم 11726)، وعبد بن حميد (ص 305، رقم 991).

(2) رواه مسلم (5002).

(3) رواه أبو نعيم في الحلية (223/3).

وما هو عليه من حسن أسمائه وعلى صفاته؛ لأنه الحق ومحقق وله الحق وهو الحق المبين، فيضحك لذلك وحق له فهو لم يزل ضاحكًا، ولا يزال ضاحكًا ضحك حق، وحكمه لعجب عجيب معجب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11].

ولذلك يثني على نفسه ويمجد نفسه، لا إله إلا هو لا مثيل له ولا عديل، ومعنى العجب والتعجب والضحك الحق والكلام والصفات الحق والأسماء الحسنى كلها موجودة في الموجودات، مأخوذة مما هناك لا ما هنالك، تبارك الله رب العالمين.

ومن نحو ذلك: «ضحك رسول الله ﷺ إذ قال له الحبر: يا محمد، إذا كان يوم القيامة يجعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والدواب على إصبع، ثم يقول: أنا الملك.. أنا الملك، ابن ملوك الأرض، قال: «وضحك رسول الله، حتى بدت نواجذه»[1] تصديقًا لقول الحبر.

وهو أيضًا بمعنى آخر ضحك سرور إذا وافق الخبر ما عنده من الحق فسره، ولو سئل ﷺ عن ضحك ذلك؛ لأعرب - والله أعلم - أن ضحك من ضحك الرب تبارك وتعالى عجبًا من اقتداره وانفراده يومئذٍ، كما سبق في علمه أنه يكون، وهذا يتقرر بطول الاستقراء جميع وجوه الضحك في الصفات الحق، الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60].

ومن الضحك ظاهر ومنه باطن، فالضحك الباطن ضحك الحال، وهو ينسي عن سرور الذات والكرم فعل في تلك الحال، وقد قيل في مجاز هذا:

بَكَتِ السّماءُ بِدَمْعِهَا المُتَبجسِ ... وَالأرضُ تَضحكُ عَنْ ثُغورِ النّرجَسِ

وقال غيره:

تَضْحَكُ الأَرْضُ مِن بكَاءِ السّماءِ

وإنما قال: بكت السماء هاهنا محافظة على صناعة الشعر عند ذكره ضحك الأرض، وصف السماء بالبكاء، وشبه حال نزول المطر بهموع الدموع، وإلا فعلى الاعتبار الحق؛ فالسماء حينئذٍ ضاحكة، يعبر ذلك منها جودها بالغياب، ولضحكها ضحكت الأرض، وقد شبه بعض الشعراء البرق بالتبسم، ونزول الغياث بالجود وهو

أقرب إلى طريق الاعتبار وأشبه بوصف الحق، وقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس:24] وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:39].

يعبر عن ذلك بوجود السرور بها في تلك الحال، والضحك والظاهر يكون حكمة، ولأجل الحق والحكمة، وقد تقدمت الإشارة إليه وما عدا ذلك فهو لهو ولعب، ﷻ وتعالى علاؤه عن ذلك وشأنه عن ذلك، وشأنه سبحانه وبحمده.

الباب الجامع

قد تقدم لنا أن الشهادة بأن الله هو الحق المبين هي أم الشهادات وعمدتها؛ إذ كل شهادة وشاهد ومشهود هو الله ﷻ، والشهادة بأن الله هو الحق المبين شهادة بأنه هو الحق وأسماؤه كلها حق، وصفاته حق، وأفعاله كلها حق، وأحكامه كيف تصرفت، وأقداره على ما تخرجت، وتدبيره وخلقه وأمره كل ذلك حق، حكمه صواب، يرفع قسطًا ويحفظ قسطًا، يبسط فضلاً ويقبض عدلاً، وإنما يوصل إلى معرفة بعض هذه الجملة.

ويوقف على تحقق هذه الشهادة بطول الاستقراء، مع التجرد لذلك والتفرد له، ولزوم دوام الأفكار بخالص الأذكار، ومعرفة وجوه الاعتبار مع التوفيق، والتوجه إلى تحقق التحقيق، وصدق الالتجاء في ذلك كله إليه، وإفراد التعول عليه، ومحو الصفات منك والآثار والدعوى والاختيار، وانتظار ما يفتحه عليك شاهد الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ثم اعلم - وفقك الله - أن له جل ثناؤه أسماء لم يعلمنا بها، لم يطلعنا على شاهد عليها، يجب له عليها الإيمان، والقطع على أنه سيظهرها في الدار الآخرة، أكبر درجات وأكبر تفصيلاً، دل على ذلك قوله جل قوله وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:8]، وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:17]، وقال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1].

وكذلك له في الدار الآخرة أحكام هي من وراء ما أعلم بها القرآن، دل على

(1) تقدم تخريجه.

ذلك قول الملائكة والمرسلين - عليهم السلام - يومئذٍ، وقد أخرجوا من النار جميع الأصناف التي حددها لهم، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي: من وجب عليه الخلود، ثم يقول ﷻ: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين**»، ثم يدخل يده فيها ويخرج منها من قال: لا إله إلا الله[1]، وإنما تتناوله الأسماء بتمامها وكمالها، كقوله جل قولّه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:21].

ومن الصفات ما هي صفات ذات، ومنها: ما هي صفات أفعال، فمن معاني صفات الفعل هي صفات الفعل، التي بث مفعولاتها في العالم، شاهد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق مائة رحمة، أنزل منها واحدة إلى الأرض، فبها تتعاطف البهائم وبها تتواصل وبها يكون النسل، وأمسك عنده تسعة وتسعين، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك ورحم بها عباده المؤمنين**»[2]، هذا في صفة الرحمة، فاقض بمثل ذلك في غيرها من الصفات السبع وأسمائه.

وكذلك صفاته الذاتية وأسماؤه، كما تقدم لم يعلمنا منها إلا بما قارب أفهامنا، وجعل لنا عليها آيات في صفات الحق المنزلة مفعولاتها إلى الأرض ماعدا ذلك، فلم يشعرنا بها ولا جعل لنا عليها سبيلاً تهتدي بها عليها.

ثم اقض بعظم قدر الآخرة وصغر قدر الدنيا، فسبيل تلك التي لم يعلمنا بها الإيمان والتسليم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أعوذ برضاك من سخطكم وبعافيتك من عقوبتك وبك منك، لا أحصي ثناء عليك ....**»[3]، المعنى مع قوله: «**لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما**

---

(1) رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179).

(2) حديث أبي هريرة: رواه أحمد (434/2، رقم 9607)، وابن ماجه (1435/2، رقم 4293). وأخرجه أيضًا: مسلم (2108/4، رقم 2752). وحديث سلمان: رواه مسلم (2108/4، رقم 2753).

(3) رواه أحمد (201/6 رقم 25696)، ومسلم (352/1، رقم 486)، وأبو داود (232/1، رقم 879)، والترمذي (524/5، رقم 3493) وقال: حسن. والنسائي (222/2، رقم 1130)، وابن ماجه (1262/2، رقم 3841) وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (75/2، رقم 544)، وابن خزيمة (335/1، رقم 671)، وابن حبان (258/5، رقم 1932)، والبيهقي (127/1، رقم 608).

بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»[1].

فأشار إلى أن بها ما لا يعرف من محامد عنده، واستأثر بها لم يعلمه إياها، وأن بها ما يملؤه منها، سواء ما ذكره من الوجود مما استأثر بعلمه في غيبه، قال أيضًا في حديث الشفاعة: «**فأخر له ساجدًا فأحمده بمحامد يلهمني بها**»[2]، وفي أخرى: «**ألست أحدثكموها ولا أعرفها**»[3].

فابحث - وفقك الله - واحرص على تعرف ما أخرج منها، وبث من حقائق في هذه الموجودات في الدنيا وفي الآخرة، فبذلك أمرك وعلى ذلك قدرك وخصك وإليه ندبك؛ إذ من أجل ذلك صنع المصنوعات، وأوجد الموجودات، وأقام الأرض والسماوات، وأخبر عنها في الغائبات؛ ليعرف بنفسه، ويدل على حكمته، ويظهر عظيم قدرته وسعة رحمته، ومعاني صفاته، وتصادق أسمائه، ثم ارمِ بوهمك إيمانًا إلى ما لم يخرج منها، ولا علم بها ولا جعل دليلاً إليها ولا سبيلاً إلى معرفتها، فآمن وسلم وصدق وانظر واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ثم اعلم - وفقك الله - بعد هذا أنها أُدْؤُرٌ وأربعة مواطن وخمسة أحوال، أعني: تنقلات وستة أيام، فآمن بها وبما فيهن اشتملن عليهن من موجود ومعدوم، وخلق أمر وإماتة وإحياء، وتقرير وتدبير، وسنة وكلمة، وحق وحقيقة، وعين ومعنى، وشاهد ومشهود، واتصال وانفصال، وفرار وانتقال، إلى غير ذلك مما يطول وصفه، تشتمل على ذلك كله السنة والأيام بتوابعها.

أما الثلاثة الأدؤر: فدار الدنيا، ودار الآخرة، ودار البرزخ متوسطة بينهما.

وأما الأربعة مواطن: فأولها الدنيا، ثم البرزخ، ثم عَرْصَة القيامة، ثم الجنة والنار.

وأما الخمسة أحوال: فأولها الحال التي قبل دار الدنيا، وهي المشار إليها بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:2]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ....﴾ [المؤمنون:12]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النجم:32].

---

(1) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (132/2).

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

ثم حال الدنيا سميت حالاً؛ لأنها تحول بأهلها فتحولهم إلى غيرها، ثم حال البرزخ كذلك، ثم حال يوم القيامة كذلك، ثم حال دار الخلود سميت أيضًا: حالاً؛ لانقسام أهلها إلى فريقين، وتحول الممحصين من الداخلين في النار - أعاذنا الله منها برحمته من هنا إلى هنا - حتى يستقر بهم الخلود في دار القرار، وهم أيضًا في قرارهم في حال نعيم أو حال عذاب مقيم.

وأما الستة الأيام: فاليوم الأول: هو المنفصل من يوم الأزل، الذي لا أول ولا آخر وهو المسمى الدهر حقيقة، وفيه كتبت الكتب، وأخذت المواثيق والعهود والإشهاد على الذوات بذلك، وفيه قدرت المقدرات، وقسمت الحصص والحظوظ من الأرزاق والأعمال والسعادة والشقاء، وهو اليوم المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان:1]، وبقول رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[1].

وأما اليوم الثاني: فهو البرزخ بين اليوم الذي تقدم ذكره وبين يوم الدنيا، وهو برزخ أول وهو المعنى بقوله: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾ [الإنسان:2]، وفيه أيضًا لوح آخر من أخذ مواثيق في أصلاب الآباء، ثم الكتاب في بطون الأمهات، والتقليب في أحوال الخلقة ودرجات الجبلة والفطرة.

وأما اليوم الثالث: فيوم الدنيا وهو المعني بقوله: ﴿**نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان:3.2]، وبقوله: ﴿**قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ [النساء:77]، وذكر يوم الدنيا أشهر من أن يجتلب عليه الشواهد.

وأما اليوم الرابع: فهو الذي بين الدنيا ويوم القيامة، وهو البرزخ بينها، وهو مدة الموت إلى يوم نفخة النشور.

وأما اليوم الخامس: فهو يوم القيامة، من لدن نفخة النشور إلى انقضاء دخول أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم.

وأما اليوم السادس: فهو يوم الخلود ويوم القرار في دار الحيوان، بما في دارك الدارين ولا آخر له؛ لاتصاله بيوم المزيد وهو يوم جمعة، ما هنالك عنه أخذ يوم

---

(1) تقدم تخريجه.

المزيد في الجنة يوم الزيادة.

وهذه الستة أيام المذكورة في القرآن العزيز، وفي حديث رسول الله ﷺ في أيام الدهر، ركبت فيها أيام الأزمان تركيبًا، ووصلت عنها باسم الزمان وحوله الأحوال، وتقليب الأحكام من أول الأيام، وكون الأكوان إلى يوم الانقراض، ثم إلى يوم الفصل الأكبر يوم العرض على الديَّان، وانصداع الجمع فريقين: فريق في السعير وفريق في الجنان.

ثم اتصل مستقبل سادسها كأول بأولها بسابع، ليس له اسم ولا صفة ولا أول ولا آخر من حيث هو، بل هو الجامع لهذه الدهور والأزمان كلها.

أما اسمه بالإضافة قبل اسم أيام الدهر فالأول، وبعد تحصيل اسم الخلود فهو المزيد، وهو اليوم المعني بعبارتنا هذه، هو البقاء المطلق والدوام المتوالي الدائم الحق، والباقي الحق، الحي الحق، وعنه انبثق الخير كله في أول أيام الدهر، كما إليه يرجع في دار القرار ويتصل به، يتم منه مزيد أهل الجنة، كما كان علمه السابق العلي، أو حالهم قبل القبل في أول وأول الدهر، وقيل: ذلك حيث لا قبل ولا بعد في أزل الأزل، ﴿وَٱللهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4]، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:10].

اسمه الرقيب سبحانه وله الحمد

الرقيب، يكون بمعنى الحفيظ بوجه، تقول من ذلك: رقبته أرقبه رقبةً ورقوبًا ورقبانًا أيضًا إذا رعيته، قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، مع قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:10-11]، وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:4].

والرقيب أيضًا بمعنى المنتظر بوجه المراقبة الانتظار، ومنه سمي المال يعطيه صاحبه بعد موته الرقباء؛ لما في ذلك من معنى الانتظار، وقيل للرجل الذي لا ولد له:

الرقوب، قال الله ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ [القمر:27] أي: في طول الانتظار بهم، كما قال عز من قائل: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فصلت:5]، و﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:158] ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ [الدخان:59].

هذه الآي كلها وجه الانتظار أولى بها، وقد يكون الرقيب بمعنى: الحارس بوجه الحراسة، فعل الرقيب يحرس المرقب عليه مما لا يريد به أو مما لا يرضاه له، وفي مثل ذلك قال الشاعر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك مرمقًا ... لغيرك إلا قلتُ قد رمقاني
ولا خَطَرت في السر منيَ خطرةٌ ... لغيرك إلا عَرَّجا بهِناني
ولا بدرت من فِيّ دونك لفظةٌ ... بغيرك إلا قلتُ قد سَمِعاني
وإخوانِ صِدقٍ قد سئمتُ حَديثَهم ... وأمسكتُ عنهم ناظري ولساني
وما الزهدُ أسلى عنهم غير أنّني ... وجدتُكم مشهودي بكل مكاني

وقد يكون الرقيب بمعنى الأمين، وبذلك سُمي أمين الميسر: رقيبًا، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:52] أي: أمينًا وحارسًا وحافظًا ومحصيًا، كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:1].

وقد يأتي الرقيب بمعنى الباقي، وذلك - والله أعلم - لما في المراقبة من طول الانتظار ودوام الحراسة، يقال من ذلك: رقبت الشيء ببصري أرقبه، إذا نظرت إليه وأدمت مراصدته، والمرقب للموضع العالي، كحقيقة المراقبة - والله أعلم - الشهود والحضور والحفظ والحراسة؛ لما يكون المراقبة والانتظار من أجله، مع إحصاء وتحصيل في ذلك الأعمال المرقب عليه وأقواله وأحواله، وهذه خاصة المراقبة، ولكل وجه من هذه الأوجه حال يسمى به من أجل ذلك الحال، ألا ترى أن المشاهد لحبيبه ينظر إليه ويرمقه اعتباطًا بذلك منه التذاذًا؟ ثم لا يكون في ذلك رقيبًا عليه، ولا يجوز

وصفه بذلك عند طلب التحقيق، ولا تسمية ما لم يكن محصلاً عليه أعماله وأحواله، وكذلك المنتظر والحارس، وغير ذلك من الوجوه؛ فالعبد يترقب رحمة به ﷻ، والتوقف والانتظار لها، ومع ذلك فإنه لا يوصف بأنه على ربه رقيب، وقد قال في ذلك بعض القائلين، ففصل معنى المشاهدة من معنى المراقبة[1]:

مثالُك في عَيني وذِكُرك في فمِي ومثواكَ فِي قلبِي فأينَ تَغيبُ

عليكَ رقيبٌ مِن جفونِي كَما غَدا لكَ اليومَ مِن قلبِي عَليَّ رقيبُ

والله ﷻ هو الرقيب الحق، والحراسة المحيطة عمّا لا يريد كونه، وما لا يرضي فعله ذو الأنظار والمطاولة، والاصطبار والبقاء الدائم والشهود الأعلى والتحصيل المحيط، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14].

اعتبار

قد مضى الكلام فيما تقدم من الاعتبار، ومعنى ما تلوناه من القرآن جميع الخليقة قائمون على الخشوع لله ﷻ، والخضوع والخنوع والعبادة التي هي الفطرة، وقد قال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:52]، فكل شيء إذا مرقبه إما كونًا، وإما شرعًا وكونًا، كما قال ﷻ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:26].

وما كان من الموجودات في حال سجود لبارئه، وتسبيح له وتحميد وصلاة وقنوت؛ فالمراقبة ظاهرة الحصول بين هذه الأحوال المخلوقة، إذًا مراقب كونًا لا محالة بصيغة الفطرة وإسلام الجبلة، حقيقة منتظر متى ينزل عليه الأمر من رقيبه،

---

(1) **وقال الشيخ في الكلام على قوله اسمه تعالى الرقيب:** اعلم أنه ليس في الحضرات من يعطي التنبيه على أن الحق معنا بذاته في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إلاَّ الاسم الرقيب؛ لأنه على الحقيقة من الرقباء وهي أن تملك رقبة الشيء، فإذا ملكت رقبة الشيء تبعته صفاته كلها وما ينسب إليه، قال واعلم أن الحق إذا ابتلى عبدا راقبه حتى يرى ما يفعل فيما ابتلاه به؛ لأنه ما ابتلاه ابتداءً، وإنّما ابتلاه لدعواه في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فلما ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172] ادعوا، فابتلاهم ليظهر صدق دعواهم. **قال:** ولقد رحم الله عباده حين أشهدهم على أنفسهم، وهم في القبضة مكرهين، فامتحنهم تعالى بإرسال الرسل ثانيًا ليقيم الحجة على من شاء.

فيمتثله شرعًا، والأمر عنه نازل وعنه صاعدًا أبدًا، إذًا الرقيب الحق مشاهد لذرات العالم كلها محافظ على جميع أجزائها على التفصيل الأعلى، والتحصيل الإلهي حارس لها، منتظر بها على سنن، سنته فيها إتمام أمر لتعويض أمر يضع أمرًا ويرفع أمرًا، يعد قسطًا يخلف قسطًا؛ لإنقاذ ما سبق في العلم المحيط بالمشيئة العالية في ضم الأجزاء بعضها إلى بعض؛ لحكم التأليف وتجميع التجسيم، وتشكيل الأشكال وتخطيط الصور، وتقسيم الحصص من حسن وقبح، وعطاء ومنع، وتقديم وتأخير، وهداية وخذلان، إلى غير ذلك من الهبات والعطايا في الأخلاق، والأعمال في الظواهر والبواطن.

هو الرقيب الحق على ذلك كله بأحكام ملكوتية، نازلة إلى قوى ملكية عن أوامر جبروتية، صادرة عن الروح من أمر ربك؛ لتثبيت ما أراد تثبيته، ومحو ما شاء محوه، ألا تسمعه جل جلاله يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:11] أي: بما فيهن وما بينهن، كذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:172] فاستوى في حقه ﷻ الجامد المتحرك، كما استوى في حقه الحي والميت، كما استوى في مشاهدته والظهور له المعدوم الموجود، ووهب من علم ذلك عباده الحظ الذي شاء أن يهبهم إياه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:255].

لكن على تدريج الخلقة، فأجمد ذلك الجامد وأجمده في الهامد، وحركه في النابت، وأظهره في الحيوان وأعلنه في الإنسان، فما من جامد ولا هامد ولا نابت ولا حيوان ولا إنسان إلا عليه رقيب، وإلا وهو مراقب لرقيبه الحق.

وقسم تبارك وتعالى رقباءه قسمين، وحزبهم حزبين: صالحًا أوجده عن نور صفاته وأسمائه، وصالحًا آثار كونه بإرادته وقدرته عن موضع إبانته، كون ما لا يرضاه سبحانه وبحمده، فكل يحرض ويحرض على ما جعل رقيبًا عليه وحافظًا له، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق، فتصعد هذه الحكمة بطريق النشوء في طبقات إلى موضع العقل وهو الإنسان، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم

﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:70] أي: من العوالم التي دونه في المرتبة التي هي الجماد والنبات والحيوان البهيمي.

فلما أوجد عزّ جلاله العقل واجهه بالشرع، وعاجله بالتكليف والأمر والنهي، فأنزل عليه بالروح الأمر الشراعي، كما كان ينزل على ما دونه أمر الكون، وضاعف يومئذٍ الرقبة والرقباء، فعظمت الممتحنات وكثرت المعقبات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب ورقب الرقباء من الملائكة الكرام الحفظة على جميع صلوات الله وسلامه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:52] أي: حارسًا له وحافظًا عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر:41]، ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج:65]، وقال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم، وصاحب الصور قد التقم القرن، وجثا على ركبته وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»[1]، وقال: «**ما من دابة إلا وهي مصخية صبيحة كل جمعة فرقًا من الساعة**»[2].

فهذه كلها وما نحا نحوها طرق يتفهم بها مراقبة جميع الخليقة للرقيب الحق ﷻ، كذلك كل شيء في حق الله - جل وعز - ظاهر مكشوف مشاهد ذلك منه، وعلى التدريج للمخلوق في منازلها طبقات الخلقة، ثم علم ذلك بعد على منازل الرائين لها من الأولياء والعلماء والشهداء، وإقرار العارفين بها، فافهم فهمنا الله وإياك عنها.

التعبد

الرقيب الحق هو الله ﷻ، والمراقب هو العبد، والمراقبة فعل المراقب يترقب متى يتوجه لله ﷻ إليه أمر، فيمتثله أو يعرض له منه نهي عن منهي فيجتنبه، ويقول القائل لمخاطبه: راقب الله يا هذا، أي: اعلم أن الله مطلع عليك رقيب، فراع حقه.

وحقيقة المراقبة: أن يكون الغائب على قلب العبد من ذكر الله أن الله مطلع عليه فيرجع إليه في كل حال، ويخاف سطوته وعقوباته في كل نفس، ويهابه في كل وقت وعلى كل حال، ويستعن على ذلك بعلمه أن نظر الرقيب الحق ﷻ أسبق من نظره هو

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

إلى المحظور.

ومن صحّ علمه أن الله رقيب عليه لم يفن في البطالات عمره، ولم يمحق في الغفلات أوقاته، بل يصل في طاعة ربه ليله بنهاره بكده في إحساسه واختلاف أنفاسه، وليكن مستحييًا من اطلاعه عليه، محتشمًا من مشاهدته، وجلاً من عظيم رقبته إياه، ومن لزوم هذا السبيل أوصله بإذن الله ﷻ إلى المراقبة في سبيل المعاملة، ومن المقامات إلى علم القلب باطلاع الرب.

فاعلم أنه من لم يحكم بينه وبين الله سبحانه التقوى في المراقبة، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة، ومن عمي عليه أمره وضل عن مقامه؛ فليرجع إلى مقام المراقبة يكن من المهتدين، وعليك بالصدق في المواطن كلها تصح لك أعمال الرعاية. وصحح النية التي هي قوام عملك، واجمع لذلك قلبك وذهنك، واصرف إلى ذلك عنايتك، واقصد معرفة قدرتك وغرز العلم به؛ لحاجتك إليه في هذه المواطن، وتعلم علم مكابدة عدوك، وتفطن لمكابدة وشرك مصائدك، فارغب إلى الله ﷻ في صلاح قلبك، واطلب الأدوية لذلك والشفاء.

واعلم يقينًا أن التيقظ للخيرات أصل كل دواء يداوي به القلوب، كما أن الغفلة أصل كل داء يصيبها؛ فإذا رأيت الهموم والأحزان وداوم الذكر والفكر لازمًا قلبك، ثم الحرص على الاستعداد لما اهتممت له، فتلك علامة التيقظ، وإذا رأيت الفرح والمرح والبطر واللعب واللهو والأشر والسهو، فتلك علامة الغفلة؛ إذ الفرح والمرح يسهيان ويلهيان وينسيان التيقظ، الذي هو الاستعداد للموت وما بعده، ولمراقبة الله ﷻ فيها؛ فإنه من رزق الدوام على التيقظ بالمراقبة نبع منه فنون الخير، كما يضمحل بها فنون الشر.

ومن أنجح الأدوية في زوال الغفلة، واجتلاب التيقظ: معرفة الله ﷻ جلاله، وابتغاؤها وتطلبها في مظانها وعلى شروطها، فمتى أردت ذلك - ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - فلا تجعل لك إليه وسيلة سواه، ارم بنفسك إليه واطرح الكنف بين يديه، وارغب إليه وتخل عن نفسك إليه وعليك، وقل في دعائك: لا علم لي إلا ما علمتني ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:32]، ولازم وابحث وتعلم، واسأل التعليم يوصلك إن شاء الله تعالى إنه هو الرءوف الرحيم.

وإياك أن تعتقد في معرفتك به مسافة تقطعها إليه، فليس بينه وبين العارفين

مسافة؛ إنما المسافة القاطعة عن معرفته المبعدة عن حومته الجهل به - فافهم - بل القصد وتحقيق الطلب هو الشأن كله.

وإذا تحققت معرفة الله في قلبك، انتزعت عنه الغفلة، ونالته بركة قرب الله ﷻ، فأضاء له القصد واستبان له الهدى؛ فحينئذٍ تحل بنادي المقربين، وتنزل منازل العارفين، ثم ما عملت من عمل، فاجعل سؤالك كله في ذلك أن يجعل ثوابك إصلاح عيوبك، وتوصيلك إلى معرفته، لا تُبالِ ما فاتك دون ذلك من حظوظ الدنيا والآخرة، وأول ما تبدأ به أن تعمل في إخمال ذكرك واتضاع قدرك.

واعلم أن شرفك كله في إقامة ذكرك، وإن شرفك كله في إقامة ذكره، ونسيان ذكرك وعملك به خالصًا، ولتعلم يقينًا أن معرفته لا تثبت إلا في القلوب الظاهرة فعليك بغاية المناصحة في طلب المخالصة، وكلمة جامعة في الأدب.

انظر إلى كل شيء تحبه لنفسك فأحبه لغيرك، ولا تزال بك طوال المراقبة، حتى يجعل لك من نفسك عليك رقيبًا منها وزاجرًا وواعظًا ومخوفًا ونهيًا ومصبرًا عند البلوى ومرضيًا ومنبهًا وداعيًا إليه ومحببًا ومشوقًا، وهكذا في جميع الأخلاق، ومعاني الأسماء والصفات، فاصدق الرعاية في المعاملة، وحسن الاستجابة عندما يدعوك إليه ويحضك عليه، فعساه يحققك في ذلك؛ فإن صحة العلم مع طول المراقبة توصل إلى صحيح الأحوال، وحسن الرعاية يورث صدق الموافقة بزكي الأعمال، فمتى أوصلك من مقام المراقبة إلى حين قال القائل:

عَلَـيْكَ رَقِـيْبٌ مِـن جفُونِـي كَمـا غَـدَا ... لَـكَ الـيوْمَ مِـن قَلْبِـي عَلَـيّ رَقِـيْبُ

فاحمد الله تعالى واشكره كثيرًا، فقد بلغك ذروة السنام من المراقبة، وألحقك بأهل الإحسان من عباده؛ وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»، فهذه حال المشاهدة، ثم قال: «**فإنك إن لم تكن تراه**»[1] أي: فإن لم تكن من أهل المشاهدة، ففي علمك بأنه يراك خير كثير وحظ من الإحسان جزيل، وربما رفعك إلى درجة المتعلمين، فيفتح لك بابًا من الفطنة.

وعلامة ذلك أن يفيض من نفسك لنفسك عند تضايق مسالك الأفكار في طرقات غيابات الملكوت، وعند مظان اشتكال الأشكال، وتشابه الأشياء فرقان معرفة

---

(1) تقدم تخريجه.

تفرق به بين المشتبهات، ونور علم تمشي به في تلك الظلمات، ويريك من خفي الصبغة من سرائر الخلقة، ومن ظاهر الصنعة إتقان الهيئة ومسالكها في طرقات الحكمة، ويعطيك من كل اسم حق مقتضاه، ومن كل صفة وصفًا يرضاه؛ فاضرع إذ ذاك إليه في حسن العاقبة، واسأل بجد من قلبك، وصدق من عزمك طيب الخاتمة، واعمل واجتهد لأجل جلاله وكريم مَجابه، فقد أظهر بك ما خبأه في عالمه، وجمع فيك ما فرقه في خليفته، قال الله ﷻ: ﴿**أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ [النمل:25].

والحق الذي خبأه في عالمه هو صبغة الفطرة وإسلام الجبلة، وتبين صراطه المستقيم، ومعاني حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى ومطالع الأولى والأخرى.

وقد علمت بإيمانك عظمة ربك ﷻ فاعرف عند ذلك قدر نفسك، واخضع لمن رفع لك خسيستها وقوى ضعفها، وانظر أي عبدٍ تكون له؛ فعليك يعود عاقبة ذلك من خير أو شر، وتذكر قول رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب على قلبه ذكري**»[1]، وهذا حكم المراقبة، ثم قال «**إلا كنت ....**»؛ المعنى إلى آخره وهذا حكم المراقبة، ثم قال: «**إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»[2] وقال: «**وإلا اتجرت له من وراء كل تاجر**»[3] أي: يزيده من دوام المراقبة وملازمة التقوى، ويبالغ له في تضاعيف الأجر، ثم يرفعه فيظهر فيه معاني أسمائه وصفاته ﷻ؛ فيومئذ يسمع به ويبصر به ويبطش به، أي: بنوره وهدايته وعظمته وتوفيقه، ومعاني كثيرة منسوبة إليه نسبة ما، وقد عبر عن هذا بعضهم في كلمة له، فقال:

ظَهرتَ لمَنْ أَبْقَيتَ بَعْدَ فَنائِه ... فَكَانَ بَالكَوْنِ لأَنَّكَ كُنْتَه

وعلى هذه الحقيقة يتخرج قول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**عبدي، مرضت**

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه أحمد (352/5، رقم 23025)، والدارمي (543/2، رقم 3391)، والعقيلي (143/1، ترجمة 176 بشير بن المهاجر الغنوي)، والحاكم (747/1، رقم 2057) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان (344/2، رقم 1989).

فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وكنت عريانًا لم تكسني، وظمئت فلم تسقني» إلى قوله: «**أما إنك لو فعلت هذا بعبدي فعلته بي**»[1].

واعلم - وفقك الله - أنه لا يدوم لك العز إلا بالوجه الذي نلته قبل، ولا تصطحب عنده الجاه إلا بالمعنى الذي وصلت به إليه، فمتى فارقت ما كنت عليه من العبودية، ولزوم لذاذة الخضوع، واستشعار معاني الخشوع ظاهرًا أو باطنًا، أزال عنك حلته التي حلاك بها، وسلبك نعمته التي وهبكها، وسد دونك منبعث النور الذي أنار به ما حولك، ثم استدرجك بمعارف لا تغني عنك من الله شيئًا، ليست من العلم المبلغ ولا من قبيل النور المبين، فتحسب أنك يومئذٍ على شيء من الأخسرين أعمالاً تعمل في غير معتمل.

ومن المخوف على هذا العبد أن ينظر إلى ما فتح اله عليه في باطنه من نتائج الفهم وأبواب الفطن، وإلى ما أوراه من الآيات ومعاني الأسماء والصفات، التي للحق المبثوث في العالم، ورأى أكثر ذلك مجمعة فيه ظاهرة له، ورأى أسباب الفتوح مساعدة له، خيَّل له اللعين بمكائده، واشتغاله بشهي مصائده؛ فحبب إليه نفسه وعظم عنده ما لديه، وأعلى عنده قدر نفسه وحجب عنه منبعث النور المبين إليه؛ فلم ير غير نفسه الخسيسة، فاقتصر عليها وحجب عن حقيقة مقصده بها، وظن أنه الحق، فورثه ذلك أن استغنى بعلم الباطن عن علم الظاهر، وبعلم المعرفة عن علم الأحكام، ورأى أن المعرفة تخالف العلم، أو العلم يبطل في المعرفة، أو المعرفة تسقط فيه الأحكام؛ فتأول جميع ما جاء في العلم، ورده إلى رائيه، واعتقد أنه من مبلغ منزلته في العلم استغنى عن العمل، وصار حرًّا وسقطت عنه العبودية؛ لأنه زعم أنه الحق.

وربما قال من عرف الله: أبيح له كل ما خطر عليه، وصار حرًّا وخرج عن رق العبودية، فهذا زنديق، وربما قال: الله، وأسقط العلم وأسقط الواسطة، أي: الله دون كتاب ولا رسول، وذلك لرفعة قدر نفسه عنده، فيقول: استغنيت بالله عن الكتاب والرسول، وهو مثل من يقول: استغنيت بالله عن الله، فالله ﷻ غني عنه وعن العالمين، وهو عدو لله ﷻ، وكذلك من ادعى علم المعرفة، واستقل علم النبوة، واستعظم علم الأسرار، فقد أعظم الفرية على الله ﷻ، وتأول العلم فرده إلى مفعوله؛ فاحذر هؤلاء

---

(1) رواه مسلم (1990/4، رقم 2569). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (503/1، رقم 269).

أشد الحذر، وكن في لقاء من صحب منهم أحد على وجل.

وقد ذكر عن بعض أتباع الفلاسفة، وهم الذين استقلوا النبوة وعظموا عقولهم القاصرة، فقدموا المعقول على علم النبوة أنه قال: أفضل الأعمال التشبه بأخلاق الله حسب طاقة الإنسان، وهذا - وفقك الله - خطأ في العبارة والمذهب معًا.

أما خطؤه في العبارة فإن شيئًا لا يشبه الله ﷻ بوجه، ولا على حال في اسم ولا صفة، ولا يجوز في التحقيق أن يعبر عن صفات الله بأخلاق؛ لأن حقيقة الأخلاق مأخوذة عن الخلق، وصفات الله ﷻ وأسماؤه لا يعبر عنها بما هذا سبيله؛ إنما الأخلاق موجودة بالمخلوق، وهي ما يكون عن الأمر العلي بالكلم التام من الأمر الحق المتوجه إلى المخلوق المكون قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82]، يومئذٍ عن ظواهر أصول ما خلق منه باطنه نفسه وروحه وعقله، وهي أنواره من جهة الخلقة، وتكون عن صفات الأمر وأسمائه صفات المخلوق وأسماؤه وهي أخلاقه؛ وإنما تنفعل معاني الأخلاق، وهي المنسوبة إلى المخلوق المضافة إليه تعبدًا لله ﷻ تقربًا إليه، لا تشبهًا به جل وعز عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا.

وأما خطؤهم في المذهب فإنهم يقولون ما علمه العالم كان شبهًا به، ولأجل فساد اعتقادهم في المذهب هذا، دخل عليهم القول بالحرية، وإسقاط العلم الذي هو الكتاب والسنة، ولم يروا أنفسهم بزعمهم أهلاً أن يقدموا بين أيديهم رسولاً ولا كتابًا ولا سنةً، غير الذي زعموا أنهم تشبهوا به؛ ولذلك قال قائلهم:

فَأَشْــــهَدُ أَنَــــا بَالإِلهــــي وَحَــــده ... تخلــــصُ مِــــن مَوضُــــوعنا وَتَــــسْلَمُ

لأَنَّـا عَقلـنَا مَـنْهُ أُنْـسًا بِالإِلهـي وَحْـده ... الهَيولِـــي بَـــسِيْط الــــذّاتِ لا يَتَجـــسَمُ

وَمَــا عَقلــتْهُ الــنَّفْسُ كَانَــتْ شَــبيهةً ... بِمَــا عَقلــتْ مَــنْهُ وَمَــا هَــي تَعْلَــمُ

وبأول سماع هذا يعلم من له أدنى حظ من نهيه ركاكة هذا المعتقد ونقص منتحليه، كيف يشبه العالم معلومه؛ وإنما حد المتشبهين ما سد أحدهما مسد صاحبه وناب منابه، وقام مقامه في زمان أو مكان أو وجود أو عدم، فكيف يشبه العبد الرب، أو المخلوق الخالق، أو المصنوع الصانع؟!

ولو أشبهه منا العالم به لأشبهه هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الجاهل منا؛ لأنه يعلمه، ولا شبه أيضًا غير الجاهل؛ لعموم علمه إياه وإحاطته به، وقد نزهه عن ذلك طهارة قدسه ونعوت جلاله.

والكلام في هذا اشتغال عما نحن بسبيله، وإنما ذكرنا هذه النبذة من مذاهبهم؛ تحذيرًا لمن رغب في نصح نفسه من اتباعهم، وتذكيرًا بهم؛ لأن أحدهم ربما توغل في مذهبهم لميل النفوس إلى ذكر الحرية، وإلقاء ثقل أعباء العبودية، وإسقاط الوظائف اللازمة للعبد وهو لا يدري ما تئول بهم الحالة إليه، فما هو إلا قليل تزفر بهم الدنيا زفرة فإذا هم في ساحل الآخرة؛ حيث لم يقدموا قدمًا ولا عملوا لربهم عملاً، ليسوا بعبيد عاملين فيؤجرون، ولا بأحرار كما ظنوا فيسلمون من هول ذلك المطلع، وهم مع هذا لا يرون البعث الآخر؛ لأن عقولهم لم تصل من الآخرة إلى منزلة الموت، ولذلك يكون كما قال: بسيط الذات لا يتجسم، ومن اعتقد البعث الآخر منهم ممن شمله اسم الإسلام ولزمه حكمه لا يرى فيه إعادة الأجسام، قالوا: إنما هي ذات بسيطة لا تتجسم، تلد وتسر بقرب من تشبهت به على زعمهم الإباء ربما كذب الزعم؛ فهذه بلوى أصحاب رفعة الدرجات، لكن عصمة الله من وراء كل معصوم، فمن جاوز هذه الفتنة، واقتحم بحول الله هذه العقبة، ووقف عند حظه من التصاغر والخضوع، ولم تخلع عن عنقه ربقة العبودية؛ رفعه الله ﷻ إلى كل مرغوب، وأقامه مقام محبوبه، وآواه في ظله، وعطف عليه بحنانه، وأقامه في مقام حق، وأحله حال صدق، والله عليم بما يعملون، ورسله وحفظته لديهم يكتبون.

اسمه الحفيظ[1] عَزَّ وَجَلَّ

(1) قال الشيخ الشعراني: **وقال في الكلام على الاسم الحفيظ:** قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:256] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:46] يخاطب موسى وهارون، وقال في سفينة نوح ﷺ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً﴾ [القمر:14] فالرؤية عين الحفظ؛ لأن المحفوظ لا يختفي عنه تعالى، ألا ترى من حفظه كيف يحول بينه وبين هواه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:14] فمن عصا الله واتبع هواه، فما عصى إلاً بعد عمى القلب حتى لا يجتمع النظران، إذ لو اجتمعا لاحترق الكون، فإن بصر الحق إذا وقع على بصر العبد احترق العبد من فوره، ولذلك وصف نفسه إذا تجلى بأن رداء الكبرياء على وجهه كما مرَّ في الاسم الكبير فلا يرتفع أبدًا، فإذا رأينا الحق متى شاء ونراه بأبصارنا نراه من حيث لا يرانا، كما نراه من حيث لا نراه؛ فإنه يرانا عبيدًا ونراه إلهًا، ونراه به ويرانا بنا، ومهما رأيناه فلا نراه به، وهي الرؤية العامة.

قلت: ومعنى يرانا بنا أي: في مقام يكون فيه قوانا فافهم والله أعلم.

فعلم أن الخواص لا يرونه إلاً به، ولا يراهم إلاً بهم، فهو الذي يحفظ عليهم وجودهم.

قال: ولما سرى الحفظ في العالم قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ [الانفطار:10] وقال: ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ﴾ [الأحزاب:35] وعم فقال: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:112] هو أن كل عين في العالم هي عين الحق من حيث ما هي حافظة لأمرنا، ولهذا وصف تعالى نفسه بالأعين فقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:14] فإن مدبر السفينة يحفظها، ومقدمها يحفظها، وصاحب الرجل يحفظه، وكل من له تدبير في السفينة يحفظها، بل يحفظ كل أحد ما يخصُّه من التدبير، قال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ وما ثمَّ إلاً هؤلاء وهم الذين وكلهم الله بحفظها، فحفظ مجموع الخلق هو حفظ الحق بعينه، ولهذا المقام في صناعة العربية بدل الاشتمال بقوله: أعجبتني الجارية حسنها للاشتمال الذي في هذا الموصف، وأعجبني زيد علمه، فالعلم بدل من زيد، والحسن بدل من الجارية، ولكن بدَّل اشتمال كما يكون في موضع آخر بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، كقولك: رأيت أخاك زيدًا، فزيد أخوك، وأخوك زيد، فكذا قواه في قوله: «**كنت سمعه وبصره**» و﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:17] فيصح: إذ رميتُ، فهذا بدل الشيء من الشيء، وإن كان في هذا البدل رائحة من بدل البعض من الكل.

قال: وليس في أنواع البدل بدل أحق بالحضرة الإلهية من بدل الغلط، وهو الذي فيه الناس =

الحافظ اسمه، وهو الحفيظ مبالغة في استحقاق حقيقة الاسم، والحفظ هو فعل الحافظ والحفيظ، والحفظ بمعنى: الكلاءة والحراسة، والحفيظ الحق تبارك وتعالى بكلاء الموجود، يحرسه من أن يوجد في وجوده ما لا يريده أو ما لا يرضاه، ومنه قوله عز من قائل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:22.21] أي: ممنوع من الغلط والنسيان والتبديل والتغيير، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ...﴾ [الطارق:2]، إلى قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:4]، ومنه قول بني يعقوب عليهم السلام: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف:65] أي: نحرسه نكلؤه، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء:42]

=

كلهم، فيظنون أنهم هم وما هم هم، ويظنون أنهم ما هم وهم هم، ولهذا لا يوجد بدل الغلط في كلام فصيح مثاله: رأيت رجلاً حمارًا، أردت أن يقول: رأيت حمارًا، فغلطت فقلت: رأيت رجلاً، ثم تذكرت أنك غلطت فقلت: رأيت حمارًا فأبدلت الحمار منه، والعارف يلزمه الأدب فيضيف إلى الله كل محمود عرفًا وشرعًا، ولا يضيف إليه ما هو مذموم عرفًا وشرعًا، إلاَّ أن جمع مثل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:78] فكل تقتضي العموم والإحاطة، والكشف والدليل يضيفان إليه كل محمود ومذموم، فإن متعلق الذم لا يتعلق له إلاَّ بالفعل، ولا فعل إلاَّ لله أصالةً، فالعارف أبدًا في بدل الغلط؛ لأن قلبه يخالف قوله فيقول في المذموم: ما هو له، ويقول بقلبه: هو له عند قوله بلسانه ما هو له، ومن لا يعلم أنه غلط يصمم على ما قاله أو على ما اعتقده، والله الحفيظ وهو بدل من الحفظة والحافظين وأعيننا، فالحفظ يطلب الرؤية، والرؤية لا تطلب الحفظ، وأطال في ذلك بما لم أفهمه.

وقال في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:56]:

اعلم أن تبديل الجلود إنَّما جاءهم من تبديل الأحوال عليهم في دار الدنيا بأنواع المخالفات، فلكل نوع عذاب كما أن له خلودًا خاصًا، فإذا انتهت مدة المخالفة المعنية انتهى نضج الجلود، فإن كان شرع في دار الدنيا عند انتهاء المخالفة في مخالفة أخرى عقب النضج بتبديل جلد آخر ليذوق العذاب كما ذاق اللذة بالمخالفة، وإنْ كان تصرف بين المخالفتين بمكارم أخلاق استراح بين النضج والتبديل بقدر ذلك، فهم على طبقات في العذاب في جهنم، ومن واصل المخالفات ومذامّ الأخلاق بعضها ببعض، فهم الذين لا يفتر عنهم العذاب، ثمَّ إنهم كما انتهى بهم العمر في المخالفات إلى الأجل المسمى، كذلك انتهت العقوبة فهم إلى ذلك الحد، ثم اكتنفتهم الرحمة التي وسعت كل شيء إذ لا يخلد في النار موحد أبدًا.

فأجابهم أبوهم يعقوب عليهم السلام: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ [يوسف:64] أي: أكرم كلاءة وأمنع حراسة، ومنه الحفظة، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:61]، تمنعهم الحفظة، وتكلؤهم مما لا يؤيده الحفيظ الحق كونه.

والحفظ أيضًا بمعنى: الجمع، والوعي من ذلك قولهم: حفظت القرآن، أي: جمعته، إذ قرأته عن ظهر قلب، ومنه قولهم: حفظت المتاع إذا جمعته في الوعاء، ويجتمع هذا الوجه مع الأول في أن الجمع والوعي حراسة للقرآن والمتاع من النسيان والضياع، والحفظ يكون بمعنى: الرقبة والوكالة منه قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:6]، وقوله ﷻ: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى:48] المعنى: وما أرسلناك محصلاً عليهم، ولا مانعًا لهم بهداية من عندك ولا قدرة، إنما أنت نذير ومبلغ، كذلك قال شعيب عليه السلام عقيب ما أمر به قومه ونهاهم مبلغًا إليهم من ربه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:14] وقد يكون معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لست لكم بكالئ من عذاب الله ولا حارس من عقابه، ويكون الحفظ بمعنى: الأمانة، منه قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55] جموع لما يكون في الخزائن من مظان حقوقها، منوع لها من غير واجبها.

اعتباره

خاصة اسم الحفيظ من اسم الرقيب هي: إرادة الحفيظ الدفاع والمنع عن المحفوظ، ويختص اسم الرقيب منه بإرادة الانتظار بالمرقب عليه، والتربص لمعنى ما يريده بذلك الرقيب الحق، وهذا يكون في الرقيب حيث تكون رقبته في سبيل الشرع أو ما قاربه.

وطرق الاعتبار بهذا الاسم العالم كثيرة جدًّا وشواهده عدة ظاهرة، فحيثما وجد إمساك على حال من الأحوال أو وجه من الوجوه، فهو عن آثار هذا الاسم الكريم، إذ الإمساك: حفظ يختلج ذلك في بداية العقول، فكيف مع التفكر واستعمال التدبر، لاسيما وقد ثبت بإعلام الشرع، وموجود العقل أن لله ﷻ حفظة يحفظون المخلوق

مما لا يريد الحفيظ الحق كونه، وهو أمر من أمر الله فهو يحفظ المحفوظ بأمره من أمره، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر:78]، وذلك منتزع من موضع عدم الوجود، وهو شيء يجده العقل وهمًا، لكنه معدوم في الإيمان، مستحيل في الوجود أن يكون هذا المشار إليه مناقضًا لأمره عبر عن توهمه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ [فاطر:41]، من بعده والإيمان يشهد مع العقل إلا بعد الله ﷻ، عبر عن ذلك الإيمان بما في شهادة لا إله إلا الله من حرف النفي ومعناه، وعن ذلك آثار ﷻ في هذه الدار المقابلات للحقائق والمناقضات للوجود، فأثبت على ذلك الأحكام، وضرب لذلك الآجال، وقسم الأرزاق والأعمال، فعبر عن ذلك في كتابه بغير ما عبارة، كقوله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ [فاطر:11]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:2]، وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر:2]، وأولى المواضع بذكرها هذا المعنى.

اسمه الباسط[1] واسمه القابض[2]

(1) قال الشيخ الشعراني: **وقال الشيخ الأكبر في الكلام على الاسم الباسط:** اعلم من أرضى الله تعالى فقد منع غضبه وبسط رحمته، والله يقبض ويبسط فله الحكم كله، غير أن محال البسط تختلف باختلاف الأحوال، فأمّا في محل الدنيا فلو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، فأنزل بقدر ما يشاء وأطلق لعباده في الجنة البسط لكونها ليست بمحل يفنى ولا يبيد، وقد نزع الله الغل من صدورهم، فالعبد بإتباع الشرع يورث في الجناب الأقدس المحبة في هذا المتبع فيحبه الله، فإذا أحبه انبسط له، فحال العبد في الدنيا إذا انبسط الحق إليه أن يقف مع الأدب في الانبساط، وهو قبض يسير؛ إذ من المحال كمال البسط في الدنيا رغبةً في الأدب، كما أن من المحال كمال القبض في الدنيا خوفًا من القنوط، غير أن حكم القبض أعم في الدنيا من البسط، فمِنْ الناس من وفّقهم الله لوجود إفراج العباد على أيديهم أول درجة من ذلك، ومن =

=

يضحك الناس بما يرضى الله أو بما لا يرضى فيه ولا سخط، وهو المباح، فإنَّ ذلك نعت إلهي لا يشعر به، بل الجاهل يهزأ بصاحبه، ولا يقيم له وزنًا هو المسمى في العرف مسخرة، وأين هذا الجاهل بقدر هذا الشخص من قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم:43] ولاسيما وقد قيدناه بما يرضى الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط، فمن راقب آثار الحق فيه عظم في عينه هذا المسمى مسخرة ضرورة، ولذلك كان لرسول الله ﷺ من يضحكه ليشاهد هذا النعت الإلهي في مادة فكان أعلم بما يرى ولم يكن ﷺ ممن يسخر به ولا يعتقد فيه السخرية، وحاشاه من ذلك ﷺ بل كان يشهده محلاً إلهيًا يعلم منه ذلك العلماء به، ومن هذه الحضرة كان ﷺ يمازح العجوز والصغير يباسطهم بذلك ويفرحهم، ألا ترى أكابر الملوك كيف يضحكون أولادهم بما يتنزلون به إليهم في حركاتهم حتى يضحك الصغير؟ واعلم أن القبض أبدًا لا يكون إلاً عن بسط، والبسط قد يكون عن قبض، وقد يكون ابتداء، فالابتداء سبق الرحمة الإلهية الغضب الإلهي، والرحمة بسط، والغضب قهر، والبسط الذي يكون فيه بعض قبض كالرحمة التي يرحم الله بها عباده بعد وقوع العذاب بهم، فهذا بسط بعد قبض وهذا البسط الثاني محال أن يكون بعده ما يوجب قبضًا يؤلم العبد، فالبسط عام المنفعة، وقد يكون فيه في الدنيا مكر خفي، وهو إرداف النعم مع وجود المخالفات، فيطيل الحق لهم ليزدادوا إثمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:178] والإملاء بسط في العمر والدنيا، فيتصرفون فيها بما يكون فيه شقاؤهم.

قال: ومن البسط أيضًا ما يكون مجهولاً ومعلومًا - أعني مجهول السبب - فيجد الإنسان في نفيه بسطًا وفرحًا ولا يعرف سببه، فالعاقل من لا يتصرف في بسطه المجهول بما يحكم عليه البسط، فإنه لا يعرف بماذا يستقر له في عاقبة الأمر، هل بما يقبضه ويندم فيه؟ أو بما يزيده فرحًا وبسطًا؟ فالمكر الخفي فيه إنَّما هو لكونه مجهول السبب، وقوة سلطانه فيمن قام به والدار الدنيا تحكم على العاقل بالوقوف عند الجهل بالأنساب حتى ينقدح له أمرها، فإذا علم تصرف في ذلك على علم، فإمَّا له وإمَّا عليه بحسب ما يوفقه الله وينصره أو يخذله.

قال: ومن هذه الحضرة يدعو الكامل إلى الله من دعاه على بصيرة فيدعو من باب البسط من يعلم أن البسط يعين على الإجابة من المدعو، ويدعو من باب القبض من يعلم أن القبض يعين على إجابة المدعو، فهذا يدعو إلى الله من طريق القبض والبسط لمراعاته المصلحة، ودفعه بالتي هي أحسن في حق المدفوع عنه، وفي حق نفسه والأدب أعظمهما؛ لأن البسط مطلب النفوس وغوائلها خفية على غالب الناس.

(2) **وقال: في الكلام على معنى الاسم القابض:** من وجد قبضًا في نفسه ولم يعرف سببه فليسكن على ما هو عليه وليتحرك في الميزان الشرعي والعقلي ولا يتزلزل، فإنه لا بدّ أن ينفرج له سبب وجود ذلك القبض إمَّا بما يسوءه وإمَّا بما يسره، ولله عباد سيرهم كل شيء يقامون فيه من قبض وبسط، مجهول ومعلوم، وأطال في ذلك.

ثم قال: واعلم أن الحق تعالى بيده الخير، فاحرص ألاَّ تقبض منه إلاَّ الخير واحذر أن تقبض منه

=

فهو الذي سطح الأرض بيده، وهو يحفظ الكل بحفظه أن يزول شيء منه عن مراده، ولا يؤده حفظ ذلك وهو العلي العظيم، قال الله جل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:25].

وإنما ينزل أمره عنه إليها ثم يصعد منها إليه، كذلك تحفظ الموجودات كلها حال إيجادها على اختلاف وجودها، لا يوجد في وجودها ما لا يريده منها، ثم يحفظها حال وجودها وعلى كل حال، وإنما يختص الحفيظ من اسم الرقيب في الأوامر الشرعية؛ حيث يكون من الرقيب التربص والانتظار بالمرقب عليه أمرًا ما يريده به الرقيب الحق، وكذلك يحفظ الذكر من أن يزاد فيه أو ينقص منه والأعمال كلها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:9]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:10 - 11]، وهكذا بطول الاستقراء يبدو لك طرقاته وتستبين لك شواهده.

التعبد

قد علمت - رحمك الله - بما تقدم من الاعتبار أن الله ﷻ من فضل رحمته: ملائكة حفظة تحفظ من البلايا والآفات في كل أحواله، فأنت تتقلب في كريم كلاءته، ومنيع حفظه، وحراسته في دينك ونفسك وعقلك وروحك وجسمك وسمعك وبصرك وجميع حواسك الظاهرة، وحوائجك الباطنة، ومالك وولدك، ومن تحب أنت حفظه وتخاف عليه منه، ومع ذلك فلا تحسبن الحفظ كل الحفظ من بلايا الأمراض والأوصاب والبلايا النازلة بالمال والولد والغاشية، إنما الحفظ الأكبر حفظ القلب وحراسة الدين عن الكفر والنفاق وأنواع الفتن وفنون الأهواء والبدع وما شاكل هذا، كما قال القائل:

فِي كُلِّ بَلْوى تُصِيبُ العَبْدَ عَافيةٌ ... إلاّ البَلاء الّذِي يُدنِي مِن النّارِ

ذَاكَ البَلاء الَذِي مَا فِيهِ عَافيةٌ ... مِن البَلاءِ وَلا سَترٍ مِن العَارِ

من الذي ألهمك للإسلام، وحرس في قلبك الإيمان، وداوم بك على طاعته،

=

الشر، واقبضه من يد المسمى شيطانًا، فإنَّ على يده يأتيك الشر، فلو زالت هذه اليد لم يقع في الوجود حكم شر وما أظهر عين الشر من هذا الشيطان إلاَّ التكليف، فإذا ارتفع، ارتفع الحكم ولم يبق إلاَّ الغرض والملائمة قبيل الغرض، والملائم خير وفقد ما لا يلاءم شر.

وواظب بك في طلب مرضاته؟ جل من الذي تشفع فيك في الأزل، سماك باسم الإسلام في القدم، ثم حفظ عليك في المال، وكلاءك من المكاره في انتقالك من حال إلى حال، حتى أنهاك إلى حالة الاستواء، وحباك بما منعه سواك من أهل الكفر والردة.

فذلك - وفقك الله - فاعبده واستقم كما أمرت، ولا تطغ واصطبر وداوم شكره، واعمل له طائعًا وحده فبذلك تستدر نعمه، وتستصحب حفظه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:11]، وتحفظ من مواقعة مكارهه يحفظك من أن تقع بك مكارهك، وهو القائل جل قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، استودعه نفسك وأمانتك وخواتم عملك وجميع ما حولك، فما استودع شيئًا قط إلا حفظه، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:111]، أعاننا وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما استودعنا من شرائعه.

اسمه المحصي جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

قيل: الإحصاء: الإحاطة بالعلم، فقوله: المحصي، أي: العالم بجميع المعلومات، وإن كان كما ذكره من أن الإحصاء بمعنى العلم، فإن خاصته من فنون العلم فيما سبيله العدد وتوابعه، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن:28]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:34]، وقال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم:93،94]، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة: «**أحصوا لي كم تلفظ بالإسلام**» أي: كم يشهد بشهادة الإسلام، قال: «**فألفيناهم ما بين الستمائة إلى السبعمائة**»[1].

---

(1) رواه مسلم (348).

وما ذكره ﷻ في سورة المزمل من قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المزمل:20]، فذلك من أجل أن إحصاء أجزاء الليل مفتقرًا إلى حساب المنازل في مطالعها ومغاربها، ومعرفة البروج وحلول الشمس في أيها حلت منها ومعرفة الشمالية منها والجنوبية وتوسط ذلك، وهذا كله أو أكثره لا يبلغ إلى عمله إلا بواسطة العدد؛ فلذلك حسن ذكر الإحصاء فيه، وكذلك قوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة:6]، لما كانت الأعمال تزم للجزاء، وظاهر لفظ الجزاء يد على معناه، هذا يجزئ من هذا ولا يوصل إلى ذلك إلا بالعدد، بما جعل الله في الجزاء من العدل ثم من الفضل، ألا تراه جعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى الحشر إلى أكثر من ذلك، وتكفر الحسنة عشر سيئات إلى ما شاء الله، فكان معنى اسم المحصي لذلك أولى، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ..﴾، إلى قوله جل قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، لما تقدم ذكره[1].

الاعتبار

الإحصاء في الوجود المحدث: ضرب من العلم يحيط بما تناوله من المعدودات وأسماء المعدودات لا بالعدد، أوجد الله ﷻ العدد وجودًا لا منتهى له ولا آخر؛ لأنه

---

(1) **وقال** الشيخ في الكلام على اسمه تعالى المحصي في قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف:49]. هذا الكتاب هو الإمام المبين، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس:12] وهو الديوان الإلهي الوجودي ورأسه العقل الأول الذي هو القلم والإمام الذي هو الكتاب في اللوح المحفوظ، والكتبة على مراتبها في الديوان بأقلام، لكل كاتب قلم وهو قوله ﷺ في حديث الإسراء: «**حتى ظهرت لمستوى سمع صريف الأقلام**» فالقلم الأعلى الذي بيده رأس الدين لا محو في لوحه بل كل أمر فيه ثابت، وأمَّا الألواح التي بأيدي الكتبة ففيها ما يمحو الله ما يشاء، ثم تنقل إلى الدفتر الأعلى فيقابل باللوح المحفوظ، فلا يغادر حرفًا فيعلمون عند ذلك يقينًا أنَّ الله قد أحاط بكل شيء علمًا.

قال: والفرق بين الإحصاء والإحاطة أن الإحاطة عامة الحكم في الوجود والمعدوم وفي كل معلوم، والإحصاء لا يكون إلاَّ في الموجود، فكل محصي محاط به وما كل محاط به محصي.

يخلف منه المثل المثل، وينشأ الإحصاء منه حتى يحيط بما قصد به عددًا، وهو في الدنيا آية على بقاء ما له أول ولا آخر له، وهي الدار الآخرة، وإنما يعلم العدد بأسمائه وأفعاله وإليهما ينسب؛ لأنها لوجود عن اسمه الواحد، وأصله الأحد سمي بفعله وبني على اسم الفاعل؛ لأنه وحد الواحد، فسرى إليه من عزة الوحدانية لا نهاية له ولا غاية يبلغ إليها؛ إنما يجمع بواحد إلى واحد من واحد من حيث ضم أحدهما إلى الآخر اثنتا فسميا معًا اثنان، أي: صار كل واحد منهما يأتي اثنين، فإذا وجد منه عدد فرد أوتر جملته لحكم الوحدانية السارية فيه المصاحبة له، ولما ضم إلى الاثنين ثالث، سمي أيضًا بفعله من حيث ثلث جملته وبني أيضًا على اسم الفاعل وسميت جملته ثلاثة.

ولم يكن واحد من هذا العدد، وكل عدد يأتي من بعده بأن يكون واحد بأولى من صاحبه، ولا بأن يكون وترًا ولا فردًا من غيره، هذا عن إثارة الواحد الأحد الفرد الوتر الحق، وجود معيته في مفعولاته في العالم، وعدم تخليه عن شيء من خليقته، عبر عن ذلك قوله الحق: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:7] ، كذلك إذا أضيف إلى ما تقدم ذكره من العدد رابع سمي أيضًا بفعله، واشتق لجملته اسم من فعله من حيث ربع جملته، وكذلك في الخامس والسادس إلى العاشر هو الذي عشر جملته.

وهو العاشر لعدده فسميت الجملة لذلك عشرة، وتمت عند العشرة أسماء العدد بالنسب والفعل، فليس لعدد بعدها اسم نسبة، بل أقيم عدد العشرة مقام الواحد الأول، يضاف إلى اسمه بواحد من واحد إلى واحد، كل ذلك مراعاة لاسم الأحدية ودلالة على عزة اسم التوحيد، وجريًا على سنن حكم الوحدانية، أقيمت العشرات بالنسب إلى جملتها، كأسماء الآحاد إلى جملتها أيضًا بواحد إلى واحد من واحد إلى تسعة وتسعين من جملة الآحاد لمجتمعة في العدد.

وتمت أسماء العدد أيضًا بتكرارها بالنسب إلى العشرات عند بلوغها تسعة وتسعين، وسميت عشرة العشرات باسم ليس من أسماء العدد ولا أفعاله، وإنما هو اسم الماء ومعناه كسر بناؤه وأنث اسمه تشبيهًا بالماء ومعناه لجمع الماء ما اختزن فيه، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:30]، كذلك جعلت المائة

خزانة لما أبنت منه من الأعداد ما أمامها من ذلك وما وراءها كالواحد سواء.

ثم تألف من المئين، سميت نهاياته باسم التأليف يوحد وتجمع على النسب المتقدم ذكرها؛ فطر الله ﷻ الأمم على هذا الحساب، كما فطرته الخليقة على الإسلام، وإن اختلفت عباراتهم لاختلاف ألسنتهم، وهذا سوف ينشئ في الآخرة، كصغيرة من أسماء الحق وصفاته المبثوثة في العام، فيكون حساب الآخرة أشرح وأفصح وأوضح وأجمع وصفًا وصفة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21]، فاقض بذلك على حساب يوم الحساب وما بعده، وما في حضرة ذي الجلال أكرم جدًّا وأكرم، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:60].

إحصاؤه جل وعز واحد يجمع المعدودات من موجودات كانت أو معدودات جملةً وتفصيلاً، كما يعلم المعلومات كلها بعلم واحد، ويشاؤها جميعا بمشيئة واحدة، ويقدر على جميع المقدورات بقدرة واحدة، عبر عن ذلك قوله الحق جل قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:28]، مثال ذلك إيلاجه الليل في النهار، وإيلاجه النهار في الليل، فتنطوي في ذلك المقدورات والمرادات والمعلومات، كذلك أيضًا تحصيها بإحصاء واحد وبعدها بعد واحد، ويحسبها بحساب واحد، وهو أسرع الحاسبين ذلك بأنه الواحد الحق المبين؛ وعلى قدر البطل في سواه تكون معاناته للأشياء، فافهم.

ولذلك قالوا: قدرة الله سبحانه على الأشياء بلا علاج وصنعه للأشياء بلا مزاج، وعلة كل صنع صنعه ولا علة لصنعه وما تصور من الأوهام بخلافه،وأنبأنا رسول الله ﷺ: «**إن لله ﷻ تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة**»[1].

وقد ذكر أن إحصاءها هو العلم بها والذكر لها، فإن كان ذلك هو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»، فذلك يحقق قول القائلين بأن التسعة والتسعين اسمًا المذكورة مخفية في أسماء الله ﷻ كليلة القدر وساعة الجمعة وساعة الليل المباركة، وسائر ذلك من الأسرار، فقوله: «**من أحصاها**» من علم عددها وأحصاها علمًا بها، ثم من الارتقاء في الدرجات الفضائل إحصاؤها تعبدًا بها وائتمامًا

(1) تقدم تخريجه.

بما تقتضيه على سنن العبودية والتبرؤ من شاكلة الربوبية.

قد تقدَّم أن التسعة والتسعين آخر أسماء العدد بالنسب، وأن المائة نهاية لما تقدمها وأول لما تأخر بعدها، وأن ما بعدها تكرار للعدد لإحصاء المعدودات، وعلمنا ربنا عز ذكره تطلب الأسماء الحسنى في مظانّها واستقرائها حيث وجودها، فأمرنا أولاً أن ندعوه بها؛ والدعاء قد يأتي بمعنى النداء والسؤال والطلب ونحو هذا، وقد يأتي بمعنى العبادة، فقال جل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:180]، فوجب علينا تعلم الأسماء الحسنى؛ لندعوه بها ونطيعه فيما أمرنا به من ذلك ما علمنا بقوله الحق: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:110]، فوجب بذلك على الهمم المترقية في درجات المعرفة تطلب أسمائه الحسنى، والبحث عنها فيما هذا سبيله، فاعترضتها دون ذلك خشيته، وقمعتها هيبته حياءً منه وإجلالاً له، أن تترقى حيث لم يرق بها، فناداها بكريم خطابه من عزيز كتابه بقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21]، فأصغت بأسماعها يلي جليل كلامه، فنبهها من غفلتها وعقلت عنه ما به خاطبها؛ إذ زادها بفضله تعريفًا، وأنهضها إليه بكرمه تشجيعًا؛ لما سرد عليها من قرآنه الكريم، وتلا عليها من كتابه الحكيم قوله الحق: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:22-24]، ثم قال عز من قائل: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:24]، فأسلمت إذعانًا، وآمنت بحقيقة ما خاطبها إيقانًا، وعلمت بتعليم ربها - جل ذكره - إياها أن الخطاب الأول تطريق وتنبيه إلى تعليم أسماء الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وأن الخطاب الثاني تطريق إلى استقراء أسماء الجلال، وما استحقه لنعوت التعالي والكبرياء.

وإن الخطاب الثالث توجيه يلي استقراء أسماء الأفعال، إذ تَسَمَّى - جل ذكره -

بالخالق؛ لأنه خلق، وتسمى بالبارئ؛ لأنه برأ، وتسمى بالمصوّر؛ لأنه صوّر، وزاد في التعليم بقوله الحق ﷻ بقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:8]، فعلى سنن تعليمه إذا فكذلك تَسَمَّى بالذاري؛ لأنه ذرأ، وتَسَمَّى بالرازق؛ لأنه رزق، وتَسَمَّى بالراتق؛ لأنه رتق، وتَسَمَّى بالفاتق؛ لأنه فتق، هكذا تستقرأ جميع أفعاله، وتسميه منها بأسمائه، وما كان فيها - أعني المخلوقات - ذوات أسماء ليست بالحسنة، فليست له رضًا ولا حبًّا ولا ودًّا، وإن كان المتصف بها ﷻ خلقًا وإيجادًا فتفطّن لهذا الشأن، فإن إهماله من الإلحاد في الأسماء، وحقيقة الإلحاد أن يُمال بالأسماء الحسنى عنه إلى سواه دونه، أو يقصر في وصفها له، أو وصفه بها من مقتضاها، أو يُمال بالأسماء بما ليست منها بالحسنى إليه، فتسمى هو بها تعالى عن ذلك، وعز جلاله وعلا شأنه.

وكذلك ما جاء في الأفعال التي تكون منه على سبيل المجازاة والعقوبة لمن ظهرت منه، كالاستهزاء والخداع والمكر ونحو ذلك، فهو سبحانه لم يتسمَّ باسم من ذلك إذ لم يكن بدؤه منه، وإنما عاقب على فعله مرتكبه؛ لأنه خالف نهيه عنه، ومن حكمته ﷻ أن جعل الجزاء مقابلاً لما جاز عليه مماثلاً له، قال الله ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:40]، ثم جعل يسرد أسباب هلاكهم، وأنها في مقابلة دونهم، وقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90]، وقال جلَّ قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139]، وقال رسول الله ﷺ: «**من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب سُمًّا فسُمّه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا**»[1] .

وهكذا جميع العقوبات مقابلة لما كانت عقوبته من أجله، فَتفهم حكمته ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25].

---

(1) رواه أحمد (254/2، رقم 7441)، والبخاري (2179/5، رقم 5442)، ومسلم (103/1، رقم 109)، والترمذي (386/4، رقم 2044) صحيح. والنسائي (66/4، رقم 1965)، وابن ماجه (1145/2، رقم 3460). وأخرجه أيضًا: الدارمي (252/2، رقم 2362)، وأبو عوانة (49/1، رقم 123) وابن حبان (325/13، رقم 5986)، والبيهقي (23/8، رقم 15655).

فلشبه العقوبة بالذنب المعاقب من أجله؛ سماه باسم سببه وهو ﴿خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:54]، وخير المستهترين، وخير المخادعين، وخير الفاعلين، وهذا النوع من الإحصاء موجود عن اسمه القُدُّوس والسبُّوح، فافهم.

ولما وجدنا من أسمائه الحسنى ما هو أكثر من تسعة وتسعين، علمنا أنَّ الأسماء المعنية بذكره، هي أمّهات الأسماء، وأن الاسم المعني بقوله: مائة إلا واحدًا، هو الاسم المحجوب رفعه عن مضمار تسابق المتسابقين في معرفة أسمائه، وربما وصل إلى معرفته بطول المراقبة، ودوام الموافقة مع العلم العليّ والهداية والتوفيق، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو السداد إلى حقيقة معرفته، والعمل بمحابِّه، وتسديد السهم الصائب بمنّه ورحمته.

واعلم أنَّ فروع أسماء الله تعالى لا يتمّ لها عدد، ولا يحيط بها إحصاء ولا حصر، ولا ينتهي منها إلى أمد، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

التعبد به

إحصاء الآية ﷻ عسير، لكن لا بد للعبد أن يستعرض نِعَم ربه ﷻ بالعدد، وإن كان لا يحصيها؛ ليستقيم شكره للمنعم عليه، كي يستوجب المزيد منها، ويعدد ذنوبه لتحقق توبته إلى ربه سبحانه وبحمده منها، والنزوع إليه عنها، وكذلك ينبغي له أن يعدّد أيّامه وسنينه، ويتحقق ما فسح له في العمر، ليصح له توبيخ نفسه على طول تثبيطه وإبطائه عن الأوبة إلى ربه - عز ذكره - وقد قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]، فحد الأربعين للتوبة الثانية التي هي الزهد في الدنيا وأهلها، والإقبال على الله ﷻ بالكُليّة، وقال رسول الله ﷺ: «**أعذر الله إلى عبد بلغ الستين**»[1] ذكر عن مالك - رحمة الله عليه - أنه قال وذكر عن السلف - رضي الله عن جميعهم - قال: كان أحدهم يخالط الناس في تجارة وطلب العلم وغير ذلك، فإذا بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وتخلى لشأنه وعبادة ربه.

أي أخي إن كنت تعلم أنه ﷻ يحفظ عليك كلامك وفعالك وجميع أنفاسك، يحصي ذلك كلّه عليك ويزمه زمًّا، ويراقبك محافظًا على ذلك، لا يدع شاذة منك ولا

---

(1) رواه الحارث بن أبي أسامة (1072).

فاذة صغيرة كانت أو كبيرة إلا أحصاها، حتى أنه ليس ينظر إلى أحد سواك فلِمَ إذًا لا تجلّ نظره إليك، وتهاب رقبته وتتحفظ من عظيم حفظه وخفي إحصائه، وتستحي من كريم مشاهدته وحضوره، حَصِّل يا أخي على نفسك أنفاسها وراع لها حواسها، وقم عليها بسوط الخشية وإياك والغفلة، وقد قالوا: أنفاس العباد معدودة، فكل نفس يخرج من غير ذكر الله فهو ميت، ومن كان هكذا فلا ينبغي له أن ينظر إلى شيء، ولا أن يُكلم أحدًا، ولا يتقلب في حال إلا وقلبه مع الله ﷻ، ليجدّ في جميع أحواله، ويصدُق ربه في سكونه وانتقاله، ويجانب الهزل والمزاح في كل شأنه.

لِلجِدِّ ما خُلِقَ الإنسانُ، فالْتَمِسَنْ ... بالجِدِّ حَظَّكَ لا باللَّهْوِ واللّعِبِ

اسمه تعالى المحيط ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

يُقال حاط بالشيء وأحاط به إحاطةً وحيطةً.

اعتباره

أكثر مجيء معنى اسم المحيط في معرض الوعيد، وحقيقة الإحاطة العموم، واستئصال المحاط به إن كان في الظاهر، فعموم الجهات الست، تقول: أحاط القوم بزيد، كما تقول: احتوش القوم زيدًا، قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا**﴾ [الأنعام:65]، فهذه عموم الجهات كلها، وقال أيضًا فيما حكاه لنا عن إبليس لعنه الله: ﴿**ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ**﴾ [الأعراف:17]، وكذلك في الباطن قال الله ﷻ: ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا**﴾ [النساء:126]، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**ربِّ اجعل لي من أمامي نورًا، ومن ورائي نورًا، وفي صدري نورًا، وفي قلبي نورًا، وفي شعري نورًا، وفي بشري نورًا، اللهم أعظم لي نورًا**

وأعطني نورًا»[1].

يشير بهذه الأوصاف كلها إلى الإحاطة، ولعله إنما امتنع من ذكر الإحاطة نعلمه بأنها إنما يأتي ذكرها في سبيل الوعيد.

فالإحاطة إذًا وصف لصفة عمَّ وصفها جميع الصفات التي هي لله ﷻ؛ لوجود التمام والكمال الأعلى في صفات ربّنا - عزّ وجلاله - وعدم القصور والتناهي فيما هنالك، فالله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بكل شيء قدرة، وبكل شيء مشيئة، وبالموجودات كلها إيجادًا وتدبيرًا عينًا ومعنًا، حتى لم يبق من نفس الموجود لنفسه شيئًا يتفرد به دونه، بل هو المنفرد به حقيقة.

وعموم هذه الصفة للصفات والموصوفات، وانبساط معنى هذا الاسم الكريم على جميع مسميات العالم، أوجب أن نختصر الاستكثار من تفصيل الجمل، وتطريق الطرق إلى مجاريها في سبيل الموجودات، فانظر إلى كل إحاطة في العالم موجودة أو متوهمة، ظاهرًا كان ذلك أو باطنًا، فعن مقتضى هذا الاسم الكريم وجودها، يسمى ذلك الوجود فيما سبيله الوعيد إحاطة، ويسمى في معرض الثواب وطرق الوعد حياطةً وشمولاً وعمومًا وحفوفًا، هذا على الأكثر والأغلب، تقول من ذلك تحوطت الرجل إذا تعاهدت أمره حياطة: وهي الحوطة والحَيطة.

وقالت ابنة حاتم الطائي لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، مات الحائط، وغاب الفاقد، تُريد: مات أبوها حاتم، وغاب أخوها عديّ بن حاتم - رحمه الله - ومن ذلك حائط الدار، وهو يحيط بها ويحوط أهلها، ويقولون: حوطت الحائط إذا جعل عليه ما يحوط به.

فعليك - رحمك الله - بمواظبة التفكر وترداد التدبر، والاستظهار بكثرة الاعتبار، واقصد في ذلك قصد تطلبه في طرقات مظانه، تجده قد تخلل العالم كله جملةً وتفصيلاً، ظاهرًا أو باطنًا، وها هو قد أحاط به حولاً وقوةً وعلمًا ومشيئة من وراء ذلك كله، حيث لا حيث ولا خلاء ولا ملاء، حيطة أصارها لوحًا لكل إحاطة ظاهرة أو باطنة.

---

(1) تقدم تخريجه.

التعبد به

ولما كان مقتضى هذا الاسم الكريم محيطًا بالموجودات، عامًا لجميع الأسماء كلّها، موجودًا في جميع طرقات مجاري التدبير في كل العالمين، كان التعبد أيضًا بمقتضاه على حسب ذلك في جميع الأحوال، فإن كانت حال العبد فيما طريقه العلم أو الحفظ أو المراقبة أو القدرة، أو القيومية أو الكفاية أو المحبة، أو غير ذلك من الأحوال، فتعبده بمقتضى كل اسم على نحو ما تقدم فيما مضى وفيما يستقبل النظر فيه، والعبارة عنه إن شاء الله ﷻ وأخص أبوابه وأولاها به أبدًا في معرض الوعيد الاستسلام والتبرؤ من الحول والقوة، ثم الخروج إلى الله تعالى من معاني نفسه عند النعمة والذكر والكفاية والوقاية والهبة، والكرامة أن ينسب شيئًا من ذلك إلى نفسه، أو عمله، أو إلى صفة من صفاته، وعند المحنة كذلك، مع ما تختص به طريق المحنة من الصبر والرضا ونحو ذلك، بل يجعل نفسه بين يدي ربه كالميت بين يدي غاسله، متوكلاً عليه في جميع أموره، ومسلمًا إليه في شئونه كلها، علمًا منه بأنه قد أحيط به من جميع جهاته وصفاته.

اسمه القادر والقدير والمقتدر ﷻ وتعالى أسماؤه وصفاته

القدير اسمه، والقدرة صفته، والاقتدار فعله ووصف له، فهو المقتدر يظهر بقدرته على المقدورات، ويعلو عليها فيغلبها، قادرٌ مشتق من صفة القدرة، يقال من ذلك: قدر يقدر فهو قادر ويبالغ فيه بقدير، واسم القدرة يرجع معناه من حيث العبارة: أنه إعلام بصفة من شأن المتصف بها، على حقيقتها إخراج المكونات من العدم إلى الوجود، وهو في الخلق والأمر، والقدرة ما يتقدر بها المراد على نحو المقصود بقدرة محدثه، أو على حقيقته بالقدرة القديمة، فهي يتقدر بها الخلق والإيجاد، والقدرة المحدثة يتقدر بها المقدور المحدث على النحو والمقاربة أو الوفق والمطابقة لمراد

الفاعل بها، ويسمى ذلك كسبًا، وحقيقته خلق للقادر الأعلى وإيجاد[1].

---

(1) **القَادِر**: ومعناه المتمكن من الفعل بلا معالجة، ولا واسطة، وهو من القدرة، وهي ظهور الأشياء في العيان والشهادة، قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:40]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج:6]، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الحج:6] قال: «**بلى**»، وإذا قرأ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ [التين:8] قال: «**بلى، فهو القادر لا سواه**» والممكن إنما له التمكن من قبول الأثر الإلهي به.
قال سيدي محمد القونوي - قدس الله سره: السوي القادر المقتدر، القادر يتفرد الاقتدار في القوابل، والعمل يظهر منه، فكل يد عاملة فهي يد الحق من حيث اقتدارها بالحق.
واعلم أن الاسم القادر له آثار خفية في إعطاء الوجود للممكنات عند قوله: كن للممكن، فيسارع الممكن عن اقتدار إلهي إلى التكوين، فكان، وأظهر منه الامتثال في أول تكوينه، وهي روح الطاعة، فكانت الطاعة ذاتية له، وهي الأصل، والمعصية عارضة كما أن الرحمة والغضب نسبتان من النسب الإلهية، ولكن السبق للرحمة، والنهاية في الحركة الدورية هو الرجوع إلى البداية، وكذلك كان للخاتمة حكم السابقة، فإن حركة الوجود دورية، ولما كان السابق للرحمة، فلا بدَّ من المال إليها؛ لأن العارض لا يقبل الأصل أصلاً، فكيف وقد زاده طاعة وزاده العبد على طاعة تكوينه، كما أشار إليه المترجم عن الله تعالى بقوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»، هي الإقرار لله بالعبودية، فقد حصل له نور على نوره، فأي معصية تساوي هذين النورين؟ ولما كان الاقتدار روح الأمر وسره، ظهرت الأقوال واختفى الاقتدار فيه، فلذلك لم يطلع الممكن على اقتدار الحق عليه بإخراجه من خزانة الثبوت إلى حضرة الوجود، ولا يمكنه شهود صدوره؛ لكونه قابلاً للامتداد، فلا يظهر الاقتدار فيه إلا بعد حصوله، ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن الممكن ليس له اقتدار، ثم إن الحق تعالى أظهر بصيغة الأمر في القول؛ ليتصف الممكن بذلة الامتثال الموجبة لنظرات الرحمة الإلهية، وظهور تصرفات لمة الملك، والشيطان فيه هو سر الامتثال المفطور في أصل خلقته وتكوينه، فهذا حكم القادر.
واعلم أن القدرة لا تتعلق بغير المقدور، فعدم جريان القدرة على غير المقدور لا يسمى عجز، فإن العجز هو عبارة عن عدم القدرة عما من بشأنه أن يكون مقدورًا، فإذا لم يكن المقدور، فبأي شيء تتعلق القدرة؟ فهذه نطيعة ذوقية مشيرة إلى سر من أسرار القدرة، لا تنكشف إلا لأهل المعرفة، فهذا حكم القادر، وأما المقتدر فله حكم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ [الأعراف: 54]، وهو كل ما يوجد بسبب أو عند سبب، والأمر وهو كل ما يوجد من غير سبب، فالحق قادر من حيث الأمر، مقتدر من حيث الخلق: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ والأمر تبارك الله رب العالمين، انتهى.
وأما خواصه: فمن قرأه إثر الوضوء قهر أعداءه، ومن قرأه عند وضوئه على كل عضو، فإنه يقهر
=

اعتباره

اختلف الناس في القادر الحق على ما هو قادر، واختلافهم هذا من حيث الهداية والضلالة - نعوذ بالله من الضلالة - بعد أن اجتمعت الخليقة قاطبة، من حيث الفطرة أن قدرته مطلقة، لا تقييد فيها ألبتة ولا على وجه من الوجوه كلها، وتبعها على ذلك الفضل الصائب والإيمان الجزم بأنه القادر على كل شيء، مقدور عليه موجود أو معدوم، مقوّل أو متوهم، ظاهر أو باطن، معنى أو غير معنى، صفة كان أو موصوفًا، حاملاً أو محمولاً، خيرًا كان أو شرًّا، حسنًا أو قبيحًا، لم يشركه في خلق ذلك شريك، ولم يستظهر عليه بظهير، وما كان ﷻ ليتخذ المضلين عضدًا وهو الغني الحميد.

كذلك خلق القادرين سواه المتصفين بالقدرة وخلق قدرهم، فهو الموصوف ﷻ بالقدرة على الإبداع كله، والإيجاد كله، والخلق كله، والقادرون سواه غير موصوفين بالقدرة على شيء من ذلك كله، والأعلى مقدور يسمى الكسب، وحقيقته تغيير ما في صور الموجودات بتصريف بعض الأعراض، فيكون عن ذلك إيجاد ما، وتغيير صور مقدورات ما على ضروب ما، وكل ذلك مقدور للقادر الحق ﷻ خلفهم وخلق قدرهم وعلمهم وما يعلمون، وعلى هذا انعقد إجماع المهتدين، وأطبق أصفاق العالمين من جماد ونبات وأرض وسماء وما بين ذلك من جميع الموجودات ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:5].

ثم خرق الإجماع عقلٌ قاصر، وهوى متبع، وإعجاب مهلك، فتناتجت لهم بذلك طرق الضلالات، وتفرقت بهم سُبل الجهالات، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:93].

ثم اعلم - وفقك الله - أن هذه الصفات التي هي صفات الذات ﷻ وتعالى

=

خصمه.

قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: من كتب الاسم الشريف في قطعة ديباج أبيض بعدده، وعلقها في مهب الريح، وأضاف إليه هذه الآية الشريفة، وهي قوله تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ﴾ [الشورى:33]، فإن الريح يسكن بإذن الله، انتهى.

علاؤه وشأنه القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك، لم تسم بما سميت به من الأسماء من قولنا: قدرة وعلم وإرادة من حيث هي، إنما سميت بذلك تحديدًا وتوفيقًا بالكتاب والرسول ﷺ وعلى ما جاءت به لغة العرب، وشواهد ذلك مشهورة غير خفية.

وسميت أيضًا بما سميت به للتفرقة بين مقتضياتها، وليعرف كل موجود بمقتضاه من الصفات فيضاف إليها، والفاعل المريد العالم واحدٌ أحدٌ، وصفاته كلها واحد الاختلاف فيه، ولا تغاير بوجه من الوجوه، وإنما اختلفت وتغايرت المقدورات والمعلومات والمرادات في أنفسها، وهكذا جميع المقتضيات، فافهم.

وكذلك فلتعتقد في الأسماء، وقد تقدم في ذلك ما يغني اللبيب عن الإسهاب والتطويل، وكذلك فلتعلم أن القادر الحق ﷻ يقدر على المقدورات كلها بقدرةٍ واحدة، ويريد المرادات بإرادة واحدة، ليس في صفاته قصور، ولا في أسمائه نقص ألبتة تعالى عن ذلك، هو الواحد الأحد الكامل العلي النزيه من كل وجه وبكل معنى.

وأما قدرة القادرين سواه فهي ناقصة، يشغل قدرة أحدهم مقدور واحد، وكذلك يشغل علمه معلوم واحد، وإرادته مراد واحد، وهي مع ذلك طارئة على محلها، لا يوجدها القادر الحق القادر بها الذي هو محلها، ألا رأيت ما يفعل بها لا قبل ذلك ولا بعده، فهي عرض من الأعراض لا تبقى، يخلفها عدم الاستطاعة، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:20]، فوصفهم بعدم الاستطاعة على سماع الهدى وإبصاره لما لم يفعلوه ولم يوجد منهم، وقال أيضًا - عز من قائل - فيما حكاه لنا من قصة الخضر مع موسى عليهما السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:67]، وهذه منزلة وسطى بين وصف القادر بالقدرة، ووصف العاجز بالعجز عن الفعل لا يصح تكليفه إياه، ويصح تكليف الموصوف بالقدرة؛ بما جعل الله فيه من القوة على ما سيأتي ذلك في بابه إن شاء الله تعالى.

التعبد به

فعليك - وفقك الله - بعد طلب العلم بأنه ﷻ قادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه مقدور، ولا يجوز أن يخرج مقدور عن قدرته يتحقق ذلك، وطلب اليقين به أن تخافه وتخاف عذابه، فإنه قدير على أنواع العذاب والعقوبات بكل وجهٍ وعلى كل حالٍ، وألا تأمنه ولا في مأمنك، فليس يحجب عنه حاجب ولا يقي عنه واقي، وكذلك

فلا تيأسن من رحمته ولا في مظان مخاوفك، وارجه رجاء من يعلم أنه قادر على توصيل كل مرجو، وإنالة كل محبوب على أحسن المآخذ وألطف المسالك، واسأله أن يملأ قلبك رجاء له ومخافة منه.

وكذلك فاذكر نعمته عليك في جميع جوارحك وحواسك من السمع والبصر والكلام وتلفيق البيان، وجميع تصرفاته في كل أحوالك، وصرف ذلك كله منك فيما يرضيه عنك.

اسمه القوي تبارك وتعالى

يُقال: قويّ يقوى قوّة، والجميع قوى، وهو قويّ ومقوّ، إذا كان ذا قوة من قوم أقوياء، ويقال للواحد من الحبال التي تفتل ليعمل منها حبل واحد: قوّة، وللجميع منها: قُوي، وحروف هذا بأطباعها تدل على معنى الاستعلاء والقهر والغلبة والظهور، كالمعهود من معنى القوة، فالقاف حرف مستعلٍ، وفيه شدّة ولقلقة، وذلك تدل على الظهور والغلبة كالمعهود، والواو والياء دانيان باطنان لوجود هذه الصفة باطنة، ألا ترى إلى قولهم في المقارب والمشابه: قوّ لأرض بعينها جدبة خاوية، ثم جرى الاتساع في مجراه كعادتهم في غيرها من الألفاظ، فسموا بذلك كلّ أرض قفر، قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:73]، ولذلك قالوا: أرض قواء وقي، يريدون خالية من الأنيس، وأقوت الدار إذا خلت من أهلها، وأقوى زيد وتره يقوّيه، إذا جعل له قوًّا فلم يجده قواه، ومنه الإقواء في الشعر لخلو ذلك البيت من قافيته، وفاعل ذلك مقوّي، وقالوا أيضًا: اقْتَوَيْتُ الرجلَ: إذا استخلصته لنفسي من بينهم.

الاعتبار

القدرة والقوة صفتان للموصوف بها، والقوي والقادر اسمان للمسمى بها، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَزِيزًا ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ [الأحزاب:25]، كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:27] فهما اسمان مميز كل واحد منهما من صاحبه،

معرب عنهما، ووجودهما مبين عنهما في الوجود، سبيلاهما في العالم، وإنّما قصّر بالأكثرين عند طلب الحقائق في الاعتقاد؛ عدم التمييز بينهما ووصف المعرفة بمقتضى كل اسم منهما، فوصفوا القدرة بوصف القوّة، وحمّلوا القدرة أفاعيل القوّة، وما فرق الله ﷻ بينهما في الذكر، إلا وقد علم ﷻ أن بينهما فرقانًا بيّنًا في العلم، وسبيلان معربان عن حقيقتهما في الوجود، فسقط كل من رام؛ تحقيقا لما ذهب إليه في يد خصمه، من أجل إسقاط التمييز بينهما، وهم لا يشعرون ينتقصون، فأسعدهم بالحق من هدى إلى صراط الحق باعتقاد جزم، وإن كان قد قصر به الإغفال عن حقيقة الكمال.

وقد تقدم في باب اسم القدرة أنَّ القدرة هي ما يتقدر به المراد من جهة الإيجاد والقوة، إذا هو ما يجد به القادر نفسه مستعصيًا على تقدير المراد، وإن كان لم يفعله بعدول انتهض إليه، وقد تصح العبارة عن ذلك من حيث الوصف أنه عدم العجز، وأن ضد القدرة عدم الاستطاعة، فمتى فعل فعله كان قادرًا عليه فاعلاً له، ومتى لم يفعل المراد وكان مما يوصف بفعله ويصح تكليفه إياه، كان قويًا، إذا يكن عاجزًا.

فإذا شغل القدرة المحدثة مقدور ما كان غير مستطيع على غير ذلك المقدور، كذلك قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ [الكهف:67] أي: لأجل شغلك بعلمك الذي علمك الله عن علمي الذي علمني، وقد يعبر بعدم الاستطاعة عن الإباء والإعراض فعل المقدور، فيكون تركًا له، قال الله ﷻ: ﴿**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**﴾ [هود:20]، وقال: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: 198]، ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**﴾ [البقرة: 18].

هذا كله يكون عبارة عن الإباء والترك للشروع والحركة والتفعل للمقدور، لما عدم منهم الشروع في القول ووصفهم بعدم الاستطاعة، المعبر بها عن وجود القدرة منهم على الفعل، ولما كانوا ممن يصح وصفهم بالقوّة على الشروع في الفعل المأمون به أو الترك له والإباء عنه؛ صحّ تكليفهم، كما لو عجزوا عن ذلك لم يصح تكليفهم؛ قال الله ﷻ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:286] و﴿**إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق:7] وفيما حكاه الله ﷻ لنا عن موسى عليه السلام وقومه غُنية، وأبين بيان إذ قال لهم

موسى ﷺ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:21] إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [المائدة:22] إلى قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة:23] أي: بالعلم والحكمة ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23]، فأحالهم بالشروع في الفعل على ثواب الأعمال من الله ﷻ للعالمين بطاعته، كما قال رسول الله ﷺ في ضد ذلك في مثله المضروب، قال: «**وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو، يقول: لا ترفع الستر، إنك إن ترفعه تلجه**»[1].

فكما أن للشروع في الطاعات ثواب؛ هو استصحاب تسخير القدرة له إلى تمامه، كذلك للشروع في المعاصي عقاب؛ هو استصحاب تسخير القدّرة إلى تمامه، يسمى ذلك: الخذلان ،وهو عبارة عن ترك الله العبد من التوفيق، ولذلك قال المنعم عليه: وعلى الله فتوكلوا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:91].

وكل عبد ميسر للفعل هدى كان أو ضلالة بالقوة التي جعل الله ﷻ فيه ممزوجة بذاته في سنخ فطرته، وأصل جبلته، والهدى اختيار أمر الله، والضلال نقيضه، فمتى اختار أحدهما أعطى من العون بقدر ما أوغل في تفعّله، وتلك هي القدرة التي يتقدّر بها المراد حتى إذا فرغ منه، وتقدّر المراد بالموجود رفعت القدرة، إذ لا مقدور وأبقيت القوة بإبقاء على سنة الإمساك، يعدم مثلاً ويوجد مثلاً.

وأمّا القدرة فما يوجدها إلا حال إيقاع فعل المقدور للفعل لا قبله ولا بعده، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:41]، وقال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:65].

فهو يمسك السماوات والأرض، ويمسك الأجسام بما هي أجسام، ويمسك

---

(1) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (17)، والمروزي في «السنة» (8).

الأعراض بما هي أعراض، بتجديد إبقاء بعد إبقاء، يعدم شيئًا وتخلف مثله إلى ما شاء من أمد بتجديد متعاقب، وأمر نازل عليه متناوب، ولا يحضره عدد ولا يحصل، إلا لتحصيل الإلهي ذلك إذا شاء تغييرًا أخلف الشيء خلافه، وإذا شاء الإعدام أخلف الشيء ضده، فافهم.

والقدرة شأنها قبض وسط يبسطها القادر الحق ﷻ لتقدّر المراد حال الفعل. لا قبله ولا بعده، على سنن ما تقدَّم ذكره من تعاقب التجديد في حال البسط، وكالإمساك سواء، ويقبضها حال انقضاء الفعل، واجتمعا جميعًا، أعني: القدرة والقوة المحدثين في أنهما ليستا نفيستين لحاملها، غير أنَّ القوّة أمس بالذات وأقرب إليها، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172].

فبالقوّة الأولى، قالوا: بلى، وبها تعرفوا وشهدوا، وبها شاءوا قولهم ذلك، ثم غرر تلك القوى في تلك الذوات وغمسها في الجملة، حتى أخرجها عن الترتيب المقدّر، وهذه الآن شهادتها وكلامها ومعرفتها وميزها، كل ذلك غيب من غيب، فهي لازمة لحاملها لزوم إيثاق، وقائمة به قيام إمساك، كإيثاقه ﷻ أجزاء الأجسام بالتجميع وإمساكه إياها عن التفريق، وإلى هاتين العقيدتين الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:128]، فهذا موضع القدرة، ولا قوة إلا بالله، هذا موضع القوة.

كذلك قول القائل: لا حول ولا قوة إلا بالله، الحول موضع الحركة؛ وهي المقدرة بالقدرة، والقوة أبدًا مقرونة بذكر اسم الله لقربها منه، وبذلك على أنَّ القوة ليست بصفة نفسيّة المحدث وجود بالعاجز، ونفسه باقية لم يعد يعدم القوة وكذلك القدرة، وهي أبعد من القوة، ويدلّك أيضًا أنّها ممزوجة بالذات في أصل جبلتها وجودنا سقوط القوة بالأسر منذرًا بموت عاجل، وعدم الاستطاعة ليس بمنذر بموت في جري العوائد، إذ عدم الاستطاعة يكون من سكون، وأما السكون المطلق فلا يحتاج محله إلى قدره عليه، إذ ليس بمقدور له أعني: القادر المحدث، وأمّا التسكين فيحتاج أن يوجده ربه قدرة عليه، كالحركة سواء كان التسكين لحركة ظاهرة أو باطنة، ومن قولهم: تسكين المتحرك أعسر من تحريك الساكن، لذلك كانت أعمال الطاعات يتعلمها البرّ والفاجر، والانتهاء عن المناهي على حقيقتها لا يقدر عليها؛ إلا الصديقون، وبواسطة القوة تنبعث القدرة إلى محلّها بإذن ربّها، حين إيجادها الفعل، وكذلك غيرها من الصفات، فافهم.

وذوات المحدثين تحتويها أربع صفات: صفة القدرة، وصفة العلم، وصفة الفعل، وصفة المشيئة، كلّهنّ عبيد الله ﷻ، ذكره أرقاء وحاملهن هو الحي وهو العبد، وبه رباط هذه الصفات وفيه وجودهنّ، وهو الجامع لهنّ، الموثّق أو المطلق فيه جميعهنّ.

ثمّ لكل صفة منهنّ قصوى، وهي الأعراق في عالم الملكوت، ودنيا، وهي الأعراق في عالم الشهادة، فصفة العقل أقصاها اللُبّ، ودنياها الحسّ، وصفة العلم أقصاها المعرفة، ودنياها المشاهدة، وصفة القدرة أقصاها القوّة، ودنياها الحركة، وصفة المشيئة أقصاها الإرادة، ودنياها التدبير.

فعن كلّ صفة قصوى تنبعث بإذن الله ﷻ، باعثها سبحانه كلّ صفة وسط، فتتحقق الصفات مصافهنّ، وبإمضاء ماله انبعثن تتحقق الأعمال والكسب، هذه أوصاف الذوات المحدثة، وأما ذات القديم - ﷻوتعالى علاؤه وشأنه - فذلكم الأحد الذات، الواحد الأسماء والصفات، إلا وجد الحقّ كما قال جلّ من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، تخبر عن اتحاد أسمائه وصفاته بأحدية ذاته هو ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2]، يخبر عن أحديته في أزلية قدمه، وديمومة بقائه في أبد أبده، بأن لا أول ولا آخر: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص:3]، يفصح عن عظمة جدّه وحقيقة غناه في الأول والآخر، ويبين نعوت صمدانيته في الظاهر والباطن، لم يكن له مثل يماثله، ولا قرين يقارنه أو يشابهه، فلم ﴿يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:4]، لا نظير له، ولا وزير ولا مجانس ولا معادل، فوجود الوالد والولد فيها هنالك مستحيل، كما وجود الصاحبة له مستبعد، ومعدوم أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأن تكون له صاحبة ولا كقولك: وهو خالق كل شيء سبحانه وله الحمد، استحق على صفاته لنفسه في أزل أزله؛ استحقاقًا نفسيًا، واستوجب أسماؤه الحسنّى في قدمه لصفاته العليا؛ استيجابًا ذاتيًا، تعالت صفاته، وتقدست أسماؤه، وعزب عن الوهم وتعالى عن الكيف، حقيقة الإيمان به إثبات ذات غير مشبّهة بالذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كفعله فعل ولا كصفته صفة.

وصفة الصفات تعبير، ودعاؤنا إيّاه بالأسماء تفيهم ،لا تعتوره السمات ولا تختلف عليه الصفات، ولا يستعصي عليه كون كائن، ولا يعجزه ما شاءه، إنّما التغاير

في المسميات والاختلاف في المفهوم عن الصفات، دلت أفعاله على أسمائه وأنبأت أسماؤه عن الصفات، أعلن بحقيقة التغاير واختلاف المفهوم في المكوّن والمفعول، كما أنه ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأخرج دنيء الأسماء والصفات الخبائث في الخبيثات من الموجودات والخبائث، سبحانه العليّ الظاهر الطيب القدوس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، فألقن رحمك الله، فقد سلك بك الطريق البيان إلى حقيقة الإيمان، وجمع لك في أطراف الكلام ما به يعتصم الفطن الفهم من مضلات مجادلات خواص الفتن[1].

---

(1) **القَوِي**: ومعناه التام القدرة، الذي لا يلحقه ضعف، ولا يمسه نصب، وقيل: هو الذي لا يستولى عليه العجز بحال؛ إذ له القدرة التامة البالغة إلى الكمال، والفرق بين الحول والقوة والقدرة:

إن **الحول**: أول التوجه للفعل، **والقوة**: ظهور الإحساس بصورته، **والقدرة**: تناوله.

وقال سيدي محمد القونوي ﷺ: القوي بمعنى القادر، وهو القوي بما هو عليه من العزة والاقتدار بالجمع بين الأضداد.

اعلم أن آثار هذا الاسم لا تظهر إلا على العبد الجامع، وهو الإنسان الكامل، ولهذا ما سُمع قبل خلق آدم: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الخبر: «**إن جبريل**ﷺ **لما علَّم آدم آداب الطواف بالبيت، قال: أنا طفت بالبيت قبل أن تخلق بكذا وكذا ألف سنة، فقال له آدم: فما كنت تقول عند الطواف؟ قال: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر، فقال آدم: وأزيدكم: لا حول ولا قوة إلا بالله**»، فاختص آدم بهذا الذكر، والكمل من ورثته الذين لم تبق صفة من الصفات الإلهية إلا وظهرت في مراتب وجودهم، ولما كان الممكن محل ظهور الاقتدار الإلهي حين ضعف إمكانه بقوة الوجود، فوقع الدعوى والتنازع ممن وقع، وظهر أثر الاقتدار فيمن ظهر، فأعاد إليهم الضعف الثاني؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا، وذلك أن الدنيا كاملة بالإنسان، والهرم شهر ولادتها؛ لتقذفه من بطنها إلى البرزخ؛ فيرميه في بهو البرزخ؛ ليستعد بإنشاء الآخرة؛ لقبول القوة الصافية من شوائب النزاع، والدعوى بنداء حكم حقيقة باطن الاسم.

وأما ظاهره فهو ما ضوى في أجزاء مراتب الكون، حتى الضعف الذي هو ضد القوة، يقال للضعيف: قوي ضعفه، وقوي عليه الضعف، والضعف مانع قوي عن الحركة، فينسب القوة إلى الضعف، ووصف بضده، وهذا من سريان حكم القوة في الأشياء، وفيه إشارة لمن فهم، ولما غفل أكثر الناس عن سر عموم هذا الحكم، أمرهم أن يستعينوا به في الاقتدار، كما استعان بهم في القبول، فكما لا قوة للممكن على ما كلفه الحق من الأعمال إلا باستعانته له، كذلك لا ينفذ اقتدار الحق في أمر إلا بقبول وجود الممكن القابل، فما ثم قوة مطلقة دون مساعدة، وهذا سر قوله تعالى: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي**»، فإن الصلاة الوجودية لا تتم إلا بالاقتدار

=

التعبد

إن كنت تنظر بعين البصيرة أنَّ ربك ﷻ قد أعطاك قوة في باطنك، وكذلك غيرها من الصفات الباطنة والجوانح، وأعطاك اليدين والرجلين السمع والبصر، وجميع الجوارح الظاهرة كلهنَّ قوى، لما جعلن له يسرن لإتمامه وإنفاذ مقدوراته، وكما أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة، وعافاك من كثير مما ابتلي به كثيرًا من عباده، فداوم أنت شكره والمواظبة على طاعته، ولا تصرف ما أنعم به عليك، إلا فيما يرضيه، وإنما هو أن تحرص على ما ينفعك ويقربك منه وتصحح النية فيه، وتتوجه إليه بالعزم عليه، فإذا بك غالب وبما قصدت إليه - بإذن ربك - ظافر، وبقدر ما تبذله من الجهد وصدق العزم والتفعل، ينزل عليك من حسن المعونة ونهيك من الاقتدار عليه، كما أنك كلما آثرت التثبط والتعاجز؛ حرمت البغية وعوقبت بالحرمان، قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَلاَ تَعْجِزْ فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَإِيَّاكَ وَاللَّوْ؛ فَإِنَّ اللَّوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

وعمل الشيطان التثبيط عن الخير والإباء، وقد قال الله ﷻ في قوم وهبهم القوّة، فلم يستعملوها فحرمهم لذلك نفعها: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [الأحقاف:26]. فالله الله المبادرة؛ فإنه وإن كانت القدرة على الفعل مختزنة في خزائن الغيب لوقت الفعل؛ فإن القوّة ميسّرة، وإياك أن تقول: لا حتى ينزل العون، وأنا لا أشاء ذلك إلا إذا شاء الله، دون أن يكون منك في ذلك تفعل، وتعمل للمراد المقصود، فإن الله ﷻوإن كان قد أوثق بقوله: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [الإنسان:30]، فقد أطلق بقوله: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً**﴾ [المزمل:19]. وما هو إلا أن تريد العمل وتصح فيه النية، فإن كان الله ﷻ قد شاءه؛ جعل لك المشيئة فيه، وإلا كنت مأجورًا على أرادتك، مثابًا على نيتك، فالإرادة مطلقة في الأغلب، والمشيئة موثقة، كما تقدّم في القوّة والقدّرة فتيسير

=

والقبول، انتهى.

(1) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (621)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (331).

وتسخير، فما كان الله ﷻ ليكلف عبده فعل ما أوثقه عنه ثم يعاقبه على تركه، وإن كان ذلك بحكم الملك، فقد يسر له تقدير المراد الذي كلفه، بحكم الرحمة والتفضل على شرط التعمل وبذل الجهد، وعلى حكم التكليف بحق الملك وبذل القدرة على الفعل مبذول للبر والفاجر مع التعمل والعزم والشروع إلى المقدور، لكن اختيار الطاعة وإن كان في ذلك الكره هو عوض الثواب بالمعونة على ذلك العمل بحكم الجزاء، وفقنا الله وإياك لما يرضيه ويسرنا لمحابه، والعمل بطاعته، فلا حول ولا قوة إلا به، ولا مشيئة إلا مشيئته[1].

اسمه المتين ﷻ

معنى المتين يئوّل إلى معنى اسم القويّ، غير أن اسم المتانة ظاهر القوّة، والمتانة في المحدثين تظاهر القوي وتظافر الأبعاض، حتّى إذا حصل عن ذلك تلذذ الأعضاء، وحسن البنية والصلابة؛ كانت المتانة، وبالجملة فالمتانة في الأجسام غالبًا، والقوة في الصفات، يقال من ذلك: متن الرجل، وغيره متانة: فهو متين والمتن في الإنسان وغيره القويّ، ومنه سمّي: المتن الذي هو الظهر؛ لأنه موضع القوّة، وعنه تتفرع أنواع القوّة،

(1) **واعلم أن خواص** هذا الاسم فكثيرة منها: إن من داوم على ذكره وجد في نفسه قوة لم يكن يعهدها، وإذا ذكرها المسافر لا يعبأ، وإذا استعمله من يتعالج من حمل الأثقال وجد له تأثيرًا بليغًا، ومن تصرف بأنواع حقائقه العددية رزقه الله القوة على طرد العلة الربانية عن أي بلد شاء بقدرة الله تعالى، ومن أكثر من ذكره قويت روحه، وحكم به على كل شيء، ويصلح ذكرًا لمن كان اسمه موسى ويونس، ومن كتبه بطريق التكسير وشربه على الريق مدة اثني عشر يومًا هون الله عليه، وفتح له أبواب القوة، وإذا كتب وفقه المربع في إناء وشرب منه صاحب القولنج والرياح، وعافاه الله تعالى، وهذه صورته، ومن ألقاه على رأس مريض بالتكسير الكبير بالعدد، وأخذ قوة كل حرف، وربطها باسمه، برئ من مرضه عن تجربة، ومن ذكره كل يوم ألف مرة أذهب الله عنه الأوهام والوساوس، وملك نفسه وغيره، ولا يخاصم أحدًا إلا قهره، ومن تلاه على ظالم هذا العدد أخذ وقد أفاد بعض الأمجاد، إن هذا الاسم إذا تلي على فنجان قهوة فإنه يعطي شاربه قوة ونشاطًا؛ إذ هو على عددها، فإن الاسم الإلهي إذا وافق اسمًا كونيًا، وذكر عليه لعدده أورثه من مدده، وكذلك قيل في فتاح: إن من ذكره على تفاح وأكل منه عاين في باطنه فتحًا جديدًا، وفيضًا مديدًا.

التي هي القوى ومتن كل شيء ظهره.

واعتباره

تطلب حقيقة معنى هذا الاسم الكريم للمسمّى به ﷻ، ولا تستقيم معرفته على هذه الجهة ولا على سبيل هذه المعاني، إذ لا يصح في وصفه المتن، ولا الصلابة ولا اجتماع أبعاض ولا ما ينحو نحو هذا، لكنه قد جاء هذا الاسم في الأسماء الحسنى، وورد به القرآن الكريم، وانعقد عليه الإجماع وحديث رسول الله ﷺ، وكما لا يسمى ﷻ بما لم يأذن به؛ لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه، فذلك لا يترك اسم له تسمى به في كتابه؛ لأن ذلك تفريط من العبد في حق ربه - عزّ جلاله - قِبَلِهِ وتقصير في إيمانه وهو ﷻ لا يسمى إلا بما هو صفة له، ولا يتصف إلا بما هو الحق، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:60]، فقد سمّى ﷻ أبعاض القوّة، وقد تقدم أن اجتماع أبعاض الظاهرة من القوّة؛ هي المتانة، وقال لوط عليه السلام يخاطب قومه ليلة راوده عن ضيفه لما ضاق بهم ذراعا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: كنت أنتصر منكم، أو أوي إلى ركن شديد فينصرني ويمنعني، تكلم عليه السلام على مجرى العادة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[1] أي: من قرب نظر الله ﷻ له وحسن تداركه إياه، يكشف ما نزل به.

والعادة جارية أن اشتداد الركن فيما هذا سبيله بكثرة الأنصار، وشكة السلاح، وكثرة الجنود، والعدد وكمال العدة، وهي معنى قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:60]، واحمل ذلك في قوله، جلّ قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:123]، وما من شيء خلقه الله ﷻ، إلا وهي قوى أو أبعاض قوى، فمحمل ومفصل، إلى أن يأتي الوهم بالاستقراء على جملة المخلوقات، فله الإمداد السماوية والأرضية من الملائكة - عليهم السلام - والرياح والسحاب ، والجن والإنس ،وغير ذلك،

وقوى أولئك كلهم وصفاتهم، وقوته أقوى وصفاته أمتن، ألا تراه أنه بصفاتهم يهلكهم وينجيهم، وبإرادتهم يسوقهم إلى مراده وإرادته من حتفهم أو صلاحهم، وهو ﷻ إذا أراد إهلاك من أراد إهلاكه؛ ربما أهلكه بيده وسعيه، وربّما أخرجه على نفسه

---

(1) رواه أحمد 350/2(8590).

فأهلك نفسه، مختارًا لذلك متعاطيًا له، وبأي وجه أراد أهلكه به من الوجوه إلى هذا، وما هو أكبر من هذا الإشارة بقوله الحق: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:58]، لما ذكر اسم الرزاق؛ أصحبه القوّة وأضافها إلى نفيبه ﷻ، ثم قرن بذلك اسم المتين لما قد جرى به العادة؛ أنه متى شاء إظهار فعل اسمه الرزاق، يسر لذلك من جنوده، وسخّر له من قوىّ خليفته ما شاء إلى إنفاذ ذلك.

ويدل على صحة ما ذكرناه؛ أنه قرن اسمه القويّ باسم العزّة، حيث جاء في القرآن كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:25]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:25] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40]، في الموضعين من كتابه والعزيز المنيع، فقرن باسم القوّة اسم العزة عند النصرة والانتصار، وهذا كان مطلوب لوط ﵇، ولمّا ذكر صفة النبوة؛ اتّبع ذلك اسم المتين، فلا أحد أقوى جنودًا، ولا أكثر أنصارًا، ولا أكمل أسبابًا تكون عنها المتانة من الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وهذا موضع الوقف في هذا الاعتبار، ليس ينبغي لعبد من عباد الله أن يتعرض من التعرف إلى أكثر من ذلك، فذلك سبيل سد وعمل في غير معتمل، والله لا يحب المتكلفين.

التعبد

قد تبين لك - وفقك الله وعلمك من علمه - أن ربك - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - هو ذو الجنود، وأنّ كلّ شيء فهو في قبضته، ومأسور في ذلة مملكته؛ مصرف في طاعة تسخيره ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ، فالجنة وما دونها وجهنم وما فوقها، وجميع ما عمّه اسم الإيجاد وشمله حكم الكون جمل وأبعاض جمل، وقوى وأبعاض قوى للجملة التي ملأت مكان الكون واتهمت الكون، واتهمت المقدار الذي خطّه القلم، واحتوى ذكره اللوح المحفوظ، وكل ذلك منقسم إلى سبيل الترغيب والترهيب من جهة ما، فلذلك؛ فالزم التوحيد المفرد، وجرده في قلبك كل التجرد، ولا تخافن شيئًا إلا الله، ولا ترجون شيئًا سواه، فإنه وإن كان قد خوّف من النار ورجا الجنة، وحذر من الفتن ورغب في الخير، وإنّما كلّ ذلك من الله وبإذنه وبمشيئته، ولذلك قال على حكم البسط ومقتضى خطاب التوسعة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل

عمران:131].

وأرجو اليوم الآخر وما أشبه هذا، ثمّ يمحو ذلك بحكم القبض ومقتضى خطاب الحصر، فيقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175]، ويقول: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:39]، ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الطلاق: 10]، وعلى الحقيقة فلا تخافنَّ المتانة وخف المتين، ولا ترجونّ القويّ وارج القويّ، والمتين من أسماء الذات ﷻ وجاء اعتباره في أحكام أسماء الأفعال؛ لأمر إلى ذلك دعي من قصور علومنا وضيق صدورنا، وﷻ تعاليه وكبرياء عظمته جدّه، فاعلم ذلك، فهذا السبيل فاتّبع، وإيّاك إيّاك أن تبتدع.

اسمه القاهر والقهار ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: قَهَرَ يَقْهَر قَهْرًا: فهو قَاهِر على بناء اسم الفاعل، ويُبَالغ فيه بقَهّار، وقد قهر يقهر قهرًا إذا غلب، والقاف والراء والهاء بأطباعهن يعطيهن الغلبة والاضطرار، ويدللن على ذلك من حمل المقهور على المشقّة والصعوبة، وإخراجه عن مراده إلى مراد الظاهر له من ذلك القهر، وقد تقدّم معناه وما دلّت عليه حروفه بتركيبها، ومقلوبه: رهقت الرجل أرهقته، أو الشيء رهقًا؛ إذا غشيته، وكذلك قولهم: أرهقت فلانًا أمرًا صعبًا حملته عليه، وقولهم: أرهقناهم الخيل من ذٍلك، وأرهقنا الليل: دنا منّا، كلّ ذلك حكم الغلبة ظاهر عليه، ومنه تسميتهم الجهل والعبث والظلم رهقًا، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:6]، ومنه قول موسى للخضر عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف:73] أي: عنتًا ومشقة، وقيل للرجل الذي كثر ما يتّهم بالسوء: مرهق من ذلك أيضًا، وكذلك الرجل الذي ينزل به الضيفان كثيرًا: مرهق، وأرهقنا الصلاة: أخرناها إلى

آخر وقتها، والرهق: العظمة أيضًا.

الاعتبار

القهر فعل للقوّة، والله أعلم، ولذلك كان الاسم مترددًا بين أسماء الذات وأسماء الأفعال، وكما الفعل عن القدرة، فكذلك القدْرة عن القوّة، وبولغ فيه بقهّار كفاعل فعاله، ولمّا كان من صفات الجبروت والعلوّ والكبرياء والعظمة، كان اسمًا ذاتيًا، وهو موجود في بعض معاني اسم الجبار - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - يحصل مراده من عباده ومشيئتهم وغير مشيئتهم وكرمهم ورضاهم، وهذه خاصة اسم القهّار، والقهر غلبة الذوات وصرف صفاتها إلى حكم القاهر ومشيئته فيها ومنها، كما خاصّة اسم القادر تقدير المقدورات وإخراجها من القوة إلى الفعل، فاعلم ذلك.

فمتى واقع الحكم من القاهر صفتي العلم والعقل من المقهور كان السهو أو الذهول أو النسيان، وعلى أي وصف كانت مواقعة القهر من المقهور حال وقوعه صفتي العلم والعقل يكون ميل القهر إلى الصفة المصابة بذلك القهر، فإن واقع ذلك القهر المقهور صفة القوّة كان العجز، ولم تكن قوّة ولا فعل يظهرها، وكذلك إن واقع القهر من المقهور صفة القدرة لم تكن استطاعة ولم يكن أيضًا فعل ولا تقدر مراد وإن كانت القوة في حكم الإطلاق لأن يكون أمر يتم في صفة القوة باطنًا.

وكذلك إن واقع صفة الإرادة والمشيئة كان الكره والاضطرار والبغض، فربّما فعل هذا المقهور الفعل مكرهًا مضطرًا إلى فعله مبغضًا له؛ كالماشي برجليه إلى موضع مقتله، فيفعل السعي في قطع تلك المسافة مقهور الإرادة، مطلق القدرة القوّة على ذلك من فعله، وكذلك إن واقع القهر من القاهر صفات المقهور، كلّ ما كان الجبر والجبل والفطر والعجز كله، وما نحا نحو هذا، وعلى نحوها ما يقدم عليه فهو القاهر من مشيئة القاهر في صفات المقهور يكون الإيثاق وصفاته؛ كالجبر والاضطرار والجبل والفطر والعجز والجهل، وما يتعبه من السهو والذهول والنسيان وشبه ذلك، والإطلاق وصفاته كالتيسير والتسخير والمطاوعة والموافقة وشبه ذلك، والقهر في الأجل ظاهر جدًّا في تقدير المقادير إخراج المقدرات على سواء سبيل مراده منها، مع ما يصحب من خاصّة خواص أسماء سواه في تقسيم الحظوظ من الدنيا والآخرة، وإعطاء الحصص، وتنزيل المنازل وترتيب المراتب، ثمّ ظهر جدًّا في سبيل سنّته ،والمفهوم من قوله ﷻ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:3] أي: قدَّر فهدى لما قدّر كان في ذلك من سوق الذوات بصفاتها،

طائعة بإرادتها أو مكرهة الإرادات إلى إتمام مراده فيها ومنها، وتكميل ذلك الذي ظاهره قول رسول الله ﷺ: «**عجبت لقومٍ يساقون إلى الجنة في السلاسل**»(1)، وقول القائل: ستساق إلى ما أنت لاق، قال الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ**﴾ [الأنعام: 18]، ثم قال: ﴿**وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [الأنعام:18]، هذا إخبار منه عن سريان قهره في الظواهر بخبير، وهذا إخبار منه أيضًا عن سريان قهره في البواطن.

التعبد

أي أخي، عليك بالعزم على العمل بطاعة ربك وابتغاء محابه وطلب مرضاته، وأحذّرك التسويف؛ فإنه بطأ بالمسارعين وخلف المتثبطين، احرص على ما ينفعك، وإيّاك واللّو فإنها تفتح عمل الشيطان.

واعلم أنه لا يصح اعتلال الجبرية مع صحة القول بوجود القوّة؛ ووصف المكلف من أجل ذلك بالطاقة على فعل المأمور به، كما لا تصح دعوى القدرية مع القول بعدم القدرة في غير وقت الفعل، ووجودها حال الفعل ولا قبله ولا بعده؛ بل من كان موصوفًا بأنه مقهور مسوق بصفاته إلى مراد القاهر له منه وفيه، أنه يصح له دعوى في نفسه وفعله، كما أنه من كان موصوفًا، فإنه ذو إرادة ومشيئة، وعلم وعقل، وقوة قائمة ممسكة بإمساك من الممسك بجملته، وأنه مع ذلك ذو زعامة ودعوى ورعونة موجودة به، يعلم ذلك من نفسه، كيف يصح له اعتلال بأنه مجبور على فعله، وهو يشهد نفسه بخلاف ما يذكره، وكلا الفريقين ينقض على القائلين بالاستطاعة، النافين للقول بالجبر، والمتبرئين من القول بالقدر، وعدل القول في ذلك، والله أعلم وجوب الائتمار المكلف في امتثال الأمر المتوجه إليه من قِبَل بارئه ﷻ؛ لأجل موجود إرادته واختياره وقوته، وكونه غير عاجز عنه؛ بل هو متصف بأنه مطيق.

وقد تقرر في صحيح التمييز أن الله ﷻ ما كَلَّفَ عباده، إلا دون ما هو موجود في قولهم، وإلا ما هو دون طاقتهم، وكذلك أيضًا يتجب عليه المسارعة إلى التبرؤ من الحول والقوة إلى مالكها، وطلب المعونة والهداية منه ﷻ، القاهر لذوات العباد دونهما لاكتناف حكمي الضرورة والجبر، طرفي فعل المستطيع أوله وآخره، إذ أوائل الأفعال كلها منبعثة عن غيابات الملكوت، منقدحة عن خفايا خزائن الغيب، وآخره تصوير تمام

---

(1) رواه أحمد (256/5، رقم 22257)، والطبراني (283/8، رقم 8087) قال الهيثمي (333/5): رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح.

المراد، والتصوير لا محالة موجود عن اسم الفردانية؛ هو الله الذي لا إله إلا هو، المفرد كل ذي صورة وشكل بصورته وشكله، لولا لطيفة الإفراد لكل مقصود بما أفرد به؛ لما امتاز شيء من شيء، وكذلك ليس من اكتساب المكتسب بسبيل، وإنما حظ المكتسب من الفعل من هذين الطريقتين محاولته ومزاولته على سبيل سنة الله ﷻ التي سنها لمحاولة ذلك المقصود، بشرط تجديد الله القدرة له حال الفعل، لا قبله ولا بعده تجديدًا بعد تجديد، بتدقيق اتصال دون انفصال متوهم إلى تمام الفعل، فقد كادت الجبرية أن تعذر لولا وجود القوّة والاختيار، اللذين كان من أجملها البلوى والاختيار.

كما أنه قد كاد أن تتوهم الصحة في دعوى القدرية لولا عدم القدرة في حين الفعل، وخروج طرفيه عن حد الاختيار والكسب، والصحة والوجود، لم يمكن جحد الضرورة، ولما وجد الفعل ولم يكن بدّ من إضافته إلى فاعل فعله، كانت إضافته إلى محله الموجود عنه أولى مع وجود شروطه هو حياة المحل وقوته، واختياره وعزمه عليه وتحركه نحوه، وبوجود القدرة التي كان بها الفعل المتحرك إليه كانت الحركة ظاهرًا أو باطنًا.

وبهذه الصفات استاق القاهر الحق المقهور عن إرادة نفسه إلى إرادته هو منه، واستاق أيضًا إرادته، وبأن لم يجعل له مشيئة في إرادته، ولا إرادة في مشيئة بل غيبه عن معنى نفسه وأشهده معنى ما أراد منه، ثم جعل إرادته ومشيئته في ذلك إلى ما أراده: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18].

ثم كانت تسمية ذلك الفعل اكتسابًا أولى؛ لأنه موجود بواسطة قدرة محدثة تفوقه، بينه وبين ما يوجد عن القدرة القديمة، إذ ذلك هو الخلق والاختراع والابتداع والإبداع ونحو هذا.

فكن - وفّقك الله- في كل فعل من أفعالك لربك، وعمل من أعمالك، على ثلاثة عقود، أما أول توجه الأمر فالعزم الجزم على تنفيذ المأمور به، واستشعار التبرك بأسماء ربك ﷻ، وتحقيق العقد على معنى قولك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأما في حال انتهاضك إليه، ومعالجتك إياه، فطلب المعونة والتوفيق من مالكها، وتحقيق عقد القلب على معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5].

وأما في آخره فالتبرؤ من الحول والقوة، وترك الدعوة بأجمعها، ثم تحقيق العقد على معنى قولك: الحمد لله رب العالمين، وبالجملة، فلتكن في تعداد النعم كلها جبريًّا، وفي تعداد الذنوب كلها قدريًّا، وفي محاولة الطاعات كلها والأعمال أجمعها؛ متطوعًا لربك، مؤتمرًا مستطيعًا، ولا تذهبن أسماء ربك عنك صفحًا، واعبده بكل معنى

من معانيها، وحصّل ما خوطبت به، وألقن عن ربك، وأجمل كل معنى من معانيها على أخص مواضعها التي فيها جعلها، وفي مراتبها التي عليها رتبها، فذلك سنن الهدى والصراط المستقيم، فهمنا الله وإياك عنه، وعلمنا من علمه واستعملنا بما علمناه لوجهه الكريم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:28].

اسمه البديع المبدع

يقال من ذلك: بدع يبدع، فهو مُبْدِع وبديع مبالغ من بادع من بدع يبدع، فهو بادع، مثل: ضرب يضرب فهو ضارب، وقدر يقدر فهو قادر، والبدع: إحداث الشيء، والبدع أيضًا: الأول من كل شيء، وقد جمعهما قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:9] أي: ما كنت أولاً من الرسل، وما كان هذا الذي جئت به شيئًا، أما ابتدعته أو أحدثته؛ بل قد أتت الرسل من قبل من كان قبلكم بمثل ما أتينكم به قول، ولذلك قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:9].

وقد يكون معنى الإبداع: القطع، ومنه قيل: للحدث في السنة، والدين بدعة؛ لأنه قطع بالدين والسنة، أو بما يقابله منها، ومن ذلك قولهم: أبدع بالبعير من داء يصيبه، وأبدع بالرجل حسر عليه ظهره، ويقال: أبدع فيها أيضًا، كل ذلك معنى القطع فيه ظاهر، ومنه قول الله ﷻ؛ جوابًا لافترائهم، حيث ادعوا في إبداع الله ﷻ البناء والأرض، وما بين ذلك اللعب واللهو بإنكارهم البعث، وتفويض السماء، وتبديل الأرض والسماء، واليوم الآخر وما فيه، لو كان ما ذكروه عدمت الجملة في المصنع، كما قال جلّ قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ....﴾ [المؤمنون: 115]، إلى آخر المعنى، فقال - جلّ قوله - رادًّا على سوء معتقدهم، وقوله الحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:16-17]، فلو اتخذه من لدنه ﷻ لم يكن لهوًا ولا لعبًا، بل كان يكون الحق؛ لأنه هو الحق المبين، وما كان عن الحق فهو الحق، ثم قال

جلّ قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: 18] الذي هو الأمر والقول منه على الباطل، أي: على بطل العدم، فإذا العدم زاهق بما خلفه من وجود الإبداع، وقد يكون معناه: بل نقذف بالحق الذي هو من لدنّا، ونحن له أهل على الباطل الذي زعمتم، فإذا هو زاهق بالحق الموجود خالقًا له ردًّا على من يقول: إن الفاعل الأول ينبغي أن يكون غير حكيم، قالوا: وإنه لا بد من فعل عبثي، وهذا قول المخمسة تعالى الله عن قبيح افترائهم علوًا كبيرًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:27]، لو اتخذ جلّ وتعالى لهوًا من لدنه لم يكن إلا الحق، ولم يكن إلا ما يلهي عن سواه، فكان يكون الوجود ذكرًا له وعبادة، وخوفًا وحياءً دائمًا أبدًا، لا يعاقبه نسيان ولا غفلة، وكما أنَّ اللهو المذموم؛ هو ما يلهي عن ذكر الله وشكره وحسن عباداته، واللهو المحمود إذًا هو ما أنهى عن سواه وذكّر به، كعلمه هو بنفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وقد جعل الملائكة - عليهم السلام - من ذلك الحظ الجزيل، ثم لأنبيائه وأوليائه هم درجات عند الله عليهم السلام أجمعين [1].

الاعتبار

قد تقرر أن البديع هو المبدع، الشيء الفاعل له أوّلاً الذي لم يسبقه فاعل إلى فعل مثله، وقد يقال للشيء المحدث إذا كان حسنًا جدًّا: عجيبًا معجبًا بديع، وعلى كلا

---

(1) فالبديع معناه: الموجد للوجد على غير مثال سبق في الشهود، فلا شريك له في الاختراع، ولا شبيه له في الابتداع، فهو المبدع للكائنات، وكل ما أوجده فهو بديع أي: مبدع، وما تم إلا رتبتان: رتبة قدم للمبدع، ورتبة حدوث للمبدع.

قال الإمام ذو الإتقان: والإيقان ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ أي: لأنه لا يخرج عن رتبة الحدوث، وموجده عن مرتبة القدم الذي سره في الروع منفوث.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في كتاب «إنشاء الدوائر»: ولهذه الإشارة من الإمام أبي حامد الغزالي -رحمة الله تعالى عليه- وليس في الإمكان أبدع من العلم؛ إذ لو كان وادخره؛ لكان عجزًا ينافي القدرة، وبخلاً يناقض الجود، ولهذه العلة قطع الإمكان، وهذا ليس هو عندي على وجه واحد، وأكمل الوجوه عندي في هذا كونه وجد على الصورة فافهم؛ ولأنه أيضًا دليل موصل إلى معرفة الله تعالى فلا بد أن يكون مستو في الأركان، فلو نقص ركن منه؛ لما كان دليلاً ولم تصح معرفته، وقد صحت فقد ثبتت دلالته، وقال ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**». انتهى

الوجهين يتخرج قوله ﷻ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة:117] فيكون معناه موجود السماوات والأرض وفاعلهن وخالقهن لا على مثال سبق، ولا من شيء خلق، كون من ذلك ما كون كما يقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [السجدة:4] فأظهرهن، ونحو هذا، فهذا وجه.

وقد يكون معنى بديع السماوات والأرض بمعنى أنه زيّن السماوات والأرض كما قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور:35] أي: أضاءهن به السماوات والأرض، وبه قامت وبأمره أمسكت، وبه حسن كل شيء منهن، وشأنه هو العجب المعجب فيهن، وقد يئول ذلك على معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الجاثية:22] فذلك الحق هو بديع السماوات والأرض، أي: زين السماوات والأرض على ما تقدم من التأويل، فآثاره ﷻ في الخليقة، ومعاني أسمائه وصفاته في العالم، هو زين السماوات والأرض، فهو إذًا بديع السماوات والأرض بمعنى أنّه موجدها ومخترعها لا على مثال سبق، وبمعنى أنه زينهن ونورهن، وبه حسنهن وقوام أمرهن كله، وبكل وجه من الوجوه الإبداع ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117] لا إله إلا هو ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:116].

والإبداع من المبدع عنه يكون العجب من الناظر أو العالم به في الشيء والمبدع، تقول العرب: يا فلان، ألا أعجبك بمعنى، ألا أسمعك ما لم تسمعه، وأريك ما لم تره، ولذلك قال عزّ قوله في معنى التعجيب بما أبدعه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك:3]، إلى قوله جلّ قوله: ﴿حَسِيرٞ﴾ [الملك:4].

فعجب عزّ جلاله من حسن إتقان مبدعاته، وعجيب ما أوجده من كريم مصنوعاته، ومن نظر بعيني قلبه إلى عجيب إبداعه ﷻ السماوات والأرض، وما بين ذلك، وما فوقه من العرش العظيم والكرسي الكريم، وما بين ذلك من طرائق الأفلاك ومجاري، والكواكب وتسخيرها بأمره، في مطالعها ومغاربها، وخنوسها وكنوسها، واستقامتها في مجاريها، ومقابلة بعضها بعضًا، وافتراقها واجتماعها، وقرب بعضها من

بعض وبُعدها، وثبوت الثابتات بما جعل فيها، وما جعل في ذلك كله من الحكم والأمر، وإلى جميع رءوس العالم من الملائكة، وما له أوجدها، والجن والإنس، وما حوى ذلك كله، وأنواع النبات بما جعل فيها إلى غير ذلك، كيف لا يكثر عجبه ويعظم بربه فرحه الذي اقتدر على ابتداع هذا المصنع البديع المعجب صور فأحسن، وخلق فأتقن، وقدر فهدى، وأحسن الإحسان كله، ووالى وأحكم في لطفه، ولطف في حكمته؛ فأعجب بما أبدع، ثم أسمع وأبصر بما صنع، إنما يعجب بظاهر الدنيا من لا يرى نزهة الملكوت، وأعجب من نزهة الملكوت رؤية مبدعها في إبداعه، ومشاهدة صانعها في مصنوعاته، عن أي علم تقدّر هذا العجيب المعجب ؟! وعن أي قدرة أظهر، وأي قوّة بها قهر ما قهر؟! حتّى قارب ما بين المتباعدات، وباعد ما بين المتقاربات، وزمّ أوابد المتنافرات، وألّف بين المتضادات، ومزج بين المتباغضات، فمشج الأمشاج بحكمته، وآثار الكون من العدم بقدرته حتى أبدل العقول حكمته ظللاً قائمًا، وشخصًا مائلاً يتصاغر لكبريائه، ويتضاءل لعظمته، ويقنت لعزته، فأنت وجل الفؤاد لربك، ويسبح بحمده حنيفًا مسلمًا:

وَكَأنّ جُملَتهَا مَصَلٍّ قَانتٌ وَجَلَ الفُؤادُ لِرَبِّهِ يَتَعبّدُ
مُستَقبل العَرْش الكَرِيْم بِوجْهِهِ وَالمَوضِع الكُلّي مَنْهُ المَسْجِدُ

التعبد

التعبد بمقتضى اسمه البديع ﷻ النظر في مبدعاته، ومداومة التفكر في مصنوعاته مع استفراغ الجهد في ذلك، والتجرد له بالكلية، باستقراء ذلك في مظانه ومجاري طرقاته، ثم تتفعل بجهدك، ما أوجد عليه بدائعه؛ من طول القنوت، ولزوم طاعته:

يَا أَيّها الرّجل المَخْلُوق مِن عَجَلِ لاَ تبقِ وَيْحَك بطالاً بِلا شُغْلِ
إنّ الكَواكبَ وَالأَفْلاكَ فِي قربِ مَعَ العَوالم لاَ تَبْقَى بِلا عَمَلِ

ولا تبتدع في عملك فتكون قاطعًا لما له أوجدك من العمل بشرعته، وإليه أهلك من الاستنان بسنته، فارتبط - وفقك الله- لذلك، ورابط واصطبر على عبادته وصابر، فعن قريب يرجعك إليه فيجزيك بأحسن ما عملت، ويقدمك على أكرم ما قدّمت، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

اسمه الخالق والخلاّق ﷻ وتعالت أسماؤه وصفاته

الخالق الصانع، والخلّاق مبالغة من خالق الخلق فعله، والخليقة جماعة المخلوقات، وقد يعبر عن المخلوقات بالخلق تجاوزًا وتساهلاً.

اعتباره

معنى الخلق وإن تفرق إلى وجوهه الجمع مع الصنع للصنع لذلك قيل: لأخلاط من الطيب منها الزعفران الخلوَق، وقد تخلقت بالخلوق إذا تضمخت به، والفعل التخليق، والأخلاق ما طبع الإنسان أو غيره عليه، أو يطبع به، وقيل للمرأة المعتدلة الجسم والخلق: خليقة؛ لاجتماع ذلك فيها خَلقًا وخُلقًا، وقد تخلقت هي خلاقة، وكذلك المختلق من كل شيء المعتدل، قيل لذلك: لاجتماع صفة الاعتدال فيه، وقيل للسحاب إذا تجمع واستوى: أخلولق السحاب، ومنه قيل لجماعة المخلوقات: خليقة، والخالق الجامع المواد للصنع ذلك يدل على نفس الجمع، وقال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ [الإنسان:2]، وقال عز من قائل: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ...**﴾ [الحج:5]، إلى آخر الآية، تخبر بذلك كله عن معنى الجمع، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يومًا، ثم علقة مثل ذلك..**»[1]، وقال الله ﷻ: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا**﴾ [المؤمنون:14]، إلى قوله: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ**﴾ [المؤمنون:14].

فهذا الفعل قد يعبر عنه بالجمع تارة، وبالخلق أخرى.

---

(1) رواه البخاري (6594).

وقد جاء الخلق بمعنى القطع والخرق، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن قوم كذبوا رسل ربّهم إليهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:137] يريدون بذلك؛ هذا كلام قطع على مقدار حديث الأولين، ومنه قول القائل:

وَلا يَـــئِطُّ بأَيــــدي الخالِقــــينَ وَلِا أَيــــدي الخَوالـــقِ إِلّا جَـــيِّدُ الأَدَمِ

ومن قولهم: خلقت هذا على هذا، أي: قطعته على مقداره، وقيل للحظ: خلاق، أي: هو ما اقتطع له من نصيب، وخلق الشيء خلوقة، فهو خلق وأخلق، إذا بلي وثوب خلق وإخلاق ،وثياب خلقان وأخلقني ثوبه خلقًا، كلّ معناه القطع والخرق، وقد تناول هذا الفصل من معنى اسم المقدّر على ما سيأتي في بابه إن شاء الله، وإنما هو الأمر من عند الخلاق العليم ﷻ ينزل خاصًا أو عامًا، إلى حيث سبق التقدير بالمشيئة العالية، والعلم السابق لما تضمنه التقدير الأول من كون، وكل شيء لذلك الأمر مطيع، وله سامع خاضع، فيجتمع إليه بإذن الله تبارك وتعالى ما جاوزه مما نأى عنه، ما قصر بالأمر بذلك مما تضمنته المشيئة العالية، والقدر السابق؛ فيتحقق المراد، فافهم.

فإن كانت نطفة سبق الأمر، أي: النطفتين شاء الله، وأيهما سبق؛ كان له الكون وإليه المجتمع في الخلق من تذكير أو تأنيث أو شبه، وربما لم يسبق أحدهما فلم يكن المكون إلا إياهما معًا، أو إلى حيث كان الشف منهما، والبذر والغراس في أرحام الأرض كالنطف في مستقرها، وربما لم يكن بزر، فيكون من الأمر ما يقوم مقام البذر، وبتسبيق المشيئة العالية لأي نوع كان المقصود المخلوق، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر:5]. والحق من أمره، والله غالب على أمره هذا في الرءوس المخترعات والمبتدعات، وفي الأنواع المتناسلات؛ إنما هو الأمر جملة وتفصيلاً، مجرد أو بواسطة بزر، وهذه جملة تغنيك، مع تفهمها والتفكر في مقتضاها، والتبصر في معاني ما يئول إليه عن الإكثار والتطويل، إذ هو باب؛ هو البحر، ما لا يدرك غوره؛ بل البحر عن بعض أجزائه، وربما يتيسر الإفهام مع تقليل الكلام، فتتبع ذلك - وفقك الله - في طرقات مجاري الأمر من طبقات العالم، بإيمان جزم وطمأنينة نفس تكن إن شاء الله من الموقنين.

وعِلمك أنَّ الله ﷻ هو خالق الأعيان والآثار والجواهر والأعراض، والخير والشر والأوصاف والصفات، وأنه لا يخرج عن صيغة وخلقه كائن، ولا حادث يقتضي

أن العباد كلهم تساووا في خلوهم من الحول والقوة، ورجوعهم إليه بصدق الافتقار كونًا، فمن وصل ذلك منهم بعقله وعمله شرعًا فقد وصل ما أمر الله به أن يوصل، ووجب على ﷻ معونته بإيجابه إياه على نفسه.

التعبد

اعلم أنَّ من آداب من عرف أنه الخالق جلّ وعلا أن ينعم بنعم النظر في إتقان خلقه؛ ليلوح له دلائل حكمته في صنعه، فيعلم أنه خلقه من تراب، ثم من نطفة، وركّب أعضاءه، ورتب أجزاءه، فقسم تلك الفطرة؛ فجعل بعضها مخًا، وبعضها عظمًا، وبعضها عروقًا، وبعضها أنيابًا، وبعضها شحمًا، وبعضها لحمًا، وبعضها جلدًا، وبعضها شعرًا، ثم رتب كل عضو على ترتيب يخالف صاحبه، وخصّ كل جزء بترتيب يخالف مجاوره، ثم مدّ من باطن تلك الفطرة معاني صفات المخلوق، وأسمائه وأخلاقه؛ من علم وقدرة وإرادة، وعقل وحلم وكرم، ونحو هذا، وأضداد هذا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنه ليقسم الطعام والشراب على هذه الأجزاء، ويوصله إلى هذه الأعضاء؛ فيجعل لكل عضو ما يلائمه، وعلى النحو الذي تقدم ذكره من التنويع، فسبحان الذي يعلم هذا الذي يخلقه، كيف يخلقه، وكما أنزل أمره؛ فاجتمعت إليه مواد المصنوع بإذنه، فقلب أعيان المجاورات والمباعدات إلى سنن الكون في الكون حال المكون، فاقض - وفقك الله - قطعًا بأنه أيضًا ينزل أمره بعدما فرق ما جمعه، وأحال ما كونه، وأعدم ما أوجده، وغير ما هيأه؛ فيجمع ما فرق، ويقرب ما بعّد، ويرد من كل ما أخذ، ثم يُكوّن ما أفسد، ويهيئ ما غير، ويوجد ما أعدم، ويحيي ما أمات، وذلك هو البعث والنشور والمعاد، وما هذا سبيله.

ذكر أن سُنيًا ناظر قدريًا في مسألة عن القدر، فقطف المعتزلي تفاحة من شجرة، ثم قال: ألست أنا الذي فعلت هذا؟! فأجابه السني بأن قال له: فإن كنت فعلته أنت فردّه أنت على ما كان عليه، فانقطع لذلك.

ولتعلم أنه من سعة قدره، وعظيم اقتداره، وسّع مجاري قدرته ونوّع أفاعيلها؛ فخلق كسب المكتسبين، واستطاعة المستطيعين، منفردًا بذلك مقتدرًا عليه، فلا تدعي القدرة على أعمالك، ولا تجحد لذلك ما صنعه بك، ولا ما أسداه إليك وأنعم به عليك، ولا تجعلنَّ ما خلقه فيك مما تحبه أو يزيدك به حجة لك، فيما يطالبك به من مراعاة حقوقه، فيكون خصمًا خذلاً مبدلاً نعمة الله كفرًا، فإنه مجرد الخلق من الحق تبارك وتعالى، لا يكون عذرًا للعبد في سقوط اللوم.

اسمه المقدّر واسمه القاضي ﷻ

القضاء بمعنى التمام، قال الله ﷻ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:57]، وقال ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء:4] أي: حتمنا وكتبنا، والقدر هو التقدم بالعلم في الأمور، وهو القدر مخفّف، وقد يكون القدر اسمًا لما تقدم فيه بالعلم، وهو: المقدار فعل ومفعال، كربع ومرباع، وقدّر وفعل من القدر، والتقدير تفعيل منه، ولمّا خلق ﷻ القلم واللوح، قال للقلم: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب المقدار، وفي أخرى، قال: اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة، وفي أخرى: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فمعنى قوله المقدار والله أعلم أنه مقدار لإخراج الأكوان، قال الله جلّ قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:2] أي: قدّره على المقدار الأول تقديرًا لا زيادة فيه ولا نقصان منه، ولو كان قد خلق الخلق لا على مقدار تقدم بالعلم فيه؛ لكان قد خلق ما لم يعلم، وقد تعالى عن ذلك سبحانه، ولو كان قد تقدّم بالمقدار والتقدير ولم يخلق عليه؛ لكان قد أراد شيئًا، ولم يكن ما أراده جلّ عن قدره، وكتب المقدار في اللوح المحفوظ لهم لا له، قال الله ﷻ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ [طه:52]، ثم قال: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:52] أي: لم يثبت علم القرون الأولى، وعلى ما كان ليذكر بذلك أو ليهتدي به، وإنما ذلك لما كان في عمله أنه يوجدهم بصفاتهم وأسمائهم من عقولهم واختياراتهم، وزعاماتهم ومعانيهم كلها، فعمل كلّ باختياره وإرادته وكرهه، أراد جلّ وعزّ أن يريهم أن جميع أعمالهم على اختلاف طرقها، وتباين الأغراض إليها مثبت ذلك كله قبل وجودهم وكونهم، قال الله جلّ قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ:3] فأجابهم ﷻ بقوله: يا محمد ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ:3]، والشهادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:3]، ثم قال: ﴿لِّيَجْزِىَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [يونس:4]، إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ [الحج:51]، إلى قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6]، فهذه الجملة تنبئ عما ذكرناه.

الاعتبار

الأصل المفهوم من القدر، والقدر العدل في الأمور كلّها، والكائنات أجمعها، وأنه وإن كان متردّدًا بين صفتي العلم والقدرة، وعلى حكم المشيئة يكون القضاء والحتم والتمام، فما كان من القدر بمعنى التقدّم في الأمور التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقها بخمسين ألف سنة**»[1] فهي بمعنى العلم، وما كان منه يصحب الفعل حال تكوين المكونات، وخلق الخليقة من تقدير الأمور، وتقسيط القسط، وتقسيم الخطوط المقدّرة في الأزل، فذلك بمعنى الفعل؛ لتبيين لتنفيذ ما سبق به العلم، وعن اسم المقدّر ومعنى التقدير يكون حدود مقادير الأشياء، وما عليه تكون الأكوان؛ من ترتيب المراتب، وإعطاء الحصص، وإنزال النُزل، فيقدّر ذلك كله على سبيل سنة العدل، وحكم الفضل، فلو أرسل رسولاً ﷻ مثلاً إلى الفخذ من الإنسان القدر، الذي يرسله إلى الإصبع منه، وإلى الإصبع المقدّر الذي يرسله إلى العجز، وكذلك الأنف، وحاسة السمع والبصر والأذنان كذلك، والحدقتان مع سائر الأعضاء لكان الفساد كلّه، وما استقام شيء من المكون بل ما أقام شيء إلا يحسن تقديره مع حكمة تدبيره، وقد قال الله جلّ قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 20-22]، فقدرنا بالتثقيل، أي: قدرنا القول الكون على المقدار الأول، فقدرنا على ذلك، فنعم القادرون، ولذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:24].

التعبد

سبيل التعبد بهذا الاسم الكريم الإيمان بما سبق به التقدير في الأزل والطمأنينة

---

(1) تقدم تخريجه.

للمستصحب معًا، منه حال الحدث والكون، وإياك والتعقب، وأن تقول: لو كان كذا، فإنما يستصحب ذلك أهل النفاق، قال أنس رضي الله عنه: صحبت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي في شيء فعلته: لم فعلت هذا هكذا؟ ولا في شيء لم أفعله، لما لم تفعل هذا هكذا؟ قال: عاتبني رجل بحضرته في شيء فعلته، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قدر هذا لكان**»[1]. وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:156]، وكثير مثل هذا في القرآن، فلا تكثر باستجلاب الشواهد عليه، فنسأل البر الرحيم الذي لا إله إلا هو أن يجعل رضانا تابعًا لحكمه، فهو أحكم الحاكمين.

اسمه الباريء جل وعز

ذكر الشارحون للأسماء أن قولهم: برأ معناه خلق، قالوا: برأ الله الخلق يبرؤهم براء أو برواء، أي: خلقهم، والبريّة الخلق بالهمزة وغير الهمزة، والبرية من البراء وهو التراب، وحكوا ذلك عن العرب حكاية، قالوا: العرب تقول: بفيه البراء، تعني التراب.

اعتباره

جاء هذا الاسم الكريم الذي هو الباريء ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بين اسمي فعل في قوله جلّ قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24]، وجاء مفعوله أيضًا في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:7]، و﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]، وجاء فعله أيضًا في قوله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد:22].

(1) رواه ابن سعد (378/1)، وابن عساكر (367/3).

فلو كان معنى قوله هنا من قبلِ أن نبرأها لا يفهم منه إلا ما يُفهم من قوله: من قبل أن يخلقها، لما نسق ﷻ اسمه البارئ بعد ذكره اسمه الخالق، وقبل ذكره المصوّر، وليس ذلك المعهود من براعة الكتاب المبين، ولا المعلوم من حسن إفصاح القرآن الحكيم.

وقد جاءت الروايات بتعديد الأسماء، وذكر الاسمين معًا في العدد، فلو كان مفهومهًا واحدًا؛ لاستغنى بذكر أحدهما عن ذكر الآخر، ولم يكن رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا**»[1].

ثم يأتي بأسماء عدّة، مفهومة بعضها من بعض دون زيادة فائدة، بل الحق في قوله من قال: إنَّ خلق الله صورة من الصور أحدهما تنوب مناب الأخرى، أو تقوم مقامها من كلِّ وجهٍ وعلى كل حالٍ تكون هذه، بل لا بد من فرقان يفرق بينهما وإن تقاربت الأشياء جدًّا، غير أنه قد يعبر بأحد المثلين عن الآخر، ويجتزئ بذكر أحد المشبهين عن شبهه، فنقول - والله الموفق للصواب - : إن الإيجاد والإبداع اسم عام لما تناوله عن معنى الإيجاد ومعنى إخراج ذات المكون من العدم إلى الوجود، وهذا حد عام في الإبداع.

واسم الخلق تناول جميع المواد الظاهرة للمصنوع الظاهر، وهذا حدّ خاص في الخلق، وتناول أيضًا معنى الحذو والقطع والخلق، على المقدار المقدر المتقدم فيه بالعلم والمشيئة في البدء، واسم التقدير، تناول تحديد مقادير الأشياء في الأزل، والتقدم فيها في الآخر، الحذو بالموجودات حذو المقدار، وردها عن سبيل السرف والتطفيف إلى حكم العدل المقدّر عليه المثال السابق به العلم، واسم المصوّر تناول اسم التصوير، واسم البارئ تناول إيجاد البواطن من باطن ما خلق منه ذوات المقادير وهي الأجسام، وجعل الذوات ذواتًا في الكون محمولة في الأجسام محجوبة في الهياكل، وفي البدء إيجاد باطنًا وتقديرًا مرصدًا، لكنها مسوّاة بالحكمة، مقوّلة بالإقرار عند أخذ المواثيق في الأزل، مبرّأة من العناد في العهد الأوّل؛ قانتة لبارئها مسلّمة له، إلا ما كان منها في علم بارئها أنها به عاملة بعد فطرها واطلاعها في هياكلها، وحجابه إيّاها عن حقيقة ما له أوجدها، وهو أعلم للجمع في قبضتيه الكريمتين ﷻ، ألا ترى أنَّه بعد تلبسها بما به تلبست وموافقتها إيّاه من معانيها وشهواتها واقعت كيف جعل لها

---

(1) تقدم تخريجه.

الصور أصارها إليه، أبدلها بذلك من كريم يمينه سبحانه وبحمده.

وكان ﷻ يوم برأها على الإسلام له، والعمل بطاعته، ثم أظهر منها بالتقدير لها على ذلك، والإقرار له به والإذعان فكان الإقرار شهادة منها له وعليها، وكان قبل الإكبار له، والتوحيد والتسبيح له، عمّا هي عليه من النقص والافتقار والحدوث، وما تبع ذلك، والحمد له بما يستوجبه من المحامد على ما هو عليه من نعوت الجلال، وصفات الحمد والمجد؛ فكانت الجملة أصلاً لها أوّليّتها، وكونها قاصدة له، صامدة نحوه، ناظرة إليه، متوجهة حج منها إليه وله، وكونها ممسكة عن أجسامها التي سبق علم بارئها أنه يوجدها لها، وكانت مبعدة عنها بحكم العدم على تلك الأجسام عن التلبس بكثيف هياكلها، ونيلها منها معانيها، والمكتوب لها من شهواتها، والمقدّر لها وعليها من أعمالها وأفعالها فيها صام في أوليته، وزكاؤها في الأول زكاتها؛ وهي طهارتها من التلبيس شيء مما لها سواء طاعة ربها والأقدار بالربوبية لها منه.

ويُقال: برأ الله الخلق برأ وبرءًا، ففرقوا بين البرء والخلق قولاً، وإن كان الأكثر منهم قد أغلقه عقدًا وعلمًا، ولو كان على ظاهر ما قالوه من قولهم: برأ الله الخلق، أي: خلقهم، لكان معناه: خلق الله الخلق، ولم يكن الغرض المقصود منهم الإخبار عن خلق الله ذلك عقد، قد ثبت بغير هذا بل غرض القائل: برأ الله الخلق تفسير اسم البارئ ﷻ، وتعرف معناه وتبين معنى البرء، فخلا الكلام من الفائدة، وجاء اسم ذكر الله ﷻ بما ذكروه على سبيل الإرداف والتكرار لغير فائدة، تعالت أسماء الله عن ذلك وﷻ.

ومما يبين أن البرء سبيله الغيب والإبطان قولهم: برأ السقيم يبرأ ويُبرئ وبرئ أيضًا، وبرأ وبراء، أي: خرج من سقمه وتباعد عنه، والسقم باطن، والخروج عنه فعل باطن وإن ظهرت على ظاهر الجسم علاماته ودلائله، وكذلك قولهم: برئت من الغيب براء، أي: تباعدت منه، ورجل بريء، ورجال براء أيضًا للواحد والاثنين والجميع، وبارأت المرأة: صالحتها على المفارقة، وإنما كانت المواثقة بينهما عهودًا وأمانات، دلت عليها صدقه وأمارات؛ فسميت المفارقة عن ذلك: مباراة، وقالوا: أبرأت الرجل من الأمر بمعنى: البراءة، والإبراء حكم باطن، وكذلك قولهم: استبرأت الجارية، والاستبراء هنا من وجهين صحيحين: أحدهما: انتظار براءتها عن عقائب ماء فاسد وصحيح ولادٍ، والوجه الآخر: انتظار براءتها من دمها وتمامه، كما تقول: استبرأت البول، تريد انتظرت استيفاء الذكر منه.

كل هذا استبراء من باطن لا يظهر، وذلك لما كانت حقيقة الاستبراء انتظار

البراءة من شيء مظنون غائب، وبراء الله ﷻ الأنفس في الآخرة من البراء، وخلق أجسامها الحاملة لها من التراب؛ لأن البراء هو باطن التراب، وإنما البراء البواطن من باطن ما خلق منه الظواهر، قال الله عز قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:22]، والضمير راجع على الأنفس، وبرأ من البراء وهو الأول للتراب الذي ركبت عنه جملة الأرض، وهو بمنزلة الدخان للأسماء، قال الله ﷻ لهم: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:11]، فسبق الجواب منها الكون ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:11]، كذلك قال الله ﷻ للذوات في أوليتها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:172]، ولله ﷻ سر في طرقات حكمته المبثوثة في خليقته، عبر عنها برموز الوحي ليس كغيره من الكلام، قال الله جل قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:45].

مما يزيد المتأمل الناظر في هذا الباب بيانًا أن المراد من مقلوب برأ هو باطن المخبر عنه، كقولهم: الأرب والمأربة الحاجة، والإرب والإربة مصدر الأريب، وهو العاقل، وقد أَرُبَ الرجلُ: عقل، والمأرب: المراعاة والمخادعة، والتأريب: التحريش بين القوم، وتأرب علينا: تحرش، كل هذا إخبار عن باطن المخبر عنه، وإنما سُمي الإرب عضوًا والآراب أعضاء من حيث هي جوارح الإرادات، فسمي ما ظهر بما يسمى به ما بطن حسب عادتهم في تسميتهم الشيء لما يقاربه أو كان منه بسبب، وقول عائشة رضي الله عنها: «وأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه؟»[1].

لم يكن الغرض الإخبار عن العضو، بل عن النفس والإرادة، وإنه كان ﷺ يملك من نفسه وإربه ما لا يملكون، وقد جاءت الرواية عنها: وأيكم يملك إربه؟ تريد حاجته.

ومن ذلك أيضًا بَأَرْتُ الشَّيء وابْتَأَرْتُه: خَبَأْته، وتسمى الذخيرة: البَئِيرَةُ على وزن فعيلة، والبِئْرُ معروفة والجمع: آبار وبئر، والبؤرة على وزن فُعلة: الحفيرة تحفر للنار، وابتأرتها: احتقرتها، وبرئت لفلان إذا عرضت له، هذا كله إخبار عن بواطن ما يخبر

---

(1) رواه البخاري (302)، ومسلم (706).

عنه، وقولهم: بريت القلم أبريه بريًا، يدل على أن المبرئ كماله: تركيبه في حامله واطلاعه من ظاهره، وقد تناول ذلك اسم الفاطر ﷻ يومئذٍ أوحى إلى الخليقة أمرها بما إليه أهلها وله أوجدها، امتد بنا طلق الكلام حرصًا على إفادة البيان، والله جل ذكره نسأله إصابة الصواب إلى سواء الحكمة، وفصل الخطاب.

التعبد

اعلم أن التعبد بمقتضى هذا الاسم الكريم: التوبة من كل منهي عنه، وإرجاع النفس إلى بارئها بكل مأمور به ومحبوب عنده، واستشعار الإيثار لمراده جل وعلا مرادها، وتذكير النفس بأخذه الميثاق عليها في أوليتها، وما أعطته من العهود في بدء أمرها وبنعماء بارئها عليها، كيف سواها في أحسن تقويم، وأقامها على الدين القويم، دين الإسلام صراطًا مستقيمًا، صراط الله الذي ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:116]، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54]، فلما فعلوا ذلك بأنفسهم أنبأهم عن نفسه ﷻ بالتوبة عليهم، فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54].

وسبيل قتل النفس - وفقك الله - ترك هواها، والأخذ بها في خلاف مرادها، إذا كان في ذلك مراد بارئها، وجعل سبل البر وأفعال الخير لما هجيرًا ومنهجًا تروضها في ذلك، وتسوقها إليه طوعًا وكرهًا، حتى يعود لها عادةً وديدنًا، فحينئذٍ يموت مرادها ويستقيم لك هواها في مراد بارئها، ويسلس لك إلى طاعة ربها قيادها، نسأل الله البر الرحيم بكريم رحمته وجميل تحننه وعطفه أن يطهرنا من جميع الأدناس، فينقلنا من دناءة الأخلاق إلى ما يحب ويرضى إنه على كل شيء قدير.

اسمه الفاطر تبارك وتعالى

فطر الله الخلق بفطرهم فهو فاطر، والفطر الشق بوجه، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

ﭐلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، وقال جل قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: 1]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:1]، ويقال للذي يحرث الأرض: فاطر؛ لأنه يشقها بالحراثة، وفي الحديث: «قام رسول الله ﷺ يصلي حتى تفطرت قدماه»[1].

والفطر أيضًا بوجه الظهور والطلوع، من ذلك قولهم: فطر ناب البعير إذا طلع، والتفاطير: أول نبات الوسمي، قيل له ذلك والله أعلم؛ لأنه أول نبات طلع على الأرض منها وظهر، والتفاطير أيضًا: بثور تبدو في وجه الغلام أول اقتباله، والفطر: ضرب من الكمأة؛ سميت بذلك لطلوعها عن الأرض بعد انشقاقها عنها، والفطر: أكل الصائم، يقال من ذلك: فطَّرت الرجل وأفطرته فأفطر، وتأول رسول الله ﷺ اللبن الحليب بأنه الفطرة؛ لأنه أول ما يتغذى به المولود ويفطر عليه عند خروجه إلى الدنيا، وسمي دين الإسلام فطرة؛ لأنه أول شيء لقيت الذوات يوم برئها والأجسام يوم جمع خلقها والخليقة كلها كذلك، قال الله جل قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم:30]، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ [الروم:43]، وقال إبراهيم ﷺ: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء:56]، ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا﴾ [الأنعام:79] أي: فطرهن على الدين القيم دين الإسلام، وقال الله جل قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5] فكل ما قام بأمره ﷻ من السماوات والأرض، وما فيهن وما بينهن، وما فوق ذلك وما تحت، وما بابه الكون له مستسلم وقانت مفطور على الإسلام.

الاعتبار

فطر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الذوات بعد برئه إياها بأن جمعها بأجسامها الحاملة لها الظاهر فيها أعمالها وما له أوجدها، فأفطرت لذلك، وكذلك فطر الأجسام بذواتها العامرة لها التي بها حياتها وحركاتها وسكونها أعمالها وصفاتها، وما له

(1) رواه البخاري ومسلم كما في جامع الأصول من أحاديث الرسول (4221/1).

أوجدها، وقد كان كل زوج منها زوجته حتى فطرهما باطلاع البواطن من الظواهر، وتفطر الظواهر التي هي الأجسام عن صفات ذواتها التي هي بواطنها، فشق بذلك ستر العدم عن وجودها، ثم شق الأبصار والأسماع والمشام، وفطر عن جميع الحواس فجاج الأبدان ومجاري الأنفاس؛ فهيأ بذلك طرقات الروح بما فطر من مسام الأجسام، حتى فطرت الألباب كثيف ظاهرها، وتطلعت من منافس هياكلها عند ظهورها في الوجود، وقبل إقامتها بشاهد العقل، وقد كانت قبلاً في الأول بدت، وعلى المعرفة والإسلام أفطرت، وبمعنى القيومية وجدت، ثم بوصف الجامع لها في حكم الفطر الآن جُمعت، فظهرت بذلك تقدير العزيز العليم.

قال الله عزّ قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم:8]، هذا خطاب تام وأمر قيم، ثم قال وقوله الحق: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: بمقتضى أسمائه وأوصاف صفاته على حكم العبودية، والقيام منها له بالدين، انقسم دين الحنيفية وبعد هذا قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:20] فهذا ذكر جامع لجملة الخلق، ثم قال ﷻ خاطب الألباب: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21]، كما قال عزّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:189].

ينبه ﷻ على الاعتبار واستعمال الأفكار بخلقه أزواجنا من أنفسنا، كما جاء أن حواء خلقت من ضلع آدم - عليهما السلام - على المعهود من سنته في خلق الأجسام، من ظاهر ما برأ منه الذوات؛ لتسكن إلى أجسامها الحاملة إليها، وذكر الألباب بما جعل بينهما وبين أجسامها من القرابة القريبة بينهما، وجعل الصدقة بينهما ما أخذ عليها عن العهد والميثاق يوم فطرها أن تسلك بها سبيل نجاتها، وأن تصرفها عن مظان هلكتها إلى إقامة سبيل فطرتها، وألا تفارق ما عليه برأها، وجعل ذلك أمانة منه ائتمنها عليها؛ إذ الأجسام هي مراكب الألباب ولباسها، وكان ذلك أصلاً زائدًا على

دعائم الإسلام الخمسة، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ.....﴾ [المائدة:6] إلى آخر الآية، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [المائدة:7].

فهذا عهد الفطرة متوجهة على الجملة، والذي تقدم ذكره في باب اسم البرء، عهد البرء مخاطبًا به الذوات معهودًا إليها لا يكون منها خلاف ما به، أقرت يوم الفطر ولا بعد إقامتها، يشاهد العقل حين الأمر والنهي المتوجه إليها على لسان النبوة.

وبين ذلك قوله ﷻ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الأعراف: 172 - 173]، وهذا غيب في غيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:3] ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف:170].

وعلى نحو ما تقدم ذكره من الفطر فطر السماوات والأرض وجميع الخليقة، ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت:11 - 12] ومن الأرض مثلهن، وأوحى في كل سماء أمرها، ويسره أو سخره لما له أوجده، قال الله جل قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان:2] وسوى الخليقة بالفطر، وجميع البواطن بظواهرها.

التعبد

أتدري - رحمك الله - ما جملة المطلوب منك في أداء الأمانة التي ائتمنت عليها؟ أن تسلك بنفسك في شرعتها سبيل جبلتها، وتقومها بعون الله تعالى على قويم الدين من فطرتها، منيبًا إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة:40]، وقد أقررت وعاهدت وأشهدت على نفسك فإياك والخيانة، واحذر قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ....﴾ [الأنفال:27] إلى آخر المعنى، وقوله: ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:

58]، فصدق بالفعل ما أقررت به من قول وأعطيته من عهد وميثاق.

ألا تسمع إلى إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم:43]، فاحرص أن تتعلم العلم الذي ذكره والصراط السوي الذي وصفه، وحافظ عليه ورابط واصطبر على ذلك وصابر، والله المستعان ولا قوة إلا بالله، وربما تحصل الإفهام بتيسر الكلام، والله نسأله إصابة الصواب في القول والعمل، وأن يستعملنا بما يقربنا منه، ويستوجب به عنده الزلفى وحسن المآب.

اسمه الذارئ جَلَّ جَلَالُهُ وتعالى علاؤه وشأنه

يقال: ذَرَأ اللهُ الخَلْقَ يَذْرَؤهم ذَرْءًا، فهو ذارئ، والذَرْءُ من الكلام: طرف منه، والذرء: عدد الذرية، يقال: أَنْمَى اللهُ ذَرْأَكَ وذَرْوَكَ، أَي: ذُرِّيَّتَكَ، وأصل الذرو والذرء: التفريق عن جمع؛ لذلك قيل: ذرأنا الأرض نذرأها، أي: بذرناها، ويقال في معنى منه: العين تذري الدمع، أي: تصبه، والسيف يذري ضربته، أي: يرمي بها، واسم ما يرمي به الذرى، وذريت الطعام أذريته وذروته ذروًا أيضًا، والريح تذر، والتراب والذرى اسم لما تذرؤه، والمذروان فرعا الآليتين، سميتا بذلك؛ لانقضاضهما عند المشي، شبه بذلك بالتفرق، وقد يكون الذرء بمعنى الود، إبلاغ بالمذروء نفسه أو المذروء من أجله؛ لذلك قيل أذرأته بالشيء: أولعته به، وقيل: إنه بمعنى الذرء، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله مسح ظهر آدم بيمينه واستخرج منه ذرية أمثال الذر**»[1].

والذر مصدر، ذروت الشيء أذرؤه ذروءًا، والذرية فُعْلَيَّة من ذرهم الله في الأرض؛ أي: نشرهم، وذرت الشمس تذري ذروًا: طلعت، ومما يقاربه: الذرور اسم ما ذروت، والذريرة: فتات قصب من قصب الطيب يُجاء به من الهند، وكذلك الرذاذ، يقال

(1) رواه أحمد (179/2، رقم 6677)، والترمذي (655/4، رقم 2492) وقال: حسن صحيح. والحميدي (272/2، رقم 598)، والبخاري في الأدب المفرد (ص 196، رقم 557).

من ذلك: يوم مرذ، وأرذت السماء، كل ذلك مفهومه التفريق.

اعتباره

لما برأ الله ﷻ الذوات قدرها على ما هو موجدها يوم إيجادها، وعلى التدريج من بدئها إلى غاية انتهائها، فكان عن آثاره: اسم الخلق في نفس مقتضى البرء والفطر، كما أنه إذ خلقها ركب الذوات في الخلقة بحكم الفطرة، ثم أنشأها خلقًا آخر بحكم البرء، لست أعني ذلك حكم النشء الظاهر، وكان ذلك عن إثارة البرء في نفس الخلق.

وقيل: كانت البرايا مجردة مفردة، قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»[1].

فأخبر نصًا صريحًا بفعل اسم الخالق يوم البرء، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله مسح ظهر آدم بيمينه فاستخرج ذرية ....**»[2]، فكان هذا من رسول الله ﷺ إخبارًا عن استخراجه من ظهر آدم خاصة، وقال الله ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**....﴾ [الأعراف:172]، وكان هذا من الله ﷻ إخبارًا عن أخذه الذرية من ظهور بني آدم، فحين أخذ الذرية من ظهر آدم ؑ جمع ذلك يومئذٍ جملةً وتفصيلاً في الإخراج، والتقدير من ظهر الآباء، ثم الأبناء، ثم كذلك من بعد ذلك، أبدًا على التدريج في أخذه المواثيق من كل ذرية في طلب ذي ذرية في الاستخراج، والتقدير: إلى يوم القيامة، وذلك على الله يسير.

وذكر عن بعض العارفين أنه قال: إن الله ﷻ بث خلقه في الهواء صورًا كالهباء فأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم في غيبه إلى ما سبق في علمه، استودع البر بأكلها مكنون غيبه، وأقرها في غيابات السماوات والأرض، قال الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام:98]،

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أحمد (272/1، رقم 2455)، قال الهيثمي (25/7): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه النسائي في الكبرى (347/6، رقم 11191)، والحاكم (80/1، رقم 75)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في الأسماء والصفات (ص 327). وأخرجه أيضًا: الضياء (338/10، رقم 366).

وقيل: هذا مستودع ومستقر أيضًا، وهو ما تقدم ذكره، وجعل أبواب تلك الخزائن إرساله الرياح اللواقح، وإثارة السحاب وجعلها ركامًا، ثم إذنه في نزول المطر فيحيي به الأرض بعد موتها، فتهتز لذلك اخضرارًا وتربو، وقد أنبتت من كل زوج كريم.

فهو أبدى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يذرء براياه من مستودع علمه وغيبه إلى مستقرها في الهواء، ثم إلى الرياح إلى الماء إلى الأرض إلى النبات كله إلى الحيوان إلى الأرحام إلى الأرض إلى حيث كتب رزقه وعلمه وموته من نواحي الأرض كل أول مستودع، وما يلي به مستقر بالإضافة إلى ما دونه، هذه مستودعات الخزائن من موجودات طبقات العالم، ومنذ أوجد الأصلاب والأرحام لم يزل ينقلها، أعني: البرايا في مستودعات خزائن السماوات والأرض إلى الأصلاب والأرحام في طبقات القرون الخالية والأجيال الماضية، يقلبها في قبضة قدرته تقليبًا على حكم مشيئته تنقيلاً، ثم يطلع ما برأ أو يفطر ما خلق بما برأ، أو يخرج ما قدر على سواء ما قدره، ويذرأ ما برأ وما فطر وما قدر على سنته، لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

قال الله ﷻ يخبر عن مستغلق ما تقدم ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:99]، فهذا طعام عموم الحيوان، ثم قال جل قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ [الأنعام: 99] هذا طعام بني آدم حيوان الأرض ونباتها تنشأ عن ذلك أجسامهم وصفاتهم، فتكون عنها نطفهم؛ ولذلك قال جل قوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99].

وقال أيضًا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:17-19] إلى قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ [عبس:24-32]، وذكر الأنعام في أصناف الأغذية فقال ﷻ: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 72]، وقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:66]، وهذا كله من أغذية بني آدم، والأكثرون من الحيوان يذرؤهم فيه، فمنه مستقر ومستودع كما قال عز قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الزمر:6] يذرأ كل جنس في بطون أمهاته ومستودعهم في خزائنه منها، ثم رفع هذا البيان بالنص إلى أرفع البيان، فقال عزّ من قائل: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:11] فأرجع الضمير على الأزواج والأنعام والسماوات والأرض، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس كفعله فعل، ولا كصنعه صفة بكل وجه وبكل معنى.

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون: 78]، فهذا تناوله اسم المنشئ ﷻ من بعد الفطر، ثم قال جلّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:79] نبه على الاعتبار بما تقدم ذكره على عظم اقتداره على إحيائهم بعد موتهم، وجلبهم إلى يوم الحشر موضع المحشر يوم النشور، كما قال جل قوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [البقرة:148].

التعبد

قد علمت - وفقك الله بنور الإيمان وبما تقدم لك في سبيل الاعتبار من البيان - أنه جل وتعالى برأك فيمن برأ، ثم غيبك في علمه، وخزنك في خزائنه، وقلبك في غيابات ملكه وملكوته بلطيف تقليبه، ثم أخرجك بقدرته، وأسلكك في الإنشاء سبل حكمته على سننه، وحكم شرعته التي شرعها لخليقته، حتى بلغك حد التكليف، وسن لك على لسان رسول الله ﷺ بأمر الشرع مقتضى أمر الكون؛ ليختبرك فيرى كذبك من صدقك، فيجزيك إذا صرت إليه فردًا كأوّليتك جزاء الصادقين أو الكاذبين؛ فلذلك فاعقل لما أنت عليه تقدم تعلم اليوم علمًا تكن به غدًا عالمًا، اكتسب اليوم عقلاً تجزى به غدًا، فإن أحدًا لا يجزى إلا بقدر عقله وإن كثر عمله، تزود هنا ما تجده غدًا هناك وخير الزاد التقوى، اكتسب اليوم بصرًا وسمعًا تكن غدًا هناك بصيرًا سميعًا حيًّا شهيدًا مرزوقًا، انظر إلى جوارحك وجميع أعضاء جسمك كيف نشأت بقدرته، وكيف جمع

أجزاء ذلك بلطفه حتى تناهى شأنك كله، ثم ناظر بصفاتك من علمك وعملك وعقلك ومعرفتك، وحسن إرادتك وصحيح نيتك في توجيه أعمالك وأقوالك وعلومك وشئونك كلها، ونصيحتك له ولكتابه ورسوله والمؤمنين، وإن كانت قد نشأت كما نشأت جوارحًا واجتمع لذلك جسمك؛ فاحمد الله ﷻ فأنت على سبيل خير وطريق نجاة إن شاء الله تعالى.

وإن كانت صحبته الحسنى منك لم تنشأ، ومحامدك بعد لم تجتمع، كما يرضي ربك جلّ ذكره، وأنت إنما تستصحب لشهوات نفسك، وتقطع عمرك في قضاء أوطارك، وتزكيها وقتًا إلى وقت ويومًا إلى يوم، وتتخذها مواعيدًا لأمالك وخسيس أمانيك من دنياك وخسيس أمانيك، وأخسس بها من حال وأقلل به من منال.

أما علمت - وفقك الله- عليك في يوم وليلة صحيفتين مثبتتين؟ فانظر ما تملي فيهما على كاتبيك، إنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما لا يستوي المحسنون والمسيئون، ألم تسمع إلى مخاطبة الأكياس من أهل العلم والإيمان لما يعجزه الظالمي أنفسهم، وقد قالوا لهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد:13] ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد:14].

فانتبه أيها الغافل الساهي والمغرور المتباهي من وسن غفلتك، فهذه والله صفتي وصفتك، هل هو إلا طلب التسلي والفرج، وعمل فشل وزاد طفيف ذو عوج، لقد دلّ الطبيب المعافي على الدواء الشافي لما عاتب عباده فاستبطأ منهم الإجابة بقوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:16]، سبحانه وله الحمد ما أعلمه بأصول الأدواء، وأكرم دلالته منافع الدواء حيث قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [الحديد:17]، ثم أعقب ذلك بخطاب ينبه به العقول على عظيم قدر ذلك الدواء المذكور بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد:17].

ألا إن حياة الأرض بالماء، وإن حياة القلوب بالعلم النافع، ونفع العلم هو بطاعة الله ولزوم موجوده في السر والعلانية، قال الله جل قوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ

ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:16] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة:22]، نسأل الله الحي القيوم الدائم الذي لا إله إلا هو أن يحيينا بحياة من عنده، وأن يؤيدنا بروح القدس منه، وأن يدخلنا في رحمته، حتى نعقل عنه فإنّا لا نعقل عنه إلا به.

اسمه المبدئ واسمه المعيد جلت قدرته وتعالت مشيئته

يقال منه: بدأ يبدأ بدءًا، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:27]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:14]، وأبدأ لغة في بدأ، قال الله جل قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس:4]، وابتدأ يبتدئ ابتداءً فهو مبتدئ، والبدء الشيء المخلوق ويكون الشيء العجيب، ويقال للسيد الذي يبدأ به في المشورة وغيرها البدء، وقالوا فيما يقاربه: بدا يبدو، بمعنى: ظهر يظهر، وأبدى يبدي: أظهر يظهر، والعود تثنية الأمر عودًا بعد بدء، والمعاد: ما عدت إليه، يقال: أعدت الأمر أعيده فهو معاد وأنا معيد. والمعاود: المآتم، قيل لها ذلك من أجل مؤالفة النفوس لها، فتعتادها لأجل ذلك، والعادة مأخوذة من العود بعد العود حتى يكون دربة، واستعدت الشيء تعودته من العادة، وتجمع العادة على عادٍ، والعود: الجمل المسن، والجمع: العِوَدَة وعِيَدَة، وعود البعير إذا أسن قيل له ذلك؛ لأنه عاد إلى نقص القوة كما كان قبل كماله، لذلك قيل للشيء القديم: عادي، وللطريق القديم: عَود، والعائدة: المعروفة، والعيد: مجمع كل أمة، كل ذلك مفهومه العود بعد البدء منه[1].

(1) المبدئ هو الموجد، و(المنشئ): الذي أظهر الممكنات في مرائيها، فلهذا كان له الإبداء الدائم، وقيل: هو الذي ابتدأ الخلق بالإيجاد في الرتبة الثانية، فكل ما ظهر من العالم ويظهر فهو فيها، =

=

ومن ثم رتبة ثالثة، فهي الآخرة والأولى للحق، فهو الأول، فالحق من حيث وجوده لا يكون في الأول أبدًا، والحق معه في الآخر، فإنه مع العالم أينما كانوا؛ ولذا يسمى بالآخر، فاعلم ذلك.

وهذا الاسم من أسماء الأفعال، وله الهيمنة على جميع الأسماء؛ لأنه في المرتبة الأولى، وهي المبدئية.

قال الجيلي - قدس الله سره - في «كمالاته»: المبدئ: هو الذي أظهر الكثرة، المعبر عنها بالأسماء والصفات مع مقتضياتها، التي هي عين المخلوقات الوجوديات والحكميات من الأحدية الذاتية، المعبر عنها بحضرة الجمع والوجود وحقيقة الحقائق، وهذا الاسم من أسماء الأفعال، وصفته الأبد، وهو عبارة عن ظهوره تعالى، بالتعيينات الشؤونية للاقتضات الكمالية في المظاهر الوجودية من الأسماء والصفات الإلهية، أوغيرها من الأعيان الخلقية والأحكام الوجودية، والمعاني الحكمية على ما هو عليه من تغيير الكنزية المخفية، ولا انصرام للمرتبة المبطونية، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وقال سيدي محمد القونوي ﷺ: المبدئ بمعنى المظهر، والمنشئ الذي يبدأ الخلق بالإيجاد كالمبتدئية من الرتبة الأولى، وهي رتبة الموجد، فالمرتبة الثانية هي المرتبة الأخيرة للمكن، فالممكن من حيث وجوده لا يكون له قِدَم في الأولى أبدًا، وإنما له الأخرى، والحق معه، فالسابق في الوجود من الممكنات، واللاحق سواءٌ في المرتبة، فإن الآخرية تشملهم.

والمبدئ هو الذي أظهر الممكنات في مراتبها، وله حكم البدء في الأولى والآخرة، في كل عين من أعيان أنواع إمكان، فلا يزال المبدئ مبدءًا؛ لأنه يحفظ حدود مراتب الوجود بإيجاده أعيانها دائما، ولهذا الاسم حكم في الأسماء الإلهية كلها، كما للاسم حكم فيها، أوجده اسم المبدئ تعالى في حق كل ما يوجده دائمًا، مبدئ دنيا وآخرة، انتهى.

وقال الإمام الأكبري ﷺ في شرحه على الأسماء: الاسم المبدئ لتعلق افتقارك إليه في خلاص النية، فيما تظهره من الأعمال، وتنشئه على طريق القربة إلى الله تعالى، أي: فإن الله تعالى إذا لم ينعم على عبده بالإخلاص لم يحصل له من ورطة الرياء خلاص، فيتعلق بهذا الاسم تعلق افتقار، إلى أن يذيقه حلاوة الإخلاص، ومن التخلص، وشهد الاختصاص، فإن ذلك بيده؛ إذ هو سر مودع في خزائن الغيب، يهبه الله لمن شاء من كل عبد خلص، وحقيقته العمل لله وحده من غير ملاحظة سواه، وإليه أشار حديث: «**اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها**»، ثم قال: التحقق: إبداء الأشياء إبداءً في أعيانها ظاهرها، وإن كانت ظاهرة له أو لنفسها، وتتعرض هنا مسألة بين طائفتين كبيرتين، وهي: كل الأشياء غير ثابتة في العدم، أم لا؟ واشتركا مع هذا الخلاف في أنه تعالى مبدئ لوجودها، وهو المقصود، أي: إثبات أنه المبدئ للأشياء، سواء كانت في حوزة العدم أو دائرة الوجود. قال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ** ﴾ [الروم: 27]،﴿ **كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ** ﴾ [الأعراف: 29]، التخلق يظهر بما يخترعه العبد من الأفعال في نفسه وعلى يده ما لم يسبق إليه، في علم أوفي نفس الأمر،

=

الاعتبار

لما كان البدء والعود كل واحد فيهما طرف لصاحبه كالأول والآخر والظاهر والباطن، أشبه المضافات التي يدل كل مضاف على ما هو مضاف إليه بالمعنى، كالفاعل والفعل والمفعول والضارب والضرب والمضروب، فلم يسعنا لذلك أن نرسم أحد الاسمين دون صاحبه، ولا أن نفرد الكلام في أحدهما دون الآخر؛ لتداخل دلالتهما، ولما يرجى في جمعهما من الاختصار وقلة الإكثار، والله ولي التوفيق وهو حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال رسول الله ﷺ وقد سأله عمران بن حصين رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، جئت أسألك عن بدء هذا الأمر، فأنشأ ﷺ يخبره، فقال: «**كان الله ولم شيء قبله** – وفي أخرى: معه - **وكتب في الذكر كل شيء**»[1] وانطلقت ناقة عمران فخرج في طلبها وانقطع الحديث.

فالمكان وصفه جل جلاله والكون فعله والمكون مفعوله؛ إذ لا أول لكانه ولا قبل، هو قبل القبل، وأول كل ذي أول، ثم كتب في الذكر كل شيء، فقال: فأول ما خلق من شيء فالقلم ثم اللوح، فقال للقلم: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكان ذلك، ثم برأ البرايا، وقدّر المقادير، وأخذ المواثيق، وفطر المفطورات بعد إيجاد العرش والكرسي، وعرشه يومئذٍ على الماء، ثم أقام السماوات والأرضيين وما فيهن وما بينهن، ثم أنشأ ما فطر على سواء ما قدّر فيهن القادر هو جل جلاله، هذا لأن اسمه البادئ والمبدئ سبحانه.

ولما كان من أسمائه – جلّ وعلا- المعيد أعاد البرايا بعد هذا الإيجاد إلى مكوّن علمه وغيابات خزائنه، كما كانت قبل في أول الأمر وبدئه، غير أنها قد كملت بها أجسامها، وقد كانت في البدء الأول صورًا كالهباء؛ ولأنه الجبار الكبير المتعالي ذو

=

ومنه من سنَّ سنة حسنة، فقد أبيح له إنشاء هذه العبادات، على أمر مخصوص معين، انتهى.

وفيه إذن من الشارع لخلفائه بالتشريع المستنبط من شريعته المطهرة، دون إحداث ما ليس فيها: «فإن من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد»، ويؤيده: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عُضُّوا عليها بالنواجذ».

(1) تقدم تخريجه.

العظمة، والبقاء الدائم، والوجود المتوالي، الذي اختص بها دون من سواه، ولم ينبغي لمكوّن أن يتصف بها حكم على كل نفس بالموت، وعلى كل مصنوع بالخراب، وعلى كل موجود بالفناء، وعلى كل توالٍ بالانقراض، وأخبر بذلك في قوله الحق: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88]، فبذلك تلحق البرايا بمنازلها من الملكوت، ويلحق مواد الأجسام المجموعة بحكم الخلقة بمعادنها، ويختزنها في خزائنها، فإذا تمت كلمته، وتحقق اسمه في إعادة العدم؛ فيومئذٍ تحقق اسمه أيضًا في إعادة الإيجاد على الإيجاد عودًا بعد بدء، فيأمر كل شيء أخذ من شيء شيئًا ما أن يرده إلى حيث أخذه، فيرجع كل ذاهب على طريقه الذي ذهب عنه، كالإيجاد الأول سواء، لكن الإيجاد الآخر أيسر في مفهوم العقول من الإيجاد الأول، وكل شيء على الله يسير وهين؛ إذ الإيجاد الأول سنة خارجة على طريق مهلها وترتيب مراتبها، عبَّر عن ذلك قوله: ﴿فَيَكُونُ ۚ﴾ [الأنعام:73]، والإيجاد الأخير كلمة، عبَّر عن ذلك قوله: ﴿كُن﴾ [الأنعام:73].

ثم يفوض البناء، ويخرب ما كان أُبقي من المصانع؛ تتميمًا لكلمته في إلحاق الأعْدَام بالأعْدَام[1].

---

(1) قال الشيخ البكري: المعيد: هو الذي يعيد الخلق، عين الفعل، من حيث ما هو خالق وفاعل، وجاعل وعامل، فإذا فرغ من إيجاد شيء أوجد غيره؛ لأنه ليس في العالم شيء يتكرر، وإنما هي أمثال تتجدد، وأعيان توجد، لا أنه يوجد شيء ما مرتين، كما أنه لا يتجلى على عبد بتجليين متقفين من كل وجه، ولا على عبدين بتجلٍ واحد للوسع الإلهي، ولنص: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29].

قال سيدي محمد القونوي - رحمه الله: المعيد هو الذي يعيد عين الفعل من حيث ما هو خالق؛ لأنه ليس في العالم شيء يتكرر، وإنما هو أمثال تحدث، وأعمال توجد، وخلق يُجَدَّد، فإن الحق إذا فرغ من خلق شيء عاد إلى خلق آخر، لا أنه يعيد عين ما ذهب، فإنه أوسع من ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[الروم: 27]، يريد به الفعل لا المخلوق، فإن عين المخلوق مازال عن الوجود حتى يعيده، وما عليه أهل الظاهر من إعادة الأجسام والنفوس في الدار الآخرة، ليس ذلك عند أهل الكشف، وإنما هو انتقال من موطن الدنيا إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى المحشر إلى الجنة أو إلى النار، فالحق لا ينال بخلق ويعود إلى الخلق، فهو المبدئ لكل شيء، والمعيد لشأنه، كما يحكم الوالي في أمر ما، فإذا انتهى عين ذلك =

واعلم يقينا أنَّ البدء وإن كان الأول فليس هو المراد من الأمر، لكن هو المراد لغيره؛ إنما المراد لنفسه هو العود وما فيه، وإنما البدء بما فيه طريق إليه، وقنطرة يعبر عليها نحوه، والعود هو الباقي بإبقاء المعيد الحق، والبدء هو الموصوف بالفناء، وإلى العود هو المصير والمنتهى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد:26].

وللبقاء خلقنا، لكن ذا الكبرياء والعظمة والجبروت - جل وتعالى - حكم علينا بالموت والفناء فرقًا بين صفة المالك والمملوك، والرب والمربوب، ولإتمام حكمته وإكمال كلمته في رجوع أواخر الحكمة على أوائلها، وانعطاف عودها على بدئها لما كان ﷻ الحي الدائم الباقي، وصفاته باقية ببقائه، لم تزل بأسمائه وصفاته ولا يزال، وكانت الخليقة فعلاً له، موجودًا عن أسمائه وصفاته الصادرة عن قدرته، وعلمه المرتب على حكم مشيئته وحياته الدائمة، أوجب ذلك اتصاف مفعوله بالبقاء؛ لاتصاله بما هو باقٍ، ورجوعه إلى من لم يزل ولا يزال، ولكنه عبد مذلّل وموجود عن أول كل كائن بعد أن لم يكن؛ فأوجب إعدامه بهذين الحكمتين، ولما كان موجودًا عن أسمائه وصفاته أوجب بقاءه؛ لاتصاله بما هو باقٍ، فأوجب إعادته ليبقيه بإبقاء من عنده، فلا يفنى بعدها أبدًا، والله خير الحاكمين.

والمبدئ يفهم منه على الأغلب التكثير لأنه من أبدأ، أي: أنه أدخل المفعول في البدء والبداية، وليس كذلك قولهم: بدأ يبدأ ذلك إخبار عن البداية فقط، وزاد عليه بقاء أفعل بالإعلام، بأنه أدخل المبدأ في البدء كأنجد وأتهم، أو أعطاه ذلك كأنبل وألبن،

=

المحكوم عاد في أمر آخر، فحكم الإعادة باقٍ في فعل الحاكم وحكمه، لا في المحكوم، انتهى.
وقال الجيلي - رحمه الله تعالى - في «كمالاته»: اسمه المعيد، هو الذي أخفى حكم الكثرة في الأحدية المحضة حتى لا يظهر فيها حق، ولا خلق، ولا صفة، ولا نعت، ولا اسم، بل ذات مجردة، لا ظهور لها فيها بحق، ولا بطون، ولا نسبة، ولا إضافة، وقد تكلمنا على الأحدية في كتابنا الموسوم بالإنسان الكامل، بعبارة مبسوطة: واسمه المعيد من أسماء الأفعال، وصفته الإعادة، وهي عبارة عن رجوع الصفة إلى الذات والاسم إلى المسمى، والمعلوم إلى العلم والعلم إلى العالم، والمتعين إلى رتبة ألا يتعين، ولهذا قال الجنيد: النهاية هي الرجوع إلى البداية؛ يعني نهاية الإنسان الكامل أن يرجع إلى التجلي هو مجمع البحرين، وحضرة الجمع والوجود، وحقيقة الحقائق التي لا رسم لها، ولا صفة.

ومن الناس من أخذ قول الجنيد ﷺ على ظاهر الأعمال، فقال: نهاية العارف أن يرجع إلى الحق، فيعمل بعمل أهل البداية، وهذا تأويل سائغ، انتهى.

وكما استحق المفعول بوصف البداية أن يكون ذا بداية، حتى لا يخرج عن وصفها الأبد إلى القدم، كذلك استحق المبدئ بوصف الإبداء تجديد الإبداء أبدًا ما أبقاه، حتى لا يخرج عن وصف الإبداء إلى وصف الاستغناء؛ بل حكم البدء جارٍ عليه أبدًا ما أبقاه أبدًا لحكم الإبقاء إلى ما يشاء إبقاءه، فاعلم ذلك.

ولا يكون تجديد الإبداء عليه؛ إلا بتحقيق تجديد الإعدام عليه أو حكمه، كالإبقاء سواء مثلاً أقول: الغذاء يتغذى به متغذيه؛ فيستمر به، فيخلق الله عنه أجزاء في جملة المتغذي بذلك الغذاء، فلو كان كلما تغذى وخلق الله عن ذلك الغذاء أجزاء أبدًا لاجتمع في الجملة ما لا تحتمله، بل سلط على خارج الجسم الهواء، ينشف ما شاء الله إعدامه من تلك الأجزاء، فهذا أبدًا يعدم ويبدئ يعقب هذا، هذا وهذا هذا.

فإن قلت: ما حكم تلك الأجزاء المعدومة في طول عمر بقاء هذا المبدأ المعاد؟ قلنا: قد جاء الخبر الصادق أن الولي في الجنة يجعل على خلق آدم ﷺ ستون ذراعًا في السماء[1]، ولا يكون ذلك إلا بما يناسبه عرضًا، كما جاء: «إن الشقي في النار»- أجارنا الله منها برحمته- يعظم خلقه حتى يكون فخذه الزوراء، وضرسه كجبل أُحد، ومسيرة ما بين منكبيه كذا وكذا، وما كان الله ليعذب أجزاء لم تقترف السوء، ولا عملت بمعصيته، فافهم.

التعبد

جماع التعبد بمقتضى هذين الاسمين الكريمين تحقق حقيقتهما، وطلب مجاري أفعالهما في طرقات حكمته من العالم، وتحصيل الإيمان واليقين بذلك حتى تشاهد الحكمة راجعة أواخرها على أوائلها، كذلك استصحاب الصفات العلا، وتصادق الأسماء الحسنى، وبذلك تشرف - إن شاء الله - على مطالع الدنيا والآخرة، ثم أخذ الزاد والاستعداد لذلك المعاد وخير التقوى، ولا يستقيم لك ذلك حتى تزهد في الدنيا، فتخرب في قلبك، وترغب في الآخرة وتعمر فيه، وهذا الإحصاء لهذين الاسمين الكريمين على التمام، وفقنا الله وإياك لما يرضيه.

ويقرب منه أنه ولي ذلك، لا شريك له.

---

(1) رواه أحمد (231/2، رقم 7165)، والبخاري (1210/3، رقم 3149)، ومسلم (2179/4، رقم 2834)، وابن ماجه (1449/2، رقم 4333).

اسمه المصور ﷻ

صورة الشيء هو موجوده المميز له عن سواه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:11]، فالخلق كما تقدم جمع مواد المخلوق ومتخلقه، رحمًا كان أو غيره، والتصوير جعل إياه على وجود يتميز به من غيره، من تقدير وتخطيط واختصاص بشكل ونحو هذا.

والتصوير قد يكون بمعنى التقدير بوجه وهو التعديل في التصوير، وإذا كان بمعنى الإمالة كان بمعنى: عدل يعدل؛ ولذلك قرئ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:6-8]؛ أي: عدل صورتك خلقها على أحسن التصوير، ومن قرأ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، أراد ما لصورتك، وعدل فيها بها عمّا دونها من الصور إلى أحسن التصوير، وهذا يكون بمعنى الإمالة والإحالة له إلى ما أريد منه، ولذلك قالوا: عصفور صوار، إذا أجاب لإمالته صورته بالمحاكاة إلى الأصوات سواء، يقال من التصوير الذي بمعنى التقدير: صار الرجل، إذا صور، وصار أيضًا بمعنى: حال وذهب نحوه، وأصار: أحال ووجه، ويقال: صور الأمر، أي: قدره، وصاره يصوره، إذا أماله والنعت منه: أصور إذا كان مائل للعنق، وقد صور صورًا إذا أمال، والمصور من التصوير، وهو تصيير الشيء على صورة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:64] أي: قدرها فأحسن تقديرها، والصوار: قطيع من البقر، والجمع: أصورة وصِيران كجبار وكبار، وصيران كغلام وغلمان، وقراد وقردان؛ سميت بذلك لميل بعضها إلى بعض واجتماعها، والصوار أيضًا: قطعة من المسك، سمي بذلك للمعلوم من المسك أن يميل النفوس بطيب أريجه إليه، ويقال: رجل صير شير إذا كان ذا صورة حسنة وشارة ظاهرة، وتجمع صورة على صورة، وقد يتأول عليه قوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل: 87] أي: في الصور.

قالوا: والصور القرن الذي ينفخ فيه، قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب**

الصور قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ»[1].

وقد قيل: إن القرن الذي هو الصور من القرن قرن الأمة، فيمكن أن ذلك القرن سمي قرنًا على العموم، أي: قرن بني آدم أجمعهم، والنفخ فيه هو النفخ في الصور أو في جميع الصور.

اعتباره

ومن الصور ظواهر ومنها بواطن، وهذا على القول بالعموم لها، إذ صورة الشيء وجوده المميزة له من سواه، فالظواهر هي: الأشكال والتخطيط وما تقدم ذكره، والبواطن هي: كيفية تناسق الصفات وكمالها ونقصها وقوتها وضعفها، والعبارة عنها بالقول هو الوصف لها، وقد تقدم القول إيماءً إلى انبساط الوجود، وأن آياته ما تنطبع منه في المرائي والأجسام الصقيلة، وأن ما بطن مرتبط بهذه الظواهر واسطة بين عالمي الملك والملكوت فجمع ذلك كله الصور.

وخلق الله ﷻ جميع الخليقة وأصارها إليه بالحق، الذي أودعها إياه بين الإيجاد وحكم الفطرة بعد إصارته إياها إليه، قبل في يوم البدء وقبل القبل في يوم أزل الأزل؛ فلذلك صمدت وتوجهت نحوه، وبذلك كان التوق منها إليه والإقبال، وجماع التوجه والمعرفة والقنوت له، والإجابة يوم يدعوها فنستجيب له بحمده، وإلى هذه اللطيفة الإشارة لها بقوله ﷻ: ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا**﴾ [البقرة: 260] يريد - والله أعلم - توهم ذلك بإبراهيم؛ بأن تجعل كل طائر من الطوائر الأربعة على معدنه، مرجوعًا إلى ضمن خزائنه من سماء أو أرض، كفى عن الأصول بالجبال، ﴿**ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾ [البقرة:260]، فلما توهم ذلك إبراهيم وقع له اليقين بما أخبره الله، وقال جلّ من قائل: ﴿**وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة:260].

وإنما هي ثلاثة أمثال ضربها - جل ذكره - الأول منها: في إبقاء الحي على حياته، والثاني: في إثبات الرجعة يوم ينفخ في الصور، والثالث: في إثبات إحياء الموتى في حال موتهم، وهو أعسر مفعولات العقل؛ إذ هو جمع بين الضدين إلا على من أحياه الله بروح الإيمان؛ ولذلك قال عز من قائل: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِن**﴾ [البقرة:260]، بل هي

(1) تقدم تخريجه.

حياة باطنة تخلف حياة ظاهرة، كالليل يسلخ منه النهار، والنهار يغشاه الليل وهما حكمان لله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75]. وقد خاطبنا ﷻ اختبارًا منه لنا عن الحق الذي أودعه السماوات والأرض وجميع الخليقة وجوب الإجابة وسرعة كونها عن ذلك، فقال جل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:25].

ثم جعل يُحرّض على لزوم الحق المستودع في الخليقة المعرب في أولي الألباب بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم:43]، و﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا .... ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ....﴾ [الروم:30] المعنى إلى آخره فاحرص أن تكون من العالمين.

واعلم يقينًا أن صورة آدم ؈ وذريته هي التي نشأت إليها معاني التصوير ظاهرًا وباطنًا، وظهر فيها الكمال لاجتماع معنى التقدير فيها وهو العام، ومعنى الإمالة والتوجيه وهو الخاص، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت:44]، ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:64]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، يؤيد صورة الفطرة في كمال حسن الجبلة وقوام الإسلام في كرم الصيغة وبخاصة، فإنما أعرب حسن التصوير وظهر الكمال أوضح بيانه، وتصوير المؤمن لاجتماع القوام فيه ظاهرًا وباطنًا، فمتى لم يكن الإيمان والصورة الباطنة أقبح الصور وأمقتها؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين:5] أي: في حال كفرهم واختيار سوء منزلته. ثم استثنى من أولئك المؤمنين الذين آمنوا بعقولهم واختيارهم؛ فاستقام قوام فطرتهم عقدًا وعملاً، قال رسول الله ﷺ: «**تدخل الجنة أول زمرة من أمتي وجوههم كالقمر ليلة البدر إضاءة، ثم**

الذين يلونهم كأضواء كوكب دري في السماء»[1]، صورت وجوههم على منازلهم في إيمانهم وأعمالهم، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه**»[2].

وحرم الله على النار أن تأكل دارات وجوه الموحدين، وجعل رسول الله ﷺ كفارة من لطم وجه عبده أو أمته عتقهما، تطلّعًا وشوقًا إلى قوله الصادق: «**خلق الله آدم على صورته**»[3].

ثم اعلم - وفقك الله - أن التصوير لا غاية له ولا علم منتهى؛ لعدم الغاية والمنتهى في علم المصور وقدرته ومشيئته، من حيث انفصلت الصور؛ لأنها من صفات الجلال ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88]، ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝**﴾ [الرحمن:27.26]، فلم يفن لذلك التصوير، وأمر بإكرام وجه المؤمن إفاضة من إكرامه ونزاهة سبحات وجهه الكريم.

وفي الكتاب - يذكر أنه التوراة- أن الله لما خلق السماوات والأرض في الستة أيام قال: اخلق بنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا؛ ليتشرف على حيتان البحر وطيور الهواء ودواب جميع الأرض وخشاشها، فخلق الله إنسانًا على صورته ومثاله من حمأ الطين، وأنفس في وجهه نفس الحياة، فصار إنسانًا بنفس حية ذكر وأنثى وبارك عليهما، وجاء: أن موسى عليه السلام لما ضرب الحجر لبني إسرائيل، فتفجر منه اثنتا عشرة عينًا قال لهم: اشربوا يا حمير، فأوحى الله إليه: يا موسى، عمدت إلى خلق من خلقي خلقتهم على صورتي فشبهتهم بالحمير، وهذا كله إنما حقيقته للمؤمن.

وقال بعض العارفين رضي الله عنه: ثبتوا الرؤية حتى تخالج قلوبكم التشبيه، فإذا خالج

---

(1) رواه ابن أبي شيبة (271/7، رقم 35996)، والبخاري (1186/3، رقم 3074)، ومسلم (4/ 2178، رقم 2834). وأخرجه أيضًا: أحمد (230/2، رقم 7152).

(2) رواه عبد الرزاق (444/9، رقم 17951)، وأحمد (93/3 رقم 11904) وعبد بن حميد (ص 283 رقم 900)، وأبو يعلى 400/2، رقم 1179)، والبزار كما في كشف الأستار (441/2، رقم 2062)، والدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (86/5، رقم 4759). قال الهيثمي (106/8): فيه عطية العوفي ضعفه جماعة ووثقه ابن معين وبقية رجاله رجال الصحيح.

(3) تقدم تخريجه.

قلوبكم التشبيه فانفوا التشبيه وأثبتوا على الرؤية، ونزهوه عن الأشباه والأشباح في الذات والفعل، حتى كأنه يخالج قلوبكم التلاشي؛ فإذا خالج قلوبكم التلاشي، فانفوا عنه التلاشي، فإنه قائم تام عالم حكيم.

وحديث يرويه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يقولن أحدكم لأحد: قبح الله وجهه، ووجه من أشبه وجهه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»[1].

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن**»[2].

وعن أبي موسى قال: كنا مع رسول الله ﷺ غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: قد لامنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يأيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعوا أصمًّا ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا بصيرًا**»، وفي أخرى: «**سميعًا قريبًا إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[3].

خطب رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «**سميع**»، وأشار إلى سمعه، و«**بصير**» وأشار إلى بصره، وقال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل جبل أُحد**»[4].

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها في جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم: الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب**»[5].

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد (172).

(2) رواه الدارقطني في الصفات (36/1، رقم 48). وأخرجه أيضًا: عبد الله بن أحمد في السنة (1/ 268، رقم 498). واللالكائي (423/3، رقم 716)، والديلمي (16/5، رقم 7309).

(3) رواه البخاري (1091/3، رقم 2830)، ومسلم (2076/4، رقم 2704)، وأبو داود (87/2، رقم 1526). وأخرجه أيضًا: أحمد (394/4، رقم 19538)، والنسائي في الكبرى (398/4، رقم 7679)، وأبو يعلى (231/13، رقم 7252)، وابن أبي عاصم (274/1، رقم 618).

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.

وعن جابر بن عبد الله قال: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، بلغك أن الله يحمل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقوله[1]، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر:67]، وقال جل قوله: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾ [المائدة:64].

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[2]، وكان يقول: «**إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تزال النار يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض تقول: قط.. قط**»[4] أي: حسبي.. حسبي.

سئل بعض العلماء بالله ﷻ عن اختلاف العلماء في الذات، فقال: على قدر مقاماتهم تكلموا فيه، ومثلهم في ذلك مثل واحد عرف النطفة ولم يعرف العلقة، وآخر عرف النطفة والعلقة ولم يعرف المضغة، وآخر عرف الثلاثة ولم يعرف العظام ولا اللحم، وآخر عرف هذا كله ولم يعرف حتى بلغ الروح والنفس، فهؤلاء تكلموا على قدر ما اختصوا به من معرفة الذات، وقال المشركون لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله ﷻ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ**

---

(1) رواه البخاري (4811)، ومسلم (7223).

(2) رواه الترمذي (2290).

(3) رواه أحمد (112/3، رقم 12128)، والترمذي (448/4، رقم 2140) وقال: حسن. والحاكم (1/ 707، رقم 1927) وقال: صحيح. وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (168/6، رقم 30405)، وأبو يعلى (360/6، رقم 3688)، والضياء (211/6، رقم 2222)

(4) تقدم تخريجه.

﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1-4].

وإياك - وفقك الله - أن يصدك عن الصعود في درجات المعرفة نزعة شيطان، أو قول تائه في الهذيان يظن أن العلم انتهى حيث انتهى هو منه، يقول: هذا تحديد، وتشبيه نزعة من ضاق عليه السبيل، وكذب القرآن، وعارض الكتاب والسنة، وما أجمع عليه أكابر علماء الأمة هو ﷻ وصف نفسه بكلامه وأوضحه رسوله بتبيانه، كيف يجد موسع كرسيه السماوات والأرض؟ وكيف يشبه من نوره ما لو كشف لأحرقت سبحات وجهه، وانتهى به بصره من خلقه؟ أم كيف يوصف بالأقطار من قبضته السماوات والأرض؟ هيهات ضلت فيما هنالك مكائد الشيطان، وبطلت في حقه زخارف المبطلين.

فإن كنت -وفقك الله- ممن عوده الله -جل ذكره- الهداية في مفاوز هذه المعارف، وأيده من علمه، وأيده بجناحين يطير بهما على حد هذا الصراط المستقيم فدونك، فهو والله الحق وعين الحق وعين اليقين، وبه جاءت الكتب كلها والكتاب المهيمن النور المبين، وهو مراد الرسول ﷺ، وإلا فاعلم يقينًا واعتقد: أن الله ربك وحده لا شريك له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11] خلقك وصورك وعدلك ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:8]، وأنه الواحد الأحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4.3]، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الحق العلي، ثم اسأل الله ﷻ الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فهو أقرب للسلامة وأدنى من ألاَّ ترتاب، ثم اعمل صالحًا، فذلك سبيل مبلغ إن شاء الله.

وإن من الإلحاد في الأسماء الزيادة على ما أذن فيه، أو النقصان عما أمر به، فالأول تشبيه، والثاني تعطيل؛ فإن المشبه وصفه بما لم يأذن فيه، والمعطلة جحدوا ما اتصف به، إنما ديننا في معرفتنا ربنا - عز جلاله - طريق من طريقين، لا تشبيه ولا تعطيل، إثبات ذات غير مشبه بالذوات ولا معطلة بالصفات، هنا رق الصراط ودق حتى صار أرق من الشعرة، وأحد من الموسى، وتفاوت الناس في المرور عليه؛ فمن مسرع كطرفة العين وخطف البرق، ومن بين زاحف عليه مضطرب ومحتضن للصراط، جعلنا الله وإياك من السابقين في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه لا شريك له.

ثم يرجع الكلام بنا إلى نسقه في أن التصوير لا غاية له، والمعلوم المستقر في العقول أن الأصل من المصورين نفس واحدة، خلق الله منها زوجها، ثم بثّ منها رجالاً كثيرًا ونساءً، لم يشرك قط في صورة واحدة شخصين، ولا تعجزه صور تخترعها ولا أشكال يبدعها من المخلوقات كلها، من ذوات الأشكال والصور بذاتها منه وتماماتها تشكيلاً وتصويرًا عليه، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لسوقًا، ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء، من أحب صورة دخل فيها**»[1]، فكان هو تلك الصورة، وهو من الحق الذي ينشأ بنشء العالم، وكل ذلك على أن الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - لا يبدو في الجنة لأوليائه بمراء واحد مرتين إلا ما شاء الله من ذلك، قال الله ﷻ: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ [النحل:31].

التعبد

قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:78]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:52]، ولهذا نظائر في الكتاب العزيز، فهو جل ذكره المنفرد بالتصوير والتقدير، لا كسب لتكليف في حالة شيء من ذلك، خلا ما كلف العبد من استصلاح معاني صفات نفسه وإحالتها إلى المرضى، وهي الصورة الباطنة في يدي أمره، المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4].

فعليك - وفقك الله - بالضراعة إلى المصور في التأييد على ذلك والتوفيق إلى ما يحبه ويرضاه منه، وإدامة الشكر لمن صور فأحسن وخلق فأتقن، ولمن شاء لكان غير ما به أنعم، لكنه السابق بالإحسان إلى عباده قبل استحقاقهم، والقائم لهم بذلك من ورائهم، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

---

(1) رواه هناد في الزهد (52/1، رقم 9)، والترمذي (686/4، رقم 2550) وقال: غريب. وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (156/1، رقم 1342). وأخرجه أيضًا: البزار (282/2، رقم 703).

اسمه الرَّزَّاق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

الرزَّاق مبالغ من رازق، تقول من ذلك: رزق الله العباد يرزقهم رزقًا فهو رازق ورزّاق، وارتزقت الله ﷻ: ابتغيت عنده الرزق، ولذلك قالوا: ارتزق الجند إذا أخذوا أعطياتهم، والرزقة: المرة الواحدة من العطاء.

ومعهود الرزق أنه من الجنة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:82]، يقول وهو أعلم: نحن نفتحه عليكم من الجنة وتنسبونه إلى النجوم والأنوار، ومعنى إضافة الرزق إلينا - والله أعلم - عن قوله المتقدم لأبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35].

وكنا نحن في جملتيهما فذكرنا بذلك، كما ذكرنا بجملة إيانا في سفينة نوح ﷺ حيث قال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [الحاقة:11.12]، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:12]، فمعنى الآية - والله أعلم - تجعلون رزقكم الذي خرجتم عنه وكنتم منه لترجعون إليه، وإن آمنتم وصدقتم تكذبون به، فتحرمون من أجل تكذيبهم الرجوع إليه، فيكون بدلاً من ذلك البعد عنه وسوء المصير، صدق الله وهو أصدق القائلين.

اعتباره

اعتبار اسمه الرازق والرزاق سبيله سبيل اعتبار اسم الخالق والخلاق في فعله في الذرء، فالمخلوقات مختزنة في الأرزاق، والأرزاق مختزنة في خزائن السماوات والأرض، ومقاليد السماوات والأرض يبدأ الخالق الرازق ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:22]. وكما أخرج ﷻ وتعالى البرايا من مستقرها إلى مستودعها، ثم إلى مستقرها، ثم إلى دار الدنيا على ولاء ذلك، كذلك أخرج الأرزاق والأعمال وجميع ما قدره على ما رتبه في التقدير في الوقت الذي وقته في التأجيل، وكما خبأ البرايا في الأرزاق، كذلك قد يستخزن الأرزاق في أيدي البرايا وقدرها وإراداتها وصفاتها؛ لأنه المالك الحق يملك السمع والأبصار والأفئدة، ويقلب

القلوب ويقبض في ذلك كله ويبسط، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:123]، فما من معطي ولا مانع إلا بإذن من المعطي المانع الحق ﷻ. وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق والخلق، كما قرن الإحياء والإماتة معًا وتوحد في فعله إيجادًا وتدبيرًا، ولم يجعل لنفسه في ذلك شريكًا ولا ظهيرًا، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: 40]، وقال جل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:3].

فالرازق قائم بالملك والتدبير البسط والتقدير، كما هو المحيي والمميت قائم بالإحياء والإماتة، عنده خزائن كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، ولا ينزله إلا بقدر معلوم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:194]، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت:17]، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له.

ثم اعلم أن الرزق هو الحلال لا غير، والحرام والمحظور كله اسمه المتاع، قال الله ﷻ حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا....﴾ [البقرة:126]، وكذلك يأتي ذكره في القرآن العزيز من تتبعه وقف عليه، ولولا مخافة الإطالة لأوسعنا فيه المقالة لكن سيذكر أولو الألباب، والله ﷻ كلامًا سبق عنده لوقوع الأحكام من ثواب وعقاب، ينزل كلاً حيث أنزل نفسه من ابتغاء حلال أو حرام، ويتسع الخطاب فيما هذا سبيله، أعني: الطرقات مجاري الأرزاق في سبل سلوك الخليقة من خزائن الخالق، ثم في تقلبها الكسب بين حلال وحرام، وإنما غرضنا التنبيه على الأغراض والإشارة إليها بالاعتبار، والله يهدي ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:27].

التعبد

إن من أوجب على من عرف توحيده ﷻ يقسم الأرزاق، وأن السماوات والأرض وما بينهن وما منهن ذلك عباد له مسخرون وخزائن مضنون، وأن كلاً مقدر مقضي وكل

مقضي منفذ إلى أجله لا محالة، وموضعه ولا يعدوه ولا يخطئه كما لا تخطئه منيته وأجله الذي أوجده فيه، ولا يتقدم شيء من ذلك ساعة ولا يتأخر؛ وإنما الأسباب من التكسب والأيدي، وجميع الخليقة وصفاتها ظروفًا أودعها الله العطايا والأرزاق.

والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هو الأول في التصريف والآخر في التقليب، وينبغي المتصرف في طلب الرزق أن تكون عين قلبه ناظرة إلى القسّام لا إلى القسم؛ ليرضى بالقسم ويقنع بالمقسوم مع تحرك جسمه في التقليب المعلوم الذي وجه فيه، وليحذر أن يخرج في ذلك إلى نية التكاثر وسبيل التفاخر، أو يدخله الحرص إلى طلب ما ذمه العلم وقبحه الشرع، أو يتسخط الأقدار إذا لم تواته على ما يريده، ولتكن قلة الشيء عنده آثر من كثرته؛ فإنما له من ماله ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فمستودع عنده، وملكه خزانة لمختزنه حتى يأخذه منه عند حلول أجل ذلك.

واعلم أن الله خصّ الأغنياء بوجود الأرزاق وخص الفقراء بوجود الرزاق:

لَــو أَنَّ كــلَّ العَالمــين مُعَانِــدي   مَـا ضَـرَّنِي إِنْ كُـنْتَ أَنْـتَ مُـسَاعِدِي

قال الله ﷻ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:17]، فمن طلبه عند سواه حُرمه، وإنما يصل من ذلك إلى ما يبذل له عوضًا من رزقه بمتاع الدنيا، سريع ذهابه وشيك زواله، باقٍ تبعته وحسابه، فاسأل ربك - وفقك الله - دقيق أمورك وجليلها، وأنزل به فاقتك، واشك إليه بثك فهو أعلم بك وأولى وأرحم، ألا ترى إلى موسى عليه السلام سأل الله ربه الرؤية وهي أجل مسئول وأكرم منال، وسأله أكلة حين احتاج إليها، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:24].

وذكر عن بعض العلماء، وكان ممن سمت به همته أنه قال: إنما يطلب الحقير من الحقير، ولا أطلب من مولاي غير مولاي، وهذا لمن تناهى زهده فهان عليه ما سوى الله - جل ذكره - فهو لا يطلبه منه مقامه هذا، ولا يطلبه من ربه غيره اعتزازًا بربه، وإلا فهو يملك الخزائن كلها من صغير الأمور وكبيرها، وقد فتح الله ﷻ باب السؤال ووعد الإجابة، وأيضًا فطلب الحوائج من غيره ذل، وهو أحق من تذلل إليه، ومن عرف الله فهو أولى من تعرف به، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة:10].

ثم اعلم أنه ليس الرزق هو الطعام والشراب فقط ذلك طعام الأجسام، وهو يرزق القلوب والنفوس أرزاقها من المعرفة والعلوم وصفات الإيمان واليقين، ويقبض في ذلك ويبسط، وللذوات طعام وشراب كالأجسام، قال إبراهيم ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى

فَهُوَ وَٱلَّذِى * يَهْدِينِ هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:78. 79]، وقال رسول الله ﷺ وقد نهى أصحابه عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل يا رسول الله، قال: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»، وفي أخرى: «**أبيت أطعم وأسقى**»، وفي أخرى: «**إني أظل يطعمني ويسقيني**»[1]، وعلى قرب الذوات من ربها وارتياحها بالإيمان والمعرفة، والعمل بطاعته يكون غناؤه عن الطعام والشراب، وهذا أمر حق ينشأ لدن قوله ﷺ: «**الكافر يأكل في سبعة معاء، والمؤمن يأكل في معاءٍ واحد**»[2]، ثم يصعد ذلك إلى الموقن إلى الصديق إلى النبي ﷺ إلى الملك، بلغ الله بنا وبك إلى أرفع الدرجات إنه ولي ذلك، لا شريك له.

اسمه الفاتق واسمه الراتق سبحانه وله الحمد

يقال من ذلك: رتقت الشيء أرتقه رتقًا فهو مرتوق، ورتقت الفتق ألحمته ولأمته فارتتق، وجارية رتقاء إذا لم يكن لها خرق في المبال، والفتق الفتح الذي هو ضد السر، يقال من ذلك: فتقت الشيء فانفتق، وفتقت العجين جعلت له فتاقًا وهي الخميرة، والفتاق أخلاط تفتق بدهن، أي: تخلط به، ونصل فتيق الشفرتين إذا كانت له شعبتان، فكان أحدهما فتقت من الأخرى، والفتيق: الصبح نفسه.

اعتباره

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: **﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ....﴾** [الأنبياء:30] إلى آخر المعنى، فذكر السماوات هنا بلفظ الجمع تذكيرًا

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه الطبراني (274/2، رقم 2152) 0

لأهل الإيمان، وذكر الأرض بالإفراد تقديرًا للمكذبين على تركهم النظر والاعتبار، ووصفهم رب العالمين بفعل العبث واللعب واللهو إخبارهم عنه بما ليس به رجوعًا منه بالخطاب إلى ما كان عنه جوابًا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:16. 17] أي: لو كنا فاعلين من لدنا لم يكن إلا الحق هو الحق، وقوله الحق، وفعله الحق، وللحق فعل ما فعل وأوجد ما أوجد.

وذكر السماء والأرض هنا بلفظ الإفراد توجيهًا بذكر السماء إلى العلو وبذكر الأرض إلى السفل، فسرد ما سرد من قول حق وحجج بالغة وبراهين نيرة ونور مبين، ثم صرف وجه الخطاب إلى ذلك المعنى، وجمع ذكر السماوات وأفرد ذكر الأرض، وثنى الضمير في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ إعلامًا بأنه أراد الجنسين، وأنه أراد بخطاب هذا المؤمنين وأهل العلم، يذكرهم بالرتق الأول وفتقه على ما سوف يأتي إن شاء الله.

وذكر إفراد الكفار مع إفراد ذكر الأرض؛ توجيهًا بالخطاب إلى تفريعهم، إذ الكفار لا يرون إلا رؤية الأبصار، يذكرهم بالرتق والفتق الآخرين المعتادين، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:7] فكان ما دون العرش الكريم رتقًا بالماء، إلى أن أمر ﷻ المياه لتحول بعضها من بعض فكان ذلك، وأخلف الماء هواء فكان ذلك من فعله فتقًا لذلك الرتق، ثم خلق السماوات والأرضين في ذلك الفتق على بحورهن، وملأ ما بين ذلك هواء، فهي الآن على ما أوجدهن عليه من فتق بعد ذلك الرتق، وهذا الرتق والفتق مرئي ببصر البصيرة لأهل العلم والإيمان، ثم لا يزال ﷻ يفتق السماء بالماء بعد رتقها بالإمساك عن المطر، ويفتق الأرض بالنبات بعد رتقها بالجدب والهمود، وهذا تراه أبصار الرؤى وهي رؤية قليلة الغناء، ما لم تكن مدركة بالبصائر متصلة بالعبرة من شاهد إلى غائب، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30] إن هذا هو الحق ليس بالباطل ولا اللعب، وأن العود سيكر على هذا البدء لتجزى كل نفس بما كسبت.

والمعلوم من بداية العقول أن الحكيم لا يفعل إلا بحكمة ولحكمة، ولو أن حكيمًا فعل فعلاً لا منفعة له ولا لمفعوله؛ لم يكن حكيمًا في فعله ذلك، وخلق الله - سبحانه وله الحمد - جميع الخليقة؛ ليجود عليهم بأفضاله، ويعود عليهم بالعامة أولاً، ثم ليعرفهم بنفسه وبأسمائه وصفاته، ثم ليأمرهم بحق الربوبية والعبودية وينهاهم، ولو

انقطع الأمر هاهنا ووقف الفعل على هذا لما تم المقصود، وما تحققت الحكمة من الحكيم في فعله ذلك تعالى الله عما يظن به الجاهلون، بل كأن يكون فعله باطلاً بحتًا وعبثًا ولعبًا، إنما تمت الحكمة في الإعادة، وبها صحت في البداية، وبها اتصل الآخر بالأول، والأول بالآخر، فانقسم المآل بالأمر إلى خزائن ثواب وعقاب، هنالك أظهر من وجوده وأفضاله وإنعامه وإحسانه ما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأوهام، للمنصفين له العالمين به العاملين له بطاعته، فوصل لهم جوده بجوده وحنانه بحنانه، وبالضد لمن جهله وجهل عليه، ووصفه بما لا يليق وسماه بغير أسمائه، وجحده وكذب آياته وما جاء من عنده.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115]، فوصف فعله بالعبث لو لم يرجعهم إليه، ثم تعالى عن وصفهم وتنزه عن قبيح افترائهم بقوله الحق: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 39.38]، ثم وصل بذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان:40]، فذكر الرجعة إليه، وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾، ثم قال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:27] سبحانه وله الحمد بعد أن أوجدهم في وجوده أخرجهم من وجوده إلى منعه وسخطه، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه.

اسمه الفالق عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

الفلق الشيء المعجب، لذلك قيل للفجر: فلق، والله ﷻ فالقه: أبداه من فلق

الليل وفلقه، تقول العرب: سمعته من فلق فيك، وضربته فلق مفرقة، والفلق: الكسر واحدها فلقة، وقالوا: شاعر مفلق، أي: معجب، وقد يتركب من حروفه ما هو المعجب الشديد المهيب؛ لذلك قالوا: الفلق والفيلق: الداهية، والفيلق: الكتيبة الشديدة، ومفلاق: الرذل الدنيء، وقيل: الفلق طبق جهنم، أعاذنا الله منها برحمته.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ مِن * ٱلْفَلَقِ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:2.1]، فإن كان المعنى فلق الصبح: أعوذ بفالق الإصباح من شر ما يجيء به الليل والنهار، وإن كان المعنى الفلق الذي هو غطاء جهنم، وكل شر باطن أو ظاهر موجودًا كان أو متوهمًا، فهو أصله وعنه بدؤه وإليه يعود.

وقد أرانا الله ﷻ في هذا الدار من النار الحاضرة آية على النار الغائبة، وذلك أن هذه النار مخبأة في خزائنها باطنة غير ظاهرة الذات، يخلقها الله ﷻ عند اصطكاك الأجرام الصلبة، أو عن شدة ضغط بأجرام معلومة خاصة بذلك مع نداب حك، فتظهر في ظاهر ما تأكله من الأجسام التي هي وقود لها، ثم على قدر تمكنها من الحطب يكون سعيرها ولهبها، حتى يعظم شأنها فلا يدرك لها مدى ولا يدانيها مطاول، وقد كانت قبل غيبًا قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:80].

فالشجر الأخضر المذكور قد لم يكن، فلما كان لم تكن النار حتى ظهر بالقدح من زنادها وبأن تورى بوقودها، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ...﴾ [الأنعام:95]. وكذلك أرانا أيضًا في هذه الدار آية على الجنة دار الحيوان بفلقة الحب والنوى، فيجيء ذلك بعد موته يجعل الميت حيًا، ثم يجعل الحي من ذلك ميتًا، يكون هذا عن هذا وهذا عن هذا، يبطن هذا حين يظهر هذا ويظهر هذا حين يبطن، ثم يحيى هذا وهذا وهي الحياة الآخرة في دار الحيوان، وقد جعل ﷻ جنات ما هاهنا آية على جنات ما هنالك، فيفلق الحب والنوى بعد يبسهما وهمودهما، فيسعى روح النبات في فلقتي الحبة والنوى، فتعود الفلقتان خضراوين وربما كونهما ورقتين، ثم يطلع عن ذلك نبات الشجرة بقدرته، فلا يزال بها حتى تكون شجرة عظيمة تأوي إليها طيور السماء، ويستظل بظلها حيوان الأرض، ويستكنون في رحب مساحة

دوحتها.

وكذلك خلقة الحيوان في الأرحام وغيرها على سبيل هذا التكوين، من كونه مختزنًا في غيبه ومكنونًا في سنته، ألا ترى أن الحياة غيب في الماء، والماء غيب في خزائن، والخزائن غيب في علم الله.

كذلك الآخرة غيب في الدنيا كالمّاء اختزنه، والنطفة ما يكون عنها، وكما تكون الجنات عن الماء ينزله الله من السماء، كذلك لم يكن إلا عن الجنات الماء، كالنطفة كانت عن إنسان، ثم تكون عن النطفة إنسان.

كذلك إذا كان يوم القيامة، وكان حين إتمام كلمته في قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:91.90]، وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ ﴾ [التكوير:13.12].

أمر جل وتعالى برفع الفلق العلوي عن أعلى جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وأوجد الفلق يومئذٍ كما يوجد فلق الصبح حين وجوده، وكما يوجد ضرمة النار عند معالجة الزناد، وكما يوجد الحياة عند وصول رطوبة الماء إلى يبس الحبة والنوى في مستور غيبها من الأرض، وكما يوجد الحياة في ذلك من الكائنات حين حلولها فيما أذن فيه بالحياة، فتسعى نار جهنم - نعوذ بالله العظيم منها - في الأرضين السبع والبحار السبع سعيًا، تصير كل شيء أتت عليه نارًا بإذن ربها، فمياه البحور الحميم والأرضون الإدراك، وموجود جهنم الآن هي حقيقتها وموضع مزيدها، ذكر رسول الله ﷺ النار فأشاح بوجهه، ثم قال: «**تصدقوا؛ فإن أحدكم يقف بين يدي ربه، فينظر أمامه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر أيمن منه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر أشأم منه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر من ورائه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**»[1]، وقال ﷺ:

---

(1) رواه أحمد (256/4، رقم 18272)، والبخاري (2709/6، رقم 7005)، ومسلم (703/2، رقم 1016)، والترمذي (611/4، رقم 2415) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (66/1، رقم 185)، والطبراني (95/17، رقم 225)، والبيهقي في السنن الكبرى (176/4، رقم 7533)، وفي شعب الإيمان (245/1، رقم 259). وابن منده (775/2، رقم 787) وقال: إسناده صحيح والرافعي (104/4).

«**فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حسن، فيقول ربك: وإنه**»(1).

كذلك يأذن الله ﷻ للجنة، فتسعى من موضع حقيقتها من تحت العرش فيما يليها، فتكون السماوات كلهن جنانًا وبحارًا وأنهارًا، وموجودها الآن هي حقيقتها، وموضع مزيدها إلى ما يجعل الله ﷻ في هذه وهذه من المزيد.

التعبد

التعبد بمقتضى هذا الاسم الإيمان به، الجد والاجتهاد فيما ينجي من النار ويورث الجنة، والله ولي النعمة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اسمه الباسط واسمه القابض ﷻ

تقول في القبض: قبضت أقبض قبضًا وأنا قابض، والتقبض: التشنج، والبسط بمعنى: الشرح، بمعنى: ما انفتح بوجد ضد وهو القبض، وهما من المضافات، لا يفهم القبض إلا عن بسط، كما لا يفهم البسط إلا عن قبض، يقال منه: بسط أبسط فأنا باسط.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿**وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ**﴾ [البقرة:245]، وقال: ﴿**يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ**﴾ [الرعد:26]، وقال: ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا * ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا**﴾ [الفرقان:45ـ46]، قد يعبر بالمد عن البسط، غير أن المد المعهود فيما لا عرض له كالخط والسبب والمد وشبه هذا، والبسط معهود فيما له طول وعرض؛ لذلك سمى الله ﷻ الأرض بساطًا وفراشًا ومهادًا، وقال: ﴿**وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا**﴾ [ق:7] عبر عن ذلك عن البعد ما بين طرفيها وعظيم اقتداره، والقبض موجود عن اسم الحكمة، كما البسط موجود عن

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (605/4).

اسم الجود، والقبض أبدًا إليه راجع والبسط عنه صادر.

ويدخل القبض والبسط في جميع التدبير؛ فالمنع كله قبض، والعطاء كله بسط إلا ما استثنى حكم الدنيا والآخرة، فإنه قد يقبض عن عبده محبوباته يبسط له في الآخرة، وقد بسط له ليقبض عنه في تلك، لكن ليس البسط على الحقيقة إلا ما اتصل بوجود الدار الآخرة، وكذلك القبض؛ فاعلمه.

ويمحو الله ما يشاء ويثبت؛ ليتم الكتاب الذي كتبه عنده بالسنة التي سنها بمشيئته، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:39]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:62] ولا تحويلاً؛ فالبؤس قبض والنعيم بسط، كذلك الفقر مع الغنى، والموت مع الحياة، والخوف مع الرخاء، والحزن مع السرور، والغضب مع الرضا، والوحشة مع الأنس، والفيض مع القبض، وزيادة الليل مع نقصان النهار وزيادة النهار، والظل مع الشمس، والجدب مع الخصب، والمحاق كله مع الزيادة كلها، وكذلك الكفر مع الإيمان، والنفاق مع الإخلاص، والشرك مع التوحيد، والمعصية مع الطاعة، والسقم مع الصحة، وأنواع الشر كلها قبض وغلق، وأنواع الخير كلها بسط وفتح، إلا ما شاء الله تعالى من ذلك؛ فليس الفتح والبسط المذكور في قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام:44] ولا المذكور في قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ....﴾ [الزخرف:33] إلى آخر المعنى، يفتح عليهم ولا بسط لهم ذلك عن جوده ﷻ أظهر لهم عاجلاً بمشيئته ما حقيقته مكر بهم، واستدراج لهم لحرمان شاءه لهم في الأجل، ليس المذكور الذي في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:142]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ [ص:34]، وما ذكره عن خطيئة آدم وداود - عليهما السلام - وبلاء أيوب شبه ذلك بقبض في الحقيقة لكن ظاهر ذلك حكمة عاجلة موصلة إلى جوده المتصل لهم في الأجل، ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل

عمران:178] وما كان سببًا لمنال شيء فأحرى به وأولى أن يسمى بمستقبله لا بماضيه، وبما يدوم له لا بما يذهب عنه وينقضي.

إنما البسط على الحقيقة هو المذكور في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:125]، وهذا المذكور في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:125].

واعلم أن القبض حق الله منك والبسط حظك منه، ولا تكون بحظك منه بأولى منه بحقه منك، والله ﷻ إذا قبض قبض حتى لا طاقة، وإذا بسطَ بسط حتى لا فاقة، أعني: أن العبد يتحمل بربه كل شديدة، ويذل له صعب وهو نفسه لا يعلم ولا يقدر ولا يشاء.

وفي الخطاب أيضًا قبض وبسط، فهو - جل وعلا - إذا تكلم تبارك وتعالى من معنى القبض وحَّد نفسه، ولم يدع لسواه دعوى في معنى ولا في وجه، وإذا تكلم عن معنى البسط ذكر الأواسط والأسباب، وعبر بنون الملك والربوبية، كقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة:11]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:37]، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الواقعة: 58. 59]، ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس: 25-31]، المعنى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:17]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19]، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:5]، هذا وشبهه في خطاب البسط اتكالاً على ما في عقود القلوب من علم ومعرفة.

وأما خطاب القبض فمثل قوله تعالى جده: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:42]، ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آل عمران:156]،

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل:65]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19]، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:17]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:30]، لا قوة إلا بالله هذا، وشبهه في القرآن كثير من الخطابين قبض وبسط.

التعبد

جملة التعبد بمقتضى هذين الاسمين الكريمين بعد تعلم علمهما، وطلب اليقين بمعرفتيهما الرضا بالقضاء، واجتناب الضجر في حال القبض، والتحرز من مفارقة الأدب في حال البسط وهو الإدلال، فالله غني عنك وعمّا يكون منك من عمل، وهذا هو الذي خشيه الأكابر وأهل القرب من البساط والإنس، والجناية في حال البسط، والشكاية في حال القبض، وكثيرًا ما ذم هذا الخلق القرآن، فاحذره جهدك، والله ولي التوفيق وهو حسبنا الله ونعم الوكيل[1].

---

(1) قال سيد الطائفة الجنيد البغدادي -قدس الله سره النادي: الخوف يقبضني والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني إذا قبضني بالخوف أفناني عني؛ وإذ أبسطني بالرحيل ردني عليَّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا أفرقني بالحق أشهدني غيره فغطاني عني فهو في كل ذلك فحركي غير مسكني، وموحشي غير مؤنسي لذوق طعم وجودي فليته أفناني عني فمتعني أو غيبني فارجعني، انتهى.

وقال الإمام السهروردي -قدس الله سره- في «عوارف المعارف»: وهما حالان شريفان، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:245] وقد تكلم فيهما الشيوخ، وأشاروا بإشارات هي علامة القبض والبسط، ولم أجد كشفًا عن حقيقتهما؛ لأنهم اكتفوا بالإشارة، والإشارة تقنع الأهل، وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ومحب لسبط القول فيه.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم، ووقت محتوم لا يكونان قبله، ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة، فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء، وقد يجد شبه حال القبض، وحال البسط ويظن ذلك قبضًا وبسطًا وليس هو ذلك؛ وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضًا، واهتزاز نفساني، ونشاط فيظنه بسطًا، والهم والنشاط يصد، وإن من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، وما دامت صفة إلا مادية منها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهمم، وهج ساجور: هي خشبة تجعل في عنق الكلب، =

يقال: كلب مسجورًا مختار، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال، وذا قلب، وذا نفس لوامة، ويتناول القبض والبسط فيه عند ذلك؛ لأنه ارتقى من مرتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان، وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطي: يقبضك عمالك ويبسطك فيها له، وقال: النور يقبضك إياه ويبسطك لإياه، واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط والظهور صفة القلب وغلبته، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها؛ فصاحب القلب تحت حجاب نوراني بوجود قلبه؛ كما أن النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه؛ فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال، ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القلب حينية، ولا ينبسط مادام متخلصًا من الحجاب النوراني الذي هو القلب، ومتحققًا بالقرب من غير حجاب النفس، والقلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص الفناء والبقاء فلا قبض، ولا بسط.

قال فارس: أولاً القبض، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقع في الوجود، فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم أن القبض أن يكون عقوبة الإفراط في البسط، وذلك إن الوارد من الله يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحًا وفرحًا واستبشارًا، فتسترق النفس عند ذلك وتأخذ نصيبها؛ فإذا وصل أثر ذلك الوارد إلى النفس طفت بطبعها، وأفرطت في النفس حتى شاكل البسط نشاطًا فتقابل القبض عقوبة، وكل القبض إذ اقتبس لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها، ولو تأدبت النفس وعدلت، ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ودوام روحه وأنسه.

ورعاية الأول الذي يسد الباب القبض تلقي من قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:23] فوارد الفرح مادام موقوفًا على الروح والقلب لا يكيف، ولا يستوجب صاحبه؛ سيما إذا لطف الفرح بالوارد بالإيواء إلى الله، وإذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تطلعت النفس وأخذت حظها من العرج؛ وهو الفرح بما أتى الممنوع منه، فمتى ذلك القبض في بعض الأحايين، وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض؛ ثم الخوف والرجاء لا يعد منهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة؛ لأنهما من صورة الإيمان فلا ينعدمان، وأما القبض والبسط فينعدما عند صاحب الإيمان؛ لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب؛ لتخلص من القلب، وقد على الباطن قبض وبسط، ولا يعلم سببهما ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم الحال ولا علم القيام، ومن أحكم علم الحال والقيام لا يبقى عليه سبب القبض والبسط، وربما كان يشتبه عليه سبب القبض والبسط ويشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لا يقدح من جوهرها نار توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط، وربما صار ليل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه تكون نفسه المطمئنة بطبع القبض، فيجري القبض والبسط في بعض المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط، انتهى.

=

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة:245] وكل منهما يذم، ويحمد بالاعتبار، فإذا قبضك إليه وبسطك له حمد، وإذا قبضك عنه وبسطك لغيره ذم، وإذا كان تجلي الحق جل جلاله على القلب باسمه القابض ضاق عن كل شيء، وإذا تجلى عليه باسمه الباسط اتسع فوسط كل شيء، ولما كانت هذه الدار دار عصر وضيق لم يدم بسطها، ولا قبضها، وأما الدار الآخرة فلاتساعها وعدم تناهيها دام بسطها بلا حد؛ إذ لا حد لها وكل محدود محصور مقيد، وهذا لا ينفك عنه القبض والمطلق بعكسه.

وصاحب البسط من يسع الأشياء ولا يسعه شيء، وفي الحكم العطائية: قبضك كيلا يبقيك مع البسط، وبسطك كيلا يتركك مع القبض، وأخرجك عنهما كيلا تكون لشيء دونه، العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل البسط، تأخذ النفس فيه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه، انتهى.

وقد قال بعض العارفين: القبض للأرواح، والبسط للارتياح، والقبض حق الحق منك، والبسط حظك منه، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك، وقال آخر: اجلس على البساط، وإياك والانبساط.

وسئل بعض المشايخ عن تلك الزلة فقال: انبساط مع الحق من غير أدب، انتهى.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي -قدس الله سره ويتزايد قربه: أيسره القبض والبسط قبل ما يخلوا العبد عنهما، وهما يتعاقبان؛ كتعاقب الليل والنهار، والحق يقتضي العبودية منك فيهما، فمن وقته القبض فلا يخلوا إما أن يعلم له سببًا أو لا، وأسبابه ثلاثة:

ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو نقصت لك، أو ظالم يؤذيك في نفسك، أو في عرضك، أو ينسبك إلى غير دين، فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب؛ فالعبودية أن ترجع إلى العلم مستعملاً له كما أمرك.

أما في الذنب: فبالتوبة، والإنابة، وطلب الإقالة.

وأما فيما ذهب عنك من الدنيا، أو نقص: فبالتسليم والاحتساب.

وأما فيما يؤذيك به ظالم: فبالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان: ظلم غيرك، وظلم نفسك، فإذا فعلت ما ألزمت من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تصفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك، فتدعي له فيستجاب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رحم الله بك من ظلمك، وتلك درجة الصديقين الرحماء ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159] وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببًا فالوقت وقتان: ليلي ونهاري، والقبض أشد شيء في الليل، فإذا ما ورد عليك القبض بغير سبب تعلمه فالواجب السكون، والسكون عن ثلاثة أشياء:

عن الأقوال، والحركات، والإرادات، فإن فعلت ذلك فعل قليل يذهب الليل بطلوع نهارك، أو يبدو نجم تهتدي به، أو قمر تستضيء به، والنجوم: نجوم العلم، والقمر: التوحيد، والشمس: شمس المعرفة، فإن تحركت في ظلمة ليلك فقل ما تسلم عن الهلاك، واعتبر قوله تعالى:

=

اسمه الرافع واسمه الخافض جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال من ذلك: يرفع فهو رافع، وخفض يخفض فهو خافض، والمفعول منهما مرفوع أو مخفوض، وهما من المضاف، لا يفهم الرفع إلا من الخفض، ولا الخفض إلا من الرفع، ومقتضى هذين الاسمين الكريمين خاص من مقتضى اسمي الباسط القابض؛ إذ خاصة الرفع في المنازل والمراتب، قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:32]، ففي القسمة كان القبض والبسط، ثم قال جل قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:32].

فهذه المراتب والمنازل ويعم الرفع والخفض الدنيا والآخرة، كما تقدم في

=

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص:73] فهذا حكم العبودية في القبض، وأما من كان وقته البسط فلا يخلو إما أن يعلم له سببًا أو لا، والأسباب ثلاثة:

الأول: زيادة في الطاعة، أو نوال من المطاع؛ كالعلم والمعرفة. **والثاني:** زيادة من دنيا بكسب، أو كرامة، أو صلة. **والثالث:** المدح والثناء عن الناس، وإقبالهم عليك، وطلب الدعاء منك، وتقبيل يدك، فإذا ورد عليك البسط من هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترى المنعة والمنة من الله تعالى عليك، واحذر أن ترى شيئًا من ذلك من نفسك، وحضها أن تلازم خوف السلب مما أنعم الله به عليك؛ فتكون ممقوتًا هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى، وأما الزيادة من الدنيا فهو نعمة من الله أيضًا كالأولى، وخف مما بطن من آفاتها. وأما ثناءهم عليك فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستر الله به عليك، وخف منه تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك، فيمقتك أقرب الناس إليك، فهذه آداب القبض والبسط، وبالله التوفيق. وأما البسط الذي لا تعلم له سببًا فحق العبودية فيه ترك السؤال، والإذلال، والصولة على النساء والرجال، اللهم إلا أن تقول: رب سلم إلى الممات، فهذه هذه إن عقلت والسلام، انتهى.

القبض والبسط، قال الله جل قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:21].

ومقتضى الرفع والبسط ليمينه المباركة، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه**»[1]، وفي أخرى: «**يرفع القسط بيمينه وفي يده الأخرى الخفض**»[2]، والرفع الحق هو رفع الحق، قال الله ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:11].

وقال يخاطب رسوله ﷺ والمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:139] والله معكم، أي: لا تحزنوا لما أصابكم من قضاء ظاهره خفض وقبض، فإن باطنه علو وبسطه ورفعة، وحسبكم أن الله معكم هو المؤمن وأنتم المؤمنون، يرفع من يشاء بجوده وبفضله ويخفض من يشاء بحكمته وعدله، رفع الحق وحزبه وخفض الباطل وصحبه، ثم لا يصح التحقق في هذا المقام إلا مع استشعار وقوع البلوى، وأن يرى نفسه مستوجبًا لوقوع امتحان المولى، يدور ذلك من حكمه على تدوار دوائر من حكمته، فمنهن صغار قريبات المنتهى، ومنهن كبار بعيدات المدى، والله يحكم لا معقب لحكمه، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ فمن خرج من النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران:185].

وإنما المشرّف المكرّم والمعلى المرفع من رفعه الله بتوفيقه وأيده بتصديقه، وهداه إلى سواء طريقه، كمن هو: «**أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**»[3].

---

(1) رواه مسلم (161/1، رقم 179)، وابن ماجه (70/1، رقم 195)، وأحمد (405/4، رقم 19649)، وأبو عوانة (127/1، رقم 379)، وابن حبان (499/1، رقم 266)، والطبراني في الأوسط (139/6، رقم 6025).

(2) رواه ابن منده في الإيمان (792).

(3) رواه البخاري (1057/3، رقم 2730)، وابن ماجه (1385/2، رقم 4135)، وابن حبان (12/8، رقم 3218)، والبيهقي (159/9، رقم 18279).

وإنما المخفوض حقًّا والمرزأ حتمًا من انقطع من ربه، وأخرجه عن دار الدنيا أجله، وورد على الآخرة، وقد خانه أمله وانقطعت عنه حياته، ذلك الذي تنكبه التوفيق، وأدركه الخذلان وأسرته نفسه، وصار من حزب الشيطان، إن كان مع نفسه لم يجد خيرًا من قلبه، وإن رجع إلى قلبه لم يجد خيرًا عند ربه، وإن رجع إلى ربه ألفاه قد أقصاه يبعده وسد دونه سبل قصده، فهو بالهجران موسوم، وبين العذاب والأشغال مقسوم، يبيت في قبره ويصبح على حسرة.

اسمه المعزُّ واسمه المذلُّ عزّ جلاله

يقال من ذلك: أعز يعز إعزازًا فهو معز، وأذل ويذل إذلالاً فهو مذل، ولا يفهم الإعزاز إلا من إذلال، كما لا يفهم الإذلال إلا من إعزاز.

وخاصتهما من اسمي الخفض والرفع أن الإعزاز والإذلال في النفوس والأحوال، والخفض والرفع في المراتب والمحال، والعز والذل موجودان في وجد المعزوز أو المذلول، والإعزاز والإذلال يكونان في الدنيا وللآخرة، وكما تقدم ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:185]، بل عز الدنيا وذلها معرضان إلى التحول في الآخرة إلى ضدهما، كرفعهما وخفضهما وقبضهما وبسطهما، وأعز العز وأعرفه في الحقيقة ما وجده وأوجده باسم تبارك وتعالى، وبالإيمان واليقين والتقى والزهد وسلامة النفس والبراءة من اتباع الهوى، والانقطاع إلى ذي العزة والكبرياء، والغناء به من كل غير وسوى.

اسمه المعطي والمانع تبارك وتعالى

يقال منه: أعطى يعطي إعطاءً وهو العطاء والمفعول مُعْطَى، ومنع يمنع منعًا، فهو

مانع وهو المنع والمفعول ممنوع.

وخاصتهما من اسمي القبض والبسط أن العطاء خاص بوصف المعطي، فكأن الله ﷻ بسط ثم أعطى، أي: جعل المعطي يتناول ذلك العطاء، يقال من ذلك: عطوت الشيء أعطوه إذا تناولته، فوصف نفسه ﷻ مع قدرته على البسط والقبض بالقدرة على أن يخلق للمعطي قدرة على تناول ذلك العطاء، ويوجد له في باطنه قبولاً منه، وذلك خاص للمعطي الحق دون غيره من المتصفين بمجاز صفة الإعطاء، وهذا موجود في صفة القهر واسم القاهر ﷻ، وذلك كله إثبات لصفة الوحدانية، وأنه لا يفعل فعل الله غير الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

اسمه الضَّار واسمه النافع عز جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته

الضر والنفع معروفان ضدان مضافان لا يُفهم أحدهما إلا من قرينة، وإثبات الألف واللام اللذين للتعريف في كل اسم من هذه الأسماء المقترنة إشارة إلى التوحيد بكلتي الجنتين وإثبات التفرد بكلا الفعلين، والقدرة على خلقه الزوجين، وأن كل شيء في قبضته ومنفذ بحكم تدبيره عن قضائه ومشيئته، كمن جعل له من عباده جزاء ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:15] ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:16]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:99]، واحدًا فخلق كل شيء، فكذلك هو الواحد الحق، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:2]، هو الذي استودع العقاقير منافع الأدوية ومضارها، واستودع الأمانة في الموت، واستودع الألم في الضرب وجميع المؤلمات، واستودع الشبع والذي في ذوات المطعومات والمشروبات، واستودع التنفيذ كله في التدبير، وافتتح مغاليق جميع ذلك ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾

[يس:83]، فلا يصدر صادر من ذلك كله؛ إلا عن إذنه وحكمه، وعونه على ذلك وخلقه له واختراعه إياه، وكما خلق العالم على ما هو عليه نضده على هذا التنضيد، الذي لا مزيد في العقول عليه.

كذلك لو شاء ﷻ وتعالت قدرته ومشيئته أن يسلك المضار والمنافع غير ذلك من التدبير غير مسالكها، وتجريها على غير مجاريها، وينضدها على غير هذا التنضيد، ثم ينفذها بالتدبير على ذلك فعل فكان لحرق بمائه الآن يبرد ويبرد بمائه، الآن يميت ويميت بمائه الآن يحيي ويجوع بمائه، الآن يشبع ويشبع بمائه، الآن يجوع ويروي بمائه، الآن يعطش ويعطش بمائه، يروي ويسلك الأمور كلها بالتدبير غير هذه المسالك في كل وجه وكل حال؛ لأنه ﷻ الجاعل ذلك كله على ما هو عليه قبل باختياره، فلو شاء أن يفعل ضد ما فعل ويحكم بخلاف ما به حكم كان ذلك له، وكان يكون الحق كما لو اتخذ لهوًا لاتخذ من لدن هو، ولو كان من لدنه لم تكن لهوًا ولو كان الحق.

وكذلك لو أراد أن يتخذ ولدًا؛ لاصطفى مما يخلق ما يشاء، وليس كأن يكون ولدًا، ولكان عبدًا فكل ما فعل فالحق فعله وما حكم بالحق حكمه، به تعرف المعارف لا بما يعرف، فلا تجعلوا له من عباده جزاءً ولا تنزلوا تدبيره طبعًا، هو على ما يشاء قادر ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

اسمه المقدم واسمه المؤخر ﷻ

قيل: هو المقدم من شاء إلى الدرجات العالية، والمؤخر إلى ضد ذلك، ولا يفهم التقديم إلا من تأخير، ولا التأخير إلا من تقديم؛ ولذلك كان ذلك من أذل شيء على إثبات إرادته ووجود مشيئته تقديم بعض الأفعال على بعض، وتأخير بعضها عن بعض، مع جواز تقديم المؤخر منها وتأخير المقدم منها، فما خص المقدم منها بالتقديم والمؤخر بالتأخير إلا إرادة مريد ومشيئة فاعل، قدم ما شاء من ذلك وأخر ما شاء في الزمان والمكان والرتبة والقرب والبعد.

اسمه المحيي واسمه المميت سبحانه وله الحمد

هو من أحيى يحيي إحياءً فهو مِحيي، وأمات يميت إماتة فهو مميت، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [ق:43]، أخبر ﷻ أنه يحيي كل ميت، ويميت كل حي ليس يميت الميت قاتله، ولا يحيي الحق الحي تاركه، وهو خالق الحياة لكل ذي حياة وخلق الموت لكل ذي موت، كان ذلك جسمانيًا أو دنياويًا، هو واجد ذلك كله، واهبه ومانعه، وحده لا شريك له، وماعدا هذا فقد تقدم ذكره في رسم اسمي المبدئ والمعيد، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

اسمه الهادي والمضل عز جلاله

هذه الأسماء كلها قرائن - أعني: الهادي المضل، المبدئ المعيد، القابض الباسط، الراتق الفاتق، الرافع الخافض، المقدم المؤخر، المعزُّ والمذل، المعطي المانع، الضار النافع، المحيي المميت - جاء بها الخبر وانعقد عليها الإجماع، ودلت عليها الدلالات من الوجود، وقامت بحجبها البراهين والشواهد في طبقات العالمين، وهي أسماؤه في سبل تدبيره وقيامه بالقسط في بريته، كل قرينين ميزان عدل، وكل معنى اسم كفة لقرينه.

والعدل هو حكمه بحكمته، وهناك يعرف العدل لا يزال ﷻ منذ خلق السماوات والأرض وما بين ذلك، واستوى على العرش يدبر الأمر ويرفع القسط ويخفضه، ويرفع قسطًا ويخفض قسطًا، يوجد عدلاً يزيل عدلاً ويخلف عدلاً، وكل بنوب مناب قرينه ويسد مسده في قيام الجملة على وفق مشيئته، وظهور العالم في أحسن معاريضه.

والقسط اسم لما تعطيه هذه الموازين، قال الله جل قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:9]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:25]، وما جاءت به الرسل صورة القسط الباطنة، والميزان صورة القسط الظاهرة، وربما أتى الكلام في القسط مفردًا في بابه إن شاء الله تعالى.

واعلم أن الله ﷻ خاطب عباده في أفعاله وخلقته بلسان البسط؛ ولذلك وسط الوسائط وسبب الأسباب، وجعل للأواسط أواسط وللأسباب أسبابًا، فاشتبهت الأشباه واشتكلت إلا على من سبقت له من ربه الحسنى، وبذلك ضل الضالون وجهل الجاهلون، ثم خاطبهم في كتابه بلساني القبض والبسط، فإذا خاطبهم على لسان القبض أفرد نفسه بالفعل كله والأمر والتدبير أجمع، وإذا خاطبهم على لسان البسط ذكر الأسباب والأواسط؛ فذلك لإظهار توحيده، وهذا الإعلان بحكمته، ولذلك كان الكتاب هدى وشفاءً للمؤمنين، وغمًّا وفتنة للكافرين، وضلالة للمكذبين؛ ذلك لأن قلوبهم أشحنت فتنة وضلالة بما ألفوه في الخليقة من مباشرة الأسباب والأواسط، فأنسوا إليها وعدلوا بها عن سبل القصد، وجاروا عن سواء السبيل؛ فلما قرئ عليهم الكتاب العزيز سبق إليهم ما عهدوه من الأنس بالأسباب واعتقاد الأواسط، فكفروا وكذبوا وتأولوا فأخطئوا.

وأما خطابه لهم في أسمائه - جلت أسماؤه وتعالت صفاته - بخطاب القبض حسب؛ ليوحد نفسه ويقيم قسطه، أفرد نفسه بالأمر كله والتدبير، ولم يكن لحكم البسط إليها مسلك ولا سبيل، قال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18] أي: قائمًا بالقسط في شهادته لنفسه بما هو له أهل، فقال ﷻ ينسق أسماءه الحسنى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23] ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24].

وكل اسم بلغه إلينا رسول الله ﷺ، فعلى هذه السبيل من التعريف وحكم الحصر المقصود بها كقوله: الحكيم الهادي المضل المبدئ المعيد القابض الباسط، هكذا يحصر الحقيقة كلها إليه، ويبين فيها اعتماد كل شيء عليه، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة:48].

والهدى نقيض الضلالة، ويكون بمعنى التقدم بوجه وكل ما تقدم من شيء فهو هادٍ؛ لذلك قيل لأول رعيل من الخيل تطلع في مقدمها: هوادٍ، والهادي: العنق والرأس، وقد يكون الهدي بمعنى الإمالة، وبذلك سميت الهدية؛ لأنها من ملك إلى ملك، وكذلك الهدي، وهداء المرأة إلى زوجها قد يكون من ذلك بوجه ما، وسمي المتمايل في مشيته متهاديًا لذلك.

وقد يكون التبيين بوجه، يقال من ذلك: هديت لك بمعنى بينت لك، قال عزّ من قائل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:17] أي: بينا لهم سبيل الهدى، وكذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:10] بمعنى أريناه وبينا له سبيلي الضلالة والهدى، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3] هذا أول الهداية، وأما منتهاها فهو الحمد إلى المقصود والتبليغ، وهو المطلوب من الله ﷻ لعباده في قوله جل قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] والمعنى بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:5]، و﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157]، وبقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:9] ونحو هذا كثير.

ويقال: هديتك الصراط بمعنى: بلغت بك وأتممت عليك، وقد يعبر بهذا عن هذا وبهذا عن هذا، وقد جمعها الله في آية واحدة، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هذا بمعنى التعليم والتبيين، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:16] أي: يبلغهم بحسن الاقتداء، ولما كان المكلف موصوفًا بالعقل والدعوى موسومًا بالزعامة، قيل: هداك الله الخير، وهداك إلى الخير على ما تقدم من المعنيين، فإذا كان المهدي غير عاقل عار من الزعامة عدا الفعل، فقيل: أهديته ذلك من الهداية والهدى، والهدي ما أهدي إلى مكة من النعم وغيرها، يقال من ذلك: أهديت إلى مكة هديًا، والجمع: الهدي، وأهديت إلى فلان هدية، والجمع: الهدايا، والهدي لغة فيه، وإنما قيل: أهدينا العروس إلى زوجها هداءً وهي الهدي؛ لأن الظاهر من العروس إظهار الكراهة للحياء الغالب عليها والرضا بذلك

باطن، فكان إدخالها في جملة ما لا زعامة له ولا دعوى أولى؛ لذلك جعل إذنها صماتها.

الاعتبار

الهدي الذي بمعنى التبيين والتبليغ إلى المقصود لها هو هداية إلى شيئين يجمعهما مقصود واحد وهو الله ﷻ، أوصل مطلوب وأكرم مقصود إليه، ثم سبيله الذي به يهتدي إليه ويسلك في المقصود نحوه عليه، وكل تبيين أو تبليغ إلى مقصود ما فهو هدى له أو إليه، ولكن ما ذكرناه هو المقصود الحق والمطلوب الأعلى، فأما الله لا إله إلا هو فلا خفاء به، وأما سبيله الذي يسلك عليه نحوه ويتقرب به إليه فهو سبيل الإسلام، وقد أفرغه في قالب العالم وصوره في صورة الخليقة، وفطر عليه كل شيء سفل وعلا، ثم كتابه العزيز أظهر فيه ما أبطن في الخليقة، وأبدى في مسطوره ما خبأه في العالم، ونصّ فيه على ما أجمله في الموجودات، وجمع فيه ما فرقه فيها، وأشار بجملته إلى ما حواه اللوح المحفوظ، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:16].

فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه ويهديهم صراطًا مستقيمًا، وإنما نور الهداية إذا دخل في القلب انشرح له الصدر، وانشراح الصدر اتساع الصفات المحمودة من العبد وانبساطها على أضدادها المذمومة، وكمال معالي الأخلاق، فإذا أراد الله ﷻ أن يبلغ لعبده أنزل السكينة في قلبه، فسكنت لذلك دنيات طباعه، وأذعنت سفال أخلاقه؛ فانقادت عند ذلك لأئمتها، وكانت في عونها على ما يرضي بارئها، قال الله جل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:4]، ثم يمدح ﷻ بأنه يستعمل أعداءه في طاعته بقوله الحق: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:22]، وقال جل وعلا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، وقال - جل وعلا - في

ضد ذلك: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:125]، يقول يطفئ نوره فيضيق متسع أخلاقه ويسفل بمعاليها، فمتى أراد هذا العبد استعمال الهداية، ورام العمل بالطاعة حرج لذلك صدره، وضاق متسعه، وأظلم باطنه، وعسر عليه مراده، فكأنما يروم الصعود إلى السماء، نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سواء ما سبقت به المقادير.

فمن أحب القصد إلى مقصوده والهداية في طريقه؛ فعليه بتعرف ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:5] دين الله، أي: الذي فطر السماوات والأرض وما بينهن عليه، وهو الإسلام والدين القيم والصراط السوي ودين الحنيفية والطريق المستقيم، ثم يعرض ما تبين له من ذلك على كتاب ربه وسنة نبيه، فهو الذي عناه إبراهيم ﷺ لأبيه في نصيحته إياه، وتبليغه إليه ما أمره به في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:43.42]، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75]، لما بلغه هذه المنزلة وأحله هذه المرتبة، مع ما زاده من مزيد علم النبوة وعلم الخلة وجب عليه من النصيحة والإعلام؛ فإنه قد أوتي من العلم ما يخرجه به عن ضلالته إن اتبعه، ويهديه إلى الصراط السوي المرتضى، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

فإن أردت - وفقك الله - نهاية القصد والإبلاغ في اختصار العناء، فعليك بالتفكر في نفسك والنظر في خلقتك، ثم باعد صفاتك عن صفاته وأفرده بما أفرد به من عباده، ولا تجعل نفسك ولا شيئًا سواك ندًا له في وجه من الوجوه، قد يرحل المرء لمطلوبه، والسبب المطلوب في الداخل، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم:8]، وقال عزّ قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21.20]، قد شرحنا شرحًا شافيًا، وأوضحنا - بحمد الله - إيضاحًا كافيًا؛ فانتبه أيها الطالب لما ذكرناه، وبادر ثم بادره إلى حقيقة ما تبيناه وما يتذكر إلا من ينيب، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:14]، الحمد لله رب العالمين.

التعبد

أي أخي، الجد الجد والتفرغ للجد في نيل الدرجات العلا، والحلول في الحياة العظمى فمتى سمت بك - هداك الله إلى ذلك- همةٌ، وتوجهت منك نحوه إرادة وصحيح نية، فمن التحقق في ذلك ألا تقعد إلا مفكرًا، ولا تنظر إلا معتبرًا، وعود عينيك السهر ففي الظلم الداجية توجد الأنوار الغائبة، وأشهد قلبك الأسحار بخالص التفكير وصحيح الاعتبار، وتعود ذلك فللعادة سلطان، والله لا يمل حتى يمل العبد، وتطهر لذلك والزم وواظب وتبأس وتمسكن وسل وتضرع، وتجرد من كل دعوى في علم كنت تعلمه إلا ما يفتحه عليك من علم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].

تتبع آثاره في مخلوقاته، واستشهد شواهده في مصنوعاته، وتعلم أسماءه الحسنى فهي مفاتيح تلك المغاليق وبها يبدو لك الخباء في خليقته، ويظهر لك ما أبطنه عن غيرك من لطيف تدبيره ومكنون صنعه، فما خلق جميع ما تشاهده وما لا تشاهده إلا لمعرفته، فلا تكن من الغافلين، ثم عليك بالعمل بطاعته، واتباع مرضاته، ومجانبة مساخطه والتعرض لنفحاته.

اسمه المقسط عز وجل

يقال من ذلك قسط يقسط قسوط إذا جار، وهو من العدول عن الشيء المقصود، فمن عدل عن العدل في الحكم فقد قسط فهو قاسط، قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:15]، ويقال في الصفة العليا: أقسط يقسط فهو مقسط، وهو العدل في الحكم، فمن عدل في حكمه أو وزنه أو فعله وقوله وأمره كله، فقد أقسط وهو مقسط، أي: أعطى القسط كما يقال: أنبل إذا أعطى النبل، وألبن إذا أعطى اللبن، قال الله عز وجل: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:9].

الاعتبار

ميزان، قال الله ﷻ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:8]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:19]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، والقسط هو ما يعطيه الميزان، فلكل مقدار قدر، ولكل ميزان وزن قسط، ومعطي القسط والحق والعدل هو المقسط، وسبيل اعتبار القسط ومسالك وجوده في مسلك وجود الوزن، فما من شيء كان أو هو كائن إلا وهو موزون بميزان ظاهره أو باطنه، وما من وزن إلا له قسط قدر تعالى الله ﷻ عن الإهمال والمجازفة، وتنزه عن الحيف والجور؛ فاطلب تصب إن شاء الله.

التعبد

اعلم - وفقك الله - أن الذي يثقل في الميزان هو الحق، والذي يخف فيه هو الباطل، وأما قسطك من الموزنين ما ثقل به ميزانك أو خف، وهو إلى الأغلب على عملك اليوم، فالآن الآن - وفقك الله - أقم اليوم ميزانك، وأعط القسط من نفسك لربك، ووفه قسطه حسب طاقتك، واستغفره لما عجزت عنه، واعتذر له من ضعفك عن القيام بحقه، ثم أعط القسط من نفسك لنفسك ثم للناس، وأعط كل ذي حق حقه، ولتكن قائمًا بالقسط في حملك وشهادتك وحركاتك كلها وأعمالك أجمع، واستفرغ أوقاتك كلها في ذلك واملأها شغلاً به، ولا تستبق من نفسك باقية؛ فقد علمت أن ليس لك هناك إلا ما قدمته هاهنا، وبميزانك اليوم يوزن لك غدًا، واعقل من أنت ولمن أنت ولمن خلقت، والله عنده حسن الثواب وكريم المآب.

اسمه الحكم سبحانه وله الحمد

الحكم مأخوذ من المنع، كل شيء منعته فقد حكمته، ويقال: احتكمت في مال فلان إذا جاز حكمك فيه، والاسم الأحكومة والحكومة، والتحكيم التفعيل منه: حكمت تحكيمًا.

الاعتبار

خاصة الحكم القضاء والفصل بين المتحاكمين، والحكم موجود عن اسم الملك، فحيث ما كان الملك هناك الحكم، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح:14]، فأخبرك نصًا صريحًا أن المالك يفعل في ملكه ما يشاء، وقال ﷻ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:61]، فحكم الأوصياء في أموال اليتامى لحق الملك وعلى قدر السعي والتصرف، والله المالك لكل شيء والحاكم في كل شيء، والحكم بين كل متحاكم في الدنيا والآخرة، إن الله حكم بينهم ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية:17]، ومن سواه من الحكام، فحكمكم مجاز مأخوذ من حقيقة اسمه، وهو الحكم في حكم كل حاكم والمتعقب، ولا معقب لحكمه.

اسمه العدل

سبحانه هو العدل، وهو العادل على بناء اسم الفاعل، يقال من ذلك: رجل عدل بيّن العدل والعدولة، والعدل يقع للواحد والاثنين والجميع والذكر والأنثى، والعدل موضع الوسط بين الطريقين حيث يقوم وزنهما، وكل الطريقين عدل بالكسر كل طرف لقرينه عدل، من ذلك قيل: عدلت فلانًا بفلان، والعادل بالله المشرك، ومنه العدل بفتح العين؛ بمعنى: الفداء، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:48]، وعدل الشيء بالفتح: مثل له وليس بنظيره، من أجل ذلك سمي الفداء: عدل؛ لأنه مثل للشيء.

وأما النظير فهو العدل بالكسر، من ذلك قيل لأحد الحملين على الدابة: عدل، ومنه عدلت الجمل، أي: جعلت كل عدل مقاومًا لقرينة، وعدلت الرمح وعدلت الرجل: قومته، عدلت عن كذا، أي: عرجت عنه، والطريق يعدل إلى كذا، أي: يصرف إليه، والانعدال: الرجوع عن العدل إلى الاعوجاج الانفعال من ذلك.

الاعتبار

طريق اعتبار عدله ﷻ هو في جميع أفعاله كلها وأحكامه بأجمعها، هو الحق وفعله الحق وقوله الحق، وقضاؤه الفصل وحكمه العدل، وهو يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويحيي ويميت، ويقدم ويؤخر، ويضر وينفع، ويعصم ويفتن، ويغني ويفقر، ويصح ويسقم، ويعافي ويبتلي، ويفعل ما يريد بحق الملك وحق الوحدانية، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، لو عذب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أهل سماواته وأرضيه كان ذلك له بحكم العدل، ولو نعم أهل سماواته وأرضه كان ذلك بحكم الفضل، ولو قصد كل من عصاه بالتنعيم والتقريب، وكل من أطاعه وآمن به بالتعذيب والإبعاد، كان ذلك من حكمه عدلاً حقًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس:44]، به تعرف المعارف؛ لأنها تعرف وهو الحق المبين، فحيث ما كان فهو الحق، وكيف ما كان فعله فهو الحكمة، وكيف ما صرف حكمه فهو العدل، فافهم.

التعبد

جملة التعبد بمقتضاها اسمي: العدل والحكم، نعلم العلم بهما والرضا بحكم الحكم العدل كيف تصرف؟ وحقيقة الاستسلام لمواقع قضاياه، والإيمان الحزم في جميع ذلك بأنه الحق، فجميع صفات الحق إنما تعرف به، ولتلزم قلبك أن من حكمه الحق في عباده أن يخص منهم من شاء، فسراء وضراء، وشدة ورخاء، وتقريبًا وتبعيدًا، وقد تقدم من تنويع ذلك ما يكون تطريقًا للأفهام - إن شاء الله - كل ذلك من غير استحقاق سبب، ولا جهد صلب، ولا زيادة أدب، ولا إسراف في نصب؛ بل بما سبق من كلمته في الأزل ووجب بحكم مشيئته في القدم، كل شيء أوجده فلوجوده أوجده، والتعريف بأسمائه وصفاته خلقه الأحكام لا تناله وحقوق المخلوقين لا يلحقه، هو محقق حقوقهم ومحكم أحكامهم، فكيف يعدو عليه خلقه أو يساويه عبده؟ ألا لا عبرة بالخلقة، ولا اعتماد على الحال والصورة، وإنما الاعتماد كله على الحكم منه والمشيئة، فافهم.

اسمه الحكيم[1] عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

(1) قال سيدي محمد القونوي، قدَّس الله سره السَّوي: الحكيم: الذي أتقن كل شيء أنزله، وجعله في مرتبته.
اعلم أن الحكمة أخص من العلم؛ لتعلق العلم بالمعلوم بحسب ما وظفته الحكمة، فكل حكيم عليم وما كل عليم حكيم، فالحكمة أعلى مرتبةً من العلم عند المحقق، وكذلك امتن الله تعالى على داود ﷺ مع وفور علمه بالنبوة، والكتاب، والحكمة، وفصل الخطاب، وهو الإيجاز في الكلام في مواطنه لصاحب الفطنة، ورُبَّ موطن يقتضي تكرار الكلام لتفهيم المستمع؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يكرر ثلاث مرات؛ مراعاة للأدنى، فالحكمة التي تقتضي الإيجاز في موطن بعينها تقتضي الكثرة والتكرار، فالحكيم: حاكم يحكم في الأمر أن يكون هكذا، والمواطن بخصوصياتها تقتضي الحكم لذاتها، فكان الحكم للموطن بها كما كان الحكم لديها، يراد الأمر منه إليه، ومن أهل الله من يُكشف له عن سر ترتيب الحكمة فيؤديه إلى الهيبة والحيرة، ومنهم من لا يعلم ذلك إلا بعد وقوع حكمة في الوجود، فيُعرف بجهله في المصالح، وغاية ما تنتهي إليه همة العارف أن يعرف بالجملة أن الظاهر الواقع في الوجود إنما هو في فيضة الحكمة الإلهية، صادر عن حكمة الحكيم القادر، وهذا هو الذي استعمل النعيم بدوام الفرح والرضا، وقام عنده التفويض والتسليم، وزال عند الضجر والسخط بزوال الغرض، فإن الجهل والنزاع لا يقع إلا فيما لا يوافق الغرض، وصاحب الشهود لا يُنافي غرضه لمطابقة أسرار حكمة الحكيم، انتهى.
وقال الجيلي - رحمه الله - في «كمالاته»: اسمه تعالى حكيم، هو الذي تجلى في المظاهر بما يستحقه، قابلية كل مظهر من غير زيادة ولا نقصان، وأعطى كل ذي حق حقه، وهذا الاسم من أسماء الصفات، وصفته الحكمة، وهي عبارة عن إظهار القدرة تحت ملابس الأكوان، بوضع كل شيء موضعه من الترتيب اللائق بالعلم، وإعطاء كل حقيقة في الوقت المخصوص ما تقتضيه من الظهور والبطون، والتعالي والسفل، والنقص والكمال، والتقديم والتأخير، والإيجاد والإعدام، والتقليل والتكثير، وغير ذلك من أحوال الأكوان التي هي عبارة عن سورة الرحمن، فافهم، انتهى.
وقال البوني - رحمه الله - في «شمس معارفه الكبرى» في الفصل السابع والأربعين: اسمه تعالى حكيم، هذا الاسم البهي الباهر، والسر السني الزاهر، مَنْ أكثر ذكره ألهمه الله تعالى الحكمة وعلمه دقائق العلوم، وألقى فيه غرائب المعاني ولطائف الإشارات، ثم قال: واعلم أن كل ذكر يعطي ذاكره ما في قوته، لكن بالوقوف على حقيقته، وذلك لا يتفق إلا للإفراد، والله الموفق.

يقال من ذلك: أحكمت الشيء أحكمه إحكامًا فهو محكم وفاعل ذلك هو الحكيم، وفرس محكومة، بمعنى: ريضة والريض ممنوع عن الخروج عن مراد راكبه إلى مراده، وكل شيء منعته فقد حكمته وأحكمته، ففاعل العالم ﷻ منعه عن الخروج عن حكم العدل وهو حد مراده منه ومراده به، وقد يكون الحكم والحكمة الإتقان بوجه، من ذلك قولهم: بناء محكم وأمر محكم، أي: مشدود متقن، جمع ذلك قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:58] بمعنى: محفوظ من التبديل والتغيير ممنوع من الخلاف، مبرم السرد متقن التأليف والنظم.

الاعتبار

الحكمة صفة من صفات الذات، يظهرها الفعل ويعبر عنها المحكمات وتشهد لها العقول بما شاهدته في الموجودات كغيرها من صفات الحق، فوجودها في طرق العلم والكلام والإرادة والمشيئة فتطلب ذلك - وفقك الله - في مسالك أفعاله ومجاري تدبيره، وترتيب ملكه وملكوته وقيام الأمر كله به، فليعدل الآن عن تطلب آثارها في خلقه ﷻ في السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من الأفلاك والنجوم والشمس والقمر، وترتيب ذلك وتقديره بأمر محكم، وأحكام وزمّ مع دءوب اختلاف الليل والنهار وتقليبهما وإيلاج كل واحد منهما في قرينه وتكويرهما بعضهم على بعض، وما يحدث من ذلك من العجائب المبدعات والآيات والبينات بإحكام متناسق وحكم مستمرة الوجود، وعن خالق العالم كله على طبقاته والوجود كله من الخير والشر على درجاته ودركاته من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان بحكمة ناشئة، وحق صاعد إلى كماله وانتهائه إلى علوانه إلى غير ذلك من سائر أفعاله المتقنة وبدائعه المحكمة بوصل موصول بالخلقة، موصل بالشرعة، ويجتزئ في ذلك بما سطره المعتبرون وألهمه المتفكرون على أنه الخطب الجليل يكل دونه النظر وينحسر دونه البصر، ويزيد على القول ويربي على الوصف لا تدركه كنهه العقول، ولا يحيط به سوى اللوح المحفوظ، ولنطلبها في سبيل مقتضاها تقدم لنا من شرح أسماء أفعاله وما لم يأت منها بعد، ثم لتكن العبارة عن ذلك على سبيل الإجمال؛ فإن في ذلك غنى فيما يسند إليه وكفاية لذي اللب فيما ينبذ منه إليه؛ تسليمًا في ذلك لأمر الله ورضا بقضائه، واحتسابًا لما غلب عليه، وتعريضًا لثوابه، واستنجازًا لوعده، وأخذًا بأدبه كالبرء والفطر، وتركيب الأجسام وذمها بالذوات واطلاعها عنها، واختزان البرايا في الأرزاق،

والأرزاق في الأسباب، والأسباب في الإرادات وسائر الصفات، وإقرار الصفات والذوات في الأجسام لها، وكيف انبعاثها من خزائن السماوات والأرض؟ وانبعاث الكل من غيابات علم علام الغيوب، وكيف خلق العالم كله بالحق وللحق؟ وكيف أقر العلو في السفل واستودع السفل في العلو؟ فإذا ادعى كل مقصود من ذلك من قرينه أجابه إليه، وكيف صور على غير مثال فأحسن التصوير؟ وقدر فأحسن التقدير.

ثم كيف أخرج ما قدر على سواء ما قدر؟ وكيف اخترع المخترعات؟ فتبارك الله ما أعجب ما اخترع وأحسن ما خلق وصنع؟! بل كيف استأثر بالبقاء لربوبيته، وانفرد بالوحدانية في كمال صفاته، وأفنى الكل بقدرته؛ لأنه الباقي الدائم.

ثم كيف جمعهم بحكمته وأحياهم بالبقاء بإبقاء؛ لأنه الباقي ببقاء هو صفته، فلبقائه أفناهم ولبقائه أبقاهم، ولحياته أماتهم ولحياته أحياهم فلا يموتون، ويعلمه علمهم، ولعلمه رماهم بجهلهم، ثم لعلمه يعلمهم فلا يجهلون ما علموه، ولعزه أذلهم، ثم لعزه يعزهم فلا يذلون، وهكذا في المعلوم من أسمائه ذلك؛ لأنه أوجدهم بالحق وللحق فكانوا حقًا في علم غيبه وبطلاً عن وجودهم، ثم لوجوده أوجدهم، وبالحق الذي بدأ وجودهم يحققهم في الوجود، بل كيف خلق الخليقة كلها بالحق؟ وللحق الذي هو﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة:36]، وكيف مزج ذلك الحق في أمشاج عالمه، وأفرغه في قالب الموجودات بحكمته وأنشأه منشأها وهداه لما له كونها، ثم أرسل على ذلك رسله وأنزل به كتبه وشرع بشرعة الخليقة شرائعه، واستعمل أولياءه بما فيها قدره؟ وكيف رتق ثم فتق، ثم خلق خلقه فيما فتق ورتق؟ ثم كيف في حال الفتق رتق؟ كما في حال الرتق فتق، وكيف بسط وقبض؟ ثم كيف في البسط قبض كما في حال القبض بسط؟ وكيف مد الأرض عن الحال خلقه تكويرها؟ ثم كيف كور في حال البسط والمد كما في حال التكوير بسط ومد؟ وكيف خفض ورفع؟ ثم كيف في حال الخفض رفع؟

كذلك في الإعزاز والإذلال، كذلك في النفع والضر، كذلك في التقديم والتأخير، والإحياء والإماتة، والهداية والإضلال، كذلك في جميع التقدير والتدبير والتفصيل وجميع أفعاله وقضاياه، فتطلب ذلك في لطائف أسرار الخليقة واقتداره على تحقيق الجلي والخفي عن عالمه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، والاسم للظاهر منهما والحكم الغالب بل كيف ذلك المتعاصيات وزم المتنافرات وقارب المتباعدات فكل يعمل على شاكلته ويظهر فيه حكمته بخاصته في حال اشتراكه

وموضع انفراده وحال وحدته في موضع اشتراكه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 82]، وصف تحار فيه الأوهام، وتضل فيه الأفكار، فالمطنب فيه مقصر، والمطول فيه موجز؛ لفوته نهاية النعت، وإربائه على غاية الوصف، وكيف جازى المطيعين على تفاوت أنواع طاعاتهم بما يقابل ذلك من ثواب عنده، وجازى العاصين على كثرة اختلاف معاصيهم بما يقابل ذلك من عقاب عنده ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:147]، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139].

ومن حكمته ما أظهر في أهل الحكمة من خليقته، وما استودع جميع الموجودات من المضار والمنافع وسائر الخلقة وخواص الجبلة، ولطيف معاني الصبغة من هدايته إياها لما قدره لها واستعماله إياها لما فطرته عليه كالملائكة عليهم السلام ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ ﴾ [النازعات:1- 5]، ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ ﴾ [المرسلات:1-6]، ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝ ﴾ [الذاريات:1-4]، ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ ﴾ [الصافات:1-3]، هذا وما نحا نحو هذا مما يستخرج ﷻ من الملائكة - عليهم السلام - من حكمته في خفايا تدبيره وظواهر تفصله، ثم الأنبياء - عليهم السلام - بما جعل فيهم من القول بالحق والصبر عليه، والعمل به والعبارة عنه، والنشر له والمجاهدة عليه في أتباعهم من الأولياء والصديقين والموقنين والشهداء والصالحين، ثم كذلك استخرج حكمته في الصنع وإتقانه في الخلق على أيدي الصناع من عباده، وأهل البراعة في الأعمال والإتقان في المصانع وغرائب الصناعات كلها ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:97].

ثم ما كان من السفه في وجود الخليقة من الفعال البذل والكلام الفشل والزور والبهتان والكذب والتكذيب لله ﷻ وبرسله وكتبه وما جاء من عنده، والكفران

والاستهزاء والسخرية ورد الحق والاستحقاق به ومن أجله والقبح كله، وكل ما خالف الحكمة من جميع وجوهه أو بعضها فهو الحكيم بذلك كله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، من حيث يقدمه فيه علمًا وتقديرًا، ثم أظهره في التفصيل على سواء ما تقدم منه وسبق من تقديره من فاعلين له أراد وقوعه منهم، وأن يكون ذلك وصفًا لهم وهم الموصوفون به بإيثارهم إياه ومحبتهم له، وأن يكونوا هم المجزيين عليه جزاء مثله، والفعل منوطًا بفاعله والعمل حقيقة مضاف إلى عامله لا إلى العالم به والقادر عليه مع كونه غير واقع منه، ولا مؤثر له مختار هذا ما لا خفاء به ولا ريب فيه، وأيضًا فإنه مما تقدم ذكره إن الله ﷻ كيف توجه وجوده والعبارة عنه والبيان عن معنى من معانيه فهو الحق ومن وجوده الحق الحكمة، وهو ﷻ وتقدست أسماؤه.

قد تسمى واتصف بالغضب كما اتصف بالرضا واتصف بالرحمة والمغفرة والعفو والحلم والأناة، وكذلك اتصف بأنه شديد العقاب سريع الحساب شديد الأخذ والبطش، ونحو هذا فأوجد عالمه على مقتضى ذلك، ذلك بأنه يلحق غضبه من شاء ويحل رضاه على من شاء، ويدخل في رحمته من شاء كما يدخل في مقتضى سخطه من شاء نعوذ بالله من غضبه وسخطه، ومما يوجب ذلك بمنه وفضله فهو الحكيم بذلك وفعله ذلك حكمة صواب حسن ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:123]، فافهم.

لذلك خلق الله إبليس - لعنه الله - وابتلى الملك الأعلى بالسجود لآدم عليه السلام فسجد الملائكة فنجوا وأبي إبليس فهلك، وسأل ربه النظرة فأقطعه وذريته عمالة ما ليس بالصلاح وما هو بخلاف الحكمة في حقهم، وما ظهوره سفه في حق من أضيف إليه ووجد عنه لعلة اقتحام المناهي الواقع منهم؛ لإتمام كلمته فيهم وإقامة عدله عليهم فنهى عنه وأوعد عليه، وكان أصلاً للابتلاء والمحنة فالمستعان الله وحده لا شريك له جمع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ....﴾ [البقرة:30]، المعنى كذلك خلق النار لها خدمة وسدنة اقتطع لهم منها عمّالات استعملهم فيها من تنكيل ساكنيها وتعذيب داخليها تلك الأعمال بأعيانها هناك أصل الأعمال هؤلاء في الدنيا، وأعمال هؤلاء وصف لعمالات أولئك ثم استاقهم جل وعلا بصفاتهم وذواتهم في حال التفصيل إلى ما قدره قبل كما قال عز من قائل: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون؛ كذلك خلق الجنة وسكانها وخدمتها وولدانها وحورها وقهارمها ونعيمها وملكها، وجعل أعمال العاملين لها في الدنيا وصفًا لعمالات أولئك وإقطاعاتهم، فيجزي كل

عامل هنا غدًا من الجزاء هناك وقف عمله المتقدم، كما كان عمله وفقًا لتقديره المتقدم؛ ليحق كلمته الحق هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، وكذلك خلق الجنة والنار على معاني أسمائه وصفاته.

وقد تقدم الكلام على معنى قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:22]، فاعبر - وفقك الله - بإيمانك من الدنيا إلى الآخرة، ووف كل ذي حق حقه فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلاً، فإذا كان خلقه الجنة والنار وما فيهما وما أعدهما له من معاني أسمائه وصفاته، وكل بني آدم مقسومون إلى قبضتيه الكريمتين، فلا بد إذًا من طريقين إذا لم يكن بد من طريقين فلا بد إذًا من أمر بأحدهما ونهي عن الآخر، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد إذا من طاعة وعصيان والطاعة حكمة ظاهرها وباطنها والمعصية ظاهرها سفه الحكمة فيها باطنة، فكل ما في العالم إذًا فلا بد من وجوده ولا غنى عنه إلا بمحو منه أو تبديل ما شاء بما شاء ومحو ما شاء وإثبات ما شاء، فلو نقص سفه السفهاء من العالم لم يكن تام الحكمة ولأمكن أن تغلب على الظن أن فاعله كأحد المطبوعات، كالنار لا توجد إلا محرقة والثلج لا يوجد إلا مبردًا، وكالثقيل يسفل ويهوي، وكالتخفيف يصعد ولكماله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وسع كل شيء قدرة وعلمًا ورحمة وحلمًا وحكمة وحكمًا، أوجد الشيء وضده، وخلق الزوج وزوجه، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:2]، ثم قدم وأخر، وأعز وأذل، ورفع ووضع، وساء وسر، ونفع وضر إلى ما يعلمه العليم الحكيم، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:49].

شبهة

وربما اعترضك في هذا المقام عارض شبهة، فقال هذا قولك في أعمال زمّت فوصلت إلى الجنة أو إلى النار، واتصلت على ذكرته بمعانيها واتصفت بأوصافها من المجازاة هناك، فما قولك في أعمال الذين قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب**

فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار....»[1].

فهذه أعمال لم تصل هناك ولم يكن لها أصل انبعثت عنه في الجنة ولا في النار، فمن الجواب إن الله ﷻ أسماء هي: الغفار والتواب والغفور ونحو هذه من الأسماء، وكذلك من أسمائه المضل والفاتن، والمؤخر والقابض، وشديد العقاب وسريع الحساب، والمبتلي والمنتقم، والوارث ونحو هذا، ولكل مقتضى اسم مقدرة في القدم، فهو قد قدر المقتضيات هذه الأسماء عمالات وخلق لها عاملين، وجعل تلك الأعمال عمالات لهم استعملهم فيها، ثم يسبق كتابه بما سبق في تقديره وزمه، ويلحق العاملين بخواتم أعمالهم ولو لم يخلق لهذه الأسماء وعمالاتها عاملين لاستأنف الآن الخلق، والأمر بغير علم تقدم منه تعالى الله عن ذلك قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تذنبوا، لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[2].

وأما أعمال العاملين فمثبتة في المآلين، منزلة في كلا المنزلتين، وفيها تقع الموازنة - والله أعلم - التي عبر عنها قوله ﷻ: ﴿**أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ**﴾ [المؤمنون: 10]، وتتسع الوراثة حتى ما من أحد إلا وله منزلة في الجنة ومنزلة في النار، فمن آمن وأسلم وأحسن في إسلامه قدم من ذلك في منزلته على ما قدم، وأورث منزلته في النار من لم يؤمن بالله ولا أسلم له، ويجتمع إلى هذا عمله السيئ أو الحسن في المنزلتين، قال الله ﷻ في أهل النار: ﴿**يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ**﴾ [هود:20]، وقال: ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:38]، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أتى كل مؤمن منكم برجل يهودي أو نصراني، فيقال له: يا مسلم أو يا مؤمن هذا فكاكك من النار**»[3]، فهذه حكمة بالغة وحق موصل وأمر حتم، قال الله جل من قائل: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام:139]، فتسمى الحكيم لجزائهم بوصفهم، أي: لجنس أقوالهم وأعمالهم.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (2106/4، رقم 2749)، وأحمد (309/2، رقم 8068).

(3) رواه أبو نعيم في المعرفة (6251).

وقد تقدم في ذلك من الكلام ما يغني عن كثرة التبيين فيه والغرض المقصود الاختصار، وبالجملة فإن الله ﷻ أوجد الخير كله بنفسه لنفسه فأحبه لذلك ورضيه وقربه ووعد عليه، وأوجد الشر كله بقدرته لا لنفسه؛ بل بحكمته ومشيئته وكماله فاتصف تبارك وتعالى بما أوجده بنفسه لنفسه وتنزه عما لم يخلقه لنفسه، فأوعد العاملين به فمن وفقه لما تسمى به والتصف سماه ﷻ به ووصفه، أي: سماه بأسماء طيبة من أسمائه، ومدحه وأوصله إليه وأكرمه، ومن اتبع نفسه وعمله ما تنزه عنه سبحانه فرضيه وصفًا لنفسه، انقطع وصله وضل عن ربه وحار عن سبيله وخالف حكمته فلم يصل إليه؛ فكان في بعيد البعد عنه وأهون الهون حكمة بالغة ووصل موصل.

وفصل الخطاب فيما نحن بسبيل تبيانه أنه إذا كان لفظ الحكمة معبرًا عن علم العالم أفضل المعلومات بأفضل علم، وتقديره المقدورات بأحسن تقدير، وإخراجه المقدورات المكونات على أتقن إخراج وأفضل صنع، فهو إذًا الحكيم الحق؛ لأنه علم المعلومات كلها سواه غيبًا وشهادة، وعلم نفسه الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11]، بعلم ليس كمثله علم، وهو العليم الدائم المحيط؛ الذي لا يزال لما هو دائم لا يزول، فهو الحكيم لا بحكمة استفادها بصفة خارجة عن ذاته، وكذلك علمه وقدرته وجميع صفاته ومعاني أسمائه بجميع مقتضياتها عاجلاً وآجلاً، فافهم.

التعبد

قال الله ﷻ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، ثم رفع قدرها وأنه لا ينبغي دركها وما يذكر أولو الألباب.

والحكمة إصابة الصواب وموافقة الحق والعدل في القول والعمل، والحكمة هي معرفة الله ﷻ من حيث العلم، والحكمة أيضًا من حيث الفعل: جمع الأضداد، ومقارنة المتعاصيات، ومزاوجة المتنافرات، والحكيم أيضًا: من أخرجه معاني الشمال على مخارج معاني اليمين، وقوم نفسه وتزكى فسلك باليسرى منه مسلك اليمنى، قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:20]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:12]، ثم أعلم ما هي الحكمة مجمل، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن

يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [القمان:12].

وجماع الحكمة فيما سبيله تكليف، والوجه في تسمية شكر الشاكر نعمة أن الشاكر لله ﷻ والعابد له قائم له على ذلك في سرائه وضرائه، عارف بربه فيما يسبحه عنه ويعمد عليه لعلمه بما يجوز عليه وما يستميد له، فيرجع معنى ذلك وحقيقته إلى معرفة الله ﷻ هي الحكمة، وإن أصابه صواب ذلك بالعمل هو تمام الحكمة من حيث العبد، وجماع الحكمة فيما سبيله التكليف، والمحنة داخل في ضمن هذا الخطاب وهو عنوان دين القيمة، ثم ذكر وصيته لابنه وجميعها يعبر عن قول الحق والعمل به.

فعليك - وفقك الله - بالجد وإعطاء الجهد في طلب هذه القيمة العظمى والهبة السنية العليا؛ فهي والله عذبة المذاق وشهية التلاق، والحكمة - أيدك الله بمعونته - تمت إليك برحم ماسة، ونسب دان، وقرابة قريبة؛ لمعرفة مغروزة في أمشاجك وميثاق به عليك في أوليتك، من أجل ذلك كانت فضيلتها متأكدة وأخوتها واشجة تعرفها حق واجب على أولي الألباب، وفرض لازب على من رغب في الزلفى وحسن المآب، تذهب الشك وتجلي الريب، بها يعرف الحق من الباطل والحجة من الشبهة والمتآلف من المتشتت، لها قوة لا ترام ويد لا تغلب، ورفعة لا تطاول وعزة لا تناصب، وجلالة لا تسامى ودرجة لا توازي، تبوؤك كنفها وتفيئك ظلها؛ فهي: راحة العقل ومفيض الفكر، ومرتع النفس وموضع الأنس، وينبوع السرور ومنبسط اللذة، ومحل الحياة من النفس والنور من العين.

والحكمة الحق هي معرفة الله ﷻ فلا أحكم منه تعالى فاطلب - رحمك الله - بجد صاعد، وأدرك بجهد جاهد، واعتل بشرف الهمة مادمت والمحل أمم والشمل ملتئم، عساك تصادف نهزه وتوافق فرصة فتتحف بتحفة وتقتنص طريدة، فكم سمعنا بسابق لا يلحق، وكم قد رأينا من مطلوب عزيز قد يدرك، والحكمة صاحبها أبدًا يجري متماهلاً ويأتي على ذلك سابقًا، وهو كما قال الحادي:

من أين لي مثلك يا مذلل يمشي رويدًا ويجيء في الأول

فهو يتعب المحررين ويسبق السابقين، إذ بها الإيمان وثبات اليقين وكمال العلم، فاستوفر منها حظك، واستجزل من أقساهما قسمك، وإياك والنواهي في الأمر، والتقصير في النظر، والتفريط في العمل والكسل عن النهوض، والترخص في الإبلاغ من التطهر والتأخر عن التقدم قدمًا إلى رب العالمين، اسأل الله الذي لا يخيب آمله،

ولا يحرم سائله، ولا يكدي راجيه، ولا يخفق طالبه أن يعصمنا وإياك من المطل والتسويف والتلذذ والتطويل، ولا يجعلنا ممن استذله الطمع، واستهواه الجبن، واستغواه الشيطان، وأرداه الهوى، وحيره العمى بمنه وجميل صنعه لا إله إلا هو.

اسمه اللطيف تبارك وتعالى جده

يقال من ذلك: لطف فلان في الأمر يلطف لطفًا فهو لطيف وهو اللطف، واللطف قد يكون اللطف البر بوجه من ذلك قيل: ألطفت، بمعنى: أتحفته، وقد يكون، بمعنى: الرفق بوجه قولهم: لاطفت العليل ألاطفه ملاطفة، وكذلك الغضبان ويكون الخبر والعلم بخفايا جوانح العالمين ودقائق أسرارهم، فيوصل إليهم إحسانه وألطافه من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، وعنه العبارة في قوله ﷻ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق:3.2]، وقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح:6]، منه أيضًا وقوله: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا**﴾ [يوسف:110]، وقال الشاعر:

ألا ربما ضاقَ الفضاءُ بأهلِهِ وأمكنَ من بين الأسنةِ مخرجُ

ومعنى قول يوسف عليه السلام: ﴿**إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [يوسف:100]. فأخبر عليه السلام أنه ﷻ بخفي لطفه وخفي حكمته في سعة علمه وعلى مشيئته أوصله إلى ما لم يكن يأمله من عزيز النصر وكريم الظفر، وكذلك قوله جل قوله: ﴿**ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ**﴾ [الشورى:19] أي: يرزق من يشاء مما لم يكدح فيه ولا أمله، كما قال رسول الله ﷺ: «**أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم**»[1]. لطيف بهم، خفي ببرهم، قدير على توصيل

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/73، رقم 1197).

ذلك إليهم من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون، وقد يكون اللطف في إتقان الصنعة وتركيب دقائق الخلقة وما دون ذلك من الخفايا ومن سرائر الجملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:13].

وقد أدرك بعضهم بهذه الأقسام قسمًا آخر زعموا أنه من اللطف وليس به، قالوا: اللطيف قد يكون الضئيل الجسم، والرقيق الخلق، والضعيف والدنيء، وما ذلك كما ظنوه ولا الحق بالذي زعموه، وإنما هي كلمة مولدة عن رأي محدث لم يصح به مذهب ولا نُقل نقل اللغة؛ بل لحقائق المعارف توابع أشباه ونزول تتولد عن اتساع العوام؛ لبعد العهد بالأصول وإنما قال الشاعر:

بمهذب رَخصٍ كَأَنَّ بَنانَهُ ... عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعقَدِ

فوصف البيان باللطافة، ونوع منه بحسن الخلقة وإبداع الصنعة وخفي سريان النعمة بلدون نداوة تلك البشرة ولم يذهب إلى تنقص من وصفه، فيعني الإخراج والدقة فكيف ولم يبق شعره على هجو هؤلاء التعييب لخلقها[1].

---

(1) قال صاحب «دقائق الإشارات»: ومنها اللطيف، قال تعالى: وَهُوَ ﴿ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:13]

ومعناه: الذي يريد لعباده الخير واليسر، ويفيض لهم أسباب الصلاح، وهذا للمؤمن من عند من لا يرى أن ما يعطيه الله تعالى للكفار نعمة، أو أراد للمؤمن خاصة في أسباب الدين، أو أراد المؤمن والكافر عامة في أسباب الدنيا عند من يراها في الجملة.

قال أبو سليمان: اللطيف: هو البر بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى:19]، وقيل: هوالذي يوصل إليك إربك في رفق، ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي – قدس الله سره: اللطيف سريانه في أفعاله الموجودات، أي باعتبار أنه الفاعل لها، واختفاء لطائف حكمته في مظاهر الكائنات، هو الذي ييسر كل عسير، ويجبر كل كسير.

اعلم أن حقائق هذا الاسم وأسراره عمّت مراتب الوجود، واللطيف مأخوذ من اللطف، وهو الخفاء، وأغرب أمثلته، خفيات ألطافه، مد الظل وقبضه، فإن البصر لا يدرك غير امتداده وانقباضه، حالاً بعد حال، ولا قدرة له على شهود حركته المحسوسة على الدوام، فضلاً عن شهود حقيقة خروجه عن الأصل الحقيقي ورجوعه إليه، فإن الظل إذا أخذ في الامتداد، يخرج من ذات الشخص، وكذلك إذا انقبض لا ينقبض إلا ما منه خرج، هذا شهادة العين. وقال الحق =

الاعتبار

مسالك اللطف على وجوهه موجودة في آثار سريان الحكمة وخفايا مجاري الأسباب كلها، إلى تتميم كلماته في سنته من الإتيان بالأرزاق وتقسيمها، والفرج والنصر والغياث والكفايات كلها، وقيام موازينه ﷻ في القبض والبسط، والنفع والضر، والتقديم والتأخير، والإعزاز والإذلال، والفتح والإمساك، والهداية والإضلال، والإحياء والإماتة، وعلى القول بالإجمال فهي مقتضى قهره، وكيف استاق الذوات بمشيئتها عن إرادتها إلى مشيئته من حيث لا يحتسبون، حتى وافق بين التقدير والمقدار، وبين التكوين والأكوان، وحتى قابل بنسخة ما يكون ما قد كان، وطابق ذلك بين الأولية والمآل في العقود، والأقوال والأفعال على اختلاف ذلك في الدواعي والأغراض، وتقليب الأحكام بهم في البدء والعود، والوجود والعدم، وتغاير الأمكنة وتباعد الأزمان، كيف استخرج ذلك كله من غيابات خزائنه؟ ثم كيف صير ذلك كله لطفًا

=

عز شأنه: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: 46]؛ إشارة إلى أن ما يخرج منه هو الحق سبحانه، ظهر من حيث تجليه بصورة فيه، فظل يبرزه تارة ويقبضه أخرى، وكما أضاف القبض إلى نفسه، كذلك أضاف الامتداد إليه، بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان:45] الآية، وهذا من ألطف الإشارات، فإن العين تدركه، وتشهد حركة الامتداد وانقباضه من ذات، انكشف أنها هي حقيقة من لطائف تصرفات القوي اللطيف، وكذلك قوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:80]؛ إشارة إلى سريان هذا اللفظ الإلهي، الذي هو كسريان نور الشمس في أجزاء الجو؛ إذ امتزاجها بحيث لا تقع الإشارة إلى الهوى إلى النور، وكذلك سبب اختفاء الذات المتعالية سعة ظهوره واحتجابه عن الإدراكات بسبحات نوره، انتهى.

وقال الجيلي - قدس الله سره - في «الكمالات الإلهية»: اسمه اللطيف تعالى، هوالذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان، فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد، فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفطار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها، وأظهر عليها من صفاتها غاية الإظهار، وهذا الاسم اسم صفة إلهية بهذا الاعتبار، ولهذا الاسم اعتبار آخر، وهو أن اللطيف هو الذي يسرع بكشف الغمة عند حلول النقمة، ويصبح بإزاء النعمة من حيث لا تتوفقها الغمة، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**إن لله في طرفه عين نظر لطف إلى خلقه**»، فهذا الاعتبار اسمه اللطيف من أسماء صفات الأفعال، وصفته اللطف، وهو عبارة عن سريان الرحمة بأنواع الإغاثة والنعمة من غير امتناع، وبالاعتبار الأول: أن اللطف عبارة عن غموض أعلم به من حيث يحصل امتناع معرفته على الحقيقة؛ للطافتها عن مدارك الفهوم، وتنزهها عن مبلغ غايات العلوم أ.هـ..

يلطف به خاصة لعباده المؤمنين، وبالضد في أبعاض ذلك لأعدائه الكافرين، وكيف أقرها واستودعها الخزائن؟ وكيف لطف في إرساله الرياح اللواقح، ثم لطف في إلحاقها السحاب في صفاء الجو وحر وهجه؟ وكيف لطف في إيجاد الماء في السحاب، وتكوينه من لا موجود أو عن موجود ليس به إحالة إليه وإصارة إلى حقيقته؟ وكيف لطف في تقويم الرياح إلى مهابها، وأوجد لها قوة تستاق بها السحاب إلى بلده الميت؟ ثم كيف لطف في ترتيب إنزاله الماء إلى الأرض؟ وتقطيعه رذاذًا ورشًا، ورطوبة وبرودة ليلاً، يهلك ما كان ينزله عليه لو أنزله جملاً، وفصله قطعًا وكسفًا، أو يهلك ما كان أصلحه غياثًا بهجمات الأضداد، لولا تدريج التدبير ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28].

ثم كيف لطف الأرحام في الأرض حتى تفتحت لقبول الماء والنبات، وجميع الناشئات حتى اتسعت في أقطار الهواء وذهبت في الثرى، وكيف زاوج بين ذلك؟ وكيف لطف في فلق النوى والحبِ وبرز ما ليس له أصل ولا برز؟ وكيف أجرى الحياة في أفلاق الحبوب والنوى حتى كونها ورقًا؟ ثم كيف لطف لها في استخراج عروق منها في أسفلها إلى الأرض؟ وكيف لطف لها في أن تمص الغذاء منها؟

ثم كيف لطف في تدريج النشء بلطف خفي لا يبين إلا بعد تجميل جمله لخفايا سريان سر الخلقة فيه، حتى طلعها شجرًا؟ ثم كيف لطف لها في استخراج ثمرها عنها، ولم تكن الثمرة كامنة كمون وجود؛ بل في علم غيبه وخزائن قدرته، فأخرجها بقدرته وخفي لطفه على مسالك شرائعه في سننه لتتميم كلمته؟ بل كيف لطف العباد في تقسيم أرزاقهم، وترتيب معاشهم؟ فربما كان هذا الغذاء من الحب والثمر والأنعام متفرقًا في أقطار من الأرض نائية، وأماكن من بلاد متباعدة، فوفر دواعي بعض عباده؛ لامتياز الطعام وجلب ما في الأبعاد من الفوائد والأنعام، حتى يجمعه في بلد وتقسمه على من هنالك، فربما قسم لعبد من عباده حبة من بلد وأخرى من بلد، وربما طحن ذلك الحب فقسمه على الهباء والأجزاء التي تتجزأ إلى أقل منها، وكذلك في تجزيه لحوم الأنعام وألبانها، وتقسيم الثمرات كلها وفوائدها؛ فيلطف بهذه الألطاف في جميعهم، فأرزاقهم من أقطار السماوات والأرض على تنائي ذلك واختلاف الأملاك وتفريق الأبعاض، فينشئهم بذلك نشء في أجسامهم وحواسهم واختلافهم، فتكون عن ذلك أعمالهم وأخلاقهم وصفاتهم ومذاهيهم وجميع جملهم، قد أحصى ذلك كله

وقدره على تبعيضه، وجمعه على تفريقه وكأن به سيفرقه، ثم يلطف له في استياقه على سواء طريقه الذي ذهب عليه، فسبحانه وله الحمد ما أقدره في لطفه، وما أعجب ما يأتي به من لطفه على ما شاء من تدبيره.

كذلك الاعتبار في النطفة، وقد جمعت مما جمع منه الغذاء، كيف لطف في تحصيلها من جملة الغذاء إلى حقيقتها؟ ثم لطف في أن أقرها قرارها المكين في استنزال النطفة من بين صلب الذكر وترائب الأنثى، فأنزلها بلطفه على وفق منها بروح الخلقة التي استودعها فيها على سنته على اشتراك في ذلك، بينهما الاستخراج الشبه إلى مخلوقه عنهما، فسبحانه كيف لطف في ذلك؟ ثم كيف لما قبله تولاه بلطفه، فلا لطفه بخفي تدبيره وعظيم اقتداره نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا يقره إلى أجله وينشئه خلقًا آخر؟ بل كيف لطف في إتمام تدقيق صورته في آخر كونه نطفة وفي أوائل عقده من الماء المهين؟ وكيف فصل مفاصل أصابع يده ورجليه، وجعل ما بين تلك المفاصل براجم حتى أكمل الأصابع وصور الأظفار على دقة ما هنالك من خلقه، ثم فصل الأصابع من الكفين وربط الأشاجع والجملة برباطتها، وزمها بعصبها وعضلها، ثم غشاها بجلدتها، ثم فصل اليدين من الذراعين والذراعين من المرفقين والمرفقين من العضدين والعضدين من المنكبين؟ كذلك في الرجلين إلى الوركين، ثم كذلك في الظهر إلى العنق والمنكبين، ثم في الرأس.

وكيف لطف في إحكام وتهيئة الشئون، وتركيب الدماغ والنخاع والمخ وجميع الجوارح الظاهرة والجوانح الباطنة، بما له أوجد ذلك كله؟

وكيف لطف في إحكام خرق المعاء وتفصيله وتوصيله، وإحكام تقسيمه وتسهيل سبلها ونصب المعدة والكلى بما له أوجدهما؟

وكيف لطف في زم السبيلين واستخراج الثقيلين؛ بأن ربطهما برباطاتهما ودفع المفتاح إلى إرادة حاملها بإذنه؟ يوجد ذلك كله إيجادًا وينشئه إنشاءً بلطفه، وعظيم اقتداره الدقيق عنده والجليل، سواء ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [يونس:61].

بل كيف لطف البسط في حال القبض والقبض في حال البسط؟ حتى أنه جل وتعالى قد يقبض بالبسط ويبسط بالقبض وقد يبسط بهما، وكذلك في التقديم والتأخير، والنفع والضر، والإعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، وجميع موازين التدبير، وجرد ذلك

في الوجود كطلوع الليل والنهار واختلافهما على ذلك وتقليبها بالإيلاج والتكوير، وكطلوع الشمس والقمر والنجوم وجميع الأفلاك، وحركات ذلك كله في تداويره وتقديره العمر في منازله، والشمس في مطالعها ومغاربها، وكالمد والجزر والغيض والفيض، وفي الإحياء والإماتة يحيي في حال الإماتة ويميت في حال الإحياء: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى:15].

هذا في الوجود، وأما في خواص النفع والضر، والهداية والإضلال، وتقسيم أقسام العباد على ذلك، فقول الله ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ...﴾ [الزخرف:33]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:178].

وقوله جل قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:179].

وكقولهم: منع الله ﷻ ألاّ تجد نحو هذا من جهل العبد تدبير ربه إياه، وإنه لا يدري في أي قضائه الخيرة له، غير أن المؤمن لا يقضي الله ﷻ له بشيء من حيث هو مؤمن إلا كان خيرًا له، والكافر لا يقضي الله ﷻ له بشيء من حيث هو كافر إلا كان شرًّا له، إن بسط له فتنة وإطغاء، وإن منعه وقبضه وأسخطه وعاداه، سبحانه وله الحمد كثيرًا كيف لطف بعباده المؤمنين حتى عبروا بحار ما هنالك، ونجاهم من تلك المهالك.

التعبد

أول ما يجب عليك من التعبد باسمه اللطيف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه طلب علمه، فذلك مفتاح التعبد له به وبغيره من الأسماء تقديم العلم يطلبه في مظانه وسبيل مسالكه من العالم، ثم انظر كما يجب أن يلطف لك فيما يكون لك برًّا فالطف أنت بذلك حسب طاقتك بإخوانك المؤمنين، وأوصل إلى من أمكنك من برك وخيرك ومن

لطفك ما أمكنك، ولتشغل نفسك بالشكر لمن لطفه بك خفي وبره إليك واصل في سرائك وضرائك، وتلطف في إيصال برك إلى من أوصلته بألطف المآخذ وأحسن المذاهب فذلك البر في البر، وتذكر إيصال رسول الله بره إلى جابر بن عبد الله - رحمة الله عليه - وكان عريسًا ولم يعلم رسول الله ﷺ بذلك، فلما سأله: **«هل تزوجت يا جابر؟»** قال: نعم، قال: «**بكرًا أم ثيبًا؟**» قال: بل ثيبًا، قال: «**فهلا جارية تلاعبها تلاعبك** ....»[1]، فاشترى منه جمله وأفقره ظهره إلى المدينة، فلما دخل المدينة دفع إليه الجمل والثمن، فكذلك فلتكن أنت في إيصال برك إلى من لاطفته على قدر الإمكان والمكان، وكل امرئ حسيب نفسه.

اسمه الحليم عز جلاله وتقدست أسماؤه

جاء هذا الاسم الكريم في القرآن وحديث رسول الله ﷺ على مثال فعيل، ولم يأت على بناء فاعل ألبتة إلا وصفًا لغير هذا المعنى.

يقال من ذلك: حلم يحلم حلمًا إذا صار حليمًا، وأحلمت المرأة: إذا ولدت الحلماء، ويقال فيما يكون على بناء فاعل: حلم يحلم حلمًا في منامه فهو حالم، وتحلم: تكلف ذلك وتَقَوَّل على حلمه ما لم يره.

وقد جاء حليمًا بمعنى عليم قال الله ﷻ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:28]، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:11] ويعضد هذا الوجه قولهم: حلم يحلم حلمًا، فهو حالم إذا رأى في منامه، والرؤية والرؤيا من قبيل العلم، فوصفوا بهذه الرؤية الحلم غير أنهم فرقوا بينهما تفرقة عرفان، وقد جاء بمعنى العقل أيضًا في

(1) رواه الطيالسي (ص 237، رقم 1706)، وأحمد (308/3، رقم 14345)، والبخاري (2009/5، رقم 4949)، ومسلم (1087/2، رقم 715)، وأبو داود (220/2، رقم 2048)، والنسائي (61/6، رقم 3219)، وابن ماجه (598/1، رقم 1860). وأخرجه أيضًا: وأبو يعلى (413/3، رقم 1898)، وابن حبان (447/14، رقم 6517).

قول الله ﷻ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور:32]، ولمقاربة ما بين العلم والفعل في الباطن عسر التحقق بمعلم مقتضى صفة الحلم وبما هو الحلم.

وقد تقدم ذلك في اسم العليم، وأنه لا تتخلص العبارة عن أحدهما دون الآخر إلا بمشاركة بينهما، وهذا - والله أعلم - يدل على أن الحلم من الأسماء الخاصة بالباطن، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ...﴾ [النور:59]، فجعل الحلم أمارة دالة وعلامة موجب وجود التكلف؛ لحصول العقل والتميز عند تلك النهاية مع استصحاب تلك الصفة في حاملها، والأقرب إلى معرفة حقيقته - والله أعلم - أن يكون جامعًا لمعاني الصفات، فمرة يعبر عنه باسم العلم، ومرة بالعقل الموجود عنه، وهو التثبت والأناة، والعقل الخارج من الإرادة والعلم والقدرة وعلى ما ينبغي، فالحلم نفس التثبت والأناة والإمهال وترك العجلة، وما يتبع هذا فعل الحلم هذا وصفه من جهة فعله.

وأما وصفه من قبل ذاته فعسير من حيث إن الباطن إنما يعرف بأفعاله وأسمائه من حيث دلالتها عليه، وإلا فالحلم زين الباطن، وقد وجدنا العبارة عن الجملة أو أكثرها به؛ ولذلك قيل لطرف ثدي المرأة: حلمة، لخروج المعاني والأخلاق والصفات عنها في اللبن بمص الوليد إياه، واللبن: الفطرة التي ينشئ ﷻ بها المولود خلقًا وأمرًا، وهو نشوء الصفات، وهو جامع المعاني والصفات، الفحل والأم؛ أعني: الولد والوالدة؛ ولذلك قدم الله ﷻ فعلها، أعني: صفة الحلم بين يدي تدبيره يوم استوائه على العرش، فكتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت عذابه وغضبه، وقال رسول الله ﷺ لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ»[1].

---

(1) حديث ابن عباس: رواه مسلم (48/1، رقم 17)، والترمذي (366/4، رقم 2011)، والبيهقي (104/10، رقم 20059).

حديث أبي سعيد الخدري: رواه مسلم (48/1، رقم 18)، وأحمد (22/3، رقم 11191)، والبيهقي (194/10، رقم 20591).

حديث زارع بن عامر: رواه أبو داود (357/4، رقم 5225)، والطبراني في الأوسط (133/1، رقم 418)، والبغوى (520/2، رقم 905)، والبيهقي (102/7، رقم 13365).

حديث الأشج: رواه أبو يعلى (242/12، رقم 6848)، وأحمد (206/4، رقم 7846)، قال الهيثمي (387/9): رجاله رجال الصحيح إلا أن ابن أبي بكرة لم يدرك الأشج. والبخاري في =

ولم يأت الله ﷻ اسم بالفعل ولا صفة وصف من شاء من عباده بالعقل، وسمى به وعظم قدر العقل جدًّا وأكثر عنائه، وقال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليأتي بصيام وصلاة وصدقة واجتهاد**»، أو كما قال رسول الله ﷺ: «**وما تجازى إلا بقدر عقله**»[1]، وقال: «**إن الرجل ليصلي الصلاة وما له منها إلا بقدر ما عقل منها**»[2].

ذلك - والله أعلم - لأن العقل فعلّه مأخوذ من اسمه، أي: يعقل ما وعاه بالعلم والذكر عن والتلفت، والتمييز له الاشتباه، وهو يعقل حامله عن دنيات الأمور وسفساف الأخلاق، سيجلب ذلك بالفكر، ويحضره بالذكر ويحضره بثقافه، ويحتويه بإحاطته، ويأسره برباطه ويعقله بعقاله، وهو أيضًا يعقل غيره من الصفات ألاَّ يشد منهن صفة عن طريق العدل، فإذا عقل الصفات غيره لزمت بذلك طريق العدل، وصارت بما عقلته من معاني العلم على سواء سبيل الشرع، وهذا بالهداية من الله ﷻ والتوفيق إلى سواء الطريق.

ووصف الحلم: فعل الشيء على ما ينبغي من جميع الوجوه في الحال والوقت والهيئة، فقد جمع وصف الحلم أوصاف العقل كلها، وأما الله ﷻ وتقدست أسماؤه فليس في صفاته تخالف هو المقدس عن الافتقار إلى ما يصلحه العقل، وإنما العقل قالوا: نور الله في عبده، وقالوا: العقل وكيل الله ﷻ على عبده لأشياء به يعرفها، والله هو الغني الحميد وعباده الفقراء.

إنما العقل في موضع الفاقة والفقر، والحلم في العبد في أعلى العقل إذا تمت في العبد أفعال العقل بمجاورة ما كان عاقلاً، وإذا تمت فيه بتتميم من الله ﷻ وتأييده

=

التاريخ الكبير - نسخة فيض الله محمود بن غيلان (447/1/2).

حديث ابن عمر: رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (388/9) قال الهيثمي: رواه الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير نعيم بن يعقوب، وهو ثقة، ورواه في الأوسط من طريق حسنة الإسناد.

حديث جويرية العصرى: رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (610/2، رقم 1659). قال الحافظ في الإصابة (526/1، ترجمة 1264 جويرية العصري): ذكره ابن منده تعليقًا، وأبو نعيم موصولاً.

(1) رواه الخطيب (200/2).

(2) رواه الطحاوي في مشكل الآثار (319/3).

منه، وكانت له سجية وعادة كان حليمًا فأوى، والله أعلم بالعلم والحكم إن هذا المعنى هو خاصة تسميته بالحلم دون العقل لهذا وما هو أكبر من هذا وأعلى، فإن هذا اسم لم يخرج من أفعاله إلا ما هو رحمة وشفاء وباب إلى رحمته الواسعة، والذي لم يخرج بعد من أفعاله أكثر جدًا، وإن كانت الأسماء كلها كذلك؛ أعني: إنه أبقى منها ما يعجب به عباده، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، دون نهاية متوهمة ولا غاية في ذلك مدركة، فهذا الاسم فيه من خاصة هذا المعنى أكثر الكثير وأجزل الجزيل، والله أعلم بأسمائه، غير أن العقل المخلوق خاص والحلم الخالق ﷻ؛ إذ ليس في معلوماته تفلت من علمه المحيط، ولا في صفاته تخالف فيعقلها بالعقل، تعالت عن ذلك عظمته وصفاته وجلت أسماؤه.

وقد وصف الله ﷻ بالحلم من شاء من عباده وهو الخاصة من الخصوص، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:75]، و﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:114]، و﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:11]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، يريد الحلم - والله أعلم - والطهارة والطيب والكرم والوفاء إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى؛ ولذلك قالت عائشة - رضي الله عنها - وقد سُئلت عن خلقه ﷺ، قالت: «**كان خلقه القرآن**»[1]، والله أعلم.

والمخلوق كثير ما سماه ربه - عز جلاله - بأسماء عديدة من أسمائه، لكن على المعلوم من نقص البشرية والمعهود من فقر الخليقة، ولم يتسم الخالق ﷻ ولا اتصف باسم من أسماء عباده؛ ذلك لأن الأسماء والصفات نزلت من عنده، ولم تصعد أسماؤنا نحن إليه لنزاهته وعلائه من كل وجه وبكل معنى، فهذا وجه يشرف بك على علم الحقيقة من تسميته لنا بالحلم، وامتناعه هو ﷻ من التسمي بالعقل والحلم، نور الباطن في العبد وهو زين الظاهر به سكون الصفات وتصادقها تخاذلها، وبه تكون الأفعال على ما ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي، وتوجيهها لمن ينبغي، وإذا بلغت الأفعال أن تكون هكذا سميت حكمة؛ لتمام صفاتها وتمام الفعل الصادر عنها وإتقانه، وذلك لا يكون إلا بتوفر الحلم ولا يتصور ذلك على التمام كله إلا الحليم الحق ﷻ.

---

(1) رواه أحمد في «مسنده» (25341).

الاعتبار

اطلب - وفقك الله - الاعتبار بهذا الاسم الكريم في سبل عفوه ومغفرته والإهمال، وترك المعاجلة بالعقوبات وطرق الرحمة بأجمعها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر:41]، فأخبر ﷻ أن زوال السماوات والأرض قد يكون لعظيم الافتراء من العباد، وعتوهم على ربهم وجحدهم الحق وعنادهم له، وإنه هو الذي يمسكها عن ذلك؛ لحلمه وسعة مغفرته.

وقد أخبر عن هذه الصفة ﷻ وتمدح جدًّا لمقتضاها، فقال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى....﴾ [النحل: 61]، ونظيرها في سورة النحل، وكلما تابعت النظر وبالغت في الاعتبار رأيت أن عيش جميع الخلائق في عفوه وعظيم حلمه وسعة رحمته؛ إذ حقيقة الحلم الذي هو الأناة، وترك العجلة بالأخذ هي الإرادة منه: تأخير العقوبة عن المستحقين، ألا تراه كتب على نفسه الرحمة، وأنه يحلم حتى يظن المعتز أنه ليس يعلم، ويمهل حتى يتوهم الجاهل أنه يمهل، ويستر حتى كأنه ليس يبصر، وينعم على العاصين حتى كأنهم بالعصيان يرضونه وبقول الزور والبهتان يسرونه، وهو الواسع الكريم وسع كل شيء حلمًا وجودًا ورحمةً وعلمًا.

التعبد

أي أخي، أحذرك ونفسي الغرة بحلمه والتمادي في عصيانه والاتكال على عفوه، مع الإصرار على خلافه؛ فإنه وإن كان الحليم الكريم فإن أخذه أليم وبطشه شديد، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد:41]، وأحق من أستحيي من مواجهته بما يكره الحليم، وأحق من بودر إلى طاعته العفو الغفور، وإن من الواجب على من عرف أن ربه حليم على من عصاه أن يحلم هو على من خالف أمر، فذاك به أولى، وكما تحب أن يحلم عنك مالكك، فاحلم أنت على من تملك، ومتى هممت بأمره فتدبر عاقبته، فإن كان رشدًا فأمضه، وإن كان غير ذلك فتعوذ بالله من شره.

اسمه الرشيد ﷻ

يقال من ذلك: رشد يرشد رشدًا أو رشادًا ورشد رشدًا فهو راشد، ورشد: أصاب وجه الطريق وحقيقة الأمر، والرشدة نقيض الغية، ورشدين هو الراشد، فرشيد: مبالغ من رشد يرشد رشدًا ورشادًا، وربما كان مبالغًا من راشد، كرحيم من راحم، وسميع من سامع، ويكون أيضًا مبالغًا من مرشد، يقال من ذلك: أرشد يرشد إرشادًا فهو مرشد ورشيد، كقولهم: أكرم يكرم إكرامًا فهو كريم ومكرم وكذلك مبصر وبصير[1].

الاعتبار

هو الرشيد الحق ﷻ في إقامة القسط لنفسه، وهو ما انفرد به من الوحدانية ونعوت التعالي والجلال والفرادنية والصمدانية والألوهية، أقام بذلك القسط لنفسه - جل وعلا - ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل ولا كفؤ يكافئه ولا ند يشابهه، وكذلك ما اختص به من العظمة والكبرياء والملك والقدرة والسناء، والمشيئة النافذة والقدرة القاهرة، والحجة البالغة والحياة الدائمة والقيومية القائمة، والعلاء والجبروت والعزة والرهبوت، والعلم المحيط والحفظ القائم والشهود، والكمال الأتم، والجمال العلي النزيه عمّا لا يجوز أن يوصف به أو يضاف إليه، سبحانه عن ذلك وتعالى؛ لعظيم شأنه وعزيز سلطانه، هذا هو العدل المفطور عليه الخلق، المعبر عنه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]، وهي العلامة التي بينه وبين عباده ليوم القيامة، أنه لا مثل له يرشدهم يومئذٍ إليه كما أرشدهم في الدار الدنيا به إليه ﷻ، وهو العدل الذي اختص به لا ينبغي لغيره، ولا يتصف به على

---

(1) هو الرشيد الذي أقواله رشد، وأفعاله رشد، وهو مرشد الحائرين في الطريق الحسي، والضالين في الطريق المعنوي، فيرشد الخلق بما شرعه على ألسنة رسله من الهداية الكاملة، ويرشد عبده المؤمن، إذا خضع له وأخلص عمله أرشده إلى جميع مصالحه، ويسره لليسرى وجنّبه العسرى والرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى والإرشاد لعباده. فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة، والحسن، والإتقان وأقواله الشرعية الدينية وهي: أقواله التي تكلم بها في كتبه، وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار، والعدل الكامل في الأمر، والنهي فإنه لا أصدق من الله قيلا ولا أحسن منه حديثاً (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً) في الأمر والنهي.

الكمال كله والتمام الأرفع سواه، وعليه ذات جميع الدلائل الألباب، وله شهدت عند العقول فهي الأواهة في خليقته، وهي أنواره المنيرة للبصائر في عوالمه، قد استودع ﷻ الذوات ذلك، وجعل لها بالإيمان إليه به سبيلاً سابلاً وهديًا قاصدًا، ومن هذا العدل يقول جل من قائل: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [الإنسان:30]، و﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [الأنفال:17]، «**هؤلاء للجنة ولا أبالي**»[1]، وما كان من خطاب القبض كله، وقد تقدم من ذلك في رسمه من ذكر القبض والبسط ما فيه غنية.

وهو الرشيد أيضًا والمرشد الراشد إلى دينه ودين ملائكته ورسله وما حوته كتبه وجميع خليقته، دين الإسلام الدين القيم، وقد تقدم أيضًا من هذا على التكرار ما يغني الآن عن الإكثار، غير أنه المرشد للألباب إلى معرفة هذه الخاصة في الخليقة؛ لما فيها من مقتضى اسمه السلام ﷻ، فهو المبصر عباده إياها عن إسلامها له قنوتها وعبادتها على تفصيل ذلك، وهو المُسمع أولياءه معاني تسبيحها وتقليلها وتكبيرها على اختلاف أذكارها وعلوم صلواتها، كما قد أسمع ذلك وأبصر عيانًا أنبياءه ورسله، وعلى التدريج في الصديقين والأولياء والعارفين والعلماء والشهداء والصالحين من عباده، كل يسقيه بكأسه وبقيمة عند حظه وقسمه المقسوم له، وهؤلاء﴿**هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ**﴾ [الحجرات:7]، من عباد الله، إذا هم بلغوا هذه المنزلة كانوا لذلك راشدين فيتولاهم حينئذٍ، وإنه عز جلاله لا يتولى من عباده إلا من رشد بقوله الله عز جلاله: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي**﴾ [البقرة:186] أي: الإيمان، ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:186]، ثم لكل من آمن بالله وكتبه ورسله الرشاد حظه على قدر إيمانه فحسن استجابته.

كذلك له من الولاية بقدر ذلك، والله أعلم وأحكم، ثم كذلك أيضًا هو الراشد المرشد، وهو الرشيد الحق فيما شرعه كما شرعه طريق عدل وصراط مستقيم، ﴿**صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحة:7].

وهذا هو العدل الثاني، وهو ما شرعه من شرعته لخليقته تعمل به تسليمًا لأمره

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (79/1)، والبزار (417/4).

وإسلامًا له، فمن وقف عليه بإيمانه في الموجودات فقد هدى إلى الصراط المستقيم، ورآه عيانًا وشاهد الأكوان عاملة به، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا....﴾ [آل عمران:83] إلى قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:85]، وبه امتحن الله خلقه وأمر ونهى ووعد وأوعد، ومن هنا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:44]، و﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:7، 8]، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:69]، فلا يأخذهم إلا بالكتاب المنتسخ من أعمالهم وبالشهداء والبينات.

وهو أيضًا الراشد المرشد، والرشيد الحق إلى العدل الثالث الذي وضعه ﷻ لعباده بعضهم من بعض في الأحكام المفصول بها بينهم في العدل، كالقصاص والحدود والديات والأحكام والفصل في المظالم والمطالب كلها، أنزل له كتبه وبعث به رسله الحق من ربك، وهو أيضًا الراشد المرشد والرشيد الحق في جميع ما ذرأ وبرأ إلى ما قدره في الأول، عبر عن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:3].

التعبد

هو في سبل الاعتبار بمعناه والفهم له، ثم العمل بما أرشدك إليه الرشيد وترك الخلاف للمرشد، والله المستعان ولا قوة إلا به.

اسمه الرَّب تبارك وتعالى

الربوبية للملك بوجه من ذلك، قيل: رب الدار ورب المال، وقد يعبر بلفظة الربوبية عن معنى السيادة وذلك راجع إلى الملك، قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:23] يريد سيده الذي اشتراه، وقال عليه السلام لأحد الفتيين: ﴿ٱذْكُرْنِى

عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:42] أي: عند سيدك المالك، ورب الشيء: هو مالكه، وقد يأتي بناؤها لمعنى الإصلاح منه، قيل: رَبَبْتُ الزِّقَّ بالرُبِّ، والرُبُّ السلاف الخاثر من كل الثمار، ويقال من ذلك: رَبَبْتُ الحُبَّ بالقِير: أصلحته، وقيل للشيء: تربيه يعمل بعمل مربى.

وقد تكون بمعنى الموالاة، وترداد العاهد في النعمة، خاصة الكثرة من ذلك، قيل أرض مرب إذا كانت لا تزال بها مكر، وهو راجع إلى معنى قولهم: ربيت النعمة عند فلان إذا زدت فيها وواليتها، ويكون بمعنى التربية والتغذية والكفالة والقيام على المكفول المغذى بما يكون صلاحًا له، يقال من ذلك: ربيت الصبي أيضًا، ومن ذلك قيل خاصته: الربيبة للرجل ولولد، بعل المرأة: ربيب، والراب: زوج المرأة رابه، وقيل للمشاة الحديثة العهد بالولادة: ربي لتغذيتها ولدها، والجمع: رباب، وربابها: ما بين ولادتها إلى عشرين يومًا.

وقد يأتي بمعنى القرب واللزوم، من ذلك أرب يرب بالمكان إذا قام به ولزومه، ومنه قيل للمكان الذي يحله الناس: المرب، والإرباب: الدنو، وقيل للسحاب: رباب لدنوها وقربها دون السماء.

وقد يأتي بمعنى الكثرة من ذلك، قيل: أرض مرب إذا كانت ينزل بها المطر، وهو راجع إلى معنى قولهم ربيب النعمة، أربها أو رب كلمة يراد بها التكثير، من ذلك قولهم: ربَّ رجل لقيت، قال الله ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:2] أي: ذلك كثير وجوده في الدار الآخرة، اسمه الرب وتعالى علاؤه وشأنه جامع لهذه الوجوه كلها، وقد يعبر بها أيضًا عن معنى التكثير عندما يظن به التقليل، من ذلك قول رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**»[1]، وقوله أيضًا: «**رُبَّ أشعث أغبر يطيل السفر وملبسه حرام، ومركبه حرام، ومطعمه حرام، وقد غذي بالحرام يرفع يديه إلى السماء، فيقول: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك**»[2].

---

(1) رواه الترمذي (692/5، رقم 3854)، وقال: صحيح حسن. والضياء (420/4، رقم 1595)، والحاكم (331/3، رقم 5274)، وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم (350/1).

(2) رواه أحمد (328/2، رقم 8330)، ومسلم (703/2، رقم 1015)، والترمذي (220/5، رقم =

الاعتبار

الله - جل ذكره - هو الرب الحق ذو الربوبية الكاملة على جميع وجوهها، فهو الله لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه وكافله ومغذيه ومصلحه وملطفه بقوله العواد عليه بنعمه، الراب له بالقيام عليه القريب من كل شيء بما يكون وجودًا له الملازم له بذلك المصلح له المكثر عليه بترادف أنعمه، ثم خص أولياءه بإتمام نعمته وإكمال آلائه وإحسانه وحقائق رحمته ينشئ الإيمان والمعرفة في قلوبهم، ويغذيها بتذكاره إياهم، ويصلح ما فسد بركوب المناهي منهم؛ بتخويفهم من عذابه وعوده التوبة النصوح عليهم، فهو القريب منهم بالمعاهدة، الملازم لهم بالمقاربة، القائم عليهم بحراسة ذلك فيهم، المقيم لهم بإقامة العثرات واغتفار الزلات، المكثر لما يكون من قليل طاعاتهم المقلل لكثرة زلاتهم، فهو الرب الحق لا إله إلا هو، لا يعزب شيء عن علمه ولا يخرج عن تقديره، ولا يفلت عن ملكه ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس:61]، مالك الملوك والملك والملكوت، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه وكل شيء مذكور سواه عبده وهو ربه، لا يصلح إلا بتدبيره ولا يقوم إلا بأمره ولا يربه سواه.

واسم الرب جل ذكره - فاعلم - عام في صفة الرحمة؛ لذلك وهو أعلم جاور بينهما في أم الكتاب، فقال جل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:2-4]، غير أن إكمال النعمة منه بمقتضى أسمائه؛ إنما هو لأوليائه، وأما أعداؤه فهم في أوابلها بمقتضى الخلقة وأوائل النشأة، فافهم.

التعبد

أول التعبد به طلب علمه، وتعرف مسالك وجود مقتضياته في العالم، واستعلام سبل مجاريه في الوجود، فاستقر ذلك - علمك الله من علمه - وميز طرق هذه الفصول التي تقدمت ذكرها في الاعتبار باللغة بعضها من بعض، وتعبد له التعبد كله، ومدرك في تعبدك تفريق صفاته من صفاتك وإفراده منها بما هو له أهل، ثم لزومك أنت قدرك،

=

2989) وقال: حسن غريب. والدارمي (2/389، رقم 2717).

وتركك التعدي لطورك، فهو الرب ﷻ وأنت العبد، وهو المنعم وأنت المنعم عليه، وهو المنان بموالاة نعمه وترادف إحسانه، وأنت الممتن عليه الفقير لما يكون منه إليك، وهو المالك وأنت المملوك، أفرده بما انفرد به من الكمال ونعوت التعالي والكبرياء والجلال، والزم نفسك شاكلة العبودية؛ فذلك شرفك وسبيل كمالك ونعمتك في الدنيا والآخرة.

اسمه البر ﷻ وتعالى شأنه

البر: الوسع والخير، والبار وهو الواسع به؛ لذلك قيل لما هو الخلاف للبحر: بر، وقيل للصحراء: برية، وقالوا: أخرجت برًا حكاية عنهم، أي: خارجًا من البيوت لمعهود السعة في ذلك.

وقد يعبر بلفظ البر عن معنى الصدق وهما متلازمان في اسم البر، من ذلك قالوا: برت يمينه، بمعنى: صدقت، وأبرها: أمضاها صدقًا، وبر الله حجه وعمله؛ أي: صدقه، وقد يكون قولهم: بر الله حجه وعمله، أي: حصنه بالبر وجانبه الإثم وباعده عنه، وقالوا: قوم بررة وأبرار، أي: ذوو سعة بالخير وصدق فيه.

وقد يعبر بالبر عن معنى الإحسان، من ذلك قولهم: بررت الضيف، بمعنى: أحسنت إليه وأكرمته، وبر الوالدين من ذلك، وهذا من معنى الوسع، يقال: أوسعت أضيافي برًا والوالدين كذلك، وقد يزاد في معنى بر الوالدين الشكر فيكون البر عبارة عنه، قال الله جل قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:14]، وقيل لرسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال فيما أجاب به: «**بر الوالدين**»[1]، فبرهما وشكرهما لما تقدم منهما من إحسان، والإحسان إليهما وإعطاؤهما حقهما وإزاحة العقوق عنهما.

---

(1) رواه أحمد (421/1، رقم 3998)، والبخاري (197/1، رقم 504)، ومسلم (89/1، رقم 85)، والنسائي (292/1، رقم 610)، وابن حبان (341/4، رقم 1477)، وأبو يعلى (188/9، رقم 5286)، والبغوي في الجعديات (84/1، رقم 470)، والطبراني (19/10، رقم 9805)، والبيهقي (215/2، رقم 2984).

وقد يكون البر بمعنى: التضاؤل والتضافر بوجه وبه تمامه، ألا تراه ﷻ كيف اشترط ذلك في بر الوالدين من الشكر والإحسان، وخفض الجناح من الرحمة، والدعاء لهما والطاعة لأمرهما ما لم يخالف ذلك منهما ما أمر الله به، والمباعدة لما يكرهانه أو تقارب؛ إذ أتيهما قولاً وفعلاً وعقدًا.

الاعتبار

فالله عزّ جلاله البر بعباده، يوسعهم خيرًا وكرمًا وفضلاً وشكرًا وإجابةً، والعبد بر بربه يشكره ويسارع في مرضاته، ويجانب ما يكرهه، يتضاءل لعظمته، ويتصاغر لكبريائه ويؤدي إليه حقه، ويقف نفسه عند حظها، ويراقب متى يتوجه منه إليه أمر يقوم به ويعمل عليه؛ فاسم الرب عام والاسم البر من حيث إن البر خاص الرحمة والربوبية عامة فيها.

والبر أخص معاني الولاية، قال الله ﷻ: ﴿رَبُّ كُلِّ شَىۡءٍ﴾ [الأنعام:164]، مؤمن ذلك كله وكافره، كما هو خالقهم ورازقهم، وبره خاص بأوليائه المؤمنين؛ ولذلك يقول أهل الجنة في دار قرارهم وحال حبرتهم وسرورهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:28]، والأبرار من العباد هم الصادقون في القول والعمل.

التعبد

جملة التعبد هو الاسم الكريم تجري الصدق في الأحوال كلها ظاهرها وباطنها، مع العلم بما يكون من ذلك برًا، والتمييز له مما لا يكون برًا، وضد البر: الإثم، قال رسول الله ﷺ: «**البر ما اطمأنت له النفس، والإثم ما حاك في الصدر**»[1]، وأوائل البر: أداء الفرائض واجتناب المحارم، وبالتوسع في أعمال البر علمًا وعملاً تصعد الأبرار إلى درجة المقربين من الله بهما علينا وعليك بمنّه ورحمته إنه هو البر الرحيم، لا إله إلا هو لا شريك له.

(1) رواه أحمد (182/4، رقم 17668)، والبخاري في الأدب المفرد (110/1، رقم 295)، ومسلم (1980/4، رقم 2553)، والترمذي (597/4، رقم 2389) وقال: حسن صحيح. والحاكم (2/ 17، رقم 2172) وقال: صحيح الإسناد.

اسمه الجوَّاد عَزَّوَجَلَّ

يقال من ذلك: جاد يجود جودةٍ فهو جيد وأجاد وجود، كل هذا إذا أتى ما هو جيد، وجاد يجود جودًا فهو جواد، ويقال من هذا: قوم جود وأجواد، ومنه قيل: جاد فلان بنفسه، أي: ساق بها، وجاد المطر جودة إذا أكثر، ويقال فيما يقاربه جَدَا فلانٌ على فلانٍ يجدو أعطاه، والعطية: الجدوى والجدي، والمجتهد في الطالب يجدو، فمعطي الجدوى وفاعل الجدوى قد جاد وأجاد، أي: أعطى الجداء، وأتى بذلك ما هو جيد، والجدى أيضًا الغنى، يقال منه: ما يجدي عليك هذا بمعنى ما يغني عنك[1].

الاعتبار

الله ﷻ هو الجواد الحق، ابتدأ الخلق بجوده فجاد بفضله عليهم، وأجاد في فعله وتقديره وتدبيره وتفصيله وتوصيله، فمن أحب أن يقف على معرفة بعض معاني جودة فعله باعتباره وصحة من عقله على إثارة في خليقته، وعجائب إبداعه في بريته، وإتقانه في حكمته وإحسانه في صنعه وبدائع اختراعه؛ فإنه يشرف من ذلك على ما حار فيه الوهم، ويضل عن أدنى حقيقته الفكر وتنقطع دونه المعرفة، فواصفه أبدًا موصوف بالعجز عن بلوغ الكنه، والمطنب فيه مقصر عن بلوغ أيسر الحقيقة.

وأما جوده بفضله، فقد كان له ﷻ أن يخلق خلقه على أقبح الصور وأحسن الهيئات وأذل الأحوال، ثم يصيرهم بعد ذلك إلى أيأس المصير، بل جاد عليهم ﷻ

---

(1) الجواد: يعني أنه تعالى الجواد المطلق الذي عم بجوده جميع الكائنات، وملأها من فضله، وكرمه، ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر، وفاجر، ومسلم، وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤاله، وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم (وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ). ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والجواد الذي عم بجوده أهل السماء، والأرض فما بالعباد من نعمة فمنه وهو الذي إذا مسهم الضر فإليه يرجعون، وبه يتضرعون، فلا يخلو مخلوق من إحسانه طرفة عين، ولكن يتفاوت العباد في إفاضة الجود عليهم بحسب مامنَّ الله به عليهم من الأسباب المقتضية لجوده؛ وكرمه، وأعظمها تكمل عبودية الله الظاهرة، والباطنة العلمية، والعملية القولية، والفعلية، والمالية، وتحقيقها باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالحركات والسكنات.

وأجاد فأجدى الجدوى وأعطى الغناء، ثم أغنى ومنح الثراء، وسوغ النعماء، وأجزل المواهب والحباء، وخول وأولى وفصل وأسرى، واختار واختص، وأنجح الطلبات فبلغت به آمادها القصوى، ألا ترى أنه أوصل إلى بلوغ المفترض، ثم سهل السبيل وبين الحق الذي يستحق به المزيد؟! فسبحانه وله الحمد من كريم جواد فياض بالخير، سمح غني يعطي ويثري، هو ملاذ المستجير، ومعتصم الشريد، إليه المرجع والمفزع، أدنى معرفة يتجاوز المجهود في أداء الشكر، وأقل صنائعه يعظم عمّا يبلغه الوسع، لا يخيب راجيه ولا يكدى آمله، أوضح براهين الهدى وأبان آثار اليقين وأعلن شواهد التوحيد، هو العالم بمضمرات القلوب والحاوي محجوبات الغيوب، المتطلع على خفيات الأضمار، الموفي على هواجس الأوهام، فكم هناك من خواطر لم يبعثه بقوى ولا نهاه حجى، ومن حديث هوى لم يردعه نهى، ومن تحرك إلى خلاف لم يكفه تحرج ولا رده شاهد من إيمان شاهد ذلك كله.

وعلمه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فجاد بجوده؛ فأذهب الشك وعلا الريب، وسكن المضطرب حتى أذهب عنه الخلاج وقوم منه الاعوجاج، ثم بوأه كنفه وأواه إلى ظله، وتدارك له أمره وتلافاه برحمته فأقامه وأصلحه، ثم نشر عنه ثوب الثناء عنه حميد الذكر، وأشاع له حسن الأحدوثة، ثم أقامه على شواهد الإيمان بصحة اليقين ورفيع العلم، فشكر له بحسن عونه النعمة وقام يعرض الشكر، ونهض بتأييده بعبء الاصطناع، فسبحانه وله الحمد، الأفكار في جوده حائرة، والأبصار عنه حاسرة، والآمال إليه ناظرة، وهو بالكرم معروف وبالجود موصوف، الإسهاب فيه تقصير والمقصر فيه معذور.

التعبد

بهذا الاسم الكريم يدور على حسن الثناء وتطلب مواقع النعماء، وتذكر الآلاء وتعرف مسالك جوده، ثم أخلص له العهد وإصف له الود وأكثر له من الحمد، ثم استعمل نفسك بإتيان الجيد قولاً وفعلاً وجدًّا بما حويته، وأنفق مما خولته وأصفح عن ذلك الإخوان، وجاوز الإساءة منهم بالإحسان، أقل عثراتهم وأسدل الستر على ما كان منهم، واعتمدهم من صفة الجود بما اعتمدك به ربهم إيثارًا لأمر الله ﷻ وأخذ بإذنه، فذلك أكسير لقوة عدوك، وأقل لحده وأسرع في حل عقده، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ

حَمِيمٌ..﴾ [فصلت:34] المعنى إلى آخره، أغض منهم على القذى، واكظم الغيظ، واسأل من الله الضراعة، وتوجه الطلبات أن تريح سخيمة قلبك، ولا تبق غلاً ولا غشًا ولا ختلاً ولا حسدًا ولا مكرًا ولا إِحْنَة لمؤمن ولا مؤمنة في باطنك - وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى - وأن يحلنا جميعًا من معاني الأخلاق في الدرجات العلا بمنه ورحمته، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

اسمه القريب جل وعز

يقال من ذلك: قرب قربًا فهو قريب، والقرب يكون للرجل والأنثى والواحد والجمع، والقربان ما تقرب به إلى الله ﷻ، ويقال: أتيته قراب العشي، وإناء قربان إذا قرب من الامتلاء، ويقال لوزير الملك: قربان ويجمع على قرابين، ويقال: ما قربت الأمر قربانًا ولا قربًا.

الاعتبار

القرب نقيض البعد، والله ﷻ قريب من جميع خليقته بمعاني الخلقة والتدبير، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:16]، فالله ﷻ أقرب إلى المخلوق من نفسه ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب؛ لأنه فاعل ذلك كله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:21] له الصفات العلا وللمخلوق مجازها.

وأما قربه من عباده المؤمنين فعلى قدر تحققهم في صفات الإيمان والإسلام ومعاني التطيب والطهارة والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جل وعز منهم سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم وأنه ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ليس في معرفة قربه مسافة ولا في العلم أمم ولا ناحية.

وقد يكون القرب نقيض الفظاظة والغلظة، بمعنى أنه ودود لأوليائه، مودود

في القلوب مجيب إليها، ويشير إلى هذا المعنى من القرب قول صالح عليه السلام: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ ا ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود:61].

اسمه المجيب جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: أجاب يجيب إجابةً وجابة فهو مجيب، وأجاب والله أعلم من الجوب والجيب وهو القطع لذلك، قيل: جبت الفلاة أجوبها جوبًا، واجتبتها قطعتها وبذلك سمي جيب الثوب، قال الله ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ [الفجر:9] أي: اقتادوا الأودية، وقطعوا لها صخور الجبال فأجروها فيها.

الاعتبار

مسالك هذا الاسم الكريم في سبل الجود كثيرة جدًا، فتطلبها في طريق الشفاعة، وقد تقدم ذكرها في رسمها في رسم اسم الشهيد جل جلاله، وأنه ليس في العالم على سبيل اعتبارها إلا شفاعة أو شافع أو مشفوع فيه، والشفيع الحق جل جلاله المشفع فوق كل شيء، يريد إيجاده أو أمر سبق علمه بقضائه، أو موجود شاء إمساكه قيض له شافعين من خلقه الملائكة ومن شاء من عباده، هذا فيما كان من خلق وتنفيذ وتدبير، وجعل لإبليس - لعنه الله - وذريته الوساطة، والتسبب في سفه الخليقة بالإرادة منهم لذلك والتحريض والمعنى، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:16].

وقسم الإنس على ذلك من هداية وضلالة، فشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:112]، وملائكة الهداية - عليهم السلام- يلقون إلى أوليائهم من الإنس أمرًا بالخير وحضًا عليه ونهيًا عن الفحشاء ونصيحة، وجعل من الملائكة من يستغفرون لمن في الأرض على العموم ويشفع لهم، ومنهم من يستغفر للمؤمنين ويشفع لهم؛ فعمت الخليقة كلها الشفاعة والإجابة.

هذا للقرب العام الذي هو قرب الخلقة والتدبير، وأما قرب الولاية والرضا

والمحبة فذلك لأهل الإيمان والعمل بالطاعة خاصة، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال جل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:11]، وقال جل قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة:22]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:42]، ومثله كثير.

ثم التقوى والعلم بالله ﷻ والعمل بطاعته واجتناب مناهيه بهداية فوق هدايتهم إلى الإيمان، الذي به فارقوا من لم يؤمن بالله ورسوله أمر خاص، وقبول عليّ ليس لأهل الدرجة الأولى فافهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]، فكما هو يتقبل أعمالهم ويثبته في القبول الأعلى، كذلك يتقبل دعاءهم ويستحفي مسائلهم، وإليهم توجه وجه الخطاب، حيث يقول جل قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ثم قال جل قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]، فدلهم بصريح النص وكمال النصيحة على عزيمة الاستجابة بأن يستجيبوا له ثانية بعد دخولهم في عباده، فافهم.

غير أنه ﷻ يجعل حوائجهم في سبل قضائه، ويقيض أدعيتهم في مجاري مشيئته، حتى أن أحدهم إذا عنَّ له دعاء نظر إلى قلبه، فإن وجد العلامة التي جعل بينهم وبينه، وهي عزمة منه لهم يوحيها إلى قلوبهم، يعطيهم بذلك من عنده ما يشاءون، كما شاء لهم أن يشاءوا والله واسع كريم، وقد قال عزّ من قائل، بعدما ذم السحر ونهى عنه وأوعد عليه وذم المتعلمين له العاملين به: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13] أي: لو أنهم آمنوا بالله إيمان أوليائه واتقوه حق تقاته؛ لأكرمه بإجابته ولأثابهم بصدقهم صدق المثوبة، إذًا السحر حقيقته تخييل وصرف للأبصار والقلوب بتجانف عن تحقق حقيقة المرئي الواقع في النفس إلى حسبان وتخييل، ليس على ما هو المرئي عليه في حقيقته وصدق المثوبة، كصدق

المثاب عليه وصدق المثيب المطلوب عنده ذلك، والسحر بطل محض وكذب بحت؛ فكانت المثوبة عليه من جنسه حسبان وتخييل.

وطاعة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه والإيمان والرغبة إليه والسؤال له حق، فكانت المثوبة على ذلك سبيل ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق وحنظلة - رضي الله عنهما - لما ابتأسا لنقصهما، وفرق قلوبهما بعد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ فتلا: وما لذلك واستقصاء منزلتيهما وعدا ذلك نفاقًا، فشكيا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقالا: يا رسول الله، إنا نكون معك، فتحدثنا عن ربنا وتخبرنا عن الجنة والنار فتوجل قلوبنا لذلك، حتى كأنا رأي عين، فإذا قمنا من عندك عَافَسْنَا النساء والهيعات وشممنا الأولاد، فنسينا أكثر ذلك؛ فقال رسول الله ﷺ: «**ساعة وساعة، لو كما تكونون عندي تكونون بعدي لصافحتكم الملائكة في فرشكم، ولسلمت عليكم في الطرق، ولكن ساعة وساعة**»[1].

فمن وفقه الله ﷻ إلى مواظبة ذكره، والتلذذ بمناجاته والأنس به، والإيثار له ولتلاوة كتابه وتدبره، والنظر في مصنوعاته والاعتبار بشواهده، وآتاه رحمة من عنده فعصمه من مكارهه؛ دام في قرب ربه، واستوجب حسن الصحبة منه له ومؤانسته ودوام مجالسته، كما قال جل قوله: «**أنا جليس من ذكرني**»[2]، وقال عز جلاله: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، وإن دعاني أجبته، وإن سألته أعطيته**»[3]، وحق لمن كان الله - جل وعلا - جليسه ومؤانسه أن يكون كذلك.

وأما كثرة الملائكة - على جميعهم السلام - فإن لكل عمل حفظة من الكرام الكاتبين، فإذا أكثر تنوعه في طاعات ربه - جل ذكره - كثرت صحابته من الملائكة، وإذا لم يكتبوا له إلا خيرًا ولم يثبتوا له إلا رفعة في الدرجات والأعمال الصالحات؛ أحبوه لذلك فاستغفروا له وشفعوا، وأثنوا عليه عند ربهم ﷻ، وربما كلموه وحادثوه،

---

(1) رواه مسلم (7142)، والترمذي (428/9).

(2) رواه ابن أبي شيبة (138/1)، والبيهقي في الشعب (728).

(3) تقدم تخريجه.

كما قال رسول الله ﷺ: «**إن منكم محدثين، وإن منكم مكلمين، وإن عمر لمنهم**»[1]، وقد جاء أن عمران بن حصين ﷺ كان يسلم عليه قبل أن يكتوي، فلما اكتوى قطع عنه ذلك ثم عاود ترك الكي وعزم على التوبة منه، فعود بالتسليم عليه.

فهذه أسباب ترفع صاحبها إلى استحقاق الإجابة لا بد ولا محالة، كالزهد في حلال الدنيا والاقتصار منها على الكفاية، واختصار ما لا يعني والاقتصار مما يغني على سد الحاجة، واختصار الفضول من الكلام والنظر وإشغال الفراغ بما يرضي الله ﷻ، فمتى غلب عن ذلك في حين من أحيانه نزل من طلب الغنيمة إلى مظان السلامة، ثم يسأل الله ﷻ أن يستعمله ولا يجعله من الغافلين، فأما ترك الحرام واجتناب الفواحش والآثام، فذلك قد تضمنه الإسلام وبدء الدخول في الإيمان، وأما الإسلام الثاني والدخول في التوبة العليا فهي هذه، وهي المطلوبة منا ولو بعد بلوغ الأشد وعند الأربعين، ﴿**ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ**﴾ [الحديد:21].

وإنما أشبعنا الكلام في هذا الفصل؛ ليستبين للداعي أنه متى لم يبلغ هذه التوبة، فإن إجابة دعائه في حقه ليس بوعد على الله ﷻ بل فضل منه، وأما أولئك فهم الذين توجه إليهم الوعد والبشارة والإجابة وهي من البشرى لهم في الحياة الدنيا، ﴿**ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ**﴾ [الرعد:31]، ولما قربوا منه كما تقدم كان هو أسرع مثوبة وأكرم قبولاً وأقرب قربًا، كما قال عز من قائل: «**إذا تقرب إليّ عبدي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني مشيًا أتيته الهرولة**»[2].

فقرب إليهم ﷻ أقرب القرب حتى صار أقرب إليهم بالإجابة لدعائهم ولتوفيقه إياهم في إرادتهم ما يريده لهم من أنفسهم، فاستجابوا له من أنفسهم واستجاب لهم دعاؤهم إياه من قربه منهم؛ إذ دعاؤهم إياه من كثب ومن قرب وأمم، وقد كان لهم من حيث هم له، كما قال: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به** .....»[3]، وكما قال بعضهم:

وَمَــنْكَ بَــدَا حُــبٌّ بِعَــزٍّ تَمازَجَــا   بِــنَا وَوِصَــالٌ كُــنْتَ أَنْــتَ وَصَــلْتَهُ

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

ظَهَـرتَ لِمَـنْ أَبْقَـيْتَ بَعْـدَ فَـنَائِهِ   فَكَـانَ بِـلاَ كَـوْنٍ لِأَنَّـكَ كُنْـتَهُ

وأما الكافرون فما دعاؤهم إلا في ضلال، ومن حيث ضلالهم عن هدايتهم طمعهم في الإجابة طمع الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء إلى فيه من كفيه دون أن يصله بوصول منه إلى فيه، كيف وطريق ما بين الماء إلى الفم مقطوع ما لم يوصل؟! وربما أجاب دعاءهم في حال الظلم؛ إذ ذلك من سبيل الخلقة وتنفيذ الأمر.

وقد تقدم ذكر هذا القرب، ولنزاهته سبحانه عن الظلم والتعدي، والمعلوم من انتقامه لغيره أكثر من انتقامه لنفسه، وربما أجابهم وهو الأكثر لحال الاضطرار للمعهود من المضطر أنه يتجرد في حال اضطراره من الأغيار، فيبقى عند ذلك موجدًا قد رجع إلى ما جبل عليه وفطر في بدء تركيبه من التوحيد، قال الله ﷻ: ﴿**إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ**﴾ [النحل:53]، ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء:67].

فإذا بلغ الاضطرار من المضطر إلى إزالة الأغيار أجيب إن شاء الله ﷻ، فموضع لفظ الإجابة في حق هؤلاء مأخوذ من القطع، كأن مجيب الدعوة قطع ما بينه وبين الداعي بالإجابة منه لهم، فاستاق الغياث إليه على ذلك البعد، كما قال: ﴿**جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ**﴾ [الفجر:9]، فقطعوا الصخر واستاقوا الوادي فيه، وهذا يدل على فضيلة الدعاء، وأن لفظة الإجابة وضعت للبعداء العصاة، وإنما يتصور البعد في حق هؤلاء، وهو ظاهر قول رسول الله ﷺ: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»[1].

وطرف هذا الاعتبار وإعلامه هو عند أهل الجنة إنما يقضي لهم هنا ما يشاءون؛ لأنه قد جعل ما يشاءوه هو ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ**﴾ [النحل:31]، ونحوه كثير على التدريج بين هذين للأولياء في الدنيا، وربما آتاهم ما لم يسألوه إذا علم منهم أنهم يريدون ذلك، ليس إلا أنهم أرادوه وأحبوه، وربما قيضهم للسؤال والدعاء تعبدًا منه لهم، فسألوه ائتمارًا لأمره وإظهارًا لفقرهم إليه، فيؤتيهم مسئولهم إلا

(1) رواه أحمد (3/153، رقم 12571).

أنهم لا يسألونه دنيا ولو سألوه ما أعطاهم ذلك، كما قال ﷺ: «**إني لأحمي عبدي المؤمن من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق إبله عن مواقع الهلكة**»[1].

وأما الأنبياء - عليهم السلام - فلو سألوه الدنيا لأعطى لهم، ولكنه ربما حماهم عن سؤاله إياها، قال رسول الله ﷺ وذكر ما أصابه من الجوع فقيل له: ألا تسأل الله فيطعمك؟ قال: «**لو شاء الله لأطعمني، ولكن رزق يوم بيوم**»[2]، وقال: «**إن الله خيرني أن يجعل لي جبال الأرض ذهبًا وفضةً، فقلت: يا رب، بل أجوع يومًا وأشبع يومًا**»[3] نحو هذا.

وقد سأل نبي الله سليمان عليه السلام الملك المعجز، فأعطاه إياه سبحانه وله الحمد، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:15]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:28]، وكثير ما يأتي وصف إجابته المؤمنين على بناء استفعل، كقوله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76]، ثم قال جلّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88]، وقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء:83. 84]، ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:84]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:87]، إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:88]، إلى قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ﴾ [الأنبياء:88]، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88]، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [الأنبياء:89]، إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:90] إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (321/7، رقم 10451)، والديلمي (239/2/1).

(2) رواه ابن أبي شيبة (255/8)، وأبو نعيم في الحلية (51/1).

(3) رواه البيهقي في الشعب (10022)، وأبو نعيم في الحلية (133/8).

خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90]، فذكر - جل ذكره - مسارعتهم إليه في الخيرات، وفي ضمن هذا أنه هو أسرع إليهم بسؤالهم منه إليه سؤالهم وأعمالهم.

ثم وصف قربهم منه وقربه منهم بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:52] أي: فاعبدون، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:190]، إلى قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 195]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:60]، وقال: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى:26]؛ فالمؤمنون يستجيبون لله به من أنفسهم، والله ﷻ يستجيب لهم من قربه منهم وقربهم منه، هم وصلوا ما أمر الله به أن يوصل فاتصلوا.

وقلَّ ما يأتي في أخباره عن إجابته الأباعد والأقاصي أهل الكفر والمعاصي إلا بغير هذا البناء، كقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62]، ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:12]، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ [الإسراء:67]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: 64]، هكذا فافهم وألقن، علمنا الله وإياك من علمه إنه عليم حكيم.

التعبد

اعلم أن قرب الله ﷻ وبعده ليس يتوهم مسافة يقطعها من أراد التقرب إليه، سواء الجهل به والخلاف له حسب، فاعرفه - وفقك الله - من حيث تعرف إليك يوم بذلك وأخذ ميثاقك وعهودك، فمن ثم فاطلبه ومن هناك تجده، واستدل عليه بدلائله، واسترشد في سبل طلبك إياك شواهده؛ فإذا تحققت معرفة الله في قلبك ذهب البعد كله في حقك، فإنما تجد البعد كله في حقك أنت، فتقرب منه بالتطيب والتطهر والعمل بما يرضيه، فحينئذٍ يظهر لك القرب في القرب فتطلبه به، ويقصده منه إليه لا يقطع بعد ولا تجشم مسافة: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:

31]، وقال: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[1].

وإذا دعوته فادعه بحالة الاضطرار ورؤية الافتقار، ثم لا تحدثك نفسك في سؤالك إياه بعمل حسن عملته، أو ذنوب منك تخاف أن يحرمك من أجلها، بل بحالة الاضطرار والفقر؛ فذلك أكمل لتوحيدك وأولى بمقامك ذاك، وأقرب إلى الثقة منك به والاستقامة إليه والركون، واعزم في المسألة فإنه لا مكره له، ولست بحال تخاف أن تلحقه فهو الذي لا يلحقه إلحاح السائلين، وتزين له بالخصال النبيلة والأفعال الرضية والأدوات المحمودة، والنصيحة له ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

واعلم أنه على الاعتبار بالعدل الأول لم يختص أحدًا بقرب منه بعمل عمله، ولا لقدم قدمته؛ بل لمشيئة في ذلك، وكذلك لم يختص أحدًا ببعد منه لذنوب اقترفها ولا لكفر سبق منه قبل وجوده، بل لمشيئة فقط؛ فلذلك ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى:15]، ولا تطغ، وفقنا الله وإياك لما يرضيه، وجعلنا من الذين سبقت لهم منا الحسنى، إنه على ذلك قدير وهو عليه يسير.

اسمه الوَلِيُّ والمُوَلِّي تبارك اسمه علاؤه وجده

يقال من الولي: ولي يلي ولاية إذا قرب وهو الوالي بناء اسم الفاعل، والولي على وزن فعيل مبالغة في الوصف وأصله القرب، قال رسول الله ﷺ: «**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2].

(1) تقدم تخريجه.

(2) حديث أبي مسعود: رواه عبد الرزاق (45/2، رقم 2430)، ومسلم (323/1، رقم 432) وأبو داود (180/1، رقم 674)، والنسائي (286/1، رقم 881)، وابن ماجه (312/1، رقم 976) قال =

ومن ذلك قيل للمطر الذي يكون بعد الوسمي: ولي، سمي أول مطر بالوسمي لأنه يسم الأرض بالنبات، وسمي الذي بعده بالولي لاتصاله به، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:28]، ثم قال: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:28]، فوصفه نفسه ﷻ بآية يلي المطر بنشور رحمته، إما بما يكون عن المطر من خصب وخير وإما بصحو وتفريج، وهو الحميد في ولايته، وقيل للمجلس ولية وتجمع على ولايا قال الشاعر:

كَالبَلايَا رُءوسُها فِي الوَلايا مَانِحاتِ السَمومِ حَرَّ الخُدُودِ

ويقال: المتولي فلان على البلد أو الشيء إذا صار في ملكه وتدبيره، فإذا استولى فقد ولي يلي ولاية.

وأما مولى

فهو من أولى، أي: أولاهم بالولاء، قال الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، وقال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم**»[1]، وقال: «**أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِي، فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**»[2].

=

الترمذي بعد أن ذكر حديث ابن مسعود (1/440، رقم 228): وفي الباب عن أبي مسعود.

حديث ابن مسعود: رواه أحمد (1/457، رقم 4373)، وابن حبان (5/545، رقم 2172)، والطبراني (10/88، رقم 10041)، والحاكم (2/10، رقم 2150) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والترمذي (1/440، رقم 228).

(1) رواه أحمد (2/290، رقم 7886)، والبخاري (2/805، رقم 2176)، ومسلم (3/1237، رقم 1619)، والنسائي (4/66، رقم1963)، وابن ماجه (2/807، رقم 2415). وأخرجه أيضًا: الترمذي (3/382، رقم 1070) وقال: حسن صحيح..

(2) رواه ابن حبان (13/387 رقم 6028). وأخرجه أيضاً: البخاري (6/2476 رقم 6351)، ومسلم (3/1233، رقم 1615)، والترمذي (4/418، رقم 2098) وقال: حسن. والنسائي في الكبرى (4/71، رقم 6331)، وابن الجارود (ص 240، رقم 955)، وأبو عوانة (3/436، رقم 5598)، والطبراني (11/20، رقم 10904)، والدارقطني (4/71)، والبيهقي (6/234، رقم 12116)..

وقد يكون المولى مصدر الولاء، قال رسول الله ﷺ: «**إنما الولاء لمن أعتق**»[1]، وقال الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ [الأحزاب: 5] وقال ﷺ لأسامة بن زيد رحمة الله عليه: «**أنت أخونا ومولانا**»[2]، وقد قالوا: إن الولاية مصدر المولى والمولى الولي، ومصدره الولاء.

الاعتبار

فصل الخطاب في معناهما - والله أعلم - إن الولي هو القريب على ما تقدم ذكره، وأن المولى مفعل القرب، أي: موضعه ومستقره وما هو أولى؛ لذلك قيل لمولى النعمة لأنه موضع الولاء، قال الله ﷻ يخاطب الكفار: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ [الحديد:15] أي: موضع مصيركم ومستقر قراركم، وقد يكون القرب الذي هو بمعنى الولاء والولاية، وقد يكون بمعنى النسب كما قال الشاعر:

مَهــلاً بَنــي عَمِّــنا مَهــلا مَوالِيــنا لاَ تَنْبــشُوا بَينَــنا مَــا كَــانَ مَدْفُــونَا

ومنه قول زكريا ﵇: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ [مريم:5] يعني: القرابة ومن يلي ولايته، يقول: أن يضلوا من بعدي ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا * يَرِثُنِي﴾ [مريم:6.5] في نبوتي وما عملتنيه من الحكمة، ﴿وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [مريم:6] هدايتهم ونبوتهم.

وقد تكون الولاية بمعنى الصحبة، من ذلك قول الملائكة - عليهم السلام - للمؤمنين عند الموت، قال الله ﷻ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [فصلت:31.30] أي: نحن الذين صحبناكم في الحياة الدنيا بالهداية والنصيحة والإرشاد ونحن نصحبكم في الآخرة بالبشارة والتأمين والشفاعة لكم.

---

(1) رواه عبد الرزاق (248/7 رقم 13006) والبخاري (981/2 رقم 2584) ومسلم (1142/2 رقم 1504) وأبو داود (21/4، رقم 3929) والترمذي (436/4 رقم 2124) وقال: حسن صحيح. والنسائي (305/7 رقم 4655)، وابن ماجه (842/2، رقم 2521)..

(2) رواه النسائي في الكبر (168/5)، والبيهقي (5/8).

وقد يكون بمعنى النصرة والهداية، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:257]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:11]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62]، وقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40]، فالوالي والولي: القريب، والمولى مفعل في موضع للقريب على وجوهه ومستقر له، وإنما هو القرب والولاية بوجهها، وتعداد أنواع أحوالها يعسر.

ثم اعلم أن الفرق بين القرب والولاية: أن الولاية خاصة للمؤمنين والأولياء، والقرب قد يكون بوجه عام كقربه من جميع الخليقة، من حيث الإيجاد والتدبير واستخراج ما له أوجدهم من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم؛ ليبوئهم منازلهم في الدارين، وأما الولاية فقد تبرأ الله ﷻ من ولاية الكفار، وأمرنا بالتبرؤ منها لهم في مواضع كثيرة من كتابه، وبخاصة هو ولي عباده الصالحين بمعاني الخلقة والإيجاد، ثم بالنصر والهدايا والإرشاد، قال الله ﷻ وقد ذكر الكفار وما اتخذوه من دونه أولياء: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:195] إلى قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:196]، هذا إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:11]، ولما ارتجز أبو سفيان يوم أُحد بقوله: إن لنا العزى ولا عزى لكم، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم**»[1].

وقال يوسف ﷺ يخاطب ربه ﷻ فاطر السماوات والأرض: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف:11] بمعنى: أنت هديتني إلى الإسلام، وحرست في قلبي الإيمان حال الغربة بين طوائف الكفرة، واستنقذتني من عبودية المخلوقين، وعصمتني من الفتن، وأخرجتني من الجب، ونجيتني من وثاق السجن، وآتيتني من الملك،

(1) رواه البخاري (3039).

وألفت بيني وبين إخوتي، وجمعت عليَّ شملي، ولطفت لي بذلك في سبل حكمتك على سنن سنتك؛ فتم عليَّ نعمتك وتوفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

وبعد، فإن الولاية تنشأ في طبقات المصطفين إلى أن تبلغ إلى النبوة والرسالة والخلة العليا والمحبة القصوى، ثم إلى الوسيلة العالية والدرجة الرفيعة، وأهل العلية من الأولياء هم الوصل بين الأنبياء، والمؤمنين وجملة أمرهم أن إيمانهم إيمان بعد إيمان، وإسلام بعد إسلام، وهداية بعد هداية، وإحسان بعد إحسان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، فهذا مقام الإسلام بصحبة الإيمان، ثم قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾، فهذا مقام التقوى بالإيمان بعد الإسلام، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾، فهذا مقام الإحسان بالتقوى في الإيمان والإسلام، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:93]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:17]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:13].

وهكذا كل وصف يوصفون به أو صفة يتصفون بها، هم في أرفع درجات المؤمنين، قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة:11]، حيوا ببركة قرب القريب المجيب منهم، آمنوا بالغيب فأداهم الإيمان إلى مشاهدة الغيوب التي غابت من غيرهم، وورثوا لذلك درج المقربين فصاروا أعلامًا للهدى، يستضاء بنورهم ويسترشد بهدايتهم، وصلوا بمعنى اليقين إلى محل الأمين، فانكشف لهم الحجاب وباشروا الحق قابلين مقبولين، قلوبهم من الولي الحق مملوءة، به يقولون، وبه يأخذون ويعطون، وفي جزيل عطائه يتقلبون، لا يشغلهم عنه شاغل، ولا يحول بينهم وبينه حائل، صغر الخلق في أعينهم؛ فكل شيء دونه صغير، إن نطقوا نطقوا خائفين، وإن سكتوا سكتوا وجلين، لا يحضرون المواطن ولا يعرفون بالأماكن، قد ملكوا بالمحبة فما ظنكم بقلوب فيها المحبة قد حلت، فلا طرق ينظر ولا يخطر،

دعتهم دواعي الرغبة وأنهضتهم الحكمة، فهم المصيبون في الدنيا المقربون في الآخرة، تتضاعف على الأيام منازلهم وتتكامل على الدوام فضائلهم، عدو أحدهم منه بعيد وأمره شديد، قد ييئس منه الشيطان فصار منه بمعزل، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:65]، علمهم غريب وهم أغرب من علمهم، كان الناس قد حيل بينهم وبين علمهم الذي به وصلوا، خلوا بجهلهم فكيف الطمع في العمل بأعمالهم إذا لم تعرف علومهم، رضوا بالدنيا فمنعوا من الآخرة، وأحبوا العماية فرفضوا الهداية واتخذوا العلماء أعداء، وكيف لا يكون كذلك، وقد تمسكوا بحبل الله ﷻ ودعوا الله من جاد عن الحق وذاد، فما ظنك بمن الأكثرون أعداؤه والأقلون أصفياؤه، إن استغاث لم يغث وإن أمر لم يسمع وسخر من فعله، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:109]، ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون: 110-111].

كذلك يقولون لربهم ﷻ في عرصة المحشر: ربنا فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فازوا ونالوا والله، فيا ليت شعري أين الفرقة العادلة؟ ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون:66 - 67]، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90]، اللهم أنا بك وإليك وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

وإن من قواعد إيمانهم الإيمان بالمقدور الحاضر والغائب، والمقدور الحاضر هو ما أجرى الله به العوائد، ومضت عليهم سنة الله في حكمته الحاضرة، والغائب هو الإيمان بوجود ما يكرم الله به ﷻ أولياءه مما يخرق لهم به العوائد؛ مثوبةً لهم على صالح أعمالهم، وبرهانًا على تكليم يكلمون به، وعلم يعلمونه، وفتوحات يفتح لهم بها

هدايات، وأعلام ترفع لهم، يجدون ذلك عن أنوار بواطنهم، وكما أن المكذب بمعجزات الرسل لا يدخل في حد الإيمان، ولا يقتطع له حظ من دين الإسلام، ولا ﴿لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة:12]، فكذلك المكذب فما يفتح على الأولياء وما يخرق لهم من العوائد، لا يدخل في حد الولاية الكبرى، ولا يقتطع له منها حظ على حظ عوام المؤمنين على قدر جده فيهم وكده، فافهم.

التعبد

أي أخي، تعلم قدر ما تطلب وما فيه ترغب تحقق علمه، عساك تبذل من جهدك واجتهادك ما يكافئ بعض ذلك، أتدري ما الولاية؟ هي انتساب إليه بأسماء حسنة من أسمائه الحسنى، واتصاف بصفات كريمة من صفاته العلى، مع إقرار منك برق العبودية وتوجيه العمل إليه بخالص الوحدانية، ومحبة منه وتقريب وانقطاع إليه بالكلية، أتدري ما الذي يحبوك؟ إن أنت انقطعت إليه يحبوك، والله الشرف الأعلى يختصك الاختصاص الأكبر، ويجعلك في الدنيا من الأحياء المحفوظين وفي الآخرة من الآمنين الفائزين الذين ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:62]، فمن علامات ذلك أن يصونك ويكفيك ويؤمنك من سواه، حتى لا تخاف غيره ولا ترجو إلا إياه، وأن يعينك على نفسك ويحيي لك قلبك فتتحقق لك أمالك وتنقضي لك بإذنه مآربك.

وإن من أوليائه لمن يديم توفيقهم حتى لو أرادوا سوءًا أو قصدوا محظورًا، عصمهم وكفاهم أنه تبارك وتعالى يأبى لهم في حال جنوحهم وإيابهم إلا التوفيق لهم والتأييد، ويجعل لهم المودة في قلوب العباد، ثم يجعلهم بركة في أرضه وأمنة لعباده، ولا تكثر في تقريضهم؛ فأحوالهم أكثر من أن تذكر وأشرف من أن توصف، والله ﷻ ولي النعمة وعليه التوكل في الأمر كله.

أفٍّ للغفلة إنني أورثت القسوة حتى أماتت القلوب بعد حياتها، ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:16]، هذا والله داؤنا قد أصابنا ما أصابنا من كان قبلنا، «**لتركبن سنن من كان**

قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب لو دخلتموه»[1]، إنا لله وإنا إليه راجعون.

اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها، ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد:17]، قد أدبرت الدنيا فكيف يكون أهلها مقبلين؟ وإن قومًا رأوا المقابر والبلى، وشاهدوا مصارع من قد مضى ثم لهوا عنها لقوم غافلون، كأني بالفَرِح المسرور المغتبط بشبابه، الناظر في عطفيه، المتعجب بما له وحوله وشأنه المغتر بأسبابه، قد أكب عليه الأجل عند تقصيره وتطاوله في أمله، فنزل بساحته وأناخ بفنائه، فيا لها من عثرة لا نرتجي لها إقالة ولا تنفع معها عبرة.

وقد أعذر إلينا وأمرنا ونهى، فهلا قلوب تعقل بها، أو آذان تسمع بها؟ ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج:46]، فويل للظالمين من يوم القيامة، والخزي للكافرين من الحسرة والندامة، وأفٍّ للمفرطين يوم لا كَرَّة تُنال ولا رجعة لإصلاح حال، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ [فاطر:6.5].

قد جعل الله ﷻ القرآن بين أظهرنا لو اتعظنا، والموت المشهود بيننا في كل وقت وفي كل ساعة لو اعتبرنا، واعظان ناصحان لا يفردان أحدًا بالنصيحة، وعندهما تبدو من الفاسقين والمفرطين الفضيحة؛ فكم ممن بدت مساوئه عندهما فخسر نفسه؟! وكم ممن فاز بهما فوزًا عظيمًا؟! اللهم إنا نسألك حياة تحيي بها قلوبنا، ورحمة تصلح

---

(1) حديث أبي سعيد: رواه الطيالسي (ص 289، رقم 2178)، وأحمد (84/3، رقم 11817)، والبخاري (1274/3، رقم 3269)، ومسلم (2054/4، رقم 2669)، وابن حبان (95/15، رقم 6703).

حديث سهل بن سعد: رواه الطبراني (186/6، رقم 5943). وأخرجه أيضًا: الروياني (218/2، رقم 1073).

حديث أبي هريرة: رواه الحاكم (93/1، رقم 106)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (1322/2، رقم 3994)، قال البوصيري (180/4): هذا إسناد صحيح.

بها جميع أمورنا حتى تلحقنا بأوليائك وتجعلنا في أصفيائك، ولا تجعل اللهم حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من حسن الاقتداء بهم ذكرهم، نعوذ بك من ذلك يا خير معاذ.

اسمه الرَّحمن ﷻ وتقدست أسماؤه

الرحم والرحمة والمرحمة سواء في المعنى، إلا ما فرق بينهما بفرقة البناء، والرحم: القرابة، والرحم: وعاء الولد في البطن، من ذلك قيل: ناقة رحوم إذا كان بها داء في رحمها فلا تحمل وقد رحمت، وقد جاء بناء هذا الاسم الكريم على وزن فعلان، فقالوا من أجل ذلك: هو كعطشان من عطش، وسكران من سكر، وغضبان من غضب، قالوا: فكأنه ملآن رحمة، واستدلوا على ذلك بأن هذه الأوصاف تملأ الموصوف بها، وقال آخرون: إن هذا اسم لا اشتقاق له ألبتة، وإنما ذلك لأنه اسم لم تكن العرب تعلمه؛ ولذلك لما قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان:60] فكان ذلك زائدًا في نفارهم وإبائهم.

وكلهم اتفقوا على أنه اسم خاص لا يجوز لأحد سواه جل وعز التسمي به، وإن كان واجبًا التحلي بحليته والاتصاف بوصفه من حيث الصلة والرحمة، غير أن من الرحمة من معانيه معجزة، لا يجوز لأحد دعواه على ما سيأتي في خلال الكلام عليه إن شاء الله ﷻ، وهو ولي التوفيق.

الاعتبار

اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن للأسماء مقامات ودرجات من حيث العلم والمعرفة، وهي على ذلك ظاهرة وباطنة بالإضافة إلى طالبين العلم بها، وأعلاها درجة أدلها على الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والباطنة منها أعلى مقاماتها: الاسم المحجوب، والظاهرة منها أعلى مقاماتها: ثلاثة أسماء ذكرها الله ﷻ في أم الكتاب، وهي: الله، الرحمن، الرب، جعلها ﷻ في ظهورها مقامًا للذات جل ذكره يُخبر بها عنه، وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، فاسم الله - جل ذكره - باطن لاسم الرحمن، وهو يشير أن جميع البواطن من الأسماء.

واسمه الرحمن باطن لاسمه الرب، وهو مفيض على جميع الظواهر، ثم بعده اسم الرب تباركت أسماؤه وتعالى شأنه، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة، كذلك قال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه:14]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الحشر: 22] إلى آخر الأسماء كلها يخبر بها عنه، وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:30]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21]، ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:99]، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [الفرقان:59]، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد:30].

هذه الأسماء الثلاثة يخبر عنها به ولم يخبر بها عن غيره، يقيمها بذلك مقام الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، حجب بها خلقه عنه، كذلك بطن بذاته وظهر بصفاته، واستعن بأسمائه وتجل في أفعاله سبحانه وله الحمد، وكانت أسماؤه كلها باطنة عن خلقه لمكان عدمهم، ولما أوجد خلقه أظهر منها ما أظهره لآدم ﵇، يوم علمه الأسماء كلها، أي: الذي شاء أن يظهر منها مقدار وسع الخليقة، وهو أبدًا يظهر منها ما لم يكن أظهر إلى ما شاء من ذلك، فإذا كان اليوم الآخر أظهر زائدًا على ما كان أظهره، على مقدار عظيم ذلك اليوم بالإضافة إلى يوم الدنيا، ثم في دار القرار يظهر من ذلك، يكن أظهره قبل زائدًا على ما تقدم على مقدار زيادة تلك الدار على ما قبلها، وكذلك يظهر لعباده وأولياءه هناك من أسمائه المحجوبة والمكنونة، وما أبطن من أسمائه هذه المظهرة في الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتتسع العبرة جدًّا على هذه السبل، ويكثر الوصف، وتكّل الألسن، ويبهر العقول، وينقطع بها العلوم دون ذلك.

وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش؛ لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر، من أسمائه هذه الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذٍ كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي سبقت**

غضبي»[1].

فكان هذا الكتاب المبارك عقدًا لجميع العالم علوه وسفله، وإمساكًا له ولو جاء للإمهال والانتظار، والعفو والمغفرة والصفح والتجاوز والتوبة، والحلم والأناة وحسن المعاملة كلها، وجميع ما كان وصفًا للحلم وفعلاً له، ومن ذلك أن أوجد عن هذه الصفة العالية نورًا، ثم خلق من ذلك النور حجابًا حجب به خلقه منه، كما كان من ضدها بهذا الاسم الكريم حجابًا وحجب به خلقه عنه، لو كشف تلك الحجب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فكان - والله أعلم - يهلك كبرياءه كل كبر وعزته كل عزة، وعظمته كل عظمة، وكرمه كل كرم، وأخذه كل أخذ، وقدرته كل قدرة، وبطشه كل بطش، هكذا كانت تهلك كل صفة ما قبلها من الصفات، فكان لا يقوم له شيء لولا رحمته السابقة، قال الله ﷻ: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى:14]، ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا**﴾ [طه:129] أي: لكان الأخذ والعذاب لزامًا.

ومن رحمته بمقتضى هذا الاسم الكريم أن أوجد جملة العالم كله متواشج الأرحام، متقارب الأصول من حيث هو، فجعل الأعلى يعطف على الأسفل، والأسفل يتعلق بالأعلى، وأفقر الخلائق كلها بعضها إلى بعض الأعلى إلى الأسفل؛ ليؤدي إليه ما له عنده والأسفل إلى الأعلى ليقبل منه ما به وجوده، ثم أفقر الكل إليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وهو الغني الحميد، ولما خلق الأرض من ممزوج الماء.

وقد تقدم في الذكر في رسم ذي المعارج ما يغني من تكراره تباعدت الأصول إذ قرب التقاطع، وضعف التواشج؛ لاختلاف الأمشاج، أظهر الرحمن ﷻ بهذا الاسم الكريم عن الصفة العالية صفة الرحمن التي وسعت كل شيء شجنة اشتق لها من اسمه، وفعلاً من صفته، وأمرها بالنزول إلى الأرض؛ ليقرب ذلك التباعد، ويصل بها ما هنالك من قاطع، فتعلقت بالعرش الكريم الذي هو أصل لها في الموجودات كأنها حجنة مغزل، وقالت: يا رب، هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ فقال لها: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك**؟» قالت: بلى يا رب، فقال لها: «**فذاك**».

وكان تعلقها بالعرش الكريم رحمةً منه بها وبما خلقت له؛ ليتم منها ما لم يتم قبل ذلك؛ لأنه أظهرها باسم الرحمن، فكانت تنقصها الوصلة فتممها لها بتعلقها

---

(1) تقدم تخريجه.

بالعرش ولاتصالها به، وبقوله لها: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟**»[1].

فكذلك من وصل رحمه لقربه من الخلقة، وحرمة الرحم عمّر بذلك دنياه، واتسعت معيشته، واعتز لذلك، ومن أضاف إلى تلك الوصلة معنى اسم الرحمن تم له أمر دنياه وآخرته، أعني: المعنى الآجل منه الذي عبر عنه، وله يوم يجمع الله الإشهاد في اليوم المشهود: «**إني جعلت لكم نسبًا ورحمًا فأبيتم إلا أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟**»[2] قال الله ﷻ: ﴿**ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف:67]، وقال رسول الله ﷺ: «**ما طاعة الله من شيء أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وما من معصية الله شيء أعجل عقوبة من قطيعة الرحم**»[3].

إن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وإن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم وتقل عددهم، ومن هذا قال ﷺ: «**صلة الرحم تزيد في العمر**»[4].

ولما أنزل الله تبارك وتعالى هذه الرحمة إلى الأرض جعلها سبيلاً للتعاطف كله في الأرض والرأفة والحنان، والسكن والتربية والنسل، إلى غير ذلك من هذا الشأن، فعاش في ذلك أهل الأرض أنسها وجنها وحيوانها وهوامها، وتناسلوا وتعاطفوا وتم عليهم أمرهم، ورفع أهل الإيمان درجة في ذلك؛ فتعاطفوا وتحابوا لجلال الرحمن ﷻ، فتم لهم أمرهم أوله وآخره عاجله وآجله.

فإذا أراد الله – عز جلاله – أن يقيم القيامة، وأذن بخراب هذه الدار وتقويض بنائها قبض عنهم أولاً معنى اسم الرحمن حتى لا يبقى في الأرض مسلم، فمقتهم في ذلك وأذن بإقامة القيامة، وقبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض وهي الرحم، فتضع

---

(1) رواه أحمد (330/2، رقم 8349)، والبخاري (2232/5، رقم 5641)، ومسلم (1980/4، رقم 2554)، والنسائي في الكبرى (461/6، رقم 11497)، وابن حبان (184/2، رقم 441)، والحاكم (279/2، رقم 3005)، وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (214/6، رقم 7934).

(2) رواه الطبراني في الأوسط (388/4، رقم 4511)، وفي الصغير (383/1، رقم 642).

(3) رواه البيهقي (35/10، رقم 19655)..

(4) رواه الطبراني (261/8، رقم 8014).

لذلك الحوامل ما حملن، وتذهل المراضع عما أرضعن، ويفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه، ويضيفها إلى ما أمسك منها عنده، فيرحم بها عباده المؤمنين.

فالرحم مشتقة من اسم الرحمة، والرحمة صفة الرحمن عزّ جلاله، امتلأ العالم من هذه الرحمة كما امتلأ البحر بمائه والجو بهوائه، إلا ما تخلله من معنى قوله: «**سبقت غضبي**»[1]، فالمسبوق لا بد لاحق وإن بطئ به وله حكمه ولو بآخرة، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً في رحمة الله ﷻ عباده «بامرأة لها ولد حلت به في فيءٍ من الأرض وظلمة من الليل، أرادت أن تضجعه فأهوت بيدها إلى مضجعه تضرب بيدها فيه؛ إن كان بها حية أو عقرب أصابها ذلك دونه»[2].

فالله أرحم بعباده من هذه بولدها، وبامرأة أصيب في السبي فكانت كلما مرت بطفل أرضعته طمعًا أن ترضع ولدها فيمن ترضعه، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**» قالوا: يا رسول الله، وهي تقدر على ألاً تطرحه؟ فقال: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[3].

وضرب لرحمته مثلاً آخر بفرح الله بتوبة عبده: «**الله أفرح بتوبة عبده من رجل ضلت ناقته بأرض قفر عليها زاده ومزاده ....**»[4].

ومن العبرة بهذا الاسم الكريم أن الله ﷻ فرض على عباده أولي الأرحام كونًا وشرعًا تربية أبناءهم وصغارهم والرفق بهم حتى يبلغوا، ويعلم من منهم المؤمن والطائع فيوالي، ومن ومنهم الكافر والعاصي فيتبرأ منه، كذلك الرحمن عزّ جلاله يربي عباده طرًا وجميع مخلوقاته بمقتضى اسم الربوبية، ويوصل بذلك إلى جميعهم من إحسانه ولطيف تربيته بما سبق لهم عنده، وتقدره وتتحقق الحجة لهم عليهم، ثم ينقطع ذلك عنهم بموتهم واحدًا واحدًا، حتى إذا كان يوم القيامة خصّ برحمته أهل طاعته وصرفها عن أعدائه.

---

(1) تقدم.

(2) رواه البيهقي في الشعب (3502).

(3) رواه البخاري (2235/5، رقم 5653)، ومسلم (2109/4، رقم 2754). وأخرجه أيضًا: البزار (411/1، رقم 287)، والطبراني في الأوسط (232/3، رقم 3011)، والبيهقي في شعب الإيمان (422/5، رقم 7132).

(4) رواه أحمد (383/1، رقم 3627)، والبخاري (2324/5، رقم 5949)، ومسلم (2103/4، رقم 2744)، والترمذي (658/4، رقم 2497) وقال: حسن صحيح.

ومعنى آخر من الاعتبار أنه حرم النكاح، الذي هو سبب الإيجاد على طريق التناسل في ذوي الأرحام القريبة، وأباح لنا ذلك في ذوي الأرحام البعيدة؛ لعدم السكن إلى غير الجنس، وإنما يسكن كل جنس إلى جنسه؛ لحكمة بالغة أيضًا تناولها مقتضى غير هذا الاسم، وكذلك حرّم علينا النكاح في موضع الرضاع، وإن وضع الله نسل في ذلك الموضع لعلة، سبق الخلقة بالشبه عن تلك المرضعة بالتغذي من لبنها، وهذا لينبه على أمر عظيم قدره جليل خطره، فتفهم - وفقك الله - حكمته، وتفطن بمجاريها في سبل قضاياه، وقد تقدم من ذكر هذا في كتاب «الإرشاد إلى سبل الرشاد» ما يغني هنا عن الترداد.

اعتبار آخر:

حرم علينا أن نتخذ ذوي الأرحام القريبة، كالأب والأم ما علا، والابن وابن الابن ما سفل، والأخ والأخت والعم والخال والعمة والخالة عبيدًا، ثم نبه على موضع الحكمة في ذلك بقوله الحق: ﴿**وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا**﴾ [مريم:93.92]، وبقوله: ﴿**وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء:26]، وبين كيف خلق عيسى ابن مريم عليه السلام ووصف مولده ومولد أمه، وكيف كان بدء شأنه في ذلك إلى استوائه، ثم صدع بقوله الحق: ﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ* مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ**﴾ [مريم:35.34]، فجعل من أنواع البراءة من النبوة لزوم وصف العبودية.

ونبه أيضًا بذلك على أن من خلق الرحم أولى أن يتخذ فيهم ولا منهم ولدًا من ذوي الرحم منكم، ووصفه أعرق وصفاته أعلى وأفخم، وبحسب ذلك يكون الحلم مما تتم به العبرة للمعتبرين، وتقوم به الحجة للرحمن جل ذكره على الكاذبين، إن الذين وصفوه بالولد سبحانه وتعالى لا يتناكحون إلا في أبعد الأباعد، ويجتنبون القرابات وإن بعدت، وهذا من عظيم قهره وجليل قدرته على إلزام الحجج لمن شاء أخذه، بها تقدست أسماؤه وتعالى جده.

قد مضى فيما تقدم أن الرحمة التي نزلت إلى الأرض هي الرحم وما كان بسببها، وجاء ثابتًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في**

الأرض رحمةً واحدةً، فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير وبعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها عنده»، وفي أخرى: «**أنزل منها واحدة إلى الأرض وأمسك عنده تسعة وتسعين، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك، ورحم به عباده المؤمنين**»[1]؛ أما قوله كل رحمة منها طباق السماء والأرض؛ فسبيل البحث عن معناه - والله أعلم - سبيل البحث عن مسالك البرايا والأرزاق في غيابات خزائن السماوات والأرض، ومصداقه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون:7]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:21]، وأنه لما برأ البرايا وقدر المقدورات من أرزاق وآجال وأعمال استودع ذلك خزائن السماوات والأرض، فما زال يصيرها من مستودع في مستقر حتى أبرزها من مستودع الأصلاب إلى مستقر الأرحام - كما تقدم ذكره في أبوابه - فأصار كل شيء من سماء وهواء وجو وأفلاك ونجوم ورياح ومياه ونبات وحيوان، وغير ذلك من كل مذكور في السماء والأرض مستودعًا لما برأه، ومستقرًا لما خلقه خلقًا وأمره، ورزقًا وأجلاً وعملاً، فهذه رحم ماسة وقرابة واشجة فكذلك إذًا فاقض في سبيل معرفتك على باقي عدد الرحمة المذكورات التسعة والتسعين؛ إذ هي مسطورة في اللوح المحفوظ، منطوية موجوداتها في مقتضى الأسماء.

وأما تخصيصه في الذكر بإنزال الرحمة الواحدة إلى الأرض، وذكر إمساكه التسعة والتسعين فمعنى ذلك أن رحمة الرحم خلقة واجبة وفطرة لنا لازمة، يدلك على لزومها وحقق وصفنا بها اشتراك الإنس والجن، والبهائم والهوام، وجميع الخليقة الأرضية فيها، وأنها رحمة يغلب الراحم منا لزومها ويقهرها وجودها، حتى أنها لتفرط في وجودها فتخرج إلى العصبية المنهي عنها المكملة والعشق المتلف، وغير هذا من أنواع اللزوم، ليس كذلك فيما عادل إلى أنواع الرحمة سواها، فإنها وإن كانت وصفًا لنا، وصفات موجودة بنا ليست في اللزوم كالخلقة والإيجاد، إنما أوصافنا وصفاتنا بيده

---

(1) حديث سلمان: رواه أحمد (439/5، رقم 23771)، ومسلم (2109/4، رقم 2753)، وابن حبان (14/14، رقم 6146)، والحاكم (276/4، رقم 7628)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: هناد (614/2، رقم 1319)، والطبراني (255/6، رقم 6144).

حديث أبي سعيد: رواه ابن أبي شيبة (61/7، رقم 34207)، وأحمد (55/3، رقم 11547)، وابن ماجه (1435/2، رقم 4294)، قال البوصيري (257/4): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ومن غريب الحديث: «طباق ما بين السماء والأرض»: ملء ما بينهما..

ومن عنده، ييسرها لمن يشاء ويوفق إليها من يشاء، ويعطيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، وقد شاء إعطاء الخلقة، ولولا ظهور الخلقة لم يكن الإيجاد.

وما تقدم ذكره من الصفات ليست كذلك؛ بل هي من قبيل الأعطيات والهبات، فأصناف الرحمة المذكورات - والله أعلم - هي الإيمان عن اسمه المؤمن، والإسلام عن اسمه السلام، والتطهر عن اسمه الطاهر، والتقدس عن اسمه القدوس، والبركة عن اسمه المبارك، والملك عن اسمه الملك، هو ﴿**يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ**﴾ [البقرة: 247]، والملك هو في الآخرة مما يرحم به عباده المؤمنين، ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا**﴾ [الإنسان:20].

ثم كذلك فاعمل في هذه الأسماء التي نهينا عن التحلي بها، وأمرنا بالاقتصار دونها، والعزة عن اسمه العزيز، قال الله ﷻ: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات:180]، ولم يتصف بأنه رب لصفاته تعالى عن تلك، وإنما هو رب لصفات أوجدها، يكون عنها صفاتنا في الدنيا والآخرة، فافهم.

وكذلك الصورة عن اسمه المصور، قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لسوقًا، ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور، من أراد صورة دخل فيها، فكان هو تلك الصورة**»[1]، فذلك مما يرحم الله به عباده المؤمنين، المغفرة عن اسمه الغفار، الهبة عن اسمه الوهاب، الرزق عن اسمه الرزاق، الفتح عن اسمه الفتاح، العلم عن اسمه العليم، السمع عن اسمه السميع، البصر عن اسمه البصير، والحكمة عن اسمه الحكيم، الحكم عن اسمه الحَكَم، الشهادة عن اسمه الشهيد، العدالة عن اسمه العدل، اللطف عن اسمه اللطيف، الغياث عن اسمه المغيث، الحلم عن اسمه الحليم، الشكر عن اسمه الشكور، والعلا عن اسمه العلي ﴿**وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ**﴾ [محمد:35]، وإن ﴿**الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**﴾ [المطففين:18] المعني الكبر عن اسمه الكبير، الحفظ عن اسمه الحفيظ، الجلالة عن اسمه الجليل، الكرم عن اسمه الكريم، الإجابة عن اسمه المجيب، الوسع عن اسمه الواسع، الطول عن اسمه ذي الطول، الود عن اسمه الودود، المجد عن اسمه المجيد، الحق عن اسمه الحق، الوكالة عن اسمه الوكيل، الكفالة عن اسمه الكفيل، الوقاية عن اسمه الواقي، المنع عن اسمه المانع، الدفع عن اسمه الدافع، والمدافع

---

(1) تقدم تخريجه.

لمنعهم من النار، كما منعهم في الدنيا من الشيطان أن يكون له عليهم من سلطان، ويدفع عنهم هناك كما دافع عنهم هنا.

الولاية عن اسمه الوالي والولي، الحمد عن اسمه الحميد، الإحياء عن اسمه المحيي، في الدنيا إحياء جسماني وإحياء ديني، وفي الآخرة هي دار الحيوان، يأكلون من حيوان الجنة ما هم أكلوه، ثم يقولون له: أحيي بإذن الله فيحيى، ليس إحياء من إماتة؛ إذ ليس في الجنة موت، إنما هو كقطف ثمره عود على بدء، ورجوع إلى أول.

البر عن اسمه البر، التوبة عن اسمه التواب، العفو عن اسمه العفو، الرأفة عن اسمه الرءوف، الجمع عن اسمه الجامع، الغنى عن اسمه الغني، النفع عن اسمه النافع، الخبر عن اسمه الخبير، النور عن اسمه النور، الرشد عن اسمه الرشيد، القرب عن اسمه القريب، الإفضال والفضل عن اسمه ذو الفضل، البيان عن اسمه المبين، الإحسان عن اسمه المحسن، الإجمال عن اسمه الجميل، الإنعام عن اسمه المنعم، المن عن اسمه المنان، البسط عن اسمه الباسط، الإعطاء عن اسمه المعطي.

وكذلك القبض عن اسمه القابض، يرحمهم به، قبض من أعدائه أرزاقهم من الجنة ومنازلهم، قال الله عزّ جلاله: ﴿**إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**﴾ [الزمر:15]، ويورثها عباده المؤمنين، وبإذلاله أعداءه يعز أولياءه، وبعقابه وعذابه، وسريع حسابه وابتلائه وانتقامه يرحم عباده المؤمنين، ينزل أولئك دار شقائهم وموضع بوارهم، ويورث هؤلاء منازلهم، وما كان يئول إليه ما لهم لو آمنوا وأصلحوا، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ**﴾ [الطور:17. 18].

فعدد في رحمته أن وقاهم عذاب الجحيم، كما عدد منها أن أدخلهم جنات النعيم، كهذا جميع أسمائه التي مقتضاها الغضب والسخط، والعقاب والعذاب - نعوذ بالله من ذلك كله - يرحم بها عباده يوم القيامة، كيف لا وقد أوجد برحمته لهم من يتوب عنهم في تلك الدار ويسكنهم إياها بدلاً منهم، وأما قوله ﷺ: «**مائة رحمة**»[1]، وهي أسماؤه أنها تسعة وتسعون؛ فإن تمام المائة من الأسماء هو اسم المزيد؛ وهو الاسم المحبوب المكنون، وتمام المائة الرحمة هي الوسيلة - والله أعلم - وهي أعلى درجة في الجنة وأرفعها، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، يعطيها الله رسوله محمدًا ﷺ إن

(1) تقدم تخريجه.

شاء الله أن يخلف الميعاد، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق مائة درجة في الجنة، أعدها للمجاهدين في سبيله**»[1]، والوسيلة ثوب في درجات الجنة سوى درجتها المخصوصة بها، يقول الله ﷻ: «**شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين**»[2].

ومن آثارها في الدنيا ما جعل للمؤمنين من التبليغ عن الله ورسوله، بعضهم من بعض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوسل والتشفع، وما شاكل ذلك فلكون هذه الأنواع من الرحمة، من قبيل الهدايات والعطايا ومفارقتها لزوم الخلقة، عبر عنها أنها عنده، وأنه أمسكها عند نفسه فيعطيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، وعبر عن تلك بأنها لازمة للوجود ومنزلة إلى الأرض؛ لانتقالها من المستقرات إلى المستودعات، فينزلها في الماء إلى الأرض، وهي كذلك حقيقة حق وموجود شهادة، ﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:4].

وأوجه من هذا - والله أعلم - أن يكون قوله: «**إن الله خلق مائة رحمة**»، والرحمة صفة ذاته، والصفة لها في كل أسمائه قسطها وإن تغايرت المقتضيات من الأسماء.

وقد اشتركت مقتضيات الرحمة التي تقدم ذكرها في النزول الأرض؛ لأنها نازلة لا محالة في الماء، وإن كانت رحمة الرحم أكثر اختصاصًا بالنزول للزومها موضع الخلقة، ولقوله في الحديث: «**فبها تعطف البهائم على أولادها وبها يكون النسل**»، وما عداها اختصها معنى القسم والهبة والعطية، لكنها اشتركت في النزول، فيمكن أن يتوجه معنى قوله: «**خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**»[3] يريد جملة الرحمة التي اقتضتها الأسماء المنزلة مقتضياتها، فتكون جملتها رحمة واحدة من مائة رحمة أمسكها عنده، ما عدا هذه التي نشاهدها باختلاف أنواعها، فكأنه قال: أنزل منها جزءًا من مائة، أمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وإن سميت بالعدد فهي مائة من هذه أنزل منها هذه، وهي واحدة من جهة التجزئة مائة من جهة العدد باختلاف

---

(1) رواه أحمد (14/3، رقم 11117)، ومسلم (1501/3، رقم 1884)، والنسائي (19/6، رقم 3131)، وابن حبان (473/10، رقم 4612). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (466/4، رقم 7358).

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه ابن أبي شيبة (60/7، رقم 34206).

الأنواع، وأمسكها عنده تسعة وتسعين جزءًا، وتسعة آلاف وتسعة وتسعين من جهة جملة عدد الرحمة المنزلة، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه بجملتها إلى التسعة والتسعين التي أمسك عنده، ورحم بها عباده المؤمنين، وتكون الممسكة مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر، تعييها من حيث أنا ما علمناه بعلومنا ورأيناه وسمعنا به وتحدثت به قلوبنا، بعض ما اقتضته هذه الأسماء المنزل مقتضاها، وفيها يكون التسابق ودرجات العلوم.

ومن رحمته أيضًا، ما أنبأ به ﷺ: «**أن لله ثلاث مائة وأربع عشرة شريعة، لا يوافي الله ﷻ أحد عمل بواحدة منها إلا أدخله الجنة**»[1]، وربما قال على ما كان من عمل ذا الشاك في هذه الزيادة، وهذا كله - والله أعلم - فيما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب وسنة، وأنها في حدود الإسلام ومعرفة تفصيل شعبه، فرضها ونفلها، وأوائلها وأواسطها وأواخرها، فتطلب ذلك - وفقك الله - في مظانه، فإن تقدمه - إن شاء الله ﷻ - في معاني أسماء الله ﷻ، ثم في أثناء أوامره ونواهيه ووصاياه المعهود بها إلى عباده، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا....﴾ [الأنعام:151]، إلى قوله جل قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2]، فهي في هذه الجملة بالعموم مع ما نصّ منها على بعضها، وكقوله في وصيته في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا....﴾ [الإسراء:23] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:39] وكقوله في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:2.1] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:10]، وكقوله في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ....﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:35]، وكقوله في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ....﴾ [التوبة:112]، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ

(1) رواه عبد بن حميد (ص 300، رقم 968)، وأبو يعلى كما في إتحاف الخيرة (98/1، رقم 100).

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:112]، وكقوله في سورة المعارج: **﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾** [المعارج:19-23] إلى قوله: **﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾** [المعارج:35]، وكقوله في وصية لقمان عليه السلام من لدن قوله: **﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ....﴾** [لقمان:13]، إلى قوله: **﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾** [لقمان:19].

فاستقر ذلك كله، وأحسن الاستقرار في إسقاط التكرار من العدد، وتثبت قبل تركه، فربما كرره لزيادة شريعة، فإن لم يكن ذلك كذلك فابن على عددك، ثم استقر جميع ما نهى عنه من محرمات البيوع والتجارات كلها، والصرف والمناكح، والأشربة والأطعمة، والعتق والديات والتفليس، والفرائض والمساقات والمعاملات كلها، وما أمره من موجبات ذلك كله، وكنهيه عن كل خلق مذموم كالعداوة والبغضاء، والحسد والكبر، والغل والغش، والنميمة والغيبة، والاحتقار والازدراء، والهمز واللمز، والفخر والمخيلة، والطعن والنياحة، والتنابز بالألقاب والظن السوء، وسائر الأخلاق المنهي عنها، مع ما نهى عنه من الفرقة والخروج على الجماعة وعنها، وما جرى إلى ذلك وما نحا نحوه، مع الأمر الوارد عنه ﷺ بالأخلاق الحسنى التي هي أضداد ما تقدم ذكره، كالمحبة والود والرضا، والصبر على طاعة الله، والصبر عمّا نهى الله عنه والخلد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزهد والشكر، وقول الحق والحكم به، وسلامة القلب وحسن الظن، ونزاهة النفس والسخاء، وطلب معاني الأخلاق كلها واجتناب أضدادها السواء كلها، هذا إلى ما يجده التالي لكتاب ربه ﷻ، وقد قال عزّ من قائل: **﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾** [الأنعام:38]، وقد قسم بعض العلماء التوبة على عشر مقامات، ثم قسم كل مقام من العشرة على عشر مقامات، فانتهت إلى مائة فصل، وذكر ابن المجير في كتابه الموسوم كتاب «خصال العقل وآفات الهوى»، فانتهت به إلى نحو المائة.

وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»، وفي أخرى: «**بضع وستون، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1]، وخرج مسلم بن

(1) رواه أحمد (414/2، رقم 9350)، ومسلم (63/1، رقم 35)، وأبو داود (219/4، رقم 4676)، =

الحجاج - رحمه الله - في كتاب الإيمان من كتابه في «صحيح الحديث» زائدًا على البضع والسبعين، وقال رسول الله ﷺ: «**أربعون خصلة من خصال الخير، أعلاهن منحة العنز، لا يعمل أحد بواحدة منهن، يبتغي بذلك وجه الله إلا أدخله الله الجنة**»[1]، وما أخبر به ﷺ: «**أربعون خصلة من الخصال**»، إنما هو فيما قدر منحة العنز فدون ذلك قال الراوي: فجهدنا في تحصيل عدتها من تشميت العاطس، ورد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز ونحو هذا، فلم نقدر على أزيد من خمسة عشرة خصلة.

فانظر - وفقك الله - إلى تدقيق إحصاء النبوة لخصال الشرع، فإياك أن تحقر في إحصائك لها ولا في العمل بها صغيرة، وإن دقت فإنها توزن فيما هنالك بمثاقيل الذر والخردل، وأدنى من ذلك وأدنى أدنى أدنى من ذلك، فمن تقلد الإسلام بعهوده، وقرأ القرآن وعمل به، واجتنب المناهي، وأدى شكر ما به من أنعم عليه دخل في ضمن عمله وعقله الثلاث ما به شريعة، والأربع عشرة شريعة ولا يبعدن هذا عليك، فإنه أمر الله ﷻ، ودينه القيم ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138].

واعلم أن الموجودات من غير المكلفين إسلامها في درجتها، كإسلام المكلفين في تعداد شعبه، كالسجود والقنوت والتسبيح والذكر والصلاة، أما دعائم إسلامها فخمسة، وأما مواطن خلفتها فسبعة، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:41]، في إسلامهم الكوني والشرعي، قال الله جلّ قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:83]، فكل مسلم فإسلامه يدعمه خمس دعائم، تكتنف تلك الخمس بضع وستون شعبة، وباعتبار غيره بضع وسبعون، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:1-5]، هذه خمس دعائم ومثلها قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ

=

والنسائي (110/8، رقم 5005)، وابن ماجه (22/1، رقم 57)؛ وابن حبان (384/1، رقم 166).

(1) رواه الحاكم في المستدرك (7578).

نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:1-5]، وقوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾ [الذاريات:1-4]، فالحاملات وقرًا قسمان: الحاملات: السحاب، والوقر: الماء.

وقال في سبيل الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:13.12]، إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:14]، ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون:17]، إلى قوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [المؤمنون:19]، مستمرًا على ذكرك أسابع في ذكر الخلق، فاتصال السبعة إلى ثمانية وعشرين، ثم إلى ثلاثمائة وثمانين، كذلك إلى عشرة آلاف وثمانين وستمائة، سبع خلق الإنسان عنها وهي ما عبر عنه قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات:1]، والمكررة في الثلاث مواضع المتلوة، وسبع خلق منها وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]؛ المعنى: وسبع نشأ عنها، وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ....﴾ [عبس:24]، المعنى إلى آخره، وسبع خلق فيها وهي الأيام السبعة: أيام الجمعة فيهن سبع وسبع، وسبع في سبع، المعبر عنهن بقوله: ﴿وَلَقَد خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون:17]، وسبع خلق فيها، تنصل هذه السبعة بثمانية وعشرين، ثم تصعد إلى ثلاثمائة وستين، ثم إلى تفصيل يكثر تعداده ويخسر تحصيله، ثم إلى ما شاء ربك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:83]، ولكل واحدة من هذه المعدودات في سبل الخلقة أول وآخر ووسط، ولكل جزء من هذه الأجزاء أجزاء، هكذا إلى ما يحصله إلا الله ﷻ، ثم الشرعة تصحب الخلقة، والصبغة موضع الفطرة، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44]، وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله ابن آدم على ثلاثمائة وستين مفصلاً، فمن ذكر الله أو صنع من المعروف كل يوم بعدد ذلك يمسي وقد زحزح**

نفسه يومئذ من النار»[1]، وقال ﷺ مشيرًا إلى عموم الشرعة بالخلقة: «**كم نعمة لله في عرق ساكنٍ**»[2] وكل يقول في ركوعه: «**خشع لك سمعي وبصري ولساني، ولحمي وعظامي ومخي**»، وكان يزيد في سجوده: «**وسجد لك سوادي، وآمن بك فؤادي**»[3]، وكان يقول: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بأحسن صوره**»، ثم يعم فيقول: «**تبارك الله أحسن الخالقين**»[4].

يريد الجملة فإنه من التكليف فوق ما في الطاقة اتباع الشرعة مسالك الخلقة على التقصي، لولا عفو الله ورحمته، من وراء ذلك قال الله ﷻ: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ**﴾ [إبراهيم:34]، ثم قال جلّ قوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل:18]؛ للتقصير عن بلوغ الغاية، رحيم بعباده بمعذرته إياهم؛ لضعفهم عن ذلك.

التعبد

باسم الرحمن، أي أخي، إنه لا يرشدك أحد إلى فضل مرشد، وأقرب مقصد منها أرشدك إليه الرشيد الحق ﷻ، حيث يقول جل قوله: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ**

---

(1) رواه مسلم (2/698، رقم 1007)، وابن حبان (8/173، رقم 3380).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (1/210).

(3) رواه الطيالسي (1/22، رقم 152)، وعبد الرزاق (2/79، رقم 2567)، وابن أبي شيبة (1/210، رقم 2399)، وأحمد (1/94، رقم 729)، ومسلم (1/534، رقم 771)، وأبو داود (1/201، رقم 760)، والترمذي (5/485، رقم 3421)، والنسائي (2/129، رقم 897)، وابن خزيمة (1/235، رقم 462)، والطحاوى (1/199)، وابن الجارود (1/54، رقم 179)، وابن حبان (5/74، رقم 1774)، والدارقطني (1/296، رقم 1)، والبيهقي (2/32، رقم 2172).

(4) أخرجه الطيالسي (1/22، رقم 152)، وعبد الرزاق (2/79، رقم 2567)، وابن أبي شيبة (1/210، رقم 2399)، وأحمد (1/94، رقم 729)، ومسلم (1/534، رقم 771)، وأبو داود (1/201، رقم 760)، والترمذي (5/485، رقم 3421)، والنسائي (2/129، رقم 897)، وابن خزيمة (1/235، رقم 462)، والطحاوي (1/199)، وابن الجارود (1/54، رقم 179)، وابن حبان (5/74، رقم 1774)، والدارقطني (1/296، رقم 1)، والبيهقي (2/32، رقم 2172).

خَبِيرًا﴾ [الفرقان:58-59]، ثم قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:61 - 62]، فهو ذا ﷻ وهو الخبير الحق بذلك على خبير به، تسأل عنه وتسترشده إلى العلم به، فيخبرك أن أحسنت السؤال والاستماع، ثم ذلك على عباد الرحمن من هم وكيف سبيلهم؟ ووصف لك أعمالهم؛ لتقتفي آثارهم وتسلك مسالكهم، فإنه وصفهم بأوصاف جميلة وحلاهم بحلي نبيلة، وأنهم أئمة للمتقين ذلك بأنهم أخذوا علمهم عن الخبير به، الذي نصبه للإخبار عنه والدلالة عليه، وعن كلامه الذي أنزله إمامًا مرشدًا ومبينًا ناصحًا، فهم الأئمة لصحة سندهم وقرب مأخذهم، فما كان من ذكر الاستواء والتقدم في التدبير، وتداور الدوائر بالأمر إلى معاني الخلقة، والبرء والفطر، وتجميع المواد والأبعاض، وتفريقها ثم تأليفها، أعني: مواد المخلوقات وإنزال الأرزاق والأعمال، وتأجيل الآجال والمعاني السماوية والأرضية، واسأله عن اسم الرحمن يرشدك - إن شاء الله - فهو الخبير به، شهد له بذلك أكبر الشاهدين.

ثم ما كان من غير هذا من التعبد به فقد منَّ في الاعتبار المذكور به، غير أنه من الواجب أن تقصد قصد التعبد بالذكر على المعهود من سبيلنا في اختصار، قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه:4-6]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:59]، وقال منكرًا على قوم كذبوا رسله وكتبه وقالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:15]، قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:3]، هذا فعله المتصل بالأمر منه تدبيرًا له عن لدن أعلى العرش إلى منتهى وصل، بذلك قوله الحق: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [يونس:5]، هذا فعله في تنزيله كتابه معبرًا عن مراده بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2]، فتدبيره: فعله، وتفصيله الآيات في هذا الخطاب: قوله العلي،

فكان من تدبيره الأمر، ثم من تفصيله له لحكمته أن تقدم بالعلم والتقرير، وكتب بالقلم في اللوح المحفوظ كل شيء، ثم أخرج بالتفصيل إلى لوح الوجود، ثم أنزل بذلك كتابه والكتاب المنزل مضمنًا في الإمام المبين، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:4]، فالعلماء بالله ﷻ يأخذون هدايتهم من كتاب ربهم المنزل عليهم، وعن اللوح المحفوظ بواسطة الوجود والكتاب المنزل.

ألا تسمع إلى قوله ﷻ بعد طلب العبد الهداية منه والمعونة بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:7.6]، فأجاب ﷻ عبده بقوله: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:2.1]؛ أي: الهدى المطلوب في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ إلى اللوح المحفوظ ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:3.2]، ثم قال بعد قليل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ القرآن والكتب المنزلة قبله، ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:4]، ثم جمعهم في الهداية بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:5]، كما قال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1]، فأخبر أنها أحكمت آياته في أم الكتاب، ثم فصلت بعده في الكتاب المنزل، كما قال: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد:1]، ثم جعل ﷻ ينسق آيات الكتاب المبين يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ [الرعد:2]، كما قال: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [الشورى:1-3]، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى:7]، هكذا يسرد آيات الكتاب المبين ويعبر عنه الوحي، قال الله ﷻ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف:3]، فكل ما في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين فهو تعبد

للرحمن ﷻ عباده؛ لأن ذلك من رحمته التي أنزلها إلى الأرض.

كما أن جميع مصنوعاته مفصلة من الكتاب المبين وهي من الرحمة الرحمانية؛ ليرحم بها عباده المؤمنين بالكتابين، قال الله ﷻ: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ....﴾ [فصلت:2.1]، المعنى إلى آخره، وقال: ﴿طه * مَا أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:2.1]، إلى قوله: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:7]، وما خلق الله ﷻ من شيء فإنما خلقه لعباده، وما تعبدهم به من شيء إلا رحمة منه له، ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية:22].

من ذلك دعائم الإسلام الخمسة وتوابعها، وعهود الإسلام السبع عشرة وما حوتها، ومن آكد ذلك وأوضحه بيانًا النصيحة لله ولرسوله والمؤمنين، وأجزل النصيحة وآكدها وأفضلها ما كان منها في سبيل الدين، فليس بعد أمهات الفرائض أعلى فضلاً، ولا أجزل أجرًا، ولا أقرب من الله ﷻ رحمًا من النصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شعبها، ثم الألفة التي هي الولاية، وهي التواصل والبر ومجانبة العقوق والتبرؤ من معاني الفرقة، وذلك هو الجامع لما تشعب من شعوب الشرائع، كالموالاة في الدين الواجبة لجميع المسلمين الواجبة لبعضهم على بعض، ومنها: حق الإمام، وحق العالم، وحق الأبوين وذي القربى، ثم سائر الأصناف التي فصلها الله ﷻ في كتابه، فكل صنف حق واجب وفرض لازم؛ لأنه حق وحق الذي يطالبه به من بخسه منه شيئًا، وهو من الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، ومن ذلك النهي الواقع في الأبدان بأنواع الأذية كلها، أكثر ذلك: القتل، وجميع الأذى محرم في الحيوان كله، بني آدم وغيرهم لا يبيحه إلا ثلاثة معاني: دفع مضرة، أو جر منفعة، أو قصاص شيء بشيء، فأباح الرحمن ﷻ الصيد وبهيمة الأنعام لنيل المنفعة، كما أباح لنا قتل كل ذي أذى لدفع المضرة، وحظر ما وراء ذلك، فإباحة قتل المشركين من قبيل استدفاع الضرر والفساد في الأرض، وكذلك القتل بالقصاص وإقامة الحدود في الأبدان، وتأديب الأولاد والمكلفين كلهم منه، ولم يجعل الله ﷻ لبشر أن يقتل نفسًا أو يؤذيها بعوضة فما فوقها لعبث ولا شهوة إلا بحق؛ لنفع يجتلب أو ضرر يستدفع؛ لأنه كله خلقه وله من رحمته وعدله وقسطه وحظه، هكذا حرم الله ﷻ الأذية كلها: القتل فما دونه، والنظرة والإشارة باليد وغيره، والظن السوء، وما هو أقل من ذلك وأكثر.

وأما النهي الواقع في الأموال المحظورة بالأملاك، فهو على أربعة أضرب: الغضب والسرقة والخيانة والربا، فالغضب والسارقة والخيانة معروف بجميع ذلك كله، كل ما أخذته اليد دون رضا من مالكه سرًّا أو جهرًا، ثم الرجس الذي ليس محظورًا بالملك من هذا كالميتة والدم ولحم الخنزير وما شاكله، والخمر وسائر الرجس، والذي يأكل الخنزير كل ذي ناب عن السباع، ولأنها في الأغلب إنما تغتذي بالميتة، ثم خبائث الهوام كلها وجل الهوام يدل عليها نفار النفوس عنها وتقذرها لها، وما لم تجر العادة من المسلمين على أكلها؛ ولأنها رجس من الشيطان ومن عمله، وغذاؤها في الأكثر منه، فما ذكرناه من أنواع المحرمات ليس للمسلم أن يبسط إليه يدًا، ولا أن يتخذه قوتًا، ولا أن يدخر ملكًا ولا يعتاض به نفعًا سوى ما أباح الله للمضطر منه.

ومن النهي الواقع في الأموال المحظورة، لا تدخل ملكك مالاً من يد من تعلم أنه ملكه بغير حق بتصير بيع، ولا قرض، ولا وديعة، ولا وراثة، ولا هبة، فتكون شريكه في الحرام؛ لعلمك أنه حرام، والنهي متوجه عليك أن تنكره عليه، فكيف أن تشركه فيه وتحل محله فيه؟ وكذلك النهي عن كل وجه يؤدي إلى الخيانة، أو خديعة، أو وجه من هذه الوجوه كلها، وقد تقدمت إشارة إلى أصول هذه المعاني والوجوه التي نهى عنها في الحكمة، ولا يخفى ذلك على من تحمل إصر الشرع وفهم عنه[1].

---

(1) من مقتضى اسمه (الرحمن) انبثت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السورة أمهات النعم في الدارين.

ولما كان لا شيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصال بعض صفات الخالق إلى المخلوق نوع إيصال ليتخلقوا به بحسب ما يمكنهم منه فيحصلوا على الحياة الأبدية والسعادة السرمدية.

وقال القرطبي: واختلفوا في اشتقاق اسمه الرحمن فقال بعضهم: لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لا تصل بذكر المرحوم فجاز ان يقال: الله رحمن بعباده كما يقال: رحيم بعباده وأيضًا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية. تفسير القرطبي (127/1).

اسمه الرحيم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

قد تقدم أن الرحم والرحمة والمرحمة بمعنى سواء، يقال من ذلك: رحم يرحم رحمةً فهو راحم، ورحيم مبالغة كقدير من قادر، وعليم من عالم ونحوه.

الاعتبار

قد تقدم الكلام في معنى قول رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق مائة رحمة ...**»[1]، ومصداق ذلك قوله الله ﷻ: ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝** ﴾ [طه:6.5]، فكل ما أحاط به الكون من العرش فما دونه، فاسم الرحمانية تشمله.

وقد تقدم أيضًا أن المنزل منها الأرض هو مقتضى معنى الخلقة الذي صير طباق السماء والأرض لها مستقرًا ومستودعًا، وذلك معنى اسم الرحمن ومقتضاه، وكما أنزل هذه إلى الأرض وأمسك عنده التسعة والتسعين، كذلك أمسك من مقتضى هذه الصفة التي أنزل من مقتضاها، وأنزل مما أمسك، وكل يعمل بمقتضاه من موضع خصوصه وعمومه، كذلك سنته ﷻ في حكمته أن يمسك مما أرسل ويرسل مما أمسك، ويقبض مما يبسط ويبسط مما يقبض؛ ذلك بأن كلماته لا نفاذ لها، وخزائنه لا مباد لها لما اختزنه فيها، يمينه سخاء لا يفيض في يده عطاء إليك والنهار، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة تغني عن الترداد والعرض والتطريق والإشارة إلى المقصد، ﴿**وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ**﴾ [آل عمران:13].

وخاصة اسم الرحيم من اسمه الرحمن عزّ جلاله: أن اسمه الرحيم بمعنى الولاية، لا يحل مقتضاه الأعلى أوليائه، ورحمة الرحمانية عامة شواهد الرحمتين في القرآن كثيرة خصوصًا وعمومًا، فكل رحمة تكون في السماء من إنعام عام وإحسان وإكرام وغياث ودفاع وإدرار أرزاق، وما هذا سبيله ما كان من ذلك من توجه إلى معاني الخليقة، فذلك عن رحمة الرحمانية، وما كان منها من توجه إلى معاني الديانة ومعاني العناية من أجلها، فذلك من رحمة الولاية، ولأنها نازلة من العرش العلي إلى

---

(1) تقدم تخريجه.

الأرض تناولها مقتضى الرحمانية، فكانت واصلة إلينا بتوسطها، وهذه واصلتان إلينا بتوسط الرحمة العليا هما رحمتان من المائة رحمة المخلوقة، أمسك منها مما أرسل وأرسل مما أمسك، قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:2]، وتمام الخطاب أن يقدر هاهنا إلا هو مما يمسك، فلا مرسل له من بعده سواه، وما قام مقام هذا، سبحانه وله الحمد حكم كل شيء إمساكًا وإرسالاً.

وعلى وصفه وما تكون وجودًا له، فما كان من خطاب يتضمن رحمة دنياوية فهي عن صفة الرحمانية بواسطة رحمة الولاية، وما كان من خطاب يتضمن رحمة دينية بمعنى الهداية والإكرام والإحسان، فذلك بخاصة رحمة الولاية بواسطة الرحمة الرحمانية، كقوله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159]، وكقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ....﴾ [الأعراف:156] المعنى إلى آخره، ومتى عريت رحمة الرحمانية من رحمة الولاية، غلب على ذلك معنى الاستدراج المكرر نحوه بمن أتيح ذلك له، نعوذ بالله من عقوباته، ومتى عريت رحمة الولاية من معنى رحمة الرحمانية غلب على ذلك اسم الابتلاء والاختيار منه لمن أراد به ذلك؛ ولذلك ما قرن ﷻ بينهما في أم الكتاب، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1]؛ ليجمع لعباده المؤمنين خير الدنيا والآخرة.

وكان رسول الله ﷺ يقول في بعض دعائه: «**اللهم كاشف الكرب فأفرج الغم، مجيب دعوات المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، أنت ترحمني فارحمني رحمة من عندك تغنيني بها عن رحمة من سواك**»[1]، وذكر أن عيسى ابن مريم ﵇ كان يعلمه أصحابه، ويقول: لو كان على أحدكم جبل ذهب دينًا قضاه الله عنه.

التعبد

التعبد باسم الرحيم ﷻ سبيله سبيل التعبد باسم الرحمن، وهنا من الزيادة طلب تمام النعمة بولايته ﷻ، وهي الدرجة العليا والكفاية القصوى، قال الله ﷻ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ

---

(1) أخرجه الضياء (196/7، رقم 2633). والطبراني في الصغير (336/1، رقم 558). قال المنذري (381/2): إسناده جيد. وقال الهيثمي (186/10): رجاله ثقات.

﴿فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:75]، وأدخلناهم في رحمتنا ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم:49]، فاسأله - وفقك الله - تمام النعمة بها؛ فإنه لا يتعاظمه مسئول وإن جل، قال رسول الله ﷺ: «**إذا سأل الله أحدكم فليجزل الرغبة وليعزم في المسألة؛ فإنه لا مكره له**»[1]، منحنا الله وإياكم ولايته، وجعلنا من عباده المتقين إنه ولي ذلك لا شريك له.

اسمه الرءوف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

يقال من ذلك: رأف رأفةً على مثال فَعَلَ فَعْلَة، ورأف يرأف على وزن فعل يفعل، رأفة على وزن فَعْلَة، ورأفة على وزن فِعْلَة، وهو الرءوف على وزن فعول، ورءوف على وزن فَعُل، والرأفة حقيقة الرحمة وصريح العطف، والله ﷻ رءوف بعباده بمعنى رحيم بهم عطوف عليهم، قالوا: ورحمة الله بعباده ورأفته بهم وعطفه عليهم إرادته ذلك بهم وكذلك بهم، وكذلك الحنان والإحنان، قالوا: وكذلك الغضب والرضا والسخط، وما جرى مجرى هذه الصفات التي معهودها التغيير للموصوف بها معنى جميعهما من الله إرادته بها، فمتى أراد بعبد رحمةً أنعم عليه بها، ومتى أراد بعبد سوءًا ألحقه به، ويعبر عن ذلك بالغضب والرضا والحنان والرحمة والسخط كل على مقتضاه.

هذا عقد سلفنا - رحمة الله عليهم - ومذهبهم فيما هذا سبيله، وإنما سلكوا بها هذه السبيل لما في ذلك من إبهام التغيير والحيلولة والميل، وما لا ينبغي وصفه به سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وكذلك فرحه بتوبة التائب، الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**الله أفرح بتوبة أحدكم....**»[2].

وصفات الله - تبارك وتعالى - جلت عن التغاير، وتعالت عن التغير والتغالب، وتقدست عن التخالف هو السلام المؤمن، بل فصل الخطاب - إن شاء الله تعالى - فيما هذا سبيله إنه الرءوف الرحيم الحنان، له سخط ورضا وفرح وعجب وعطف كل

(1) رواه ابن أبي شيبة (21/6، رقم 29163)، وابن ماجه (1267/2، رقم 3854).

(2) تقدم تخريجه.

على مقتضاه، والمفهوم منه على مثل المعهود من التغير هو المقدس عن مشابهة البشر، المنزه عن نقائص الحدث، أسماؤه هي الحسنى وصفاته هي العلا، له تحقيق الحق منها ولسواه بعض مجازها ملازم لها الضعف، فلذلك تتغالب وتتعين؛ إذ موجودها النقص، وجلت أسماء الله ﷻ عن القول بالمجاز والاستعارة فيها، وتعالت عن التغاير والتخالف من حيث هو، بل هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات صمد سلام، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11]، نزيه على من كل وجه وبكل معنى، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82].

فتثبت - وفقك الله - فإنه من وصفه بما يوصف به المخلوق فقد شبهه، ومن لم يصفه بما وصفه به نفسه فقد جهله، ومن أراد أو قصر عن الحق فقد ألحد في أسمائه، وما قدره حق قدره، ولكنه ﷻ ربما نزل بوصف من أوصاف أفعاله أو صفاته إلى الاتصاف بصفات ما أوجده من أنواع رحمته، فيعبر عنه ذلك بإمضاء مشيئته عند مواقع نعمه أو نعيمه تقريبًا للأفهام، كقوله جل قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:125]، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:67]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:46] هكذا، فأما سبيل الفهم عنه ومعرفة أسمائه وصفاته فليس إلا ما تقدم ذكره.

ومعهود وجود الرأفة عن الحامل لها الموجودة بالمرءوف به: أن يكون المرءوف به من الضعف عمّا حمل، بحيث ترق الرحمة منه له فتعود إشفاقًا فيريد تخليصه مما هو فيه، فتلك هي الرأفة وليست من الله ﷻ بضعف ولا رأفة، لكن المرءوف به إذا تخلصت هذه الأحوال له من الضعف عن حمل عبء ما حمله، أو كان محبوبًا فوقع في أمر استوجب به ما استوجبه البعداء والبغضاء، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور:19]، إلى قوله: ﴿و فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:20]، حذف من الكلام ذكر التوحيد الذي استوجبوه بإرادتهم إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، تقديره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:14]، لكان كذا وكذا، فخزله من الخطاب

توقيرًا لعباده لموضع إيمانهم ومكان سابقتهم، وجعل المانع من وقوع وعيده بهم فضله عليهم ورحمته بهم، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:117].

وقال جلّ قوله يصف نبيه محمدًا ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فهذا خطاب منه لأهل الإعراض، ثم قال جل قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، فاستاق اسم الرأفة: الرحمة بالمؤمنين بعد سياقه معنى الإشفاق على الكفار، والتحزن عليهم من أجل تأخرهم وإعراضهم والحرص عليهم بالهدى كذلك، قوله جل قوله عن الأنعام: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل:5-7]، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:7]، فساق اسمي الرأفة والرحمة إثر ذكره هذه المنة اللطيفة والبر الخفي، الذي عبر عنه باستنقاذه إياهم من شق الأنفس، وكيف تحبب إليهم ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾، فاستقت معاني الرأفة والرحمة والتحبب والأنعام، وكما أنعم على عباده المؤمنين بها من حمل أعبائهم عليها، وركوبهم إياها في بُعد أسفارهم عليها، وكونها لهم جمالاً لهم يتجملون بها ويتزينون بملكهم لها.

كذلك في الآخرة يحملهم على ما يخلقه لهم من موجود طاعاتهم، وإعمال بمرضاته، وتخلصهم من مكروهات ما هناك من بعد مسافة الحشر، وينجيهم بها من لهب جهنم على الصراط تطير بهم في الهواء، ولعظيم أهوال ما هنالك، وكريم منال ما بها بقول جلّ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:7]، كذلك قوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ﴾، ثم أعقب ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:65].

فانظر - هداك الله - إلى ذكر الرأفة والرحمة بعد ذكره جمل إنعامه وأنواع رحمته وبره بالجميع وعذره إياهم، وأنه لو أطبق السماء على الأرض من كان ينصرهم منه؟

وإلى أين يكون فرارهم؟ فحلم عنهم لضعفهم، واتصف بالرأفة والرحمة وبأنه ربهم.

والمعهود في خطابه الكريم: أن السماء لا تستأذن أن تقع على الأرض، والأرض أن تنخسف بهم إلا عند عصيان العباد، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ....﴾ [النحل:45]، إلى قوله جل قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، قالوا على تنقص العدة للقائه، ثم عقب ذلك كله لقوله:﴿رَبَّكُمۡ فَإِنَّ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:47]؛ لأجل استنقاذه إياهم ومعافاته لهم من عظيم ما استحقوه من ذلك، وكل لك جميع ما يأتي منه في الكتاب والوجود معذرة؛ لضعفهم عما استوجبوه من عقاب، أو عن ما لا يستطيعون تجشمه فيعفو أو يحسن؛ فيسمى ذلك الفعل من الفاعل: رأفة، فإن كان الفاعل بشريًا، فإنه تجد رقة على المرءوف عليه وشفقة، وإن كان الفاعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه سُمي ذلك الفعل: رأفة؛ لوجود ما تقدم ذكره من الشواهد في المرءوف به، ولا يعلم ما الله إلا الله، غير أنا نعلم ما علمنا أن ذلك عن حب ما، وأن ذلك كمال كالمعهود من نعوت تعاليه ليس بتغير ولا حيلولة، كالمعهود من نعوت المخلوقين، وكل وصف يوجب لنا كمالاً ما فهو الكمال التام له، وكل وصف يوجب لنا تغيرًا ويوجد فيها من أجله حيلولة فهو له كمالاً وجلالاً، وتعالى علم ذلك من علمه وجهله من جهله، عبرت عن ذلك آيته وأعربت به بيناته، غير أن ذلك منها يرمون بإشارات خفية، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:255]، كيف ولا هو خالقهم؟ مما قد علمه وقد قدر عليهم ما هم به عاملون، وما هم إليه صائرون، وأنه لا بد لهم أن يصيبهم من الكتاب؛ فلذلك ما عذرهم.

وفي بعض الأخبار: ما من عامل عمل بمعصية الله إلا استأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه، وموضعه من الأرض أن يخسف به، ومصداق هذا من الكتاب العزيز قوله جل قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ [النحل:45] إلى آخر المعنى، قال: فيقول الله جل وعز: «مهلاً عبداي فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه»، ومصداق هذا من الكتاب قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم:32]، وقال رسول الله ﷺ: «**أذنب عبد ذنبًا فرفع طرفه إلى السماء، فقال: يا ربُّ، أذنبت ذنبًا كذا فاغفره لي، فقال الله**

ﷻ لملائكته: **علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني غفرت له**» ثم عاد فقال: «**ربِّ أذنبت ذنبًا فاغفره لي، فقال الله لملائكته: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت له**»، ثم عاد فقال: «**ربِّ أذنبت ذنبًا فاغفره لي، فقال الله لملائكته: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت له**» في الثالثة أو الرابعة يقول الله ﷻ: «**علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، عبدي اعمل ما شئت قد غفرت لك**»[1].

وقد جاء في بعض الروايات من الزيادة على هذا، قال فيقول الله ﷻ: «**يا ويحه يا ويحه، لا هو يترك الذنب ولا هو يتركني من الاستعتاب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[2]. فبرأفته ورحمته جعله أوابًا إليه متوجعًا من ذنوبه، وبرأفته ورحمته أوجع قلبه بها، وأحزن نفسه على إتيانها، مع علمه بما قد كتب في اللوح المحفوظ، عليه أن يأتيه ولا بد له منه ولا محيد، مع علمه بضعفه، وممِ خلقه، وما يقاسي فيه، وينازعه عن طاعة ربه، ويخالف به إلى ما يكرهه في معاملته، فاكتفى ﷻ بعلم عبده أنه ربٌّ واحد، لا يخاف معه غيره، ولا يرجى سواه.

فالعبد بين هذا النوازع موضع للرقة، وأن يشفق لحالته ورحم من أجلها يفهم أولي الألباب وما اتصف به، وتسمى من ليس كمثله شيء، ولا كصفته صفة ولا كفعله فعل، عند هذه الكائنات ما هو أحق حقيقة وأكرم وجودًا من مفهوم الرقة والإشفاق والتوجع، وميل الطباع من المخلوقين أولى النقص والضعف عند امتثالها، التي تنوبهم بعضهم من بعض، وأنه المنزه عن مشاكلة البشر؛ ولذلك شهد ﷻ لنفسه وشهد له كل شيء حقيقة، وعمّا يدرك المحدثين عندها، سبح نفسه وسبحه كل شيء عن معاني الخليقة، وأنه وإن كانت حقيقة الرحمة والرأفة فينا رقةً وإشفاقًا وتعطفًا، من أجل ضعف المرءوف به عن تحمل عبء، وما حمله مع حب وود موجود في نفس الراحم له.

فافهم - وفقك الله - ذلك كله، واعتقد الرحمة والرأفة، واقطع يقينًا أنه الحق وله حقائق الوجود الأعلى، وأن له من صفات الرأفة صفات يقابل الرأفة والإشفاق والميل والتعطف علوًا، هي أحق في حقيقة الرأفة وأعلى وجودًا في الرحمة، وأكرم له تسمى

---

(1) رواه أحمد (405/2 رقم 9245)، والبخاري (2725/6، رقم 7068)، ومسلم (2112/4، رقم 2758)، وابن حبان (388/2، رقم 622). والبيهقي (188/10، رقم 20553).

(2) لم أقف عليه هكذا. وروى البخاري نحوه (7507)، ومسلم (1380).

لنا، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:255].

التعبد

أي أخي، اعلم يقينًا أنه لا يوجب لك رأفته ورحمته على الكمال إلا بالعلم به والتطهر له والتطيب والعمل بمحابه، وعلى قدر ارتقائك في التعبد بمقتضى أسمائه على سبيل سنة رسوله ﷺ يكون قربك منه، وعلى قدر قربك منه تكون عنايته بك وعطفه وإلطافه ورحمته، ولرأفته ورحمته لا يعذب إلا من أبي عليه وشرد، ومن رحمته ورأفته بعباده أن يذودهم عن مراتع الهلكات، ويمنعهم موارد الشهوات؛ فمتى أصابهم نصيبهم من كتاب سبق أقال عثراتهم ونبههم من سنة غمزاتهم، وربما رأف بعباده ورحمهم بما يكون في الظاهر بلا رشده، وهو في الحقيقة رأفة بهم ورحمة لهم، ذلك مما تقدم ذكره أنه يقبض من حيث يبسط ويبسط من حيث يقبض، فكم من عبد ترحمه الخلق مما به من الفاقة والشدائد والضراء بغاية الرحمة، تغبطه الملائكة في حالته تلك، وأبناء جنسه عن ذلك في غفلة، وفقنا الله وإياك لما يرضيه بمنه ورحمته.

اسمه المغيث ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: أغاث إغاثةً وغياثًا وغوثًا فهو مغيث، والمفعول: مغاث، وغوث الرجل إذا صاح: واغوثاه، وإغاثة الله: فرج عنه، قد تقدم الكلام على معناه في رسم اسم المجيب ﷻ بما يغني عن التطويل، والفرق بين المستغيث والداعي أن المستغيث ينادي الغوث، والداعي ينادي بالمدعو أو بالمغيث[1].

---

(1) قال الإمام الجيلي - قدس الله سره - في «كمالاته»: المغيث تعالى هو الذي يجود على الموجودات بإعطاء ماتقتضيه قواتلها، وهذا الاسم من أسماء صفات الأفعال، وصفته الإغاثة، وهي عبارة عن سرعة إجابة كل مضطر بإيصاله إلى ما اضطر إليه، على ما تستحقه قابليته، والوسيلة مختلفة؛ فمنها ما يكون باطنًا، ومنها ما يكون ظاهرًا، ومنها ما يكون بلسان الحال، ومنها ما يكون بلسان المقال، وكل مضطر إلى ما لا بدَّ من وصونه ذلك الأمر إليه على الحقيقة، لا يكون إلا هكذا، وما يتصوره الجاهل في الفريق أنه مضطر إلى النجاة، من اقتضت قابلية هيكله بقاء في هذا العالم، والهالك إنما اقتضت قابليته الغنى من هذه الدار، فلم يكن مضطرًا على الحقيقة؛ إذ لو كان كذلك لم يهلك، وتلك الضرورة المتوهمة إنما هي باعتبار العادة لأمر، =

اسمه الكافي تبارك وتعالى

يقال منه: كفى يكفي كفايةً وكفاه فهو كافٍ، والكفاية هي القيام بالأمر كله، منه قولهم: هذا رجل كافيك من رجل، أي: كفاك به رجلاً، قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:45]، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:55]، وهو إلى سبيل الدفاع أقرب، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:36]، وقيل: لكفة الميزان كفة؛ لأنها كفت ما جعل في الكفة الأخرى، ويقال فيما يقاربه: كففت الرجل عن الأمر دفعته، وكففت يدي عن الشيء قبضتها عنه هذا كله من الكفاية، وقيل للذاهب البصر: مكفوف لذلك بمعنى ممنوع البصر[1].

حيث ما هو الأمر عليه في الحقيقة، فكل مضطر على الحقيقة إلى أمر لا بد من حصول ذلك الأمر له، وذلك معنى الإغاثة فلو لم يكن الأمر كذلك، لا نعدم أثر اسمه المغيث، تعالى سبحانه عن ذلك علوًّا كبيرًا، انتهى.

وقال سيدنا الحاتمي ﷺ في «العبادلة»: الإغاثة لا تكون إلا لمن قارب الهلاك، إلا في حق الحق، فهي لمن قالها لهلاك، ومن هلك فإن بيده ملكوت كل شيء، فنسبت الإغاثة إلى الخالق بوجه لا ينسب إلى المخلوق، فبالاسم المغيث ينقذ الغرقى، وينجي من المهالك، وقد يكون الدعاء من الذي يطلب هذا الاسم بالقبول، أو بالحال، أوبهما معًا، وفي حق نفس الطالب وفي حق غيره، على حسب ما يكون الباعث على ذلك.

وقال: المتحقق لا يرى أن أحدًا أغاث أحدًا لعينه، وإنما أغاثه من أجل نفسه، فإنه قامت به الشفعة والألم لذلك المغاث، فأغاثه ليزيل الألّم عن نفسه، وألحق كل ذلك، فافهم سر الحجاب، فإنه الله ما أغاث من استغاث به حالاً، أو قال: إلا لعين المستغيث به، وقد حرنا هنا حيرة شديدة، فإن العقل يقتضي هنا بدليله، بخلاف ما يعطيه الوضع الإلهي، ولا شك أن الله أعلم بنفسه من خلقه تعالى، فالرجوع إليه والفهم محجور عليه أن ينطق به صاحبه، وهكذا في أكثر الأسماء، أو في كلها، انتهى.

(1) قال سيدي عبد العزيز الديريني: الكَافِي الذي حاجة معه إلى سواه؛ لأنه إله واحِدٌ غير محتاجٍ إلى مُعِين له ولا مُشِير. ويقال: الكَافي هو الذي يعطي الكفاية وفوق الكفاية. ويقال: الكَافي دافع البلاء.

الاعتبار

ما كان في هذا من قبيل الدفع والمنع، فقد تقدم الكلام في ذلك في رسم اسم الحفيظ، وما كان منه من قبيل القيام بالأمر فسيأتي في رسم اسم الوكيل إن شاء الله وهو المستعان، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه الواقي تبارك اسمه وتعالى جده

يقال منه: وقى يقي وقاية فهو واقٍ، والوقاية والوقاء: هو كل ما منع من شيء وصانه من مكروه، من ذلك قالوا لسرج الدابة إذا لم يكن معقرًا: واقٍ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:21] أي: مانع، قالوا: ومن ذلك التقوى هي من وقيت فأبدلت الواو تاء، وكذلك التقاة والتقية والتقى جمع تقاة، قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[1] أي: امتنعوا منها، واجعلوا بينكم وبينهم ما يحجبكم منعًا ويصونكم منها.

وقال عون بن عبد الله - رحمه الله - لأصحابه لما ظهرت الفتنة: اتقوها - أي: امتنعوا من محذورها- بطاعة الله، وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:12] أي: اتقوا غضبه وسخطه وعقابه بالإيمان به، والعمل بطاعة الله، واتباع مرضاته؛ فذلك أحصن الجنن وأمنع الوقايات، وقال الله ﷻ: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:7] أي: كفاهم، وقد يكون هنا بمعنى وقى، أي: وقاهم بجنات النعيم عذاب الجحيم، وللتقوى وجهان: وجه شكر ووجه صبر، فوقاهم في الدنيا بأعمالهم الصالحة الأعمال السيئة، ووقاهم في الآخرة النار بالجنة، كما وقاهم في بدء الأمر بكونهم في قبضته اليمين أن يكونوا في القبضة الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين مباركة، سبحانه وله الحمد، إن هي إلا رحمته يصيب بها من يشاء، ويعدل بها عن من يشاء.

(1) تقدم تخريجه.

والتقوى عمل بطاعة على نور من الله يرجو به عامله ثواب الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله خوف عقابه.

اسمه النصير عز وجل

يقال منه: نصر ينصر نصرًا فهو ناصر ونصير مبالغة، والنصر فعل المغيث بالمستغيث والمجيب بطالب الإجابة، قال الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ....﴾ [الأنفال:9]، وقال الشاعر:

وأغــث مَــا قَــامَ بِــي رَمــقٌ يَــا غَــيَاثَ المــستَغيثِ بِــه

والنصر فعل الكافي في كفايته، والنصر من فعل الولي بوليه، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [الشورى:46]، ومثله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40]، غير أن النصر خاصته في الأغلب على الأكفاء أو ما يكون فوق الأكفاء، وفيما يحتاج فيه إلى الاستعداد والمناجزة والمحاربة بالمجاهدة والمرابطة والمصابرة.

وأما الغياث والغوث فعند الشدائد والكفاية عند المحاذير والمكروهات، والوقاية من ذلك والتيسير مع التعسير والنجاة عند الهلكات، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**اعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر**»[1]، قال الله جل قوله: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46] أي: معهم بالنصر، والنصر هو نصر الحق على باطل، وقد يسمى بذلك نصر الوجود على العدم مجازًا واتساعًا، قال عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: الذي هو كلمه ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾، الذي هو العدم قبل الكون ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:18]، فإذا هو زاهق بالوجود، وعبر عن ذلك

(1) رواه الخطيب (287/10).والديلمي (308/4، رقم 6903).

أيضًا بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82]، وإن إذاك للباطل دول على الحق، وللعدم على الوجود؛ لحكمة له في ذلك أوجدها عن أسماء له غير هذه، والنصر هو المراد وإليه نصير العاقبة، أعني: إلى دوام الحق وبقاء الوجود؛ ولذلك كانت العاقبة للتقوى والمتقين.

اسمه الحسيب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

قد يكون الحسيب الشريف، وقوم حسباء، أي: أشراف، وأصل هذا البناء موجود عن الحساب، أي: أن الشريف يحسب لنفسه في الشرف إباء عدة، وليس من هذه الجهة يتعرف اسمه الحسيب الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والحسب أيضًا: مقدار الشيء، فالحسيب إذًا علي هذا العالم بمقادير الأشياء كلها القادر على إيجادها، ويقال: حسبت الشيء أحسبه وأحسبه ظننته، وهذا في صفات الله ﷻ علم وفي صفاتنا ظن.

ويكون الحسيب بمعنى الكافي، فيكون مقتضاه الكفاية، يقال من ذلك: أحسبني الشيء كفاني، وحسبك ذلك، أي: هو كافيك، فالله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ذو الكفاية الكافية.

وقد يكون بمعنى الحساب بوجه، يقال من ذلك: الحسبان بمعنى احتساب الأجر، قال الله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6]، فمعنى كفاية لم أحتسب عليه عمله حسيبًا لعلمه بمقادير الحسنات والسيئات ومواقع الأعمال وأعدادها، قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94]، ويقال منه: حسبت الشيء على وزن فعلت، حسابًا وحسابةً، حسبة، وحسبانًا واحتسبته أيضًا بمعنى: حسبته، ومنه قول الله ﷻ يخاطب الأوصياء في أيتامهم: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6] أي: محاسبًا، فإذا كان بمعنى الكافي فهو فعيل بمعنى مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، ونصير بمعنى منصر، وكريم بمعنى مكرم؛ وإذا كان بمعنى المحاسب فهو فعيل بمعنى مفاعل، كنديم ومنادم، وشريب ومشارب، وكيل ومواكل.

اسمه المقيت سبحانه وله الحمد

يقال من ذلك: أقاته وقاتة، أيضًا يقوته قوتًا فهو مقيت إذا أعطاه قوته، قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**»، ويروي: «**من يقيت**»(1).

والقوت: المسكة من الرزق، وقد قات الشيء قوتًا، والمقيت أيضًا الحافظ، وقيل: إنه بمعنى المقتدر.

الاعتبار

إذا كان بمعنى القوت الذي هو قوام العيش ومسكة الجسد، فقد تقدم اسمه في رسم اسم الرزاق، غير أن خاصة هذا في إعطاء القوام من القوت.

وخاصة الرزق في إعطاء الرزق قليلاً كان أو كثيرًا، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو ﷻ يقوت الأجسام بالطعام والشراب، فيقوت الأرواح بالعقول، ويقوت النفوس بحسن الوفاق في العادات، ويقوت القلوب بتحقيق المعرفة وفتوحات العلوم، قال الله جل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:192-194]، وقد يقوت الأرواح بإدامة المشاهدة ولذيذ المؤانسة، قال الله عز قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:9]، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ بقوله: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»(2)، وقد قيل في مثل هذا:

---

(1) حديث ابن عمرو: رواه أحمد (160/2، رقم 6495)، وأبو داود (132/2، رقم 1692)، والحاكم (575/1، رقم 1515)، والبيهقي (467/7، رقم 15472)، والطيالسي (ص 301، رقم 2281)، والبزار (392/6، رقم 2415)، وابن حبان (51/10، رقم 4240)، والنسائي في الكبرى (5/ 374، رقم 9177).

حديث ابن عمر: رواه الطبراني (382/12، رقم 13414).

(2) حديث أنس: أخرجه البخاري (2645/6، رقم 6814)، ومسلم (776/2، رقم 1104).

حديث ابن عمر: أخرجه البخاري (693/2، رقم 1861)، ومسلم (774/2، رقم 1102).

حديث أبي سعيد: أخرجه البخاري (693/2، رقم 1862). حديث عائشة: أخرجه البخاري (2/ 693، رقم 1863).

فَقُــوتُ الــروحِ أَرواحُ المَعانــي وَلَــيسَ بِــأَن طَعِمــتَ وَإِن شَــرِبتا

وإذا كان بمعنى الحافظ، فقد تقدم ذكره في بابه بما يكون طريقًا للمتأمل إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه الكفيل تبارك وتعالى

يقال منه: كفل يكفل كفالة وهو الكافل والكفيل مبالغة، الكفالة تكون بوجه الضمان، وفي الحديث: «**إن رجلاً من بني إسرائيل استلف من رجل ألف دينار إلى أجل معلوم، فقال له المسلف: ائتني بشهيد، فقال المستلف: كفى بالله شهيدًا**»[1].

والكفيل أيضًا الذي يعول، قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:37]، والعائل قد يكون الفقير، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء:3]، وقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة:28]، ومنه قولهم: إنه لذو عيلة، أي: ذو فقر، وقال الشاعر:

مَــا احْتِــيالُ الفَتَــى إِذَا لَــم تَدلُــهُ دولــةُ الدّهــرِ بَــل عَلــيهِ تَــدُولُ

كُلّمــا رَامَ نَهــضةً أَقْعَدتُــه عَــائِلاتٌ مِــن الــزّمَانِ تَعُــولُ

وقيل من ذلك: علت العيال أعولهم إذا سددت مفاقرهم، وعالجت أمرهم وعلت عيلتهم، والكفل: الضعف، والكفل: النصيب والحظ، وإذا اشتد الكفيل على نفسه بالضمان فهو زعيم، فالله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يعول جميع الخليقة ويكفلها بكل وجه، ومعنى يرزقه ويحفظه وتقويتهم لهم، ووقايته غياثه وتكفله وتعليمهم وهدايتهم وغير ذلك من ألطافه وحفايته، تكفل ﷻ لهم بذلك كله وضمنه لهم، وهو الصادق في قيله الوفي بعهده الأمين في ضمانه، القوي في أمانته الحفيظ في كفالته، فتطلب ذلك في أبوابه، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123].

(1) ذكره الصنعاني في سبل السلام (225/4).

اسمه الوكيل عز جلاله

يقال منه: وكلت بالله، وتوكلت على الله، ووكلت الأمر إلى الله، ويقال: رجل وكلة وكل مواكل يتكل على أصحابه، والوكال في الدابة: أن تحب التأخر خلف الدواب، فالوكيل إذًا الذي وُكلَ إليه الأمور كلها، وهو فعيل بمعنى مفعول، مثل قتيل ومقتول.

الاعتبار

معاني اسم الوكالة كلها كالكفالة والوقاية والغياث والنصرة والرزق والإقاتة والحفظ، ومعاني التدبير التي يقتضيها اسم الوكيل موجودة في العالم، مبثوثة في معاني الخليقة، كغيرها من صفات الحق التي أوجد الله ﷻ عليها العالم، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:36]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ [الزمر: 37]، وإنما يكون التقرير على معلوم معهود؛ لقول القائل: ألم أعطك؟ ألم أهبك؟ ألم أنصرك؟

والمتوكل لثبات يقينه وصحة توحيده لا يخاف إلا الله ﷻ ولا يرجو سواه، قال الله ﷻ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:13].

فوصفهم - جل وعز - بعدم الفقه لما خافوا من سوى الله، والمؤمنون كلهم قد أخذوا من التوكل بقدر ما أحصل لهم من حقيقة الشهادة، غير أن الشهادة التي هي شهادة اللسان قد تكون مع الغفلة؛ فاللسان يشهد والقلب غير مكذب لكنه غير مشاهد ولا خاطر، والشهادة الحق هي المصاحبة للعلم والمشاهدة، مع سر يعتمد الله به قلب هذا العبد، به يتم مراد الله منه لا غير ذلك، مرة يعبر عنه بأنه روح، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فأخبر أنه أثبت الإيمان في مواطنهم، ثم قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة:22]، ومرة يعبر عنه بأنه البصير، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:51]، وعلم رسول الله ﷺ رجلاً دعاه،

فقال: «**قل رب أرني رشدي، وقني شر نفسي**»، وفي أخرى: «**رب أهدني لأرشد أمري وقني نفسي**»[1].

وبالجملة فإنما العلم والمشاهدة واليقين صفات العبد، وصفاته أن تغني عنه شيئًا من الله، وإنما ينفع بالصفات بارئ الصفات، لكنا نتكلم فيه من حيث إنه موجود سبله معلومة لمن نظر إليها مسالكه، قد تثبت بحمد الله حصول العقد بأن جميع الخليقة في قبضة الخالق الحق ﷻ، جارية على حكم تسخيره مصرفة في تدبيره على سنن قبضه وبسطه، إن شاء أخلق ما شاء من ذلك وإن شاء أوثقه ومنعه، لا ريب في ذلك هذا أصل العقد، ثم تقع الغفلة المتقدمة الذكر وبحديث النسيان - إن شاء الله - لحقيقة هذا العقد بمباشرة الأسباب القريبة من الرجاء والخوف، والواردة عن الأواسط والأغيار فيهن ذلك العقد، ويضعف جدًّا ما لم يكن له من الله حارسًا، حتى أنه - أعني الضعف - اتصل فصار حالاً للأكثرين إلا من عظمه الله وأيده بروح منه، فحقق الله ﷻ ذلك العقد في كتابه وزمه وحدد العهدية، وأكده بقوله: ﴿**مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ**﴾ [هود: 56]، ويقول وقد ذكر نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين بالملائكة عليهم السلام: ﴿**بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾ [آل عمران:124]، و﴿**بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: 125]، فكان ذلك النصر الموجود يومئذٍ، ثم قال جل قوله: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 126] أي: ليس من غير ملك ولا بكثرة ولا بقلة، ولا بنفس سبب من الأسباب قريب ولا بعيد سوى الله العزيز الحكيم، قال: ﴿**قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ**﴾ [الزمر:38].

فلما تبين من ذلك للعقول بالتنزيل المبين، قال لنبيه ﷺ وهو أمر متوجه على من سواه من المؤمنين: ﴿**قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ**﴾ [الزمر:38]، عليه يتوكل المؤمنون، فآية حراسته المتوكل عليه، ومفوض الأمر كله إليه زائدًا على حراسته وكفالته، على العموم

(1) رواه أحمد (444/4، رقم 20006)، وابن أبي شيبة (51/6، رقم 29394).

للذين هما لأجل الخلقة والتدبير، قال الله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ....﴾ [الأحزاب:60] المعنى، وقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:13]، وقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:4].

أرأيت لو أنهم أسلموا وآمنوا بالله ورسوله، وأخلصوا دينهم لله أليس كانوا يكونون مع المؤمنين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فكانت تزول عنهم تلك الرهبة والخوف، والذين جعل الله ﷻ في صدورهم للمؤمنين، وظاهر ذلك أن يحرم على المؤمنين الخوف الذي جعله الله ﷻ في صدورهم للمؤمنين؛ إذ أتيهم دقيق ذلك وجليله إلا بحق الإيمان، فإذا انتهوا أيضًا عن المناهي، وصعدوا في الإسلام والإيمان وتحققوا بحقائقها، لم يكن لحكام المسلمين ولا لجماعة المؤمنين عليهم سبيل، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:91]، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:42].

ثم إلى هذا تبقى عليهم أذية أعدائهم من شياطين الإنس والجن والبهائم، والظالمين الذين لم يتحقق التزامهم لشروط الشرع، فمن المعهود في سبيل النشء أنه من تحقق في الورع والانقطاع إلى الله ﷻ بالعبودية المحضة بالتفويض إليه والتوكل عليه، مع التزام آداب الإسلام الأعلى، والإيمان المصون الأرفع: أن يحرم على كلابه وجنوده وبهائمه وجميع المؤذيات من خلقه أذيته تحريمًا بأمر كون، كما حرم على المؤمنين قبل أذية المسلم المبتدئ بأمر الشرع، فإن أمر الشرع عن أمر الكون انفصاله وبه في الحقيقة اتصاله، كيف لا وقد حكم على من لم يؤمن بهذا بالضلال، وبالهداية على من كانت هذه منزلة إيمانه بقوله عقيب ذلك: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33] أي: عن عقده الأول أنه لا نافع ولا ضار سوى الله، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:37] أي: إلى عقده اللازم له بأصل الفطرة، والمتلقي بأول حقوق التوحيد ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:37]، فانتقامه الأكبر ممن ضل عن شهادة التوحيد، ثم كذب بها وشرد عن الله جلّ ذكره.

وكفايته العليا ونصره الأتم لأهل التحقيق في التوحيد، والتوكل وما بين ذلك؛

فهم درجات عند الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران:15] بما يعملون.

وللتوكل خمسة شروط باجتماعها يحصل التوكل، في أي الطبقات كان هذا المتوكل غنيًا أو فقيرًا كان متسببًا أو منقبضًا عن الأسباب خارجًا عنها، وهي: الزهد، والتوحيد، والتسليم لله ﷻ، وطاعة الله في السر والعلانية، والرضا عنه.

والعلم الذي يشهد للمتوكل على الله ﷻ كتمان الحاجة، وإظهار الغنى للناس عن الفقر، والمسكنة وإن مسه الضر في نفسه، ويذكر الله بكل جميل ويشكره ويثني عليه، ومن توكل على الله كفاه ووقاه، وكان له ما يصلحه من حيث لا يحتسب، والتوكل درجات تنحصر إلى درجتين: توكل المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وتوكل الصحابة ﷺ، وهو التوكل بجريان الأسباب، والأسباب سنة الله في خليقته، والوجه الآخر: التوكل بقطع الأسباب؛ هو التوكل بتحقيق الكلمة، وهذا في الممكن أن يوصل الله إليه وبعض المتوكلين، والوجود يعطي هذا، ومسالك الحق في العالم تحققه، فإنه يقال: إن أحدهم يبوأ في الدنيا فيما هذا سبيله أول درجة في الجنة، والداخل في الأسباب بالسنة الخارج عنها بالنية أفضل، دل على هذا اتفاقهم على أن العالم الزاهد الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.

وهذه مقامات المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والأخرى من مقامات النبيين غير المرسلين، وإن كانت تكشف لأولئك أمور غائبة، ويطلعون على ما خفي عن الناس، ولكن هؤلاء في مقامهم أفضل لجمعهم سبيل للسنة إلى الكلمة، وهو أيضًا - أعني: سبيل التوكل - مع الدخول في الأسباب، كالأولياء مع الملائكة عليهم السلام.

ومن التوكل فرض لازم ومنه فضل قائم، والمفروض منه هو الدرجة الأولى، وهي: معرفتك أن فعل الله لا يفعله غير الله، وأن كل شيء بيده وفي تدبيره، توحد بذلك لم يشرك في حكمه أحدًا هذا في العقد، وأما في الفعل فتحقيق ما عقد عليه قلبه يفعله.

وأما فضائله والارتقاء في تحقيق درجاته، كترك الأماني وحديث النفس بشيء لم يكن: لِم لَم يكن، ولا في شيء كان: لم كان، ومفارقة معاني ولولا وهلا، قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء:65] يعني: الإيمان الأعلى، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:65].

واعلم أن التوكل من أعمال الإسلام، دلّ على ذلك ما تلوناه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65]، وقوله حاكيًا عن رسوله موسى ﵇: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:84]، والرضا عن أعمال الإيمان؛ ولذلك قالوا: لا يصعد إلى الله ﷻ أفضل من الرضا، وأهل الرضا هم حزب الله، قال الله ﷻ: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:22]، وإنما يخففوا في غلبة هذه الدرجة للسر الذي اعتمدهم به، وهو روحه الذي أيدهم به وبالرضا يوجد المذاق، قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا**»(1).

كما بالتوكل تكون الكفاية وتوابعها، كما بالتذكر الموجود مع التقوى يكون الصبر ﴿تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:28]، كما بالإيمان تكون الهداية، وهو باب إلى كل خير بعده ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:9]، ونحوه كثير، كما بالحياة يكون السمع، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:52]؛ لتنذر من كان حيًا، والحياة أصل لكل صفة موجودة، والحياة لا تكون إلا بالروح، فإذا أيدت الحياة الروح رضي بالله ورضي الله عنه، ووجد طعم الإيمان ومذاقه بالمناجاة والإنس والروح وطيب عرف القرب.

وقد يلحق أهل الحق بالتوكل وجهًا ليس به هو منهي عنه حرام امتثاله أن يترك العمل للآخرة، ويتكل على ما سبق به التقدير وجف به القلم وفرغ منه.

واعتقاد التوكل على ذلك ورومه بهذا الوجه جهل بما قد سبق وجف به القلم؛ لأنه ما جفت الأقلام وما اختتم به الكتاب إلا بالأعمال، كما اختتم بالحظوظ والمنازل، ولو أن امرأ ترك العمل للدنيا، ثم لم يعمل للآخرة اتكالاً على ما سبق له فيهما؛ لاستحق اسم العجز لتركه التسبب لدنياه، وكان خاسرًا مع الخاسرين؛ لتركه العمل لآخرته، ولو أنه ترك العمل لدنياه وتفرغ لأخراه لاستحق اسم الكيس؛ إذ للذي يناله من دنياه، مع ترك العمل لها يقوته ويكفيه، والذي يناله في الآخرة معترك العمل لما

---

(1) رواه الطبراني (251/1، رقم 724)، قال الهيثمي (56/1): في إسناده أبو الحويرث ضعفه مالك وابن معين ووثقه ابن حبان. والبيهقي في شعب الإيمان (70/7، رقم 9512)، والطبراني في الصغير (32/2، رقم 728)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (451/1، رقم 468).

يريده، وهذا مما انختم به الكتاب وجفت به الأقلام.

ولما كان التوكل مركبًا من خمسة معانٍ كان التفويض في جنبة الرضا، فقيل للمفوض: متوكلاً لتفويضه، وهو أرفع التوكل وأتمه، وكان التصديق للتوحيد، فقيل للمصدق بوعد الله الواثق بضمانه: متوكلاً لتوحيده، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123]، فلما أثبت الوحدانية أمره أن يعبده على ذلك، ويتوكل عليه بصدق الوعد والثقة بالضمان ثواب إخلاص العبادة له.

وكانت الكفاية للتسليم، فمن سلم أمره كله إلى الله ﷻ كفاه الله، ولما في التسليم مقارنة التفويض أن التفويض يكون عن حقيقة الرضا مترددة من الدنيا والآخرة، وأنه إن لم تكن الكفاية موفرة له في الدنيا، فإنها له خالصة في الآخرة - إن شاء الله ﷻ - وعن هذه الدرجة رأيت الأقدام ممن قل تحصيله، من حيث ظنوا أن ضمان الكفاية معجل له في الدنيا؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:3].

فأعلمك أنه لا بد أن ينال المتوكل وغير المتوكل ما سبق له في التقدير، لكنه ربما - وهو الأغلب - جعل المتوكل وغير المتوكل ما سبق له في التقدير، لكنه ربما وهو الأغلب جعل المتوكل مقارنًا للعاقبة، فكانت لأجل ذلك الكفاية ظاهرة بادية أو بعضها، وكانت الرغبة في الآخرة عن الزهد في الدنيا من حيث إن الدنيا والآخرة شيء واحد له طرفان، وقد أمر بالعمل بطاعة الله ﷻ، وثبت عنده أنه لم يخلق عبثًا، واستعمل من أجل ذلك نفسه فيما يبقى له، وزهد فيما يغني عنه ويفارقه.

فالتوكل أصله التوحيد والتصديق بضمان الله ﷻ الموعود، وضمان الله وعده لم يأت إلا للعاملين بطاعته، فإذا الأعمال اليوم في الدنيا كمثال منازل الآخرة وثوابها، كالتقدير الأول للجملة يوم قدر الكائنات والمجازاة عليها، فمن لم يعمل اليوم لم يكن له هناك حظ ينتظره، وكل امرئ ميسر لما خلق له. ومن قولهم: ستساق إلى ما أنت لاقٍ، فالجبن والإقدام والكيس والعز والربح والخسران مقدر مسوق إليه من قدر له وعليه، والتوكل اليوم فيما سبيله العمل للآخرة عل ما قد سبق جهل بما قد سبق.

التعبد

ومن عرف الله ﷻ وكل إليه أموره وفوض إليه جميع شأنه، بل إنما توكل العباد على ربهم على قدر معرفتهم به، وتيسيرهم للتوكل عليه على قدر طاعتهم له، على قدر

معرفتهم تكون ثقتهم بضمانه ورضاهم بكفالته، ثم بقدر ذلك تكون تهمتهم لأنفسهم وتركهم للتدبير، وعلى قدر ذلك يجدون روح الكفاية، وتسريح أنفسهم من أذى النصب وأبدانهم من كلال التعب؛ فيتفرغون عند ذلك لخدمة معبودهم المتجلي لهم في أنوار المعرفة، ويسارعون في شكر من رضي لهم بالتوكل منزلة، وقد جاء عن رسول الله ﷺ:

«من أحبَّ الدنيا التاط منها بثلاث: شغل لا ينفك، وأمل لا يدرك، وحرص لا ينال»[1].

وأنه من ذهب إلى أن تتخذ وكيلاً ينوب عنه في أشغاله، ويقوم مقامه في حرفته وماله يسأله الأجرة عن أعماله، ويطلبه بالمكافأة على إقباله في ذلك وإدباره، وربما تجوز هذا التوكيل في اقتضاء مأربه، ولم يقم في ذلك ببعض واجبه ولم، وربما لم يهتد كما ينبغي لمراداته وقضاء أوطاره.

والوكيل الحق ﷻ يعطي الجزيل للمتوكل عليه، ويثني الجميل على المفوض إليه، ويسأل على ما يتولى من أموره عوضًا، ولا يطلب منه على ما يعطيه أو يكفيه من رعايته أو نوائبه قرضًا، بل يضاعفه له أضعافًا كثيرة مما يكل دونه النظر، وينحسر دونه البصر، ويلطف له في دقائق مأربه بما لا ترتقي إليه آماله ولا تتضمنه إرادته، فركن المتوكل عليه عزيز ومعقله حرير، وعدته كافية وجنته وافية هو الكفيل الأمين والوكيل القوي القدير، الصادق المقال، الوثيق الضامن، يلم الشعث، ويسد الثلم، ويجبر الكسر، ويصلح الفاسد، ويكشف الغم، ويفرج الكرب، ويجلي العماء، ويقبل المديد، ويلاقي الفريط، ويجمع المنتشر، ويقيم الأود، ويسد الخلل، ويعدل الميل، ويداوي السقم، ويسد الفاقة؛ فاستسلم - وفقك الله - لأمره، وارض بقضائه وفوض أمرك إليه، وسارع في طاعته، واحتسب عنده وما غلبت عليه، وتعرض لثوابه وقف عند حده، واستنجز وعده وخذ بأدبه:

بـادِرْ إِلـى الـتَّوبَةِ الخَلْـصاءِ مُجْـتَهِدًا ... وَالمَـوْتُ وَيْحَـكَ لـم يَمْـدُدْ إِلـيكَ يَـدا

واسـتنجز اللهَ وَعْـدًا لَـيْسَ يُخْلِفُـهُ ... لا بُـدَّ للهِ مِـنْ إِنْجـازِ مـا وَعَـدا

وقد تكلم الناس في التوكل وحده وعلومه وأحواله، وما يخرج المتوكل عليه وما تدخله فيه، فلنقتصر عن ذكر ما صنعوه؛ إذ ذلك مأخوذ في مصنفاتهم مبين في

(1) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (35).

تآليفهم، ولنقتصر من ذلك على يسير ما سطرناه، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

اسمه الوهاب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: وهب يهب وهبًا وهبةً فهو واهب، ووهاب تكثيرًا أو مبالغة، ويقال: اتهب فلان، إذا قبل الهبة.

اعتباره

خاصة الهبة من العطية أن العطية صفة في المعطي من حيث إنه يعطوا العطية، أي: يتناولها، كما قال الشاعر:

وَتَعطـو بِـرَخصٍ غَيـرِ شَـثنٍ كَأَنَّـهُ أَسـاريعُ ظَبـيٍ أَو مَـساويكُ إِسـحِلِ

وقال الآخر:

وَسـربَ صـوار لَـيْسَ تعطـو نعاجـه بَـرِيدًا وَلا تقـذوا جـاذره خمطـا

وكأنه إنما سمي المعطي بجعله المعطى متناولاً لها للعطية، ثم عن وصف الهبة أعطى المعطي العطية للمعطي، وربما كان الأغلب في العطية أن توجد فيما يتناوله اليد، أو يتحصله في الملك، وليس من شرط الهبة أن تكون لموهوب ملكًا، بل هي صفة في الواهب تكون عنها الهبة والإعطاء، قال الله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [ص:30]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ [مريم:53]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء:90]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [العنكبوت:27]، هذه سبيل الهبة وخاصتها وتلك خاصة الإعطاء، وربما قاربوا فاستعملوا هذه مكان هذه، فمتى استعملوا الهبة مكان العطية وجب أن يكون من نعتها الملك، فلم تجز على ذلك إلا بالاختيار فكان التناول.

اسمه الودود سبحانه وله الحمد

يقال منه: ود يود ودًا ووِدادةً، فهو ودود على وزن فعول مبالغة من الفاعل، كما بالغوا بقتول من قاتل، ويجوز أيضًا أن يكون فعول بمعنى مفعول، أي: مودود، كما يقال: ناقة حلوب بمعنى محلوبة، والود والوداء والمودة سواء، وودت الشيء ودادة، وأنا ودك ووديدك مثل: حبك وحبيبك.

الاعتبار

الود والحب قربت قربتهما غير أن الحب هو خاص الود، فالمؤمن يود المؤمنين والمسلمين وهو يحب أخاه في الله، ويحب الله ومحبوبه، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم، كمثل الجسم إذا اشتكى بعضه تداعى له سائره بالحمى والسهر**»[1]، فهذا عام فيما هو سبيله، وقال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»، وفي أخرى: «**حتى أكون أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين**»، وفي أخرى: «**من نفسه**»[2].

والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ودود للمؤمنين ودود لأوليائه، والود منه ظاهر وباطن، وأما الحب فهو باطن فقط، والود مسكنه الفؤاد، والحب مسكنه القلب؛ فإذا لزم الود حبة القلب كان حبًا، والفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه، وقالوا: في القلب تجويفان، والتجويف الظاهر: هو الفؤاد وهو مكان العقل وموضع الإسلام منه، والتجويف الباطن منه: هو القلب وفيه البصيرة والسمع، وعنه يكون الفهم والمشاهدة؛ لأنه محل الإيمان، فإذا دخل الود داخل القلب كان حبًا بالغًا

---

(1) رواه أحمد (4/270، رقم 18404)، ومسلم (4/1999، رقم 2586)، والبيهقي (3/353، رقم 6223)، والقضاعي (2/283، رقم 1367).

(2) حديث أنس: رواه الطيالسي (ص 264، رقم 1959)، وأحمد (3/103، رقم 12021)، والبخاري (1/14، رقم 16)، ومسلم (1/66، رقم 43)، والترمذي (5/15، رقم 2624)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (6/527، رقم 11718)، وابن ماجه (2/1338، رقم 4033)، وابن حبان (1/474، رقم 238).

حديث أبي أمامة: رواه الطبراني (8/262، رقم 8019).

وكان الإيثار كله؛ لأنه إذ ذاك في سويداء القلب، وما لم تحلل هناك فإنما هو الود[1].

---

(1) قال في «دقائق الإشارات إلى معاني الأسماء والصفات» الملخص من كتاب الله أبي بكر أحمد البيهقي - رحمه الله تعالى: ومنها الودود، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج: 14]. قيل: هو الوادُّ لأهل طاعته، أي: الراضي عنهم بأعمالهم، والمحسن إليهم لأجلها، والمادح لهم بها.

قال الخطابي: وقد يكون معناه أن يوددهم إلى خلقه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]. قيل: هو المودود الكثير إحسانه، أي: المستحق لأن يود، فيعبد ويحمد، فهو مفعول في محل مفعول، كما قيل: رجل هيوب بمعنى: مهيب، وفرس ركوب بمعنى: مركوب، وعن ابن عباس ﷺ: الودود الرحيم، وهو الذي يود أولياءه ويودونه، ويحبهم ويحبونه، الود شوك الحب، فلا يؤثر فيه سبق معاصيهم، وإنما ما نزلت بهم إلا بحكم القضاء والقدر السابق للطرد والبعد.

اعلم أن الود مرتبة من مراتب الحب، فإن المحبة لها أربعة أحوال، لكل حال اسم تعرف به: فأول سقوطه في القلب يُسمى **الورى**، ثم ثباته في القلب وهو **الود**، ثم خلاصه من تعلقات الغير وتصفيته وهو **الحب**، ثم التفافه عليه التفاف اللبلابة بالشجرة، حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه، فهو **العشق**، فالودود هو ثابت الحب، فالحق ثابت المحبة لعباده، فإن الصانع يحب صنعته، والمحب يطلب الرحمة من المحبوب، فمقام صيانة الحب أول مرحوم، والصيانة رقة الشوق إلى لقاء المحبوب، ومن هذه الصيانة زيَّنه بزينة الشهود، وكساه خلعة الوجود، وأدار كؤوس الأفراح بين الشاهد والمشهود، فخاطبهم بإشارات لحاظ الجمال، ويخاطبونه بلسان التحقيق والأحوال، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج:14]؛ ليكون الأمر مستويًا بين الحب والمحبوب، فهو سمع المحبوب وبصره، وغير فرد من أفراد الخلق منصة من منصات مجالي تجليات الحق، فمن المحبين من يعرف محبوبه في الدنيا معرفة شهود، فيتلذذ بلحظاته، فبان له أنه عين الغطاء، فالعالم إنسان، والإنسان عينه، والمحبوب من الإنسان إنسان العين من العين، انتهى.

وقال سيدي عبد الكريم الجيلي - قدس الله سره - في «الكمالات الإلهية»: اسمه الودود تعالى، هو الذي أحب تكبير الوحدة، فظهر بواحدانيته، أي: من حيث تجلي الصفات في كثرة الأكوان، فالكثرة هي الوحدة، ولا يقع التعريف بها، والكثرة هي الظهور، وبها وقع التعريف. وقد قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: «**كنت كنزًا مخفيًا**» يعني الوحدة «**فأحببت أن أعرف**» يعني: بأسمائي وصفاتي، وهذا أصل التكثير «**فخلقت الخلق**»، يعني ظهوره في هذا الوجود على ما هو الوجود عليه، فهو سبحانه وتعالى أحب ظهوره، ولا يكون الظهور إلا في هذه المظاهر، فأحب مظاهره لذلك، ومظاهره منها ما هو خفي وهو الأسماء والصفات التي لا يبلغها الإحصاء، ومنها ما هو خلقي، وهو هذا الوجود، فالأسماء الإلهية والصفات لهذا الوجود كالروح للصورة، فهذا الوجود مع الأسماء الإلهية، والصفات الربانية عين الذات للأحدية من حيث ظهورها بها، فباعتبار الأحدية لا تكثر، وباعتبار التكثر لا أحدية، وباعتبار الذات تكثر في
=

وإيثار المحب المحبوب على قدر الود والمحبة، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:96]؛ أي: يوجد في قلوبهم ودًّا فيودونه لذلك، ويوجد لهم أيضًا ودًّا في قلوب الخليقة، وربما رفعه إلى الحب، كما قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا قال لجبريل: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل** عليه السلام **ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيا أهل السماء...**»، ثم يجعل له القبول في الأرض، وفي أخرى: «**المقه تنزل من السماء**»[1]، ونزولها من السماء هو نزولها في الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل مما تنبته الأرض إلا أحبه فذلك قوله: ثم يجعل له القبول في الأرض.

وقد أتى من ذكر المحب في القرآن والحديث أكثر مما أتى أكثر من ذكر الود، لكنه لم يأت من الحب اسم ظاهر كما جاء من الود، والحب والود والرضا خاص

=

أحدية وأحدية، وهذا الاسم من أسماء الصفات، وصفته الود، وهو عبارة عن التوجه الإرادي الحي، لا لعلة، بل لمقتضى الذات، فلولا المحبة ما كان هذا الظهور، ولولا الظهور ما عرف الله تعالى، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:54] بوجود أحديته في كثرتهم؛ ليعرفوه ويحبوه بوجود كثرتهم في واحديته، وليعرفهم بضد ما عرفوه، إنه عرفهم بالتكثر، وعرفوه بالوحدة، وعرفهم بالنقص، وعرفوه بالكمال، فهو الجامع بهذه الصفات المتضادة بكماله، والرابط بين الصفات بذاته، فنه صفة الوحدة لما هو عليه في ذاته، وله صفة الكثرة لما هو عليه في صفاته، وصفاته تطلب الكثرة لمؤثراتها، وذاته على ما هي عليه من الوحدة التي لا تتغير، والكثرية التي لا تظهر بالتعريف، بل هي على ما هي عليه، مع زوال التكثير، فالمحبة هي الواسطة بين الكنزية والظهور، ولأجل ذلك كان الحبيب المخلوق منها ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه، وتلك هي الوسيلة الكبرى التي لا تكون إلا لأجل واحد، وهو محمد ﷺ، انتهى. وقال الشيخ البوني - رحمه الله تعالى - في «شمسه»: هذا الاسم هو المغناطيس الجذاب، والياقوت الجلاب، مَنْ أكثر من ذكره كان محبوبًا عند الناس، ويثبت الله قلوب الخلائق على محبته، وهو من الأذكار الجليلة، ومن وضع اسمه تعالى ودود والحبيب في مثلث من كنزة جواد، ووضع المثلث في باطن مربع وحمله، لا يقع عليه بصر أحد إلا أحبه.

(1) رواه البخاري (1175/3، رقم 3037)، ومسلم (2030/4، رقم 2637)، ومالك (953/2، رقم 1710)، وابن حبان (86/2، رقم 365)، والطبراني في الأوسط (179/5، رقم 5001).

ورواه أحمد (263/5، رقم 22324)، وابن عساكر (353/66)، والروياني (293/2، رقم 1236).

ومن غريب الحديث: «المقه»: المحبة.

من الله ﷻ يختص به من يشاء من عباده، وهو كثيرًا ما يعبر عنه بالفضل، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:21]، وإنه ليبلغ الحب والود بحامليه أن المحبوب ربما فعل القبيح، فيحسن عند المحب ذلك ويجمل، وفي ذلك قول قائلهم:

ويقبحُ مِن سِواكَ الفَعلُ عِندي فتفعله فيحُسنُ مِنك ذَاكَ

فإذا بلغ العبد أن يود الودود الحق عز جلاله هذا الود وده هو ﷻ، وجعل في قلبه ودًا يوده به، وألقى في قلوب الناس له ودًا، وإذا أحبه حتى يحسن عنده كان ابتلاؤه، فيحمده على الضر أو يرى منعه عطاء، ويعتقد العافية منه في بلاء يصيبه، جازاه الودود الحق بأسرع من ذلك ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:30]، فهو يعذره في زلله، ويبدل سيئاته حسنات، بكرمه ويحسن منه ما قبح، ويتداركه في مواقع هلكاته، كما ذاك بالضد للمبغض الممقوت والمتجني والمتسخط، فإن كان منه حسن أتاح له ما يفسده به من رياء أو عجب أو آفة تبطله أو تحبطه، وإن أنعم عليه استدرجه، وإن ابتلاه عاقبه، وإن هم بخير قيض له ما يصرفه عنه.

فصل

فمن لم يعرفه ﷻ فليتعرف إليه، وليطلب سبل معرفته؛ فمعرفته تقرب من محبته ومن وجد حبه، فليحبه الحب كله فعلى قدر ذلك منه لا يستفتح له موجودًا، ولا يستقل منه حكمًا، بل يستقبل أحكامه كلها بالرضا والشكر على جميع صنعه لحبه الصادق، وعمله الرفيع بعبودية الخالق، ثم لجانب الغفلة عنه جهده بمداومة التيقظ واستصحاب التعمل؛ فإنه من شأن المحب أن يكون قائمًا عند باب محبوبه وبظاهره وباطنه، فإن لم يمكنه فبقلبه وروحه، ومن هذا قول قائلهم:

أطوفُ ببابكُم في كلِّ حينٍ كأنَّ ببابكُم جُعلَ الطوافُ

واعلم أن كل حب موجود في العالم فهو آية لصفته ﷻ التي هي الحب، وحجة منه على المحبين لغيره، لِمَ أحبوا ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان:55] لِمَ أحبوا ما ليس بكامل في صفاته وأعلى في أسمائه؟ لِمَ لم يحبوا ذا الأسماء الحسنى والصفات الكريمة العلا؟ لِمَ لم يحبوا من بيده جلب كل خير إليهم، وإليه دفاع كل محذور وشر عنهم؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:54].

واعلم أن الحب من الودود الحق جل ذكره قد يكون تارة بالإكرام والإنعام، كقضاء الحاجات، وإجابة الدعوات، والحباء بالكرامات، وخفي الكفايات هكذا على

الأغلب، ثم قد يكون بأنواع الابتلاء في الظاهر، ينادي فلا يكاد يجاب، ويسأل ويستغيث فبعد لأي ما يغاث، ليس من هوانه على محبوبه، لكنه سبق له ذلك في أزله أنه ينال ذلك بهذا السبيل، حتى أن أبناء جنسه ليرحمونه بما به من الضر، والملائكة - عليهم السلام - تغبطه بما له عند ربه من جزيل الذكر وكريم المآب، ذلك بأن الحب فيه شقاوة ونعيم وقرب وتبعيد، وقد قالوا: جور الحب أعلى من عدله، ومنعه أشهى من بذله، ورده ألذ من قبوله، ومن ذلك قول القائل:

أَلَــذ مِــن مــدرك التّمنِــي ... ونــيل الملــك بــلا تعنــي

قــول المحــب المــستهام ... يهــيم فــيه تــنح عنــي

ولذلك ما حسن صفة المحبين من أهل التهيام بالمخلوقين بالإعراض والتجني والصدود والنحل والتبعيد، وقالوا: الحب هو ما لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء، وهذا مثال قول القائل:

وَإِنّــي وَإِن صَــدَّت لَمُــثنٍ وَصــادِقٌ ... عَلَــيها بِمــا كانَــت إِلَيــنا أَزَلَّــتِ

أَسِــيئي بِــنا أَو أَحــسِني لا مَلــومَةً ... لَدَيــنا وَلا مَقلِــيةً إِن تَقَلَّــت

وربما بلغ من شدة الحب أن يقنع من محبوبه بما يشبه له بأنه إشارة إلى وصل أو تطوق إلى ذكر، كقول أُبيّ بن كعب ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**»، فقال: رسول الله، وسماني الله لك؟! قال: «**سماك لي**» فبكى، وفي أخرى: «**وذكرت فوق العرش**» فبكى[1]، وقد يرق هذا فيركن إلى التمني ويفرح بما يتصور له فيه، كقول القائل:

وأفــرحُ مــنْ ليلــي بِمــا لا أنالُــه ... إِلا كُلمــا قَــوت بِــه العــينُ صــالحُ

وقال آخر:

أَهتَــزُّ عِــندَ تَمَنّــي وَصــلِها طَــرَبًا ... وَرُبَّ أمنِــيَة أَحلــى مِــنَ الظَفَــرِ

وقد يرق هذا فيبلغ إلى قول القائل:

لَــئن سَــاءني أنْ نلتَنِــي بمــساءةٍ ... لقــدْ ســرَّني أنّــي خطــرتُ بــبالك

وأولو العزم في محبة الله ﷻ أغرق حبًا وأبلغ وصفًا، قال الله ﷻ العليم بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، إنه ليبلغ ذلك منهم أن يكون استلذاذهم

---

(1) رواه البخاري (4676).

بمنعه وابتلائه كاستلذاذهم بإعفائه وإكرامه، ألا تسمع إلى قول عمر ﷺ: لو كان الشكر والصبر بعيران ما باليت أيهما ركبت، وقد قالوا: إذا رأيتك تحبه وهو يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيك.

وقد عبر القرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ عن حب الله ﷻ في غير ما موضع وبغير ما عبارة، كقول شعيب ﷺ لقومه: ﴿**وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ [هود:90]، وقول صالح ﷺ: ﴿**إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾ [هود: 61]، وقال ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:222]، وقال جل قوله: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ**﴾ [المائدة:54]، وقال: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ**﴾ [آل عمران:31]، وحيثما ذكر الرحمة والغياث والعفو والمغفرة والإحسان والإفضال والهداية والإجابة وأنواع الكفاية الدينية، فذاك عبارة عن وده ﷻ. وقال رسول الله :ﷺ «**الله أفرح بتوبة أحدكم**»، وفي أخرى: «**بتوبة عبده من رجل ضلت ناقته بأرض قفر عليها زاده ومزاده، فطلبها فلم يجدها، فلما يئس منها مال إلى ظل شجرة، فقال: أنام هنا حتى أموت، فلما استيقظ إذا ناقته قائمة عند رأسه، فقال: أي رب، أنت عبدي وأنا عبدك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

وهذا أبلغ عبارة عبر عنها في وجوه لكنها من جهد المقل؛ إذ صفات الله وشأنه أكبر وأكرم وأعظم من أن تعبر عنها العبارات، وصفات العباد لصغرها وضيقها إن لم تفرطه أفرطت وأخرجت إلى الذهول والجنون وغير هذا من الآفات، قال ﷻ: «**يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني وعطشت فلم تسقني....**»[2]، وقد تقدم ذكره فيما مضى، فهذا وما نحا نحوه يوقف على الإيمان بوده وحبه، سبحانه وله الحمد كثيرًا كما هو أهله.

وأما معرفة حبه ووده، وأنه لموجود في الجماد والأحجار، ثم في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم تحقق وجوده في المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟**

---

(1) رواه البيهقي في الدلائل (307/5).

(2) تقدم تخريجه.

﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، ثم في الولي، ثم في النبي، هكذا يتزايدون في الوداد والحب لله ﷻ عن تزايدهم في المعرفة والمشاهدة، ثم إلى الله تصير الأمور.

التعبد

اعلم أن المحبة من العبد لله ﷻ تستبين بحسن الموافقة منه ولزوم الطريقة المثلى، والمسارعة إلى ما يحبه ويرضاه، ومن دلائل ذلك: الإيثار ومحبة تلاوة كتاب ربه، ورغبته في تفهمه وتكراره على سمعه وتلذذه بالمداومة على ذلك.

ومن دلائل حب الله: حب القرآن وحب أهل القرآن، وحب رسول الله ﷺ، وحب سنته، وحسن الاقتداء به.

ومن علامات حب الله ﷻ: التبرم بالدنيا والبغض لها، وتقديم أمور الآخرة وكل ما يقرب منه على أمور الدنيا.

ومن علامات حبه: الجهاد في سبيل الله، وإنفاق المال والنفس سخاء؛ للتقرب منه والبلوغ إلى مرضاته، والمسابقة إليه بصالح الأعمال، كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:84].

ومن علامات حبه: ترك الشكوى إلى غيره، وكتمان ما حكم به من التضييق والشدائد؛ إذ قد صار من أهله وأوليائه، بل وجود الفرج بالبلوى، والاستراحة إلى علمه به وحده.

ومن علامات خالص حبه: صدق الانقطاع إلى الحبيب بكل وجه وعلى كل حال، وسبق نظر القلب إليه عند كل حادثة، وإخلاص المعاملة، وحسن الأدب، بل وجود النعيم في مجالسته والأنس بمؤانسته، ثم الطمأنينة إليه، وعكوف الهم عليه، وإظهار ما به من النعم، وكثرة التفكر في عجيب صنعه، وتدبر كتابه ومعاني حديث رسول الله ﷺ، وحسن الثناء عليه، وطول السهر بالقيام له، وقد كان رسول الله ﷺ ينام ويقوم ويصوم ويفطر، وهو سيد المحبوبين والمحبين من ولد آدم عليه السلام.

واعلم أن منال محبة الله ﷻ بترك المناهي أكثر من منالها بسواها من أعمال الصالحات، والأعمال الصالحة قد يعملها البرُّ والفاجر، والانتهاء من المعاصي لا يكون بالكمال إلا من صدق، وبالجملة فإنه من كان اليوم مشغولاً بنفسه كان غدًا مشغولاً بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربّه كان غدًا مشغولاً بربّه، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90].

اسمه الحنَّان جلت أسماؤه وتعالت صفاته

يقال منه: حن يحن حنانًا وحنينًا، وهو الحنان مبالغة وتكثيرًا، وقد قالوا: الحنان الهيبة، فإن كان ذلك كذلك فإنما هو من أجل أن الهيبة قد تكون من إفراط الحياء وشدة التعظيم، فهي إذًا رقة في سبيلها، وإنما الحنان رقة الرحمة، وقد تكون رقة الود والمحبة، قال الله ﷻ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم:13].

وقد يكون رقة الشوق وهو راجع إلى ما تقدم من الود، ومن ذلك قيل: امرأة حنانة، وناقة حنانة، وعود حنان يحن إلى وطنه والقريب، كذلك يحن إلى أرضه حنينًا، قال الشاعر:

إذا حـان مـن شـمسِ الـنهار غُـروبُ ... تذكَّـرَ مـشتاقٌ وحـنَّ غَـريبُ

وقال آخر:

أحـنُّ للبـرقِ مِـن تلقـاءِ أَرضِـهِمُ ... وَلـي فُـؤادٌ إِلـى الآلافِ حَـنّانُ

محلـه الـنفسِ فـيهم أيـنَما قَطَـنوا ... ومنـزِلُ الـروحِ فـيهم أيـنما كانـوا

وقال آخر:

إِنِي لأبغض أوطَانِي وَقد ظعنوا عَنها ... أَلا إِنمـا الأحَـباب أوطـان

والنيـبُ يحـن إلى معاطنهـا

وقيل لامرأة الرجل: حنته؛ لأنه يحن إليها، ومنه قيل: عود حنان لتحريكه ما في النفس، فتشتاق إلى ما تحركت إليه وتشوق إلى ما ذكرته، وقالوا فيما قارب هذا البناء لقبيل من الحن حن وكلب حني للبهيم منها وكلاب حنية.

الاعتبار

حقيقة الحنان في المخلوق رأفة في النفس، وميل مفرط في الجبلة والطبع لشوق مزعج صوت مفرط، تضعف القوة عن حمله، ويهز الصبر عند موافقته، فتنزعج النفس بما فيها، وربما خف معها الجسم، وربما عبرت النفس عمّا بها من ذلك بصوت رقيق ضعيف عبارة عن ضعف، فأصدر عنه من القوى الباطنة، وقد يزيد في ذلك فيما سبيله الرحمة أن يكون المحبوب ضعيفًا عن حمل ما تحمل مما يحذره عليه، أو يظنه به للشوق الراحم الشائق إليه، فتضاف صفة الخوف عليه إلى صفة الحب له وحنان إليه، فيحدث الإشفاق وهو رقة الخوف ورقة الشوق والشفيق بسوء ظن مولع، ويبدو

ذلك ظاهرًا في حنين العود إلى مطافيلها، وجميع الواضعات لأحمالهن على الأغلب، فهناك تتبين صفة الحنان في المخلوق، ومنه قول القائل:

أُحَمِّلُـــهُ ثقـــل التُــرابِ وَإِنَّنـــي لأَخشى عَلَيهِ الثُقلَ مِن مَوطءِ الذَرِ

وقال غيره في مجاز الحنان والحب:

قـــف فانظـــرن بـــاللهِ كـــيف هـم ولا تخبرهم ذنبي هنَاك فيدنفُ

أنَـا ويـك أجمـل السّقام مِـن التـي هِي ويك عن حمل الغلالة تضعفُ

وكل ما ذكرناه عن ضعف فهو وصف للعبد وموجود به، والله - ﷻ وتقدست أسماؤه - أتم حنانًا وأكرم صفاتًا وأنزه وصفًا، وقد جاء في الحديث أن الله - جل ذكره - يقول لعبده الذي تغلبه نفسه بالمعاودة إلى الذنب المرة بعد المرة، وهو يندم على ما كان منه فيستغفره، ثم تغلبه نفسه فيعود، قال: «**فيقول له في الثلاثة أو الرابعة: يا ويحه يا ويحه، لا هو تارك الذنب ولا هو بأولى من الاستعتاب، عبدي اعمل ما شئت فقط غفرت لك**»[1]، فعذره ﷻ لضعفه عن مقاومة ما يجاهده من عدوه، وعجزه عن الإتيان بما يخالف ما قد سطر له في أم الكتاب، فهو بين هذا وهذا قد ضاقت حيله إلا من استغفاره ربه.

وقد تقدم فيما مضى أن الحنان والرحمة والرضا والغضب، وما كان من هذه الصفات التي توهم ميلاً أو غلبةً أو وجهًا من هذه الوجوه التي في وجود المحدثين، فالله - جلّ ذكره - نزيه عنها بريئ منها، سبحانه وله الحمد، له الكمال الأقصى والتمام الأرفع والتحقق الأعلى، والسبحات المنزهة لنعوت جلاله.

والحنان وغيره من هذه الصفات تنشأ - كما تقدم - منشأ الوداد والمحبة والرحمة وغير ذلك؛ لأنها مما ينزل من صفات الحق إلى الأرض في الماء، وكلما كان وجوده كذلك فشأنه النشوء من لدن عالم الجماد إلى عالم الملائكة - عليهم السلام - وفي حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ آية، وعون على تعرف ذلك؛ إذ نشؤه بالسنة وخرق العوائد فيه بالكلمة، وإنما تخرق العوائد لمعجزة أو كرامة، وكل ذلك على الله يسير، والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أعلى وأسنى، وصفاته أكرم وأفخم وأتم، وجميع القرآن يخبر عن منزلته ﷻ في خطابه المؤمنين في مواضع وعظه ووصاياه، ومواطن توصيتهم بالرأفة والحنان والرحمة لمن بحث عن ذلك.

---

(1) تقدم تخريجه.

فصل

والعرب تسمي كلب البهيم: جنيًّا ينسبوه بذلك إلى الجن، تقول من ذلك: هذا كلب جني وكلاب جنية، وقال رسول الله ﷺ: «**الكلب البهيم الأسود شيطان**»[1]، وكل ما جن إلى ابن آدم من هذه المؤذيات وجاوزه وقصده بذلك فهو من ذلك؛ لأنه جن إليه، أي: سكن إليه وتاق نحوه، كالقطاط والكلاب، وكل ما اتخذه ابن آدم وأشلاه فانشلى، وأمره وائتمره، وكذلك الفأر والوزغ والبراغيث، وغير ذلك من سوس الموجودات، وتفنها من هذه الأصناف التي تعيش في تبعية ابن آدم، وهي تؤذيه بجبلتها أذية لا تبلغ الإهلاك والاستئصال، سماها رسول الله ﷺ: فواسق، ومنها ما قد أسلم كبعض الحيات من عوامر البيوت ونحوها؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل ما لم يسلم منها في الحل والحرم وفي الصلاة.

كما أنها كلما تأتي ابن آدم ولم تنحاش عنه فهو من قبيل الجن، ويقال له: البن، مثل الحيات المؤذية والسباع المهلكة والأشياء والمؤذية من حيوان ونبات، بذلك عمّر الله -جل وعز - أرضه مع صنف الرحمة والإسلام من لدن يوم الخميس، الذي بث الله - جل ذكره - فيها الدواب إلى عشية الجمعة ليلة السبت، فلما أهبط الله آدم ﷺ إلى الأرض أظهر ﷻ هذه الأصناف الثلاثة هذين الوصفين: الحنان والمباينة، فحن إليه وإلى ذريته منها حن، وتأتيهم منها ما تأبن، ولما أظهر إبليس - لعنه الله - فسقه كانت مباينته لهم في الديانة والأخلاق، فهذا كله وما شاكله بين لك مسالك الحنان في أصناف الخليقة، وانبثاثه في العالم، ونشأها كغيرها في الصفات التي هي عن الحق المخلوق بها السماوات والأرض.

وله حنان أول أوله عن الصفة العالية ظهر بصفة اللطف، الذي لطف به لجميع الخليقة أول بدايتها، وكذلك ظهر بصفة الامتنان وبالجملة وبالرحمة، فكل ما كان فعلاً عن صفة الرحمة فأثر الحنان ظاهر فيه، مثال ذلك: الجنين في بطن أمه وحاله وتقلبه في الخلق بعد خروجه، وكيف أخرجه، ثم كيف حنن عليه قلوب الأبوين والكافلين، وكيف سلط الشفقة عليهم، وكيف لطف في تغذيته باللبن إذا لم يستطع المضغ وضعف عن تناول الغذاء؛ ولأن خاصة اللبن وفطرته أوفق له وأرفق به، وكذلك في جميع المنشآت، فإن كان قد سبق له في مقدم التقدير والقضاء أن يكون من أهل

---

(1) رواه مسلم (1200/3، رقم 1572)، وابن حبان (467/12، رقم 5651)، وأحمد (333/3، رقم 14615)، والبيهقي (10/6، رقم 10818)، والديلمي (23/3، رقم 4046).

الصفاء، وفق له الإيمان والعمل بطاعته؛ فيتصل له الحنان أوله بآخره، والانقطاع عنه بالعداوة التي جناها على نفسه مشاقته الله ورسوله؛ ولذلك قالوا: حنانيك ربنا، أي: صل لنا حنانك الأول لحنانك لنا في الأخرى، كذلك قولهم: لبيك وسعديك؛ لما وفقهم في الإجابة الأولى في الدهر الماضي، يوم استخرجهم في قبضتيه الكريمتين ﷻ إلى قوله: لبيك ربنا وسعديك، كان ذلك من قولهم وإجابتهم له كالتقدير منه لهم، فلما ذرأهم في الأرض أنجزوا ما عوهدوا عليه يومئذٍ من التلبية؛ لقولهم: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إن الحمد والنعمة لك والملك، وكان رسول الله ﷺ يقولها ما بين الإقامة والتكبير في حال التوجه إلى الصلاة: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك أنا بك وإليك**»[1] أي: لك التلبية أولاً وآخرًا، فاحرسها علينا بحسن الإجابة لك، وكذلك سعديك السعادة الأولى التي فطر الخليقة كلها على الإسلام، ثم السعادة الأخرى بالتثبيت على الإسلام، فهذه شروح لمعاني التثنية في هذه الكلمات، وإنما هو التطريق والإرشاد، والله الموفق السداد.

اسمه المنّان ﷻ

يقال من ذلك: منَّ الله علينا بمن، فهو المنان والاسم المنة، وقالوا: المن الإحسان، وهو من الإحسان ما كان أولاً أو ما كان منه من غير طلب مثوبة، وبذلك سمى الله ﷻ ما كان ينزله على بني إسرائيل منًّا؛ إذ كان ينزل عليهم من غير حراثة ولا تجارة ولا سعي إليه ولا كدح فيه، ويقال له: كان شيء يشبه العسل، ويقال له: الترنجبين، فالله أعلم.

وكل ما نيل بغير سعي ولا تعب فهو منٌّ، وقد يسمى ما تقطعه منًّا، قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:264]، فسمي بفعله في المن - والله أعلم- والممنون المقطوع، فكأن المان بما اصطنعه قاطع أجره وثوابه؛ لذلك سماه ﷻ إبطالاً، ومن ذلك تسميتهم المنون الذي هو الموت؛ لأنه يمن

(1) رواه أحمد (32/3، رقم 11302)، وعبد بن حميد (ص 287، رقم 917)، والبخاري (1221/3، رقم 3170) ومسلم (201/1، رقم 222).

كل شيء، أي: يقطعه، وأما قول الرسل - عليهم السلام - لقومهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:11]، فهو من الإحسان الأول لغيره مثوبة، ومنه قولهم: من على أسيرك وامنن عليه، قال الله ﷻ: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:4]، فالمن هذا قد يكون من الإحسان؛ لأنه أطلق له دون طلب فداء ولا نول، وقد يكون من القطع أيضًا؛ لأنه قطع عنه بإطلاقه لك ربقة الرق، وربك الآسر.

الاعتبار

قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:50] أي: خلق كل شيء، ثم هداه لما خلقه له، وكذلك أعطاه الإحسان في خلقته تلك، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:7]، وإذا حققت النظر فكل عطايا ونعمة من عنده ﷻ أو من غيره فمن منه على عباده، فقواهم وعلومهم وذواتهم وجميع صفاتهم منٌّ منه على عباده، من حيث هم لا يشعرون في شيء، ولا يكدحون في أمر إلا بنعمته عليهم، فإذا كل عطية منه لهم من منِّه عليهم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:53]، وقال الله ﷻ: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [طه:50]، فهذه نعمته عليهم في الخلق بتوابعها، وهي أول النعم ﴿ثُم هَدَىٰ﴾ هذه نعمة الفطرة منتظمة بنعمة الديانية، وهي خاصة وهي منٌّ من الله على من خصّه بها وهي أفضل النعم، سبحانه وله الحمد فهو إذًا المان بكل شيء.

التعبد

سبيل التعبد به: الشكر على آلائه ونعمه والحرص على ذلك، والاعتذار إليه من التقصير عن بلوغ ما يستوجبه، والدعاء والتضرع إليه في حسن العون، وأن يتحمل عنك ما عجز عنه شكرك، وأن يصفح عن تقصيرك في أداء واجبه، نسأل الله البر الرحيم سبيلاً قاصدًا إليه وزادًا مبلغًا إلى ولايته والتقرب منه، فهو ولي ذلك لا شريك له.

اسمه التواب سبحانه وله الحمد

يقال منه: تاب يتوب توبةً ومتابًا، والله التواب تكثيرًا أو مبالغة.

الاعتبار

التوب: الرجوع من العبد إلى ربه بطاعته، فهو عود من الله بالرحمة على عبده؛ إذ خلقه على فطرة الإسلام، فأضل العبد أضله، وجهل فعاد علا عليه ربه برحمته، وأرجع عليه الإسلام الذي ضل عنه، فكان بذلك القبول على عبده تائبًا، أي: راجعًا، فرجع العبد إليه تائبًا مما جناه فقبله ربه، فكان الله ﷻ بذلك القبول من عبده تائبًا، وكلما وقع في معصية فقد فارق فطرة الإسلام بقدر وقوعه، وبعده عن أصله بمقدر كبر ذنبه وصغره، وعمده فيه أو خطئه وإصراره عليه، واستعجال مراجعته؛ فيعود عليه ربه ﷻ بالتوبة فيتسمى بذلك تائبًا، ولكثرة الذنوب ومراجعته على عباده إياه وعوده عليه تسمى بالتواب ﷻ، وبالحقيقة فليس بأنه تاب على عباده يسمى بالتواب؛ إنما تاب لأنه لم يزل توابًا، يقول: بل قوله: إني أنا الله لا إله ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:160].

وفي بعض الأخبار: أن إبراهيم ﷺ أتاه سبعون حكيمًا يسألونه عن الجود ما هو؟ فقال ﷺ: إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، فإذا أتاني جبريل ﷺ سألته، قال: فنزل عليه جبريل ﷺ، فسأله: ما هو الجود؟ فقال له: لا علم لي إلا ما علمني ربي، حتى أسأل ربي، فلما صعد سأل ربه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - وذكر القصة، فقال له ربه ﷻ: الجود أن يذنب العبد ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب يقول الله جل وعز: حكمي في هذا العبد أن أغفر له ذنوبه، وأبدله مكان كل ذنب عمله حسنة.

فإن الكريم إذا عفا عن عنده أعطاه شيئًا آخر زائدًا من عبده، ومصداقه من الكتاب العزيز قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:155]، مع قوله جل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفرقان:70]، وهذا يعضده حديث رسول الله ﷺ في العبد الذي تغلبه نفسه إلى المعاودة إلى الذنب المرة بعد المرة في كلها يستغفره، فتشهد ملائكته ﷻ وتعالى وشأنه: أنه قد غفر له الثالثة أو الرابعة، يقول: «**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1].

(1) تقدم تخريجه.

هو التواب الحكيم أوجد التوبة على مسالك حكمته وطرقات سننه، وذلك في إرجاعه أواخر الحكمة على أوائلها، كما تقدم في اعتبار الشهادات في اسم الشهيد ﷻ، كالحياة بعد الموت، ثم الموت بعد الحياة، ثم الحياة بعد الموت، وكالاعتبار بالليل والنهار واستمرار القمر بعد كماله وكماله بعد استمراره، وكالاعتبار بالسنة وفصولها، وقد تقدم في ذلك كله ما فيه تطريق للمبتدئ وتذكير للمنتهي.

فإذًا لا بد للعباد من الذنوب، ولا غنى لهم عن توبة الله عليهم، كما لا غنى لليل عن النهار وللموت عن الحياة، ولا بد في مشيئته أن يتوب على من شاء منهم، ثم لا بد لهم من مراجعة الذنوب، ثم لا بد في وجوده وكريم سنته أن يراجعهم بالتوبة، كما فعل في سنته بالدوائر المحكمة المذكورة؛ إذ العود والبدء سنته في تدبيره، وأنه ظاهر في الحكمة؛ إذ لو كان من عباده من لا يذنب ليتوب عليه، لذهب بمن لا يذنب وجاء بمذنبين ليتوب عليهم، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:62]، هذا على سبيل الاعتبار سننه، وأما على الاعتبار بأسمائه فلأنه التواب أوجد المذنبين، فتاب عليهم ليتوبوا، ثم يتوب عليهم فيقبلهم، ولأجل ذلك سن سنة دوائر تدور أواخرها على أوائلها، ثم أوائلها على أواخرها، إن ربك لرءوف رحيم.

التعبد

عليك يا أخي بالتوبة النصوح من الذنوب كلها، أما ما تعلمه مفصلة، واقصد كل ذنب بتوبة وما جهلته فأجمله، فإذا أحكمت التوبة قابلت كل من ذنوبك بما يطابقه من العمل المصلح له؛ فتب إليه من توبتك بتوبة تحدثها، ثم اخرج من توبتك التي خرجت بها من توبتك إليه، حتى تكون في وجهتك هذه جبريًا محضًا، قد اعتقدت ما له عليك من النعمة في ذلك كله، فهو الذي ألهمك التوبة وندمك على ذنبك، وأحزنك من أجله واستعملك بالتوبة والعمل بها، ثم هو الذي أعلمك أن ذلك ليس نحو لك ولا قوتك؛ فتب له من توبتك، فكلما حدثتك نفسك أنك عملت أو كسبت، فاقمعها بما عرفك الله من عجزك وشر نفسك، وأنه لو وكلك إليها لم يكن منها إلا العجز والخطأ والإثم، وبهذا تتم توبتك إن شاء الله تعالى.

وقد تكلم الناس في الذنوب وكبائرها وصغائرها، ولِمَّ كبر منها ما كبر؟ ولِمَّ صغر منها ما صغر؟ وتكلموا أيضًا في التوبة وأركانها الأربعة، فاطلب علم ذلك في مظانه واعمل عليه، والله الموفق وهو المستعان، وقد مضى من ذلك في «كتاب الإرشاد

إلى سبل الرشاد» ما فيه تطريق وإعلام، والله الموفق الهاد.

اسمه العفو عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه

يقال منه: عفا يعفو عفوًا فهو عفو، ومعنى العفو: الترك بوجه، قال رسول الله ﷺ: «**عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق**»[1] أي: تركت ذلك لكم؛ لأنه وجب بعموم ظاهر قوله ﷻ: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة:13]، ثم أعلمنا بتخفيف الله ﷻ علينا، وكذلك قوله: ﴿**وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [المائدة:11] أي: تركها توسعة على عباده.

وقد يكون العفو بمعنى: الستر والتغطية، ومنه قيل: غطيت الدار عفاء درست وعفا الأثر يعفو، أو الريح تعفو الدار والأثر، والعفاء الرءوس، ومنه قيل: العفاء التراب، والعفو: ولد الحمار، ويقال: هو الأنثى من الحمر؛ سمي بذلك لكثرة وبره، فهو يعفو صورته، أي: يسترها؛ ولذلك قالوا لكثرة الوبر والريش للعفاء الواحدة من ذلك: عفاءة، ومنه العافية، وهي: طلاب الرزق من كل الحيوان، وإنما قيل للكثير عفاء؛ لأنه يغطي ويستر، فمعنى قول القائل: ربِّ اعفُ عني، أي: اترك مؤاخذتي بجرمي، واستر عليَّ ذنبي، واذهب عني عذابك، واصرف عني عقابك، هذا ونحوه.

والاستعفاء: طلب العفو، ويكون العفو الطيب من كل وجه، منه قول الله جل ذكره: ﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ**﴾ [البقرة:219]، وقالوا: العفو أحل المال وأطيبه.

الاعتبار

إن أول ما أظهره الله ﷻ من موجودات معاني هذا الاسم الكريم ما قدمه أمام تدبيره: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[2]، ثم خلق عن موجود الصفة، ومعنى هذا الاسم الكريم رحمة أمسكها عند نفسه، مع ما أمسك من أنواعها، يخص بها من يشاء من

(1) رواه الطبراني في الأوسط (177/9، رقم 9464)، والخطيب (291/14).

(2) تقدم تخريجه.

عباده، وما جعلها في شيء إلا أحبه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد سألته أم سلمة - رضي الله عنها - فقالت: يا رسول الله، إن أنا وافقت ليلة القدر، فما تأمرني أن أقول؟ قال لها: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني**»[1].

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**سلوا الله العفو والعافية، فإنه لم يؤت أحد بعد يقين أفضل من العافية**»[2].

اسمه الغفور تبارك اسمه وتعالى علاؤه وجده

هذا اسم قريب القرابة من اسمه العفو، يقال منه: غفر يغفر غفرانًا ومغفرةً فهو غافر، وغفار تكثيرًا للفعل ومبالغةً في الصفة، والغفر الستر، ومن ذلك سمي ما يجعل من الدرع على الرأس: غفارة، وقيل للثوب يثور زئيره: غفر الثوب.

وقد يكون معنى الغفر: الإصلاح؛ لذلك قالوا: غفرت الثوب أغفره أصلحه بما ينبغي له، فمعنى قول القائل: اللهم اغفر لي: اللهم أصلحني، وإن قال: اغفر لي ذنبي، أي: أصلح ذنبي ويسرني لعمل تكفر به عني، فيكون ذلك إصلاحًا له، قال الله ﷻ: ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ**﴾ [البقرة:160]، ﴿**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ**﴾ [الأعراف:170].

وعلى معنى الستر: اللهم استر على ذنبي في الدنيا وفي حال الحساب، ولا تؤاخذني به، كقوله ﷻ: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»، إصلاحها

(1) رواه الترمذي (534/5، رقم 3513)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1265/2، رقم 3850)، والحاكم (712/1، رقم 1942)، وأحمد (171/6، رقم 25423)، والقضاعي (336/2، رقم 1476).

(2) رواه أحمد (5/1، رقم 17)، والحميدي (3/1، رقم 2)، والترمذي (557/5، رقم 3558). والضياء (157/1، رقم 68)، والحاكم (711/1، رقم 1938).

في قوله ﷺ: «**ولك مكان كل سيئة عملتها حسنة**»[1].

فهذا الستر والإصلاح للذنوب، فمعنى قول القائل: اللهم اغفر عني؛ الستر والتغطية على ذنوب والإصلاح لحاله ومكان ذنوبه، وربما كان المعنى في طلب العفو: الصفح عنه، ورده إلى حيث كان منه قبل الذنب؛ نزاعًا بالنية في الرغبة إليه ﷺ إلى قوله: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[2]، والصلح: الإعراض عن الذنب، فلا يذكره المذنب كرمًا، فكيف يؤاخذه والصفح مأخوذ فيما هنا من صفحة العنق، وهو إذا رأى المتكرم الصفوح ما يكرهه أعرض عنه ولو عنقه، فأبدى بذلك صفحته، وأسماء الله أحسن حسنًا وصفاته أعلى وأسنى، وإنما لله ﷻ من أسماء حقائقها والمعنى بها، ثم للحروف مجاريها، وقال الشاعر في الصدود عن الوصال:

صَفوحٌ فَما تَلقاكَ إلاَّ بخيلَةً ... فَمَن مَلَّ مِنها ذَلِكِ الوَصلَ مَلَّتِ

فوصفها بأنها معرضة، وعبر عن ذلك بذكر صفحة عنقها، ولما علمه رسول الله ﷺ من كريم عفو ربه وسعة مغفرته، قال: «**لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**»[3]، وقد جاء في بعض الروايات بإسقاط قوله: «**فيستغفرونه**».

نعم هو يغفر لهم لمن يستغفر وعد حق، وقد يغفر لمن يستغفره؛ إما لأنه عالم بأنه قد سبق له في أم الكتاب ما هو عامله، فهذا من أهل العلم والإيمان، فقد جاء أن هذا يغفر له قبل أن يستغفر - والله أعلم - وإما أنه قد أصر على ذنوبه وكان في مشيئته أن يغفر له، كما قال: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء:48]، ذلك بأنه المنان المتطول ذو الطول والإكرام.

ومن الغفران ما هو عام لجميع العباد مؤمنهم وكافرهم، ذلك في قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا**﴾، ثم قال جل قوله: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا**

---

(1) رواه أحمد (74/2، رقم 5436)، والبخاري (862/2، رقم 2309)، ومسلم (2120/4، رقم 2768)، والنسائي في الكبرى (364/6، رقم 11242)، وابن ماجه (65/1، رقم 183). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (63/7، رقم 34221)، وعبد بن حميد (ص 266 رقم 846)، وابن حبان (353/16 رقم 7355) والطبراني في الأوسط (180/4، رقم 3915)، والديلمي (1/ 152، رقم 553).

(2) رواه ابن ماجه (1419/2، رقم 4250)، والطبراني (150/10، رقم 10281).

(3) تقدم تخريجه.

غَفُورًا﴾ [فاطر:41]، وفي قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:5]، وهذه مغفرة نظرة وإمهال؛ لينال كل نصيبه من الكتاب ويستوفي ما خلق له، ثم تأخذهم على أوفر ما جنوه، وقد تقدم من ذكر الرحمة العامة فيما مضي فيما يلحق هذه بتلك.

ومن الغفران ما هو خاص للأولياء والمؤمنين، وهو نائل نفعه لهم في دنياهم وأخراهم، قال الله ﷻ في المغفرة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:58]، وقال في الخاصة من المؤمنين العامة في الدنيا والآخرة: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:82]، فجاء به التكثير كما أذنبوا غفر، سبحانه وله الحمد كثيرًا كما هو أهله[1].

---

(1) وقال سيدي عبد الكريم الجيلي- قدس الله سره - في «الكمالات الإلهية»: الاسم السادس عشر اسمه الغفار، هو الذي يستر قبح الاثم بحسن الثواب، فذهب اسم الشر وجاء اسم الخير، والفرق بين العفو والغفار أن: الغفور يصفح عن الذنب ولا يعاقب، والغفار يصفح عن الذنب ثم يبدله بالحسنة، فيستر ذلك القبح بحسن يهبه له؛ لأن الغفر هو الستر، والعفو هو الصفح، وهذا الاسم من أسماء صفات الأفعال، وصفته الغفر بفتح الغين، وهو عبارة عن تجلٍّ إلهي بمطلق الجمال والحسن، فيستر كل قبح في الوجود، وهذا في المعنى يظهر بطون الحق تعالى في الأشياء من غير حلول، وينكشف حجاب الوحدانية عن وجوه الكثرة، ومن فيض هذا التجلي يصير الإبدال إبدالاً.

والبدلية على ثلاثة أنواع: بدلية الفعل، وبدلية الصفة، وبدلية؛ **فبدلية الفعل** على نوعين: أعلا وأدنى، فالأعلى أن تتبدل المذمات النفسية بالمحمودات الروحانية، فيتبدل بخله بكرمه، وغضبه بحلمه، وضيقه وسعًا، وضرره نفعًا. **وبدلية الذات** أيضًا على نوعين: أعلى وأدنى؛ فالأدنى أن تتبدل ذات العبد بذات الرب، أي: بتجلي ذات الرب عليها، فيغنيها؛ لأن الله تعالى ما تجلى لشيء إلا خضع، أي: فني، فيجد العبد ذات الرب متجلية عليه موضع ذات العبد، فكلما أراد العبد أن يرى نفسه، لا يرى إلا ذات الله تعالى، فالأعلى أن تتبدل ذات الرب بذات العبد، بأن يغنيه، ويكون الحق نائب عنه والمتصرف، فيشهد الحق نفسه نائبة عن نفس العبد، فيكون العبد خليفة عن الرب، فإذا أراد العبد أن يري ذاته، رأى ذات العبد، أي: الباقية بعد إفنائه، فيكون رأى ذاته على حد قول العارف، أعارته طرفًا لأهلها، فكان البصير لها طرفها، وبين هذا المشهد والذي قبله فرق كبير لا يفهمه إلا الغرباء.

وقال عند الكلام على اسمه تعالى الغفور: (وهو الذي لا يؤاخذ على ذنب، كائنًا ما كان الذنب)، والفرق بين اسمه الغفور واسمه الغافر أن: الغافر يخص بالمغفرة، والغفور يعم، فقوله تعالى: =

اسمه الشكور ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

معهود الشكر: كثرة المكافأة وجزيل المثوبة على يسير الحظ، من ذلك قيل للحلوبة يغزر لبنها على قلة المرعى: شكرة، وقد شكرت شكرًا ومنه الحديث، وذكر ﷺ موت يأجوج ومأجوج، فقال ﷺ: «**إن طيور السماء ودواب الأرض لتشكر من**

=

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:48] هذا من حيث التجلي اسمه الغافر، فإنه تخصيص للمغفرة بما دون الشرك، ومفهوم الظاهر من هذه الآية أنه لا يغفر الشرك على الإطلاق، ومفهوم أهل الحقائق: أنه لا يغفر الشرك في تجلي اسمه الغافر على التقييد، ويغفره في تجلي اسمه الغفور، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الزمر:53]. فاعلم أن مغفرةالذنب على الإطلاق هو بتجلي اسمه الغفور؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عقب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا ذنب أعظم من الشرك، فينبغي أن يكون داخلاً تحت العموم. وقد تحدثنا عن اسمه الغفار في أول هذا الباب، وبه يُعلم الفرق بين هذين الاسمين وبينه، ثم قال: اعلم أن صيغة اسمه الغفار موازن لصيغة اسمه القاهر، وبقي اسمه الغفور لا موازن لصيغته من القهر، فانفرد بالرحمة العامة لهذا السر، وكان الأمر في الاسمين أعني (الغافر والغفار) مخصص لبقاء رائحة من القهر في تجلياتها بطونًا في الوصفية، ولأجل ذلك كانت موازين القاهر والقهار، وظهورًا في الأزمنة، ومن ثم قيل: ﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾، وثم نكتة أخرى، وذلك أنا وجدنا لاسمية الغفار صفة وهي الغفر، ووجدنا لاسمه الغافر صفة وهي الغفران، ووجدنا لاسمه الغفور صفة وهي المغفرة، فهذه ثلاث صفات لثلاث أسماء، ولم نجد لاسمه القاهر والقهار سوى صفة واحدة، وهي القهر، وسر ذلك قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**»، وكانت أسماء الرحمة متعددة، وصفاتها كثيرة، وأسماء النقمة بالنسبة إليها قليلة، وصفاتها أقل، فافهم، واعلم أن اسمه الغفور من أسماء صفات الأفعال، وصفته كما سبق بيانه المغفرة، وهي عبارة عن تجلٍ إلهي، يظهر فيه الجمال المطلق من غير تقييد، فينكشف عند ذلك أنه الفاعل لأفعال العباد، وأن أفعالهم كلها مليحة، وأن لا مؤاخذة عليهم، وأنه الفاعل، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:56]، بين أولاً أنه الفاعل لهم، ثم بين أن أفعالهم كلها حسنة؛ لأنه الآخذ بناصيتهم على صراط مستقيم، انتهى.

لحومهم شكرًا»[1]، والشكير: الزرع، وأشكر القوم: إذا أصاب نعمهم شيئًا من بقل قدرت عليه، والتشكير الزرع ما نبت بين الضفائر من الشعر، والشكير: ما نبت في أصول الشجر الكبار، والشكير: الزرع ينبت في الأرض الكريمة في أصول الزرع من غير بذر.

الاعتبار

متى أردت أن تتعرف صفة الشكر، فاستقر كريم معاملته عبارة؛ فإنك تجده جل وعز قد أعطاهم الكل، فما بهم من نعمة ولا خلق إلا منه، ثم استقرضهم القليل مما أعطاهم، ثم ضاعفهم لهم أضعافًا كثيرة؛ ليخبأهم لهم إلى يوم فقرهم.

التعبد

هو المداومة على الدءوب في الشكر له على نعمه التي ابتدأها والنعم التي يجدها، والعمل بما يرضيه والمحافظة على الانتهاء عن جميع مناهيه؛ فبذلك تتحقق صفة شكر العبد ربه، وقد جعل ﷻ الشكر منهم سببًا لنعم وإرادة من عنده سوى التي ابتدأ بها جزاءً لشكرهم، فاجعل أنت شكره إمامًا تتبعًا وذريعة لازمة لمداومة شكرك أنت لتصل بذلك ما أمر الله به أن يوصل.

اسمه الصبور ﷻ وتقدست أسماؤه

يقال منه: صبر يصبر وهو صابر وصبور، وأصل الصبر: الحبس، يقال: قتل فلان صبرًا وصبرته أنا للقتل، أي: حبسته لذلك، ومنه الحديث: «نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم»[2]؛ معناه أن تحبس فتتخذ غرضًا حتى تموت، ويمين الصبر أن يحبس السلطان الرجل على اليمين حتى يحلف، ويقال: صبرت يمينه، أي: حلفته بالله.

الاعتبار

الصبر فيه هو فعل العقل، والأناة فعل الحلم وترك العجلة منها، وقد تقدم في بابه أن الله - جل وعز - لم يتسم بالعقل بل بالحلم، وجاء هذا الاسم صبور ثبتت به

(1) انظر: كشف الخفا (171/1).

(2) رواه البخاري (5513)، ومسلم (5196).

الرواية في جملة الأسماء وموجوداتها آثاره في طرق الاعتبار، من ذلك ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ: إنهم يكفرون به، ويجعلون له صاحبة وولد، وهو يعافيهم ويرزقهم**»(1).

والصبر موجود على وجهين: أحدهما: تكلف الصبر واحتمال المشقة فيه، ومن هذا جاء التكليف بالأمر بملازمته والنهي عن مفارقته، وهو بمعنى الحبس، وقد يقدم الكلام في اعتباره باللغة؛ ولذلك سمي شهر الصيام: شهر الصبر، والصبر على وجهين: صبر على شيء، وصبر عن شيء، والوجه الآخر من وجود الصبر أن يكون خُلقًا وسجيةً، فهذا الوجه من الصبر حقيقة عن صفة الحلم وهو فعله، وقد يكون هذا أيضًا عن صحة العقل، مع تمكن صفة الحلم بأن يتعلم ويتأدب عليه، حتى يكون الصبر إلفًا وصاحبًا، فلا تجد له مشقة بل روحًا وراحة، ومن ذلك قول بعضهم:

وَعَوَّدْتُ نَفْسِي الصبر حَتَّى أَلِفتُهُ وَأَسلَمَني حُسنَ العَزاءِ إِلى الصَبرِ

وإذا لزمت المحنة ألفت، فأما الصبر الذي هو حبس النفس واحتمال المشقة، فليس ذلك من صفته ﷻ، ولا يسمى به إلا من حيث حبس عقوباته عن مستحقيها، وأمسك عذابه عن مستأهليه، فذلك إذًا يكون حلمًا، قال الله جل قوله:﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ...**.﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ [فاطر:41]، فجاء باسم الحلم والمغفرة، والسماوات والأرض لا تستأذن أن تزول إلا لعظائم ما يأتي به العباد فيمسكها بحلمه عنهم، وذلك هو حبس عقوباته وهو صبره جل ذكره، الذي لأجله يكون الإمساك هو صفة الحلم، فيكون على هذا من أسماء الأفعال؛ ولذلك كتب على نفسه الرحمة، والسماوات تكاد أن تتفطر، والأرض تكاد أن تتشقق، والجبال أن تخر وتنهار، وأن تزول إعظامًا لما يأتي به عباده، مقابلة للعظمة والجلال، فالملائكة - عليهم السلام - يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به ويستغفرون لمن في الأرض، وهو الغفور الرحيم، سبحانه وله الحمد سبقت رحمته غضبه ورضاه سخطه.

وقد جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في مقابلة ما يكرهه ما يحبه ويرضاه، حكمةٌ فصّلها من نعوت جلاله، وأوجدها عن نور سبحاته عز وجهه.

---

(1) رواه أحمد (405/4، رقم 19650)، ومسلم (2160/4، رقم 2804)، والنسائي في الكبرى (6/ 395، رقم 11323).

وقد جاء في بعض الآثار: أنه ﷻ إذا سمع صوت ناقوس غضب، وإذا نظر إلى صبيان المكتب رضي، وهاتان الصفتان على ما جاء وصفهما، هذا الأثر صفات والحق المبثوث في العالم؛ إذ هو ﷻ لا تتقلب به الأحوال فهذا مكروه، قد جل ذكره بمرضي، كما قابل زوال السماوات والأرض لو لم يمسكها بإمساكه إياها، وقابل بتغيير السماوات والأرض ومن فيهن بقيامه على ذلك بخاصة الوحدانية ونعوت الجلال والتعالي، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر:41]، وقال جل قوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون:71]، وقال جل قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم:25]، ثم أظهر ذلك في مقابلته بتسبيح الملائكة - عليهم السلام - والمؤمنين وغيرهم من التابعين، وجميع الخليقة التي قامت له بالدين القيم.

ألا تسمع إليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كيف قصّ علينا قصص الكفار، وعتوهم على الله ﷻ ورسله، وتكذيبهم وكفرهم بما يجب الإيمان به والعمل عليه، وعلى إثر ذلك ذكر خليله إبراهيم، وأنه رأى ملكوت السماوات والأرض، وأطلعه في ذلك على دين القيمة، ثم جعل ينسق أنبياءه - عليهم السلام - بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾ [الأنعام:84] إلى قوله: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:86]، ثم أكمل ذكر جميع الأنبياء والأولياء - عليهم السلام - بقوله الحق جل قوله: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:87]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام:88]، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:89].

فأعلمك نصًا صريحًا بما تقدم ذكره أنه كما جعل في الأرض من يكفر به ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر أولئك، ويصدق بما كذبوه، ويحفظ من حرماته ما ضيعوا هكذا أجاد تماسك العالم علوه وسفله، خلقًا وشرعًا وأمرًا، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف:84]، هذه المقابلات من الرضا لكذا،

والغضب من أجل كذا، والصبر على كذا، ومعاجلة من أجل كذا؛ إنما هو في صفات من خلقه في العالم من صفات الحق، وبثه فيه منها، فربما نزل ﷻ بالاتصاف بأوصافها والتسمي بأسماء معانيها، عندما يريد تقريبًا وتبيينًا لعباده؛ إذ ذلك فعله، وفعله منفصل من صفاته موجود عن معاني أسمائه؛ ولأن هذه الصفات التي هي من الحق المجعولة المبثوثة في العالم هي أقرب إلى صفات المخاطبين، كما ينزل الإنسان حينئذٍ مخاطبته إلى ما سخر له من البهائم بمعهوداته من صفير، ونعيق، ولقلقة

وحروف تشبه حروفها، كذلك الله سبحانه وتعالى في تنزيله في خطاب الرحمة والتخويف، فأما صفات العلى فهي السلام، وهو المؤمن الحكيم، لا ينازع ولا يخالف، فلا يتعاقب عليه الأضداد سبحانه، وله الحمد تعالى على ذلك علوًا كبيرًا.

التعبد

بهذا الاسم الكريم في سبيل الشكر والصبر والحلم، وتعداد نعمة وتذكر الآية، والدءوب على ما يرضيه.

واعلم بأن الصبر يتذكر البلاء ونطقًا ولفظًا من شأن أولي العزم، ومن فضائل شروط الصبر ألا يتنفس إلا في الإذن تحت جريان الحكم، والصبر الذي يجب على المكلف هو: الصبر على ما أمره الله، والصبر عمّا نهاه الله عنه، وأفضل الصبر ما بلغ درجة الرضا، وذكر الله ﷻ الصبر في القرآن في خمسة وسبعين موضعًا فلا بد من الصبر عاجلاً أو آجلاً، فمن لم يصبر كما أمره الله ﷻ في الدنيا حيث ينفعه صبر لا محالة في الآخرة حيث لا يجري تنبيه الصبر شيئًا، حيث يقال له: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الطور:16]، ويقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم:21]، فلا بد من الصبر إما طوعًا وإما كرهًا، وليس بنافع إلا مع الإذن وفي طاعة الله ﷻ.

وإن قومًا صبروا في الدنيا فلم ينفعهم بل ضرهم، قال الكافرون:﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ [الفرقان:42]، وقالوا: ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص:6]، فلما أوقعوا الصبر في غير إبانة ذهب صبرهم ضياعًا. واليهود والنصارى صبروا على أداء الجزية وليس منها نافعهم، إنما الصبر الحق فيما خالف الهوى ووافق طاعة الله، ومن تمسك بهواه وأقام على ما يشتهي فلم يصبر على شيء، فمن فاته اليوم الصبر لم تكن له عاقبة إلا الشر كله، أفٍ لغفلتنا وسوء نظرنا

لأنفسنا، أليس قد أنعم أنه ﷻ عليّ وعليك نعمًا جمة، وجب علينا أن نزيد من أجل ذلك في شكرنا بقدرها، فتعال فلنعقد على أنفسنا مواعيد نسأل الله إنجازها والوفاء بها، لولا التهيب له ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من مخافة ادعاء حول أو قوة؛ لأشهدته على عزمي بذلك، لكن الإقرار يعجزني والخضوع له في جميع أمري أجلب لمعونته، وأرشد إلى منال طاعته، اللهم إنا نسألك أن تلطف بنا بتيسير كل عسير بمنك ورحمتك.

اسمه المحسن ﷻ

ويقال: أحسن فهو محسن، ويقال منه: حسن الشيء حسنًا وامرأة حسنة، ويقال: رجل حسن، ولا يقال: رجل أحسن، ويقال: امرأة حسانة، وامرؤ حسان؛ أي: حسن جدًّا.

اعتباره

الله - جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه - أحسن شيء حكمًا وأحسنه تدبيرًا أو خلقًا أو أمرًا، هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، وقدر كل شيء فأحسن تقديره، ثم أوجد ما قدره فأحسن الإيجاد على وفاق ما سبق في التقدير، يقول الله ﷻ من قائل: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:23]، ليس من نعمة إلا منه ولا خير إلا من لدنه، كذلك ما للمؤمن التقي خير إلا في لقائه، ومَنْ كان فعله الحكمة، وقوله الحق، وكلامه الصدق، وتدبيره العدل، وجزاؤه القسط، وعطاؤه الفضل، وفضله لا تبلغ الأوهام تصوره، ولا تطمع العقول في تحصيله كيف يكون محسنًا.

واعلم يقينًا - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن الله جلّ ذكره لو صور العالم كله علوه وسفله على أحسن صورة رجل واحد، ثم جمع له كل عقل حواه من عقول العالمين الكُروبيين والمقربين وحملة العرش، والروح والملائكة، والإنس والجن أجمعين، وكل ذي نفس فيما أحاط به الكون، ثم ضاعف ذلك في العقل والتميز أضعاف ما حواه من أعداد الخلائق أجمعين، ثم يضاعف ذلك أضعافًا مضاعفة، ثم كشف له عن حقائق الأمور، وأظهر له خفي المستور، وأعلمه عواقب المآل، وأطلعه على حكمته في توسط الأواسط، وخفي بره في مسالك تدبيره؛ لما وجد نقصًا ولا

خلال وما ازداد إلا إيمانًا وعلمًا، كيف لا وقد خلقه بالحق الذي يأوله إلى أن يبينه الحق المبين لهذا الحق أوجده وعن هذا الحق فضله، هذا هو الحق اليقين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:147].

فهذه - وفقك الله - جملة في محكم إحسان الله ﷻ في آيات العالم عليها، فاعلم وإياها فالزم، وما عليك من نقصك عن هذا المعتقد، فارجع إلى ربك فهو من المشتبه المحذور، المتشابه المطلوب في تلاوة العقول اللوح المحفوظ، بقول الله جل قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ﴾ [الشورى:10]، ويقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:59]، أولئك يتلونه حق تلاوته، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:17]، هذه أمهات الكتاب المبين؛ فقف على حقيقتها وإلا زلّت عن العصمة قدمك، وزاغ عن سنن الهداية قلبك، ثم لم تكن من الموقنين.

التعبد

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، وقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195].

يا أخي، إن كنت ترغب في حب الله تعالى إياك فأحسن في عملك كله، وأحسن في علمك ونظرك وتفكرك وفي صلاتك التي صليت، وفي صيامك إذا صمت، وفي شهادتك إذا شهدتها، وفي عملك كله، وفي قيامك وقعودك ونومك ويقظتك وحركتك وسكونك، وفي شأنك كله؛ فإنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يحب الإحسان والمحسنين، وقد علمك رسول الله ﷺ ما الإحسان بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]، فاعمل على ذلك في ائتمارك وانتهائك، وفي حال تناولك ما أبيح لك تكن من المحسنين.

---

(1) تقدم تخريجه.

اسمه المُفضِل وذو الفَضل

يقال منه: أفضل يفضل فهو مفضل، والمفضل هو ذو الفضل، أما المفضل فمن أسماء الأفعال، وأما ذو الفضل فربما أشكل التحقق فيه عند التعرف له؛ هل هو من أسماء الأفعال، أو من أسماء الذات، أو هو عبارة عنها جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، أو هو عبارة عنهما، وأن يكون من أسماء الأفعال في وجوهه كلها أولى والله أعلم بالصواب؛ وإنما قلنا هذا من حيث إنه لا يداني في صفة ولا يضاهي فيفاضل بينه وبين سواه، فيكون له فضل على من سواه من هذه الجهة على غيره، فإن كان المعتقد فيه أنه ذو الفضل كله، وهو الفاضل على معنى حصر الفضل كله له لا لسواه إلا ما أعطى منه ما شاء لمن شاء، فهو من أسماء الذات وإلا فهو لأسماء الأفعال أقرب، يقال: مفضل، أي: كثير الفضل والخير، وإنه قد تجاوز وجوه الخير كله الواجب والمعهود إلى نوافله؛ لذلك ما يأتي قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:54] إلا مجاورًا لذكره ما أعطاه أهل العلية في الدرجات، ومنه قول ابن رواحة - رحمه الله - في رسول الله ﷺ:

إِنِّي تَوسمتُ فِيكَ الخيرَ نَافَلةً ... اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي كَامِلُ البَصَرِ

فعبر بقوله: نافلة عن المعنى المخصوص به رسول الله ﷺ؛ لمكان النبوة والرسالة، وعن ذلك عبّر عبد الله بن سلام - رحمه الله - وذكر أول لقائه رسول الله ﷺ، قال: فما هو إلا أن رأيته فعرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

ويقال: أفضلت من الطعام وغيره فضلة: إذا تركت منه بعضه بعد قضاء الوطر، وقد فضل الشيء يفضل، والفضلة: البقية.

الاعتبار

عطاؤه ﷻ وتعالى شأنه إما أن يكون عدلاً، وإما أن يكون فضلاً؛ والعدل: هو ما له أن يفعله بحكم الملك والجبروت والربوبية، والفضل: ما هو فاعله بحكم الإحسان والرحمة والامتنان، ومن أسمائه المبتلي والممتحن ﷻ معنى الابتلاء الاختبار، فاختبر الله ﷻ عباده بأن أمرهم ونهاهم وكلفهم في أثناء ذلك ضرائب، قابل بذلك من عباده صفة لهم جعلها فيهم هي الاختبار والدعوة؛ ليكون منهم في تلك ما قد سبق إظهاره منهم من عمل الاستيجاب، ما سبق لهم عنده من جزاء على ذلك من شقاء أو

سعادة؛ ليقع العلم به شهودًا بحكم الابتلاء أنه قد كان مع وجود المكلفين، كما وقع العلم العلي منه بهم قبل في التقدير بحكم الأحدية والفردانية أنه سيكون، وهذا كله راجع إلى التقريب بنفسه والإعلام بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وأما الامتحان فإنه قد يكون بوجه التطهير، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:3] أي: طهرها وخلصها، لكنه وإن كان من ذلك أنه تطهير بحكم الابتلاء، يقال من ذلك: امتحنت الفضة والتبر، أي: خلصتها بالنار، فالبلوى قائمة في تطهير القلوب من شوائب النفوس مقام الامتحان بالنار لجواهر الأرض.

وهو المنتقم جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه، الانتقام فعل منه بالعبد المبتلي، يكون ذلك الفعل جزاء لنكوص العبد عن طاعة الله ربه، والتخلف عن الاستجابة لله والرسول، وهو أيضًا العقاب والانتقام من الله جل وعز بالمبتلي، يقابل من هذا العبد صفة يقال لها: الدعوى، فيمتحنه بالتكليف ليقف العبد على صدقه أو كذبه، وهو حكم يقابل من العبد وصفًا معناه أنه لا يلوم إلا نفسه، ولا يحمد، ولا يشكر إلا ربه بحكمة العلم.

وهو بالجملة تتعرف به العباد عظم قدر صفات الله جل وعز علمه، وصدق كلماته، ومضاء مشيئته، وعظيم اقتداره على سوق ذواتهم بإرادتهم إلى ما أراده منهم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123]، وهو الشديد العقاب جل وتعالى ذلك ظاهر معلوم، وهو السريع الحساب سبحانه وله الحمد يتخرج على وجهين: أحدهما: بمعنى أنه سريع الحساب يحاسب الكل كما يحاسب الواحد، هو الواسع لذلك كله، كما قال جل قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:28]؛ كذلك المحاسبة، كذلك علمه بهم، وقدرته عليهم، وإرادته فيهم ولهم وبهم، وكما يعلم نفسه ﷻ وتعالى وشأنه دون معاناة ولا مهلكة، كذلك أمره كله، والمعنى الآخر: أنه يعاجل بعقوبته من شاء عقوبته على ما شاء من ذنوبه، وهو الشديد البطش ﷻ ذلك معلوم بظاهره، وهو الأليم الأخذ تبارك وتعالى، أليم بمعنى: أن أخذه مؤلم وعقابه موجع.

اسمه المرسل تباركت أسماؤه وتعالت صفاته

يقال منه: أرسل يرسل فهو مرسل، فهو الرسول للواحد والاثنين والجميع، والمرسل أيضًا والرسيل.

الاعتبار

هو الله الذي لا إله إلا هو مرسل الرسل وباعثهم إلى عباده برسالاته، ومنبئ الأنبياء بوحيه، ومنزل الملائكة - عليهم السلام - عليهم بالروح من أمره، ذي المعارج، مرتب المراتب، ومقسم الحظوظ، ومهيأ النزول، ومدبر الرسل، وشارع الشرائع، ومنحل النحل، ومنهج السبل، عزز الدين القيم في جبلة القيمة، ومشج الأمشاج بمعاني الإسلام في وجود الخليقة، ثم قال للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:11]، ففطرهن ﷻ، أي: أظهرهن عن وجود العلي إلى أن أظهر الوجود كله بعضه لبعض، خلا ما كان عليه عنده؛ أعني: الوجود من علم به ومعرفة له في حيث لم يكونوا لأنفسهم موجودين على وجوده إياهم في علمه العلي، وقدرته المحيطة، ومشيئته الماضية، مع أودع ذواتها من مخافته وإعظامها إياه وقنوتها له؛ ولذلك عرفته عرفانًا لا تنكره بعده أبدًا؛ ولذلك عنت لعزته، وقنتت له، وسبحته، وحمدته، ورهبت من خشيته، واستجابت لدعوته: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد:15].

وأنه لما فصل الحق المثبوت في عالمه والموجود في خليقته، فسجنه في الأخلاط وأسكنه بين الأضداد، ورمى الروح بالنفس، والعقل بالهوى، والعلم بالجهل، والذكر بالنسيان، واليقظة بالغفلة، والإيمان بالكفر، والإخلاء بالشكر، والصدق بالكذب، والإجابة بالإباية، والخضوع بالكبرياء، والصبر بالجزع، والحلم بالسفه، والهداية بالضلالة، وقابل كل صفة محمودة بضدها مذمومة، ضل من أجل ذلك، ذلك هذا الحق المثبوت في بعض مواطنه عن أوليته، وأخطاء مقصده، وجهل عبادة ربه فأعرض عن ذكره؛ إذ كان من قضائه الحق أن ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:

84]، واضحًا بذلك طلب رشده في حقه مرامًا معتضًا، وابتغاءً معجزًا والتماسًا منيعًا، فعطف عليه الرءوف الرحيم البر الوصول ﷻ بعظيم فضله وعذره بكريم آفته، فأرسل الرسل إليه وأنز ل الكتب بالحق من عنده عليه، وبصره آثاره في مصانعه، وبين له آياته في خليقته، وأسمعه شواهده في بريته.

وكذلك سن له السنن، ونهج له المناهج، وبيَّن الحق من الباطل والشبهة من الحقيقة؛ فأصبح المؤمن وقد وجد مرتقًا سهلاً فارتقى، ومسلكًا نهجًا فسعى، ومرعًا عذبًا فاستمرى؛ فتاب إلى ربه وأناب، وارعوى لوعيده وانزجر، فأفصح بالحكمة بعد إعجام، ألاً وربما عثر الجواد وبني الصارم وذل اللبيب، فبعد بقدر ذلك ونأى حتى لا يلوي على رشد، ولا يعرج على حال، ولا يريع لمقال، ثم الله ﷻ العواد بالخيرات المرجو للصالحات، يقيل العثرة بالتوبة، ويقبل المعذرة، ويعفو عن الجريرة فيصلح المفسد، ويقيم العرج، و﴿لله ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:4].

ولما شاءه ﷻ من اقتران شهادة التوحيد شهادة الرسالة من عنده إلى عباده أوجد العالم على معنييهما، ولقنه مقتضى شهادتيهما وأقامه قائمًا على حقيقتهما، وجاءت الأسماء والصفات الله سواهما، ومعاني الشرع في أثنائهما كل على مسافة وموضع مقامه، قال الله جل قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، هذا المعبر عن الأسماء والصفات: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:22]، هذا المعبر عن معاني الشرع في صفات الحق الموجود في فطرة العالم والحق ينتظم الكل، وقد تقدم الكلام في دلائل النبوة وسلوكها في العالم في اسم الشهيد ﷻ والكلام هنا في الرسالة، ويعرف طرفها في الوجود، فمن آيات ذلك إرسال الرياح اللوائح مبشرات أو منذرات، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:46]، و﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:57]، بالياء خاص الدلالة، وبالنون لدلالة الوحدانية والبعث والنشور، وكما الرياح مبشرات فكذلك هن منذرات كريح عاد وغيرها.

ثم آيات إنزاله العلم واليقين إنزاله الماء من السماء إلى الأرض، وتصريفه إياه إلى ما صرفه إليه، كذلك ينزل العلم والكتاب والوحي من السماء إلى أهل الأرض بواسطة الملائكة على رسله يصرفه في أهل الأرض إيمانًا وطاعةً وابتغاءً، رضوانًا أو كفرانًا، عصيانًا وتكذيبًا، وإخلاصًا ورياءً إلى غير ذلك، وأما نزول أمره العلي من فوق العرش العظيم فهو باطن الطريق وهو.جامع لهذا كله، فمثل الماء بواسطة الرياح

والسحاب تسوقها الملائكة، مثل الرسول ﷺ يأتي بالرسالة من أمر الله ﷻ بواسطة الملائكة عليهم السلام والرياح في مقام الأمر، قال رسول الله ﷺ: «**الريح من روح الله**»، وفي أخرى: «**الرحمن**»[1]، وقال الله ﷻ: ﴿**قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء:85]، والرسول الذي يحمل العلم بما فيه بمنزلة السحاب تحمل الماء، وقد تكون الرياح مبشرات بالماء والغيث، ومنذرات بالصواعق والعذاب نعوذ بالله من عذابه لمجيئها بأمر الله، ولما تمر به في سبل الأجواء من معنى الفيحين الذين من جهنم.

والماء ينزل من السماء بواسطة الملائكة، كذلك الوحي ينزل من السماء بواسطة الملائكة، والماء غسول ومطهر، كالعلم الذي ينزل من السماء، ويأتي به العلم عن الله جل ذكره غسول للذنوب مطهر مكفر للسيئات، ومثل بقاع الأرض مثل المكلفين، ومثل أوديتها مثل القلوب تحمل على قدرها، وتسيل بما فيها على قدر سعتها وبعد مبعثها، ويحمل الغثاء والزبد كما تحمل القلوب الباطل والشبهات والوساوس والخطأ، ومثل نبات البقاع عن الماء مثل أعمال القلوب عن العلم الوارد عليها: الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين.

ومن آيات الرسل - عليهم السلام - والرسالة الريح تجري الفلك في البحر، فمثل البحر مثل الدنيا، ومثل الجانب المعبور إليه مثل الآخرة، ومثل الفلك مثل الرسول بوجه، ومثل الرسالة بوجه، ومثل متبع الرسول الحامل لما جاء به الرسول من عند ربه بوجه، ومثل الريح مثل الأمر النازل على الرسول من وجه، ومثل الوعيد السابق لمتبع الرسول بوجه، وكالملائكة للرسول والرسالة، يقول الله جل قوله: ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ**﴾ [الشورى:33].

ومسلك السفينة مثل الرسول في أمته بوجه، ومثل العقل في المكلف الذي هو خليفة الله في ابن آدم بوجه، وهو العبد المسوي في إعلاء به حييت جملة الحامل، مثل صاحب هدايته مثل العلم والرسول، ولذلك قال عزّ من قائل بعد ذكره الفلك وجريها

---

(1) رواه الشافعي (81/1)، والبخاري في الأدب المفرد (251/1، رقم 720)، وأبو الشيخ في العظمة (1313/4، رقم 81115)، وابن حبان (287/3، رقم 1007)، والحاكم (318/4، رقم 7769)، والبيهقي (361/3، رقم 6256)، وأحمد (409/2، رقم 9288)، والنسائي في الكبرى (231/6، رقم 10767)، وأبو يعلى (526/10، رقم 6142).

في البحر: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية:12]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:33].

ومثل الفلك أيضًا مثل جملة المخلوقات، ومثل الريح مثل الروح الجائل في الجملة بوجه، ومثل النفس الكبرى التي شملت الجملة من وجه، ومثل الماء الحامل للسفينة مثل الأمر والقدرة التي تعتمد الجملة، ومثل الهواء المحيط بها مثل الحول المحيط بالجملة، ومثل ملاحيها وخداميها مثل الملائكة الذين يملكون الملكوت ويجيدون تماسكه بإذن ربهم ﷻ، ثم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:60]، في السماوات والأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:41].

الشواهد من القرآن العزيز على ما تقدم ذكره، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57]، وكما يخرج به موتى الأجسام، كذلك يخرج بأمره الباطن المماثل لهذا الظاهر أموات الدين؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:58]، فكان وجه أول الخطاب الدلالة على إحياء موتى الأبدان، وباطنه دلالة على إحياء موتى الأديان؛ لذلك قال جل قوله وتعالى علاؤه وحده: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:58]، والشكر إنما يكون مع حياة الدين، وقال جل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90] أي: العود بعد البدء، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف:58] أي: يجعلها آية على الوحدانية بوجه ما، وبوجه ما دلالة على عظيم القدر على إثبات مضاء المشيئة والعلم والصفات إحياء الموتى، وبوجه على معرفة وجود رسالة.

وقال عز من قائل وقد سأل الكفار آية على إثبات رسالة رسول الله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ

أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء:4،3]، ثم قال جل قوله علاؤه وشأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ....﴾ [الشعراء:7]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [الحجر:77] أي: على صحيح وجود الرسالة، أو يروا إلى كل شيء أنبتناه كيف يسلك السنن مسلكه، لا يتعداه في لونه ومطعمه ورائحته ومنافعه ومضاره وشكله، وسائر حكمته التي ضمنها لا يتعداها ولا يتخلف عنها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ على وجود الرسول والرسالة وسنن المرسلين، وإنه كما أن الأكوان كلها سُنَّت لها سنن تستن بها في طرق تكوينها، كذلك المكلفون من العباد لا بد لهم في سبيل وصولهم إلى ربهم من لزوم سنة تستن لهم، وتحد حدودها بهم، يسيرون عليها لا يتعدونها.

ثم جعل - وله الحمد - ينسق آيات الرسالة وقصص المرسلين إليهم أمةً أمةً، ونبيًّا نبيًّا إلى أمة محمد - صلوات الله وسلامه على جميعهم - بقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ...﴾ [الشعراء:192-194] إلى آخر السورة، وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ [النحل:1]، إلى قوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:2]، ثم أنشأ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ينسق آياته على ذلك، وجعل مع ذلك توجيه الخطاب إلى تعداد نعمته على عباده بقوله الحق: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:4].

فأبطن علامة الرسالة لما ذكرها في أول الخطاب، وما أبطنه هو أجزاؤه إياه على سنن الخليقة في سنة التقليب على سواء التدبير، فكان في ذلك إعلام بالرسالة بباطن الخطاب في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ....﴾ [النحل:5]، إلى قوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، فظاهر ما تلوناه من هذه السورة: تعداد النعم، وباطنه: آيات الرسالة وإعلامها؛ ولذلك أظهر ما أبطنه بقوله الحق: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:8]، وكذلك قوله عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ

وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:10.11].

يعرض بباطن الخطاب في ذكر إنزال الماء، وإنباته النبات عنه على أنواعه كل على سنته بإنزاله وحيه القرآن والحكمة، وباختلاف النبات على أنواعه باختلاف أعمال المكلفين؛ ليفاضل البقاع التي أصابها الماء تعريضًا بالقلوب التي وعت الوحي، فاختلفت في فهومها واعتقادها، وانبعاث أعمال جوارحها عنها، وبأنه كما يكون عن كل نبات ذريعة يكون عنها مثال ذلك النبات.

وكذلك من انتسال الأنعام والبهائم والحيوان كله بعضه من بعض، فلا يكون عن الخيل إلا الخيل، وعن الحمير إلا الحمير، وعن الإنسان إلا الإنسان، كذلك لما كان عن هذا الماء المنزل من السماء ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ [النحل: 11]، ومن كل الثمرات من ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام:141]، كذلك كان الماء الذي كان عنه هذا كله من جنات نزل عنها، كذلك قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل:12]، توجيه الخطاب إلى تعداد النعم، لكنه تعريض بباطنه إلى ذكر بديع التدبير، وحسن التقدير وعظيم القدرة على سنن واحدة وشرعه سواء، وهو أيضًا إعلام منه بما هو الحق المبين في الدار الآخرة على سعة تلك الدار، وانفتاح الوجود الكريم في ما هنالك لذلك، وهو أعلم ذكر الآيات هنا بالجمع فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:12] أي: يعقلون ما غاب بما حضر، وقد أظهر فيما بعده ما أبطنه هنا في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16]، وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:14]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:31]، أظهر في ذكره لمن هن آيات له ما أبطنه في صدر الكلام.

ألا تسمع إلى قوله - جل من قائل - بعد ذكر الرسالة ورد المرسل إليهم، وذكره عنادهم، يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ﴾ [الأنعام:35] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا

يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:36] إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37]، ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:38].

فأعلم بذلك ﷻ أنه جعل العوالم أممًا كنحن، كل أملة تؤم نوعها وتتبع شرعة إمامها آية على رسالة رسله؛ كذلك يمدح ﷻ بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:38]، يقول: ما تركنا فيما أوجدناه، فما كتبناه في اللوح المحفوظ وجودًا إلا دالاً على ما أردنا إثباته من ذلك، من العلم بالله وكتبه ورسله، وما أخبر عنه من غيوبه عم بذلك الوجود؛ ليبين لأولي الألباب ما زمه الكتاب، ثم ذكر الكل بحكم الحشر إليه.

وفي هذا من الفقه أن الله - جل ذكره - يعيد كل شيء كما بدأه، حتى أنه لا يدع نباتًا ولا حيوانًا إنسًا وجنًا إلا هو يعيده، وبالجملة فالدنيا كلها معيدها كما بدأها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:14]، ثم هو عز جلاله يميز الخبيث من الطيب؛ فيجعل الخبيث في جهنم والطيب في الجنة هذا هو الحق، ولا تحقيق لقول من قال: إنما يعيد المكلفين فقط بقية بقيت عليهم من تيه التائهين وبطل المبطلين.

ألا تسمعه يقول جل من قائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ [الأنعام:38] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:38]، ولهذا نظائر في القرآن العزيز، ولظهور هذا التبيان أعقب ذلك بقوله الحق جل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:39] أي: عن سبيل المرسلين ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:39]، كما قال جل قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ* صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:53.52]، وكذلك قوله جل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

[الروم:47]، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:49.48].

هذا الخطاب كله وجهه إلى وصف إرسال الرياح، وإنشاء السحاب وإيجاده الماء فيها وإنزاله إلى أهل الأرض، واستبشار من أصيب بذلك الماء وحزنهم قبل إنزاله، وباطنه آية على ما بدأ به المعنى من إثبات الرسالة، وما يجيء به من العلم والحكمة وأحوال من آمن بما جاء به المرسلون، واستبشارهم وإبلاس الجاهلين الغافلين عنه قبل الإيمان بما أتوا به والتصديق لهم.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:50] أي: في الأرض وفي القلوب ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:50] أي: يوم البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:50]، موتى الأبدان وموتى الأديان، هذا بباطن الآية للإعلام بشرعة الرسالة، ونزول الوحي من عند الله ينبئهم على علاماتها ويريهم آياته بما عهدوه وما عاينوه، كذلك جميع خطاب القرآن إن أظهر ذكر الرسالة أبطن ذكر علاماتها، وإن أظهر ذكر آياتها الظاهرة من الوجود أبطن ذكر علامات الرسالة، لكنه أبدًا ينبه بسنته التي لا تبديل لها على سنة المرسلين، وإنه كما أن للوجود سنة يستن عليها إلى كماله كذلك طريق الرسالة، فيثني ذكر علامات التوحيد على ذكر علامات الرسالة، وكذلك هذه على هذه.

الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني، وكذلك قوله الحق بعد قول المرسل إليهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:15]، فقال جل قوله: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس:31.30] إلى قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ [يس:33] أي: على ما تقدم ذكره ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا...﴾ [يس:33] إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:35]، فأظهر بذلك الشكر ما أبطنه في ذكر إحياء الأرض إلى قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ

أنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ...﴾ [يس:36]، كلّ على سنة يسلكها، وجهة من الحكمة لا يتعداها قد عرف بها، وقد تقدم ذلك، إلى قوله: **﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾** [يس:37. 38]، كلّ على سنن سن له، وأمر من الكون ضمنه وقد تقدم، إلى قوله: **﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾** [يس:41.42].

وقد تقدم من الكلام إشارة إلى معنى حمله العباد في الفلك، وأما حملهم على المركوب في البر، فقد قال عز من قائل: **﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ....﴾** [النحل:8]، فهو الذي يحمل المؤمنين من معونته على أبدالهم في طريق الرسالة، وسنن الشريعة بإزاحته عنهم أعباء التكليف، ووضعه الآصار، وتخفيفه أثقال العبادات بوجود النشاط، ورفع الكلال والتعب والخير الموجود عن المحبة والرضا والسخاء والتوفيق، والأخلاق المحمودة على مثال الخيل والبغال.

ومنهم: من يحمله على مثال الحمير، ومنهم من يحمله على مثال البراق، فذاك الذي أتعب المجرين وسبق السابقين خوفًا ونشاطًا وطيًا للمراحل وقطعًا للمقامات والمنازل، قد أحرز الميدان وحوى قصب الرهان يفتح المقفل، ويوضح المشكل يدرك النجوى بالفحوى ويعلم المستتر بالإيماء يوقن بالظن ويعاين بالحدس.

ومنهم: من يمشيه على رجليه وإن كان سويًا على الصراط.

ومنهم: من يمشي مكبًا على وجهه، وكيف ما كان محمله في الدنيا باطنًا يكون محمله ظاهرًا في المحشر سواء محياهم ومماتهم.

ووجه آخر من الاعتبار، وهو أن الله ﷻ رتب إرساله الرسل في أيام الدهر على وفق أوقات الصلوات في أيام الزمان؛ إذ أوقات الصلوات في أيام الزمان موافقة، لما هي لها أصول ترجع إليها في الدهر، قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلكم فيمن كان قبلكم من الأمم، كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من أول النهار إلى غروب الشمس عليَّ قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى صلاة الظهر، ثم قالوا: لا حاجة لنا في أجرك ولا عملك، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى الليل عليَّ قيراط قيراط؟ فعملت النصارى إلى صلاة العصر، ثم قالوا: لا حاجة لنا في أجرك ولا عملك، ثم قال:**

من يعمل لي من العصر إلى الليل عليَّ قيراطين قيراطين، فجاء الله بنا، فنحن والحمد لله أكثر أجرًا وأقل عملاً ونحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم»[1].

فأنبأ ﷺ أن الإجارة انعقدت في أول النهار والليل، قد تقدم مضيه بدليل أن أول المستأجرين هم اليهود.

وتمام الاعتبار أن يجمع إلى هذا الحديث حديثه ﷺ الذي ذكر فيه أن الله خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الثرى يوم الاثنين، وفي أخرى الشجر والنبات، وخلق الظلمة يوم الثلاثاء وفي أخرى المكروه، ومكان الظلمة، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر، وفي أخرى ساعة من النهار ما بين العصر إلى الليل، ويتصل بهذا قول الله جل من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:59] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ....﴾ [سبأ:2]؛ المعنى إلى آخره، وبعد أن خلق الله جل ذكره آدم ﷺ وزوجه في الجنة، قال:﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:19]، فمكث فيها بقية النهار وواقع الخطيئة وقت غروب الشمس من يوم الزمان، فأُهبط إلى الأرض، وتاب الله عليه مقدار وقت صلاة المغرب، فكانت مدته ﷺ ومدة الأمة من بعده من يوم من الدهر مقدار ما بين صلاتي العشاءين، ولهذه المدة الإشارة بقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، وموضع المحذوف ذكر ضلالهم، كأنه حذف من الكلام: وضلوا وتفرقوا واختلفوا، أو ما كان معنى هذا الكلام وكان ذلك فيهم مقدار فحمة العشاء في اليوم الزماني، حيث تنتشر الشياطين؛ فإن الله جل ذكره قد جعل كل حادث في الزمان عن أصل ترجع إليه في الدهر حكمًا ومعنًا، فافهم.

ثم إنه جل ذكره قال جل قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:213] من مبعث نوح ﷺ إلى ما وراء ذلك، وأول ذلك مقدار صلاة العشاء الآخرة.

---

(1) رواه البخاري (1274/3، رقم 3272)، وأحمد (6/2، رقم 4508)، والترمذي (153/5، رقم 2871).

ثم بعث الله خليله ﷺ على مقدار نصف الليل الساعة المباركة الموجودة في الليل الزماني.

ثم بعث رسوله موسى ﷺ على مقدار صلاة الفجر، واعترى بني إسرائيل الخلاف الحادث في نبوتهم على يدي السامري على مقدار طلوع الشمس.

ثم بعث الله جل وتعالى عنده رسوله وابن أمته عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - لمقدار الظهر.

ثم كان مبعث محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - لمقدار صلاة العصر، ولجواز الصلاة في كل وقت من الليل والنهار، خلا الساعتين المنهي عن إيقاع الصلاة، كان بعث الرسل والأنبياء في كل زمان إلا ما شاء الله من ذلك، كما كان الضلال منهم، والإيقاع بهم على سبيل المجازاة لهم على ذلك فيما كانوا يوافقون، من أمثال ساعات النهي المتقدم ذكره في أزمان الكواكب حال طلوعها وغروبها وتوسطها، على نحو ما تقدم ذكره في زمان طلوع الشمس وغروبها وتوسطها، إذًا العلة الموجودة في طلوع الشمس وغروبها وتوسطها، التي عبر عنها ﷺ بأنها تطلع وتغرب، وتستوي على قرن الشيطان موجودة في طلوع غيرها من الكواكب وغروبهن وتوسطهن، التي ألحق بها القائلون بالتنجيم والتربع المقابلة والتسديس ونحو هذا.

وإنما جعل الله - جل ذكره - ما جعله من اقتران الشيطان بها، كما ذكره رسول الله ﷺ لحكمته جل ذكره في ذلك بالغة؛ ولذلك ما امتزج في هذه الدار الخير بالشر، والضر بالنفع، والسقم بالصحة، والضلال بالهداية، والجهل بالعلم ونحو هذا، وقد كان قبل مواقعة الخطيئة من آدم ﷺ في مقدار غروبها يومئذٍ، وتحوله من الجنة إلى سجن الدنيا دار الشقاء والنصب لأجل ذلك، ويكون الخلاف الأكبر على يدي الأعور الكذاب الدجال، لعنه الله وخفف على المسلمين وطأته، وقصر مدته في المقدار الذي هو غروبها من يومنا هذا.

ومن تحقق النظر في مطالع الكواكب وغروبها وتوسطها على هذه السبيل؛ أعني: سبيل النبوة، استقام له تأويل إبراهيم ﷺ لما نظر في النجوم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:89]، فهذا سبيل النبوة ومن أصعد به في علياتها، وتحقق حقيقة السير في قويم منهاجها أدرك من علمها ما هو واضح أثرًا، وأصدق خبرًا، وأقرب نفعًا في الدين والدنيا من تخبط المنجمين، وتخليط من زاغ بالرأي عن سواء سنن الأنبياء والمرسلين من قولهم بالقرابات، والنظر منهن من تربيع وتسديس ومقابلة إلى غير ذلك من تهاترهم وتخبطهم، وربما كان منهم وقوع الصدق في الفرط: إما باتفاق لأمر الله جل

ذكره، وأما الموافقة منهم الساعات المذكورة وبإنباء النبوءة، فيظن بهم الصدق في جل شأنهم.

ونرجع بالكلام إلى غرضنا، ومن معنى ما تقدم ذكره في حديث رسول الله ﷺ من ذكر الإجارة والعبرة بمقتضاه ما وافق ذلك في الكتاب الذي يُذكر أنه الإنجيل؛ فإنه قال فيه: كثير سيقدم الآخرون الأولون ويكون الأولون ساقة، قال: ولذلك تشبه ملك السماوات برجل ملي خرج في استئجار الأعوان في أول النهار لحفر كرمه، وعامل كل واحد منهم في نهاره على درهم، ثم أدخلهم كرمه، فلما كان في الساعة الثالثة بصر لغيرهم في الرحاب ولا شغل لهم، فقال: اذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، فذهبوا وفعل مثل ذلك في الساعة السادسة والتاسعة، فلما كان في الساعة الإحدى عشرة ووجد غيرهم وقوفًا، فقال لهم: وقفتم هاهنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: لأنا لم يستأجرنا أحد، قال: اذهبوا أنتم وسآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار وقال لوكيله: ادع الأعوان وأعظم أجرتهم، وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الإحدى عشرة، وأعطى كل واحد منهم درهمًا، فأقبل الأولون وهم يرجون الزيادة، فأعطى كل واحد منهم درهمًا؛ فاستنكروا ذلك على صاحب الكرم، وقالوا: سويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحره، فأجاب أحدهم، وقال: لست أظلمك يا صديق أما عاملتني على درهم؟ فخذ حقك وانطلق؛ فإنه يوافقني أن أعطي الآخر مثل ما أعطيتك فلا يحل لي ذلك، وإن كنت أنت حسود فإني أنا رحيم.

ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولون، ويكون الأولون ساقة؛ فالمدعون كثير والمتخيرون قليل، فالمستأجرون في الساعة التاسعة هم أصحاب محمد ﷺ والمستأجرون في الساعة الحادية عشرة هم أصحاب عيسى عليه السلام ومن تبعه من أمة محمد - عليهما السلام - في آخر الزمان؛ ولذلك يسوى بينهم يومئذٍ في العطاء بدرهم درهم على طول عمل الأولين، وقصد مدة عمل الآخرين، وقوله عليه السلام: «**ويكون الأولون ساقة**» يعني الأولين من اليهود والنصارى، وعلى هذا يتفق الحديثان، والله أعلم.

واعلم أن صفة الرسالة كغيرها من صفات الحق المفطور عليها العالم تنشأ بنشء العالم نبوة، فأولها - أعني آدم عليه السلام - في الاعتبار كمبدأ الإنسان يبتدئ بالكفالة أول أمره على حكم التدريج، وسنن السنة حتى يحوج إلى نفسه، كذلك فعل جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه عليه السلام في أوليته أدخله الجنة، وكفله فيها، وكفاه السعي على نفسه،

ورزقه من غير حساب، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:118.119]، وكلّفه علم الأسماء منزلة الطفل المكفول، الذي أول ما ينبغي أن يعلم تسمية الله تعالى في بدايات أموره وشئونه وحمده في نهاياتها، ثم يدرج في الشهادة، ثم إلى المعرفة، كذلك أخرج آدم عليه السلام من الجنة على المقدار الذي يخرج الولد عن كفالة أبيه، وتوكل إلى سعيه وكدحه وكفله يومئذٍ من الأعمال سهل، ومن العلوم ما هو طريقه المعرفة، سهل له ذلك بالتعليم والأبناء والهمة على ذلك مسالك المعيشة، تناولها وكيف تناولها السعي إليها، ولطف له كما يلطف بالمكفول.

ثم بعد لم تزل التكليف يشتد على سنن التدريج على أمة بعد أمة حتى انتهت النبوة إلى بني إسرائيل، ووافق ذلك تكهل الزمان وتحنكه، فاشتد عليهم التكليف لاستواء الزمان بهم مرة ولخلافهم وعتوهم على أنبيائهم أخرى، ثم جاء الله بمحمد ﷺ فصرفه من تلك الشدة التي أوجبتها حال الكهولة إلى الحنيفية السمحة، التي سمح بها لحال النبوة في زمان إبراهيم عليه السلام فكان ذلك بمنزلة المكلف حال الشيخ رقة عنه بعد الشدة لضعفه، وخفف عنه بعد التثقيل، وقد قال رسول الله ﷺ في ذكره عيسى عليه السلام: «**إنه يزيد في الحلال**» ومصداقه من قول الله سبحانه قوله لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:50]»، وبحسب ذلك يكون التخفيف إن شاء الله ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:83].

اسمه الدَّهر جل ذكره وتعالى علاؤه وجده

قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**»[1].

---

(1) حديث أبي قتادة: رواه أحمد (299/5، رقم 22605)، وعبد بن حميد (ص 97، رقم 197). والحارث كما في بغية الباحث (830/2، رقم 871). حديث أبي هريرة: رواه مسلم (1763/4، =

وروى صلوات الله وسلامه عليه عن ربه ﷻ: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره**».

فيلزم على هذا تعرف معناه وتطلب سبل اعتباره حسب الاستطاعة الوسع، وجاءت الرواية عن رسول الله ﷺ بالنصب والرفع معًا في قول الله جل ذكره: «**وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره**»[1]، فمن الممكن أن يكون نصبه على القطع، كقوله جل من قائل: ﴿**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام:153]، وقوله: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل:52]، ويمكن أن يكون نصبه على معنى فقدان الخافضة، وإن بعد، وأمكن منهما أن يكون نصبه على الاختصاص، كقول جبريل صلوات الله وسلامه عليه: «أنَّا معشر الملائكة لا ندخل بيتًا فيه صورة ولا كلب»[2]، وقول رسول الله ﷺ: «**نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»[3]، ويمكن أن يكون نصبه على التمدح والافتخار كقول الشاعر:

نَحــنُ بَنــي ضَــبَّةَ أَصــحابُ الجَمَــل

وقول بعض العرب: أنا نحن بني فلان نفعل ما نشاء.

وكقول الشاعر:

فَهــوَ فِــداءُ أَميــرِ المُؤمِنــينَ إِذا   أَبــدى الــنَواجِذَ يَــومٌ باسِــلٌ ذَكَــرُ

=

رقم 2246). وأحمد (2/395، رقم 9126)، وابن عساكر (7/267).

حديث جابر: رواه ابن عساكر (7/268)، والطبراني في الشاميين (1/166، رقم 277).

(1) رواه مسلم (6000)، وابن جرير (2/13)، والحاكم (1/579، رقم 1526). وابن خزيمة (4/113، رقم 2479)، وأبو يعلى (11/353، رقم 6466).

(2) رواه أبو داود (1/58، رقم 227)، والنسائي (7/185، رقم 4281)، والحاكم (1/278، رقم 611) وقال: صحيح. وأخرجه أيضًا: ابن حبان (4/5، رقم 1205).

(3) حديث عمر وعثمان وسعد وطلحة والزبير وعبد الرحمن: رواه أحمد (1/25، رقم 172)، والبخاري (6/2474، رقم 6347)، ومسلم (3/1377، رقم 1757)، وأبو داود (3/139، رقم 2963)، والترمذي (4/158، رقم 1610). والنسائي في الكبرى (4/64، رقم 6307).

حديث عائشة: رواه مالك (2/993، رقم 1802)، وأحمد (6/145، رقم 25168)، والبخاري (6/2475، رقم 6349)، ومسلم (3/1379، رقم 1758).

حديث أبي هريرة: رواه مسلم (3/1383، رقم 1761) والترمذي (4/157، رقم 1608).

الخـائِضِ الغَمـرَ وَالمَـيمونِ طائِـرُهُ خَلـيفَةِ اللهِ يُستَـسقى بِـهِ المَطَـرُ

فنصب قوله: الخائض الغمز والميمون وخليفة الله على المدح.

الاعتبار

المفهوم من إطلاق اسم الدهر هو ما لا أول له ولا آخر من الأبد، وحقيقته واقعة على أبد الأزل، الذي هو دوام بقاء البارئ جَلَّ وتعالى علاؤه وشأنه، فعلى هذا هو اسم الله حق لله جل ذكره، ثم قد يقع على ما لا آخر له وإن كان مستفتح الوجود، وهو دوام العالم الكلي، وكذلك آباد الآخرة في الدارين؛ فإن العالم بكليته، والجنة والنار، والعرش والكرسي، وما لم يأذن الله جَلَّ بإعدامه بعد إيجاده وإياه هو باقٍ، غير معدوم الجملة بإبقاء من الله ﷻ له ينشئه ويعليه، فيبدل من بعضه الدنيا من الآخرة، والأرض منه السماوات بما ليس بذلك.

وجملة هذا المشار إليه هو العبد الكلي، القانت للرب، المتعبد لخالقه وجاعله بجميع ما حواه من تفصيل وتوصيل، وخلق أمر إيجاد وإعدام بجميع ذراته وأجزاء أجزائه، وإن كانت الأزمان تتخلله والحوادث تتعاوره، وتداور الدوائر على الدوام تتناوبه، والنقص والزيادة تختلفان عليه، فإن ذلك في التمثيل كالأعراض المتعاورة للشخص الجزئي حال إبقائه، ثم قد يوقع اسم الدهر على ما يظن به أنه غير منقطع أو ما يرجى فيه أو عنده، ذلك كجزاء من أحسن الطاعة لله- جل ذكره- وأخلص في توجيه النية إليه، كما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رحمه الله: «**ألم أخبر أنك تصوم الدهر؟**»[1]، وفي أخرى: «**تصوم لا تفطر وتقوم لا تنام**»[2] وكان يقول: «**لا صام من صام الدهر**»[3]، وفي أخرى: «**من صام الدهر لا صام ولا أفطر**»، وفي أخرى مكان الدهر: «**الأبد**»[4] في هذا النحو قول الشاعر:

---

(1) رواه مسلم (2787).

(2) رواه النسائي في الكبرى (2709).

(3) رواه البخاري (698/2، رقم 1878)ر

(4) حديث حكيم: رواه الطبراني (201/3، رقم 3123).

حديث كهمس الهلالي: رواه ابن سعد (46/7)، والطبراني (194/19، رقم 435).

حديث أبي عقرب: رواه الطبراني (316/22، رقم 798)، والبيهقي في شعب الإيمان (400/3، رقم 3879). والطيالسي (ص 185، رقم 1313)، أحمد (67/5، رقم 20682)، والنسائي (4/ 225، رقم 2433).

سَـــــبِيْلُ الهَــــــوى وَعْـــــرُ وَوعـــــرُ الهـــــوى بَحْـــــرُ
وَيَـــــومُ الهـــــوى شَـــــهْرُ وَشَـــــهْرُ الهـــــوى دَهْـــــرُ

ثم منهم من عبر باسم الدهر عن الزمان، إذ هو منفصل عنه وموجود عنه، وهو مفهوم قوله جل وعز: «**أقلب ليله نهاره**»[1]، فأضاف الليل والنهار إلى الدهر، والأبد هو مرور الأزمان وتعاقب الجديدين، والأمد يقطع الأبد حاشا الدهر ليس له مسمى يقطعه سوى ما هو الأمد فيقطعه للأبد، ظن الأكثرون مع استعمال المقارنة والتجوز في العبارة على حال استصحاب الغفلة أنه إنما قطع الدهر وكلا، بل هو المحيط بالأبد والأمد وتعاقب الأزمان إلى مداها، ثم يرجع آخر إلى ما لا أول ولا آخر، وإنما سب الدهر من سبه؛ لتساهلهم في العبارات عن الزمان وجعلهم أحدهما مكان الآخر، وذلك توكيد في اللغة لاختلال الاعتقاد من أجل نقص العلم، ولسنا نحكي قول هؤلاء لجهلهم بالتحقيق وعدولهم بإغفالهم من سواء الطريق، وفي هؤلاء يقول إنه- جل من قائل- منبهًا من سنة هذه الغفلة: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله نهاره**»[2].

ولم يكن لأذى عباده أن يصل إليه ولا أن يضره بشيء، لكن هذا يزول منه مع تعالي جلاله وعظمة كبريائه إلى مخاطبة العباد على قدر أفهامهم؛ لتتمكن الموعظة من قلوبهم، ولأجل عدولهم بهذا الاسم الكريم عن حقيقته القصوى، واستعارتهم إياه في نحو ما ذكرنا، جمعوه فقالوا في قولهم: دهر ودهور، كما فعلوا في اسم الأبد والأمد والزمان، فقالوا: أبد وآباد، أمد وآماد، وزمان وأزمان، وليس الدهر كذلك، على سبيل الاستعارة ليس في الحضرة الإلهية ليل ونهار جاء ذلك عن رسول الله ﷺ، إنما ذلك دون السماء الدنيا فيما دون ذلك القمر، وما فوق ذلك تداور دوائر بالأمر، لكنه وإن لم يكونا فيما هنالك عينًا فهما فيه حكمًا.

قال الله عز من قائل: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور:44] أي: يعبروا عما شاهدوه ممّا لقنوه من الحكم إلى ما غاب عنهم، فيثبتوا هنالك الأحكام وإن فقدت الأعيان، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ [الإسراء:12]، وأنه إنما ميز بينهما ليفصل أحدهما عن الآخر؛ ليبتغي عباده فيما فضله،

(1) تقدم تخريجه.
(2) تقدم تخريجه.

وليعلموا بذلك السنين والحساب بمطالع الشمس والقمر ومغاربهما، كما يتعرفون في الجنة الغدو والعشي بتناوب ظهور نور الحق المبين وضيائه -عز جلاله- الله الحق المبين، كذلك يعلمون الحساب والسنين والشهور وإلى ما هو العلم والمعرفة أعلى من هذا وأسنا؛ لذلك قال: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا....﴾ [يونس:7] إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:12] أي: أن كل شيء كان جملة في سابق التقدير والكتب الأولى، ثم فصله بعد إلى ما فصله إليه، كذلك قال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:154].

فصل

قد تقدم أن الزمان كله بتداويره ستة أيام، فصلها جاعلها ومقدرها من يوم هو أول لها، ثم أنهاها بالتقدير إلى يوم هو آخر لها، إلى أن يحقق ذلك بالإظهار والإيجاد، مثال ذلك الستة الأيام التي هي السبت ثم الأحد إلى يوم الخميس، فصل الأول من يوم الجمعة، وأنهى آخرها إلى يوم الجمعة؛ لذلك سميت جمعة لاجتماع الأيام فيه، ولموجودات أخرى يوجدها جاعله فيه فهو جامعها؛ أعني: أيام والمحيط بها، ومنه انفصالها وإليه عودها فيه يقلبها، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:54]، فهذه الستة المذكورة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:54].

كذلك خلق الخليقة في الستة أيام، ثم خلق آدم عليه السلام وسواه يوم الجمعة، فاليوم السابع هو يومئذٍ الاستواء، جمع سائر الأيام إحاطة بها وتقليبًا لها وتدبيرًا لما خلق لهن وفيهن، والخليقة كلها من سماوات وأرضين وما بين ذلك، وما علا وما سفل مسوًا وغير مسوًا؛ ولذلك ما هي الخليقة كلها متساوية وغير متساوية، وما يقال فيه أنه غير مستوٍ فهو أيضًا مستوي على النحو الذي أريد به.

والمستوي لهن ﴿ٱلله لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:26]، استوى على العرش الرحمن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ ولذلك تماشج علوه وسفله العبد الكلي رحمًا وعطفًا، ولأن المستوي على العرش هو الحي؛ حي به العالم كله علوه وسفله، فهو ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:3]، فيه ولا أصغر ولا أكبر إلا هو يعلمه

ويشاهده، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:4] ومع كل موجود بما هو لا إله إلا هو، كذلك لما سوى آدم عليه السلام حي فلم يعزب عنه علم شعر في جملته، ولا بشر إلا أحسه وعلم ما يعزوه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، السبت لليهود والأحد للنصارى، وهدانا الله لهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213]، فالحمد لله رب العالمين.

ثم يصعد النظر بعد إلى الأيام التي تقدم ذكرها في اسم الشهيد، وهو اليوم الأول المفصول من يوم الأزل الأول والآخر، واليوم الثاني: هو يوم المتوسط بين يوم المفصول وبين اليوم الذي أظهر فيه، ما كتبه وقدره في اليوم الثاني وهو الثالث: وهو يومنا هذا الثالث، واليوم الرابع: هو اليوم الذي ما بين الدنيا والآخرة المسمى: البرزخ، والخامس: يوم القيامة، والسادس: يوم الخلود في داري القرار، ثم لا آخر له لاتصاله بيوم المريد، وهو اسم يوم الجمعة فيما هنالك.

فصل

ثم اعلم أنه وإن كانت السبعة الأيام هي عن قطع القمر ربع الفلك، وإن للشهر هو عن قطع القمر البروج كلها، وإن ظاهر الليل وظاهر النهار عن طلوع الشمس وغروبها، كما أن السنة هي عن قطع الشمس جميع بروج الفلك، وإن سنة الله - جل ذكره - أجراها بأنه حدث لطلوعها وغروبها، وانتهائها وتوسطها حوادث في الأرض، أجرى على ذلك كثيرًا عن حكمته، ويلزم عباده عند ذلك عبادات جعل تلك المواسم مواقيت لذلك، ومواسم أذن لهم في ابتغاء فضله في ذلك، فكذلك سائر دوائر الأفلاك قد جعل ﷻ لكل خاص منها خاصة من الأمر والحكم ييسره له وسخره فيه وعامًا منه أيضًا يعمهم به، وجمع ذلك كله في الفلك الأعظم المحيط بما تحته من الأفلاك جملة، عمه بها سوى ما خصه بها من الأمر الذي جعله له، ثم فضله فيما دونه من الدوائر تفصيلاً بعد تفصيل، تقدير من عزيز عليم.

هنا فيما دون السماء الدنيا من الدوائر المحيطة بالأرض، ثم دوائر تحيط بالسماء الدنيا وبالأرض على الضعف من ذلك سعة وعددًا وأمرًا، ثم دوائر تحيط بالسماء الثانية والدنيا والأرض الأولى والثانية على التضعيف المذكور، ثم دوائر تحيط بالثالثة

من سماء وأرض كما تقدم، هكذا إلى دوائر تحيط بالسماء السابعة والأرض السابعة على ما تقدم من التضعيف، ليس فيما على من ذلك كله ليل ولا نهار عينًا وحكمًا معًا، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:19ـ20]، وقال ﷻ في أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:62]، وكما فيما هنالك البكر والعشايا والليل حكمًا، فحوادث الأمر بذلك والحكم على التضعيف ساعدًا موجودًا، فافهم علمنا الله وإياك من علمه.

هذا فيما دون الكرسي الكريم، وما في السماوات والأرض وما بين ذلك في الكرسي إلا كخلقة في فلاة، يقول الله جل من قائل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:255]، فاقض بعقلك وتبصر بنور إيمانك مقدار الخلقة في فلاة من الأرض، ثم احكم بالتضعيف على مقدار ذلك وإن لم يبلغ كنهه عقلك إلا بإشارة من إيمانك، فكيف ترى سعة دوائر ما هنالك وتضاعيف الأمر، ثم ارم بوهمك إلى ما فوق الكرسي، فما الكرسي وما دونه في العرش إلا كخلقة في فلاة، وإن دوائر ما دون العرش قد أحسن بالكرسي وبالدوائر المحيطة به وبالسماوات والأرضين إلى ما تحت الثرى وإلى المنتهى.

وعلى ذلك فإنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يرفع إليه من أهل الأرض عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل.

فصل

ثم اعلم - وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أن كل ما تقدم ذكره من دوائر؛ فإن لكل واحد منهما يومه وساعته، ودقائقه وشعائره، ودقائق ودقائقه، وأيامه وجمعه، وشهوره وأعوامه، وأسابيعه وفصوله، بحوادث يحدثها فيها بمطالعها ومغاربها، وتوسطها وانتهائها، أبين مما شاهدناه وأكرم وجودًا وأقحم أمرًا وأعلى قدرًا.

ولما كان ما هنالك من دوائر ليست كطلوع الشمس والقمر، وغروبها لموانع تمنع أبصارنا من مشاهدتهما قبل أن تطلع علينا، كذلك في توسطها وانتهائها، بل ما هنالك مكشوف واضح بيّن؛ لذلك كانت وظائف عبادات من عند ربنا - عز جلاله وتعالى شأنه- سرمدية أبدًا، دائمة أبدًا ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:19ـ20]، وطوقوا ذلك صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وعلى نحو ذلك كان فرض الصلوات أولاً: خمسين صلاة وهو بوضوئهن،

والأهبة لهن، ويجتبنهن بشغلهن الفراغ، ومن علت منا همته دام دوام الخدمة بتكثير النوافل توفيق من الله - جل ذكره- إلى ما هو إثارة لما علا فيما سفل، ومن استعمل الرفق بنفسه في مرام ذلك فليتنوع في الخدمة صلاة وذكرًا، وقراءةً ونظرًا، وفكرة وطلب علم ولقاء إخوان في الله - جل ذكره - ثم ما لا بد له من حاجة البدن والمداومة على ذلك تدخل الجنة بغير حساب، وعلى قدر تخلل البطالة تكون التباعات إلا بحكم العفو، فافهم.

فصل

إن كان يسمى باسم الدهر ما عدى ما لا أول له ولا آخر، الذي هو دوام بقاء الله الدائم الوجود، لا إلى أول ولا إلى آخر، فكما يسمى أحدنا بعلي وعزيز وكريم وحليم ورحيم ونحو ذلك مما أباح من أسمائه التسمي، وأوجب به التجلي أو ندب إليه من ذلك، وقد قال بعض المتقدمين: الزمان مدة دوران الفلك، والدهر هو مدة فعل الله - جل ذكره - وفعل الله دون زمان ولا انتظار فيه لمرتقيه ولا تطويل في مدة، قال الله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47]، وقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:4] أي: مما نعده نحن أنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا، وقد أعطى عباده في الجنة من هذا ما شاءه وهو تنعيم لهم، إنما الانتظار موجود في فعل من شمله حكم الزمان، فإن الانتظار والتمني دون معاجلة المنى عذاب، ولا يكون ذلك لأهل السماوات ولا لأهل الجنة إلا أن يكونوا، إنما يشغلون عن ذلك بما يسليهم عنه، فلا يجدون فقد ذلك؛ لأن ذلك من الحكم يجري عليهم بأزمته، أو ما يعبر عنه فيما هذا هنالك من عبارات قد أظلتها بركة الدهر، كيف لا وإنما هم ميسرون إلا أن يريدون ما ليس بكائن، فقطعهم الآباد لذلك بغير سآمة.

فصل

اختلف سلفنا - رضي الله عنا وعنهم - في بقاء الباقي على ثلاثة أقوال، فبعضهم قال: إن الباقي باقٍ بنفسه، وقال آخرون: هو باقٍ ببقاء، وقال آخرون: البقاء شرط وليس من قبيل العلل، ومعنى قولهم هذا: هو كما قلنا في الحياة إنما شرط في كون العالم عالمًا، والقادر قادرًا، وهذا وجه يضعف؛ إذ يلزم منه أن يكون البقاء موجودًا وإن لم يكن الباقي باقيًا، كما يصح وجود الحياة بالحي وإن لم يكن عالمًا ولا قادرًا؛ ولكن أرادوا بقولهم: البقاء شرط في كون الباقي باقيًا، إن دوام وجود الباقي يتضمن وجود البقاء، وما تضمن حصوله شيء لا يصح حصوله مع عدم ما تضمنه، كالعلم لما كان

يتضمن وجود الحياة لم يصح وجوده مع عدمها، ويصح مع هذا إبقاء الأعراض ببقاء لا يوجد بها، وإنما يوجد بمحلها ببقاء يحدد لها خارجًا عنها، غير موجود بها ولا محمول فيها أو بها.

وأما قول من قال: إنه باقٍ لنفسه؛ فمعناه: إخبار عن دوام وجوده فقط، أي: هو موجود لم يزل ولا يزال ولا يلزم عليه اعتراض من اعترض فقال: لو كان ما قلته صحيحًا لكانت ذاته بقاء؛ لأن معنى قوله: إنه باقٍ لنفسه، أي: لم يوجد به معنى سواء يكون به باقيًا، وأما معنى قول من قال: إنه باقٍ ببقاء كقول السلف: إنه عالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، أي: أنه وصفاته باقٍ ببقاء موجود به كالعلم والإرادة والقدرة، ثم يرجع القول إلى أنه يستحق هذه الصفات لنفسه، وكل صفة نفسية لا يوجد إثباتها إثبات تكثير في ذات الموصوف، فأما القول فيه: بأنه عالم قادر حي مريد لا يرجع إلى غير الذات، والمفهوم في تغاير الصفات إثبات حقائقها فحسب، فالمحصول من الأقوال الثلاثة أنه دائم البقاء متوالي الوجود آزالاً وآبدًا، لا عن أول ولا إلى نهاية.

والمفهوم عن دوام البقاء وتوالي الوجود هو الدهر، وقد جاء أن رسول الله ﷺ كان من قوله: «**سبحان الدهر الداهر**»[1].

فالدهر: هو المعهود من توالي وجوده هو الدهر وديمومة بقائه، والداهر: عبارة عن إحداثه الدهر على أحد الوجوه التي تقدم ذكرها، وقد يكون معنى قوله: الدهر الداهر كما يقال: الأحد الواحد، وهو الدهر وهو الداهر، ثم يصلح الاعتقاد في قوله: الداهر أنه بمعنى: دهر الداهر، كما يقال في اسمه الواحد: إنه وحد الواحد، وأوحد الواحد.

فصل

قد تقدم القول في تداور الدوائر طبقًا فوق طبق، وأن الأعلى ينتظم الأسفل، كلها ترجع إلى ما هو أعلى عن سماء، وهو الدائر المحيط الذي هو دون العرش العظيم وهو منزل الأمر فيه، يسبح كل ما دونه من دائر، وبقي الكلام على تداور الحساب المشاهد في تداور الشمس والقمر من المغرب إلى المشرق بالتقدير ونزول المنازل، قال الله ﷻ: ﴿**لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**﴾، وهو الحق تداورهما بالأمر الذي سخرهما به، وهو ما سيبينه الحق المبين في

---

(1) روى نحوه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (346).

الدار الآخرة ﷻ، ثم قال جل قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] أي: أن الشمس والقمر تفصيل بعض من جملة.

وقد يتوجه إليه قوله سبحانه وله الحمد: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:4] إذ يوم تداور المياه هو أربعة عشر يومًا، ويوم تداور القمر في ثمانية وعشرين يومًا، ويوم عطارد ثلاثة أشهر وستة أيام، ويوم الزهرة ثمانية أشهر وستة أيام، ثم الشمس ويومها سنة، ثم يوم المريخ خمسة وعشرون شهرًا، ثم يوم المشترى اثنتي عشرة سنة، ثم يوم المقابل؛ وهو زحل ثلاثون سنة على سبيل التقريب في ذلك كله، ثم ربما صعد النظر في ذلك إلى يوم مقداره خمسون ألف سنة، والله أعلم أي دائرة هي؟! فإن ما هاهنا آية على ما هنالك.

التعبد

لا يخلو اسم الدهر أن يكون عبارة عن توالي وجود الملك الحق تبارك اسمه وتعالى جده، فقد تسمى بما هو بقاء له وبقاؤه صفة من صفاته، وإلى هذا - والله أعلم - يتوجه قول رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**»[1]، أو يكون اسم الدهر عبارة عن مدة فعله - جل ثناؤه - كما اسم الزمان عبارة عن مدة دوران الفلك، فالفعل من صفاتها أيضًا، أو يكون عبارة عن مفعوله الموصوف بالبقاء وإن كان مستفتح الوجود، أو كان مما يظن به ذلك لتأخر فنائه وتراخي عدمه، فهو أيضًا مفعول له ومن سبَّ مفعولاً ما لفاعل حكيم لأمر كرهه منه، فإنما سب الفاعل؛ إذ هو القاصد لما وجد منه، ولما في ذلك من المكروه قال الله جل قوله: «**يسبني ابن آدم ولم يكن له ذلك**»[2] وفي أخرى: «**يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره**»[3].

فلذلك - وفقك الله- فجانب الاعتراض عن القدر جملة، ولا تتبرم لمكروه أتى به، ولا تقولن لشيء قد كان: لم كان هكذا؟ ولا لشيء لم يكن: هلا كان هكذا؟ وقل: لم يقدر وهكذا قدر، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل.

وفي الأدب أن الجاهل يذم غيره ويمدح نفسه، والأديب يذم نفسه ويمدح غيره، والعارف لا يذم أحد ولا يمدحه، إنما هو القدر لا غير، يقول: قدر الله وما شاء فعل،

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

وعليك بملازمة السنة ومصاحبة الأيام والشهور والسنين بالموادعة وابتغاء مرضات ربك، وإياك وما أحدثته عبدة الشمس والقمر، والكواكب من الأعياد من نيروز ومهرجان وغير ذلك، فإن الله ﷻ قد أبدل المسلمين من ذلك كله بعيدين: عيد الأضحى وعيد الفطر، ويوم عاشوراء قد يلحق بهما في الصوم، والتوسعة على النفس والعيال والفقراء، ولا تعظم أيامًا لم يأذن الله بتعظيمها، وكذلك ما أحدثه بعض الأعاجم في شهورهم، عليك بالحنيفية السمحة دين إبراهيم: ﴿**حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران:67].

واعلم أن الله - جل ذكره - إنما يكون للعبد في حياته وبعد موته، كما كان العبد لربه بعد بعثه من نومه إلا ما استثنى من ذلك حكم الجود والفضل، فانظر إلى أي حال تنبعث إليها بعد نومك؛ فإن الله تبارك وتعالى ينزلك بعد موتك وبعد بعثك حسب ما أنزلته من قلبك في الدنيا، فإن كنت له مكرمًا ولحرماته معظمًا، وإلى محبه وطلب مرضاته مسارعًا؛ كان الله لك في الآخرة لوجهك مكرمًا ولشأنك معظمًا، وإلى مسرتك من النعيم المقيم مسارعًا بالضد، وشواهد هذا في الكتاب العزيز كثيرة من أنه لا يجعل المفسدين كالمصلحين، وإن جزاء الإحسان الإحسان ونحو هذا، بل قد نصّ على أن حالهم في العاجلة سواء محياهم ومماتهم، وعبر عن هذا بغير ما عبارة وإنما يتذكر أولو الألباب، فاحرص على أن تكون منهم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«**من أحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله من قلبه**»[1]. ذلك بأن الله ينزل عبده عنده بحيث أنزل العبد من نفسه، ومتى كان العبد على ما ذكرناه فنام على طهارة وذكر وتحقيق مشاهدة كان مضجعه مسجدًا، أو يكتب مصليًا حتى يستيقظ، وهو الذي يدخل في شعاره ملك كما تحرك في نومه أو انتبه، فذكر الله دعا له الملك واستغفره، وإن دام على النوم حتى يصبح حسب ليله قائمًا وكان نومه عليه صدقة، ومن كان هذا وصفه في منامه سبق العباد في قيامهم عن غفلة وسهو، فقد جاء: إن نوم العالم عبادة ونفَسه تسبيح، وذكر أن بعض الأنبياء - عليهم السلام - أوحى الله إليه: كيف تؤدي شكر نعمتي ولي عليك في كل شعرة نعمتان، وإن لينت أصلها وأن طمنت رأسها.

وذكر عن بعض العارفين أنه قال: أحصيت من نعم الله ﷻ عليّ في يوم واحد

---

(1) رواه عبد بن حميد (ص 333، رقم 1107)، والحكيم (126/2)، والحاكم (671/1 رقم 1820).

أربعة وعشرين ألف نعمة، قيل له: كيف؟ قال: حسبت أنفاسي في اليوم والليلة فوجدتها أربعة وعشرين ألف نفس، وصدق رحمة الله علينا وعليه.

وما ذكره بعض العلماء أكثر من هذا، قال: إن في اليوم والليلة أربعة وعشرين ساعة، في كل ساعة اثنتا عشرة دقيقة، وفي كل دقيقة اثنتا عشرة شعيرة، في كل شعيرة اثنتا عشرة نفسًا، المحصل من ذلك في الساعة الزمانية ألف نفس وستمائة وثمانية وسبعون نفسًا، هذا أو ما تحققه الحساب على مقاربة هذا.

وذكر أن الطرفة نصف النفس، إذ النفس يتحصل إلى قبض ودفع، فعدد الطرفات على ضعفي الأنفاس، وقال رسول الله ﷺ:

«**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أكثر من ذلك ولا أقل**»[1]، فعداد النعم على العبد في هذا النوع الواحد على ضعفي ما تقدم من العدد على تعداد الأنفاس، ثم تتضاعف النعم في الطرقات من جهة تعم النفع والدفع، وهي النعم الظاهرة والباطنة، وهذا تضعيف زائد على ما تقدم، ثم أبعاض الطرفات، فهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر**»[2]، وهو قول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ**﴾ [إبراهيم:34]، في كل نوع وعلى كل حال.

فيا سبحان الله ما أعظم الخطر وأجل الوزر، والله إنا لنخاف من إهمالنا أنفسنا وعظيم غفلتنا عما حاق بنا من تقصيرنا عن أداء الواجب علينا، أن تكون ممن ﴿**بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ**﴾ [إبراهيم:29]، لولا الرجاء في سعة رحمة الله وكريم عفوه؛ لكان القنوط لا غيره، والله المستعان على رعاية أوامره وأداء واجبه.

فصل في التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن أفضل ما يستعين به المريد على استصحاب التذكار

(1) رواه النسائي (6/147، رقم 10405)، والحاكم (1/730، رقم 2000) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (1/476، رقم 761)، والضياء (6/300، رقم 2320).

(2) رواه النسائي (6/147، رقم 10405)، والحاكم (1/730، رقم 2000) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (1/476، رقم 761)، والضياء (6/300، رقم 2320) وقال: إسناده حسن.

ومدافعة الغفلة؛ مراعاة الأوقات قبل فوتها، وذلك ليس بتمني مكان غير المكان الذي هو فيه، ولا بانتظار وقت غير الوقت الذي يحويه، ولا يتوقع حال غير الحال الذي يليه، إنما هو صوم نومك، أو قيام ليلتك، أو ذكر ساعتك، أو جمع أشتات قلبك، أو قطع لأثرك عند تبرمك؛ ويكون ذلك غض طرف، وصون سمع، وكف يد، وحبس قدم، وصمتًا عن كلمة دنية، وجل نية دميمة، وعقد نية محمودة، وتجديد توبة وإعمال قلب في تحقيق فكرة، وإخراج سوء ظن، ودفع خاطر خبيث، واعتقاد حسن ظن، ونية استقامة، وصحة عزم في قصد، وتسبب إلى ما يقوي العزم، وهذا كله يكون في الوقت وتحدثه في الحال، ولا يسوف فيه ولا ينتظر به، ولا يتوقعه في وقت ثانٍ ولا تؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربص به مكانًا دون مكانه، هذا هو التدارك لأوقات خشية الفوت، وما سوى هذا فهو نفس التسويف والتمني، والانتظار والتراخي، وهي جنود إبليس لعنه الله.

وكما يقلب الله الليل والنهار كذلك يقلب الأنفاس في قصر مددها بخواطر القلوب؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر**»[1]. وليعلم المريد أن عمره كله يوم، وأن يومه كله ساعة، وأن ساعته ووقته آنه وآنه ذلك حاله، وحاله قلبه، فيأخذ من حاله لقلبه ما يقربه إلى مقلبه بنهاية علمه، وليعمل أفضل من ذلك أدله عليه علمه مما يحب أن يفاجئه الموت عليه، فيكون ذلك خاتمة عمله الذي يلقى ربه عليه؛ فعلى هذا يكون مراعيًا لوقته محافظًا على حاله، قائمًا على قلبه جامعًا له محصيًا لأنفاسه، مراقبًا لرقيبه محاسبًا لحسيبه، لا يخرج نفسًا في أدنى وقت إلا في ذكر مذكور، أو شكر منعم، أو صبر في محنة عتيدة، أو رضا عند مشقة شديدة؛ ويكون في ذلك كله ناظرًا إلى الرقيب مصغيًا إلى القريب، لا ينظر إلا إليه ولا يعكف إلا عليه، فهذا هو الذي أعطى من طيب الحياة بغير حساب، وكشف له عن قلبه الحجاب، فكانت المعرفة مقامه وقصرت عليه شهوره وأيامه، فكان قلبه واحدًا لواحد، ومن عمل بهذا كان من صديقي الإبدال، ومن علم هذا علم يقين كان من الصالحين، ومن آمن به ولم يشك فيه لأهل إيمان تصديق فهو من الموقنين، ومن شهد منه حال شهادة فكان له منه مطالعات وعادات فهو من الذاكرين، وجميع هذا الجمعة مقامان، من أقيم في أحدهما أجمع له ذلك استقامة في توبة وعمل يعمل، فمن كان

(1) رواه النسائي (6/147، رقم 10405). والحاكم (1/730، رقم 2000) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (1/476، رقم 761)، والضياء (6/300، رقم 2320).

مقامه التوبة وحاله الاستقامة رفع وجمع له ما ذكرناه من المراقبة والمشاهدة، فهذا يكون عبد الله المخلص في صحبته أيام ودهره ولياليه، لا جعل الله حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من اللحاق بهم معرفتهم، وجعلنا منهم وفيهم ومعهم، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:50].

اسمه ذو الطول عَزَّ وَجَلَّ

الطول: الوسع، وهو مأخوذ من الطول، وعلى التحقيق والطول مأخوذ منه، يقال من ذلك: طالني الشيء يطولني، أي: عزَّني وامتنع مني، وهو بمعنى الإدراك والوجد، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النساء: 25]، يقول وهو أعلم بما ينزل: فمن لم يكن له وجد وغنى يلحق به مهور المحصنات الحرائر والقيام بهن، فلينكح الإماء المؤمنات، وكل ما يوصف بالطول فهو مدرك له، والصفات لا توصف بالطول ولا بضده، والطول إذًا في الصفات، والطول في ذوات المقادير والمساحات، وقد يكون الطول معناه الإحسان والتكرم والاقتدار ورفعة القدر، من ذلك قولهم: فلان له طول عميم، وفلان متطول، أي: متكرم متفضل ذو وسع، بذلك جمع هذا كله قوله جل قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:3].

اسمه الواسع، واسمه الجامع جَلَّ جَلَالُهُ وتعالى علاؤه وشأنه

الواسع: الإحاطة، ومنه أخذ السعة، وقد تقدم نظير هذا، فالوسع في الصفات والسعة في الممسوحات والمجسمات، وهو الذي وسع كل شيء رحمةً وجودًا،

وسعت أسماؤه كل شيء، وصفاته كل وصف، وكلماته كل كائن، وكل سعة وإن عظمت فلها نهاية، ووسعه جل وتعالى لا نهاية له، وكلماته وصفاته لا أمد لها ولا آخر؛ لأن كل سعة لا تنتهي إلى أخرى الزيادة عليها متصورة.

جمع إلى المثل الأعلى جميع الأسماء الحسنى والصفات الكاملة، الحق العلى هو الجامع علمه وقدرته ومشيئته كل كائن في الأولى والآخرة إلى ما لا نهاية له ولا مدى، وكل ما لا يكون أبد الآبدين، ثم جمع ذلك كتابًا في اللوح المحفوظ، ثم جمع الخليقة كلها في واحد جامع جعله عبدًا له، متذللاً لعزته، قانتًا له، خاشعًا لعظمته متصاغرًا لكبريائه، جمع كل مذكور كائن فيه، وكل معلوم موجود، وكل ذرة من أبعاضه على ذكره وتسبيحه وتحميده، جمع منه ما كان وما يكون في سابق علمه، ثم في تقديره، ثم جمع ذلك كله مظهرًا كل على توبته وأوليته من الدهر من حال، ومتى؟ وكيف؟ وأين؟ ولم لا يكون؟ ولم يكون؟ بتوابع ذلك كله وأحواله، ثم جمعه في التقليب والتدبير من إعدام وإيجاد وبداية وإعادة، هو جامع الناس ليوم لا ريب فيه، ثم هو ذا جامعهم في دار القرار، جامع لخير كله بحذافيره لأوليائه في الجنة، وجامع الشر كله لأعدائه في النار، هو الجامع الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بين المتباينات المؤلف بين المتضادات، وتلك آيته على أنه القادر على الجمع بين الضدين، إذا شاء وسع كل شيء رحمة وقدرة وعلمًا ومشيئة، هو الواسع العليم الجامع للخير كله، لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه، خالق كل شيء ومبدعه، الحي القيوم، القائم على شيء المحيط به من ورائه، محيي الموتى ومميت الأحياء، بيده خزائن كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123].

التعبد

قد ظهر لك إن كنت فهمت جمعه - جل ذكره - الأسماء الحسنى والصفات العليا والمحامد كلها، والثناء الحسن أجمعه له الكلمات التامات والسبحات الرفيعات، فأجهد نفسك عل حسن الائتمام به؛ فإنه أقرب الأعمال وأقصر السبل، قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:28] أي: ادخلوا في السلم لله ﷻ جميع صفاتكم ومعانيكم وأهوائكم، فالسلم والسلام جمع، وخطوات الشيطان وجميع المعاصي تفرقة وتشتت، فاجمع له بين ظاهرك وباطنك في طلب رضاه، وبين قولك وفعلك، وبين علمك وعملك، وبين عبادتك ونيتك في وجهك إليه، ومن معرفته وحسن السيرة فيما بينك وبينه.

واجهد أن تجمع بين البصر والبصيرة، فذلك متعذر على الأكثرين جدًّا، وهو من الكمال، والكمال قليل وجوده لاسيما في العبادة، وكذلك الجامع من جمع الله ﷻ له بين الحفظ والفهم، وبين الفهم والفطنة، وبين الفطنة والشعر، وبين الشعر والإلهام، فارغب إليه في جمع ذلك، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران:13]، وتفرغ وتعرض لنفحات ربك جل ذكره وهداياه، وارغب إليه بفراغ من قلبك، وجد من عزمك، واتل كتاب ربك حرفًا حرفًا، واحضر ذلك قلبك، واجمع منتشر باطنك، وأكثر من التفكر وواظب التفكر، وتمم بالعبرة إلى المطلوب، واجمع بينهما؛ فالتفكر والتذكر دون عبرة إلى المطلوب، كالدعاء دون سؤال، وكالتطهر دون عمل.

وعلى القول بالإجمال كن لربك بكل كلك يكن لك بكل كله، فمطلوبك هو العلي الكبير الأعلى وسع كل شيء رحمةً وعلمًا وقدرة ومشيئة، منه ابتداء كل شيء وإليه عوده، جمع الخلائق كلهم في قبضته، وأخبر بجميع ما أوجدهم له من عمل ورزق وأجل وشقاوة وسعادة بكلمته، وسطر جميع الكائنات في كتابه، وكل ذلك عليه يسير، وهو على كل شيء قدير، أظهر الكائنات بعد إبطانها إياها بقدرته، وقسم لكل حظه، وقسمه في المقدور المسطور من وجود، جعل ما أظهر دلائل على ما غيبه، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:11]، ولا كوجوده وجود.

أَلا إِنَّـــــنا كُلَّـــــنا بائِـــــدُ ... وَأَيُّ بَنـــــي آدَمٍ خالِـــــدُ

وَبَـــدؤُهُمُ كـــانَ مِـــن رَبِّهِـــم ... وَكُـــلٌّ إِلـــى رَبِّـــهِ عائِـــدُ

فَـــيا عَجَـــبا كَـــيفَ يُعـــصى الإِلَـــهُ ... أَم كَـــيفَ يَجحَـــدُهُ الجاحِـــدُ

وَفـــي كُـــلِّ شَـــيءٍ آيَـــةٌ ... تَـــدُلُّ عَلـــى أَنَّـــهُ واحِـــدُ

وَلِله فـــي كُـــلِّ تَحـــريكَةٍ ... وَتَـــسكينَةٍ فـــي الْـــوَرَى شـــاهِدُ

قال الله جل من قائل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه:5-8].

وقال جل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة:7].

وقال جل وعز: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:61]، فكما أن العدد لا يحصره مع حاصريه، كذلك المكان والزمان لا يحويانه مع مجالسته، وكما أن شكل المجالس والمحاضر ليس بنعت له، كذلك الحكام لحدوث لا يبلغ إليه حكمه يقول الله جل قوله: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني له**»[1].

من ذلك كله حقيقة الحق والأحوال بما هي لا تحول به عليه، وكما ينزل ﷻ في المخاطبة إلى الأفهام، كذلك يتنزل بالحق يوم الوعيد إلى الرؤية للأنام، بل وجوده عز جلاله في حيث شاء حقيقته، وكأنه حيث يشاء مشيئته وعلوه علاؤه، وزمانه استمرار دوامه وتوالي قدم بقائه، دون بداية ولا نهاية، ولا رجوع آخر على أول أزلاً وأبدًا لا إلى غاية بقائه صفته ودوام بقائه توالي دوامه، وصفة علمه صفة له غير مفارق له وعلمه أيضًا مشهوده وهي مصنوعاته، وجميع ما كونه وقدره شهد ذلك كله شهودًا كاملاً لا مثوبة فيه، خلا أنها لم تكن مظهرة لأنفسها بادية بعضها لبعض، شهدها حال عدمها لأنفسها، وحضها بأكمل الحضور وأكمل المشاهدة قبل إيجاده إياها، بل غيبًا حيث لا سواه موجود، سطع نور وجوده العلي فاتصل لا إلى نهاية، ثم أوجد حيث شاء من ذلك العرش والثرى وما بين ذلك، وهو العبد الكلي وجميعه في القدر كحبة خردلة إلى جميع ما أوجد كهيئة في قبضته، وهو العلي العظيم الجامع وذو الطول الواسع، لا بعد في دنوه، ولا حسن في وجوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة كحيطته.

الأشياء مبعدة بأوصافها، والبعد والقرب حكم مشيئته، والحجب والأستار متصلة بالمخلوقين، ليس كوجوده وجود ولا كوصفه وصف، ولا مثله شيء فيعرف بالتمثيل، ولا جنس له فيقاس على التجنيس، منفرد بنفسه متحد بوصفه، أحد الذات واحد الأسماء والصفات، لا تسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا في أنور صفته، ولا يوجد إلا برحمته لقربه، ولا يعرف إلا بمشيئته لشهوده، ولا يرى إلا بنوره في هذه بالغيب وفي الآخرة بالمشاهدة، به تعرف المعارف لا بها تعرف، وبه تتحقق الأشياء لا بها يتحقق.

---

(1) تقدم تخريجه.

قد جمعنا لك أطراف الكلام حرصًا على البيان، فاسمع لما خاطبناك به بسمع سامع، وافهم بقلب شاهد واسع نحوه بعزم وافر، وإياك والحيرة والإلحاد والنكوص عن التقدم إلى الفوز العظيم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:21].

وقد أتينا بحمد الله فيما ذكرناه من الأسماء بما فيه تطريق إلى التعرف مما تركنا، ولم يكن الغرض من ذلك التقصي؛ فالقدرة عن ذلك تعجز، والعلوم وإن اتسعت تضيق.

وعلى ذلك فإنا اقتصرنا الذكر على بعض المشهور من الأسماء، وهي المعلومة منها المحفوظة، وأسماء الله جل ذكره يعزب حصرها ويطول متابعة ذلك كتاب يزمها، فبعد مع ذلك مطلبه ويعسر دركه، فمن تناهت به همته وصلحت لذلك نيته، وجد بما قدماه لمطلبه مأخذًا سهلاً وسبيلاً لما يبتغيه مسلوكًا.

وليعلم قارئ كتابنا هذا أنه إن كان عرضه قراءة حروفه واستيفاء مسطوره؛ جريًا إلى بلوغ أقصاه وتطلعًا إلى مقدار علم واضعه ومنتهاه؛ فإن تلك سبيل قليلة الجدوى نزره العناء؛ إذ لا يصح له من ذلك معلوم على الكشف، ولا يستثار تلك النية يقين من موصوف ولا وصف، لا حتى يستعمل فكره ويشحذ ذهنه، وأشغل بذلك عما عداه قلبه فيوالي بذلك بين الأفكار والإدراك، وليستصحب النظر والاعتبار أناء الليل والنهار، ثم الدعاء إلى منور القلوب بالنور في العصمة من الزيغ والميل والتسديد من المرضي من القول والعمل، وليجرد ذلك في مواقيت الصلوات وسدف الأسحار، عساه يلهمه الحق المبتغى، ويسلكه السبيل المرتضى؛ وليتفرغ لشأنه حتى يرى بقلبه ما يقرأ بلسانه، ويشاهد بعقله ما يرويه جنانه، وبعد هذا فتح الله مبين، وفضله جل ذكره لمن شاء له ذلك عظيم، فما أيسر العطف عليه والفتح، وليس ما ذكر في هذا الكتاب إلا تنشيطًا للكسلان وتنبيهًا للوسنان، وإن كان والحمد لله إعلامًا للشادين شافيًا وخطابًا للأياقظ كافيًا.

والجد.. الجد - رحمك الله جل ذكره - أجد إليك منك إليه، ومتى صدقته صدقك، ومحال في معهود كرمه وجميل وعده أن تريده ولا يريدك، وأن تطلبه تجد من عزمك وخالص من نيتك على سنن قويم، فلا تجده بثواب ذلك مليًا وفيًا، علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل حظنا وحظك من معرفته، وأحسن عوننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، وعلى جميع النبيين والمرسلين، وعلى الملائكة أجمعين وسلم أفضل صلاة وتسليم، الحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تـــــم الكتـــاب والحمـــــــــــد لله رب العـــــــــــــالمين

وصلـــواته على سيدنـــا محمد خـــاتم النبيين

وآلـــــــه الطيبين وصحابته الأكـــــــرمين

وسلـــم تسليما دائمًا إلى يوم الدين

علقه لنفسه ولمن شاء الله من بعده الفقير الحقير، المعترف بالذنب والتقصير، الراجي عفو ربه القدير: حمزة بن صالح بن عمر الخزرجي نسبًا، المصري بلدًا، الشافعي مذهبًا، غفران الله له ولوالديه ولمن قرأ فيه ودعا له ولوالديه بالرحمة، آمين يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان الفراغ من تعليقه في ليلة حتى نورت الشمس

فهرس بأهم المصادر والمراجع

فهرس بأهم المصادر والمراجع أولا: القرآن الكريم، والكتب الأمهات الستة الحديثية.
ثانيا:

1- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب.ط. دار الغد العربي بالعباسية - مصر.

2- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.

3- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.

4- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة.ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.

5- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.

6- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

7- المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة. للحافظ رحمه الله . الطبعة الأولى ط. مؤسسة الرسالة - بيروت.

8- الجزء المفقود من الجزء الأول من المصنف للحافظ عبد الرزاق (ت 221 هـ).طبع وتحقيق الدكتور عيسى بن مانع الحميري.

9- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر.ط الدار السلفية. الهند.

10- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين للشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي المكي.ط. دار الكتاب العربي - بيروت.

11- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري وبهامشه شرح النووي على مسلم للعلامة أحمد القسطلاني. طبع دار الكتب العلمية.

12- الترغيب والترهيب للحافظ عبد العظيم المنذري ط. دار الحديث بالقاهرة.

13- فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي لصحيح البخاري للشيخ العلامة عبد الله الشرقاوي. ط. مطبعة الأزهر الشريف.

14- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها (شرح على مختصر البخاري) للإمام الحافظ عبد الله بن أبي جمرة ط. دار الجيل.

15- منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين ﷺ للعلامة المحدث الصالح الشيخ يوسف النبهاني ط. مطبعة الباب الحلبي بالقاهرة.

16- خواتم الحكم للشيخ المحقق علي دده الموستاري (ت 1009 هـ). ط. دار الآفاق العربية بالقاهرة.

17- كتاب الفتاوى الحديثية للعلامة الحافظ ابن حجر الهيثمي ط. دار الكتب العلمية.

18- إحياء علوم الدين ومعه المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.

19- تنبيهات على علو الحقيقة المحمدية ومعه روح القدس في مناصحة النفس. لشيخنا الإمام ابن العربي. بتحقيق الشيخ العلامة الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي. ط. دار الكتب العلمية بيروت.

20- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق لإمام الفريقين مدون أخلاق السنة المحمدية الشيخ عبد الوهاب الشعراني. (مخطوط دار الكتب المصرية علم التصوف).

21- الأخلاق المتبولية للإمام العارف عبد الوهاب الشعراني.ط. مكتبة الإيمان بالعجوزة - القاهرة، ط. دار الكتب العلمية بيروت.

22- سراج الطالبين على منهاج العابدين لمفتي الحرمين المحقق العلامة إحسان دحلان.ط. دار الفكر.

23- البيان والمزيد (شرح حكم سيدي شيخ الشيوخ أبي مدين الغوث) للشيخ العارف أحمد باعشن، ومعه روح الكبريت الأحمر على حكم الشيخ الأكبر، ويليه حكم الإمام مصطفى البكري للعارف محمد بن محمود الداموني البكري.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

24- الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للإمام الشعراني. ط. دار المعارف بالقاهرة.

25- العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية لشيخ الإسلام الأستاذ المربي الإمام الصديقي مصطفى البكري ط. (دارة الكرز - الدار الجودية) بالقاهرة.

26- نعت البدايات وتوصيف النهايات ومعه فاتق الرتق على راتق الفتق للعلامة

المغربي الشيخ محمد فاضل ط. الدار الأزهرية للتراث بالقاهرة.

27- كتاب جامع أصول الأولياء وأنواعهم للشيخ أحمد النقشبندي ط. دار الكتب العلمية.

28- مذكرة المرشدين والمسترشدين للعارف محمد أبو العزائم.ط دار الكتاب الصوفي. بالقاهرة.

29- تنبيه المغترين ويليه الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين للإمام الشعراني والإمام حجة الإسلام الغزالي. ط. دار المعرفة - بيروت.

30- تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة اللـه والرسـول الحرمين المحقق العلامة إحسان دحلان ط. دار الكتاب الصوفي. بالقاهرة

31- رسائل الإمام المجدد محمد الكتاني في السلوك والآداب. للإمام حجة الإسلام المحقق الأحمدي محمد ابن الشيخ عبد الكبير الكتاني ط. دار الرازي بالأردن.

32- الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله . للعلامة عبد القادر بن الحسين المعروف بابن مغيزيل الشاذلي.ط. دار جوامع الكلم (مكتبة الإمام سيدي صالح الجعفري) بالقاهرة.

33- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية للإمام العارف عبد الوهاب الشعراني دار الكتب العلمية بيروت.

34- الولاية عند سيدي عبدالكريم الجيلي للأستاذ سيد عبد الستار.

35- حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب للشيخ محمد بن الحسن الصوفي.ط. دار جوامع الكلم (مكتبة الإمام سيدي صالح الجعفري) بالقاهرة.

36- الفتح الرباني والفيض الرحماني لسيدنا الإمام العارف عبد القادر الجيلاني. عدة طبعات.

37- كتاب الشهاب موعظة لأولي الألباب للشيخ العارف أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونة الأندلسي (ت 642هـ).ط. مركز التراث الثقافي - الدار البيضاء.

38- حدائق الحقائق للشيخ محمد الرازي.ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

39- إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود ويليه المسائل الصوفية لشيخ الإسلام الإمام عبد الغني النابلسي ط. دار الآفاق بالقاهرة.

40- شراب الأرواح من فضل الفتاح للعارف سيدي محمد أبو العزائم .ط. دار الكتاب الصوفي.

41- حالة أهل الحقيقة مع الله للإمام. العارف سيدي أحمد الرفاعي الكبير. دار

الكتب العلمية.

42- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح للعارف ابن عطاء الله السكندري ط. مكتبة تاج بطنطا.

43- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد للعارف ابن عطاء الله السكندري ط. دار جوامع الكلم بالقاهرة.

44- معارج المقربين للعارف سيدي محمد أبو العزائم .ط. دار الكتاب الصوفي بالقاهرة.

45- كتاب خمرة الحان ورنة الألحان لشيخ الإسلام الإمام عبد الغني النابلسي.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

46- السير والسلوك إلى ملك الملوك للشيخ قاسم الخاني. ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

47- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ومعه قانون التأويل لحجة الإسلام الإمام الغزالي.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

48- شرح الحكم الأكبرية للشيخ حسن بن موسى الكردي. ط. دار الكتب العلمية بيروت.

49- التنوير في إسقاط التدبير المفرد للعارف ابن عطاء الله السكندري ط. المكتبة التوفيقية. القاهرة.

50- مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة للعارف أبو العباس بن العريف.ط. دار الغرب الإسلامي.

51- فصل الخطاب فيما تنزلت به عناية الكريم الوهاب للعارف سيدي محمد الرواس الرفاعي.ط. مكتبة النجاح طرابلس. لبيا.

52- إيقاظ الهمم في شرح الحكم للعارف أحمد بن عجيبة الحسني.ط. دار جوامع الكلم بالقاهرة.

53- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.

54- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر .ط. دار صادر في أربعة مجلدات.

55- خبيئة الكون شرح الصلاة الأنموذجية، ومعها عدة شروح عليها للإمام حجة

الإسلام المحقق الأحمدي محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني ط. دار الكتب العلمية بيروت.
56- كتاب المسامع (أو الإسماعات) الربانية. لسيدنا الإمام العارف على وفا الشريف الحسني. ط. دار الكتب العلمية بيروت.
57- كتاب العروش لمولانا إمام الأئمة العارف الأكبر الشريف الحسني سيدنا محمد وفا. ط. دار الكتب العلمية بيروت.
58- الكشف والتبيان عما خفي عن الأعيان في سر آية: ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ**﴾ [الشورى:52]. للإمام حجة الإسلام المحقق الأحمدي محمد ابن الشيخ عبد الكبير الكتاني ط. دار الكتب العلمية بيروت.
59- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل لإمامنا العارف الكامل سيدي عبد الكريم الجيلي.عدة طبعات منها: دار الكتب العلمية بيروت.
60- الإبريز من كلام الوارث المحمدي سيدي عبد العزيز للإمام أحمد بن المبارك.ط. دار صادر بيروت.
61- كتاب الواردات الإلهية (أو الوصايا) لسيدنا الإمام العارف علي وفا الشريف الحسني. ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. أبناء الشيخ محمد إبراهيم سالم بالقاهرة.
62- الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلي.ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.
63- كتاب النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية للعارف محمد بهاء الدين البيطار. ط. دار الكتب العلمية بيروت.
64- البحر المسجور في الرد على من أنكر فضل الله تعالى بالمأثور ويليه سلم الارتقاء في منشأ التصوف ووجوب شيخ التربية. للإمام حجة الإسلام المحقق الأحمدي محمد ابن الشيخ عبد الكبير الكتاني ط. دار الكتب العلمية بيروت.
65- شرح جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص لشيخ الإسلام الإمام عبد الغني النابلسي.ط. دار الكتب العلمية بيروت.
66- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.
67- الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية للإمام العارف عبد الوهاب الشعراني. ط. (دارة الكرز - الدار الجودية) بالقاهرة.
68- كتاب الأزل لمولانا إمام الأئمة العارف الشريف الحسني سيدنا محمد وفا.ط.

أبناء الشيخ محمد إبراهيم سالم بالقاهرة.

69- رفع الريب عما نال المصطفى من علم الغيب صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله لإمام أهل السنة أحمد رضا خان، ط. (دارة الكرز - الدار الجودية) بالقاهرة.

70- عيون الحقائق للعارف داود بن باخلا ط. (دارة الكرز - الدار الجودية) بالقاهرة.

71- النفحات الإلهية للعارف صدر الدين القونوي. ط. دار الكتب العلمية بيروت.

72- شرح فصوص الحكم للشيخ مؤيد الدين الجندي ط. دار الكتب العلمية بيروت.

73- الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر لسيد عبد الوهاب الشعراني.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

74- الطبقات الكبري للإمام الشعراني.ط. عدة طبعات، منها: دار الكتب العلمية بيروت.

75- جامع كرامات الأولياء للعلامة المحدث الصالح الشيخ يوسف النبهاني.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

76- المقصد الأسنى شرح الأسماء الحسنى، لسيدي عبد العزيز الديريني، ط دار الحقيقة.

77- مفاتيح الغيوب في تثليث المحبوب، للشيخ الأبشيهي، ط دار الحقيقة بالقاهرة.

78- جلاء القلوب من الأصداء الغينية ببيان إحاطته صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله بالعلوم الكونية للعلامة المحدث جبل السنة محمد بن جعفر الكتاني.ط. دار الكتب العلمية بيروت.

79- التأويلات النجمية لنجم الدين كبري، ط دار الكتب العلمية.

80- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي، ط دار الكتب العلمية.

81- الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، للقرطبي، ط دار الصحابة طنطا.

82- المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، لأبي حامد الغزالي، ط دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

اسمه تعالى الشهيد سبحانه وله الحمد 3

الاعتبار 4

فصل في الشهادة بقوله ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور25] 21

فصل في الشهادة بقوله ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان30] 23

فصل ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج6] و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى12]

و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة6] إلى غير ذلك من الأسماء والصفات 24

فصل ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج6] 26

فصل في الأرواح المفارقة للأجسام بالموت باقية إلى يوم الدين وأنها

منعمة أو معذبة إلى يوم الدين 33

فصل في أن النفخ في الصور حق.. 39

فصل في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج7] 41

فصل ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج: 7] 42

فصل وأن لقاء الله حق 42

فصل وأن الفتَّانين منكر ونكير حق 44

فصل وأن كل ما أخبر رسول الله ﷺ من الغيوب بعد الموت حق............... 47

فصل وأن سيدنا محمدًا ﷺ رسول الله حق...................................... 53

فصل وأن جميع النبيين حق.. 54

فصل وأن جميع الملائكة حق 58
فصل وأن الصراط المستقيم هو صراط الله تبارك وتعالى حق 61
فصل وأن الهدى هدى الله 62
فصل وأن حكم الله هو الحكم الحق والعدل القسط 62
فصل وأن السؤال حق 64
فصل وأن الحساب حق 64
فصل وأن الملائكة الكتبة - عليهم السلام - حق 65
فصل وأن الكتب كتب الأعمال واقعة بالأيمان والشمائل حق 66
فصل وأن الصراط حق 67
فصل وأن الشفاعة حق 70
فصل وأن الميزان حق 71
فصل وأن الحوض حق 75
فصل وأن الجنة والنار حق 78
شبهة 82
فصل وأن في الدارين الجنة والنار من المزيد في النعيم المقيم والعذاب الأليم ما لا يقدر قدره ولا يبلغ وصفه حق 89
فصل وأن فريق في الجنة وفريق في السعير حق 90
فصل وأن الحشر حق 92
فصل وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة حق 94
فصل وأنه ﷻ يكلم أولياءه في الجنة والمحشر حق 102
فصل أن له صفة هي الضحك 108
الباب الجامع 113
اسمه الرقيب سبحانه وله الحمد 117
اعتبار 119

التعبد 121
اسمه الحفيظ عزّ وجل 128
اعتباره 130
اسمه الباسط واسمه القابض 131
التعبد 133
اسمه المحصي جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 134
الاعتبار 135
التعبد به 140
اسمه تعالى المحيط جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يُقال حاط بالشيء وأحاط به إحاطةً وحيطةً. 141
اعتباره 141
التعبد به 143
اسمه القادر والقدير والمقتدر جلّ جلاله وتعالى أسماؤه وصفاته 143
اعتباره 145
التعبد به 146
اسمه القوي تبارك وتعالى 147
الاعتبار 147
التعبد 153
اسمه المتين عز وجل 154
واعتباره 155
التعبد 156
اسمه القاهر والقهار جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 157
الاعتبار 158
التعبد 159

اسمه البديع المبدع 161
الاعتبار 162
التعبد 164
اسمه الخالق والخلّاق جلّ جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته 165
اعتباره 165
التعبد 167
اسمه المقدّر واسمه القاضي جل جلاله 168
الاعتبار 169
التعبد 169
اسمه البارئ جل وعز 170
اعتباره 170
التعبد 174
اسمه الفاطر تبارك وتعالى 174
الاعتبار 175
التعبد 177
اسمه الذارئ جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 178
اعتباره 179
التعبد 181
اسمه المبدئ واسمه المعيد جلت قدرته وتعالت مشيئته 183
الاعتبار 185
التعبد 188
اسمه المصور عز وجل 189
اعتباره 190
التعبد 196

اسمه الرَّزَّاق جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 197
اعتباره 197
التعبد 198
اسمه الفاتق واسمه الراتق سبحانه وله الحمد 200
اعتباره 200
اسمه الفالق عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 202
الاعتبار 203
التعبد 205
اسمه الباسط واسمه القابض جل جلاله 205
الاعتبار 205
التعبد 208
اسمه الرافع واسمه الخافض جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 211
اسمه المعزُّ واسمه المذلُّ عزّ جلاله 213
اسمه المعطي والمانع تبارك وتعالى 213
اسمه الضَّار واسمه النافع عز جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته 214
اسمه المقدم واسمه المؤخر عز وجل 215
اسمه المحيي واسمه المميت سبحانه وله الحمد 216
اسمه الهادي والمضل عز جلاله 216
الاعتبار 219
التعبد 221
اسمه المقسط عز وجل 221
الاعتبار 221
التعبد 222
اسمه الحكم سبحانه وله الحمد 222

الاعتبار 223
اسمه العدل 223
الاعتبار 224
التعبد 224
اسمه الحكيم عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 225
الاعتبار 226
شبهة 230
التعبد 232
اسمه اللطيف تبارك وتعالى جده 234
الاعتبار 236
التعبد 239
اسمه الحليم عز جلاله وتقدست أسماؤه 240
الاعتبار 244
التعبد 244
اسمه الرشيد جل جلاله 245
الاعتبار 245
التعبد 247
اسمه الرَّب تبارك وتعالى 247
الاعتبار 249
التعبد 249
اسمه البر جلّ جلاله وتعالى شأنه 250
الاعتبار 251
التعبد 251
اسمه الجوَّاد عز وجل 252

الاعتبار 252
التعبد 253
اسمه القريب جل وعز 254
الاعتبار 254
اسمه المجيب جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 255
الاعتبار 255
التعبد 261
اسمه الوْليّ والمُولّي تبارك اسمه علاؤه وجده 262
وأما مولى 263
الاعتبار 264
التعبد 268
اسمه الرَّحمن جلّ جلاله وتقدست أسماؤه 270
الاعتبار 270
التعبد 284
اسمه الرحيم عزّ وجل وتعالى علاؤه وشأنه 289
الاعتبار 289
التعبد 290
اسمه الرءوف جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 291
التعبد 296
اسمه المغيث جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 296
اسمه الكافي تبارك وتعالى 297
الاعتبار 298
اسمه الواقي تبارك اسمه وتعالى جده 298
اسمه النصير عز وجل 299

اسمه الحسيب جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه........................ 300
اسمه المقيت سبحانه وله الحمد.. 301
الاعتبار.. 301
اسمه الكفيل تبارك وتعالى... 302
اسمه الوكيل عز جلاله... 303
الاعتبار.. 303
التعبد 308
اسمه الوهاب جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه........................ 310
اعتباره 310
اسمه الودود سبحانه وله الحمد.. 311
الاعتبار.. 311
فصل.. 314
التعبد 317
اسمه الحنَّان جلت أسماؤه وتعالت صفاته 318
الاعتبار.. 318
فصل.. 320
اسمه المنَّان عز وجل 321
الاعتبار.. 322
التعبد 322
اسمه التواب سبحانه وله الحمد.. 323
الاعتبار.. 323
التعبد 324
اسمه العفو عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 325
الاعتبار.. 325

اسمه الغفور تبارك اسمه وتعالى علاؤه وجده 326
اسمه الشكور جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 329
الاعتبار 330
التعبد 330
اسمه الصبور جلّ جلاله وتقدست أسماؤه 330
الاعتبار 330
التعبد 333
اسمه المحسن جل جلاله 334
اعتباره 334
التعبد 335
اسمه المُفضِل وذو الفَضل 336
الاعتبار 336
اسمه المرسل تباركت أسماؤه وتعالت صفاته 338
الاعتبار 338
اسمه الدَّهر جل ذكره وتعالى علاؤه وجده 350
الاعتبار 352
فصل 354
فصل 355
فصل 356
فصل 357
فصل 357
فصل 358
التعبد 359
فصل في التعبد 361

اسمه ذو الطول عز وجل 363

اسمه الواسع، واسمه الجامع جلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه 363

التعبد 364

فهرس بأهم المصادر والمراجع 369

فهرس المحتويات.. 375

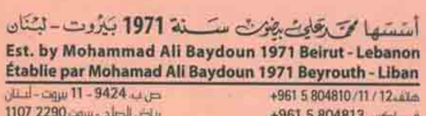
هذا الكتاب

شرح أسماء الله الحسنى

في هذا الكتاب "شرح أسماء الله الحسنى"، يعرض المؤلف الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإشبيلي المعروف بابن برّجان لأكثر من ١٣٠ اسماً، وكل واحد منها يظهر مرتبًا على ثلاثة أقسام؛ أولها: دراسة عن أصل الاسم المعني ومدلولاته المختلفة، وثانيها: تسمى اعتباره، والذي يشير لظهورها في الاستشهادات القرآنية واستخدامها في الأحاديث، وفي المقام الثالث: التعبد؛ وفيها يحاول المؤلف توضيح لهؤلاء الذين يريدون التقرب إلى الله كيف تجتاحهم سلطة أسمائه، وأن يستطيع المريد أن يكتسب الاسم المشار إليه.

ومن المؤكّد أن هذا الشرح الذي بين يديك عزيزي القارئ يعدّ من أوائل الأعمال التي كتبت عن هذا الموضوع في الأندلس من وجهة نظر صوفية. وهذا العمل الكبير في حجمه والغزير في معلوماته قد أثّر بصورة كبيرة في كل الأعمال اللاحقة عن هذا المذهب.





أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
ص.ب. 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
هاتف 12/11/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Designed & Printed by: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

ISBN 978-2-7451-6379-0